الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

حماس من الداخل

القصة غير المروية عن المقاومين والشهداء والجواسيس



زكي شهاب


منتدى إقراء الثقافي

حماس
من الداخل

القصة غير المروية عن
المقاومين والشهداء والجواسيس



يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

Inside Hamas

الذي نشرته دار I.B. TAURIS

حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من المؤلف

زكي شهاب

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

حماس من الداخل

القصة غير المروية عن المقاومين والشهداء والجواسيس

زكي شهاب



الطبعة الأولى

1429 هـ - 2008 م

ردمك 978-9953-87-316-9



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1 - 961+)
ص.ب: 5574 - 13 شوران - بيروت 2050 - 1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1 - 961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

إهـــداء

إلـى روحي الشـهيدين الرّئيس ياسـر عرفات والشّيخ أحمد ياسـين، الـذين لـم يـسـمحا بالإحـتكام إلى السـلاح وإراقة الدّم الفلسطيني لحل الخلافات، مهما كان حجمها ولأي أسـباب كانت.

وإلى الأديبة والناشـرة الراحلة مي غصوب التي وإن فقدت عيناً، لم تفقد فكراً والتزاماً بالقضايا المحقّة،

والـزميل جوزيـف سـماحة الذي نفتقده و الذي كان هو أيضاً سـبّاقاً في اعتناق الحق الفلسـطيني، والقضايا الإنسـانيّة في العالم.



المحتويات



مُقـدِّمَـة

لم تـواجه حـركة المقاومة الإسلامية - حماس منذ تأسيسها تحدياً كالذي تـواجهه مـنذ فـوزها في الانتخابات التشريعية الفلسطينية التي جرت في كانون ثـاني/ينايـر عام 2006 على حركة فتح بزعامة محمود عباس "أبو مازن". عندها، أدركـت الحركة، أو بعض قيادييها على الأقل، أن حسابات البيدر لا تنطبق على حسابات الحقل، وفقاً للمثل العربي المعروف، خصوصاً وأن الانتخابات التي قادتها إلى الحكـم، والظـروف التي تمت بها، لم تكن بعيدة عن التعقيدات التي يعيشها الفلـسطينيون، والاتفاقات التي وقعوها مع اسرئيل كنتيجة لمفاوضات أوسلو وما تـبعها، فضلاً عن المتاعب التي كانت تعيشها حركة فتح ومعها السلطة الداخلية والخارجية.

ومـع أن حماس جهدت في البداية لرفض مشاركة الآخرين لها انتصارها وتـشكيل حكومة وحدة وطنية فلسطينية، إلا أن التجاهل الدولي لفوزها جاء بـسبب رفـض الحـركة الاعتراف بالدولة العبرية، وإصرار ما يعرف باللجنة الـرباعية (الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي وروسيا والامم المتحدة) على أن الاعتـراف بإسـرائيل ونبذ الإرهاب شرطان اساسيان لبدء الحوار معها. هذا الضغط أجبر الحركة التي انتقلت من المعارضة إلى الحكم فجأة، إلى إعادة النظر في قـرارها، والـتودد إلى غريمتها حركة فتح، من اجل المشاركة في الحكومة. اعقبت ذلك مفاوضات، إذ كان محمود عباس والقيادات الفتحاوية يعتبرون أن أسـاس المشاركة في الحكومة يجب أن يستند إلى قبول واحترام كل الاتفاقات الـتي وقعتها السلطة الفلسطينية مع إسرائيل. وهو أمر وجد قادة حماس صعوبة في هـضمه قـبل أن يـتوجهوا إلى مديـنة مكة في المملكة العربية السعودية، ويتوصلوا إلى تفاهم مع فتح على حكومة وحدة وطنية برعاية الملك عبدالله بن عبد العزيز.

الفــرح الفلــسطيني بالاتفاق لم يعمر طويلا، إذ استمر الغرب وإسرائيل في رفــض الــتعامل مــع وزراء حماس في الحكومة التي شكلها اسماعيل هنية بخلاف تــشكيلته للحكومة الحماسية الاولى. وأخذ التوتر بين نشطاء التنظيمين في قطاع غــزّة بالازديــاد، حــتى باتت اخبار الخطف والاعتقال والاغتيال تتصدر وسائل الاعــلام المحلــية والعــربية والعالمية، خصوصاً بعد خطف الصحفي البريطاني ألن جونستون مراسل الــ "بي بي سي" المقيم في قطاع غزّة، على أيدي مجموعة تنتمي إلى آل دغمش التي لم تخف في بيانتها تعاطفها مع تنظيم"القاعدة". هذا الأمر اقلق كــثيرين من الفلسطينين والعرب قبل الاجانب، الذين باتوا على قناعة بأن تغلغل تنظــيم "القاعدة" في فلسطين لم يعد إلا مسألة وقت في ظل حالة الفوضى السائدة التي يقول قادة حماس في قطاع غزّة إنها لعبت دوراً أساسياً في اتخاذهم قراراً بالحسم العــسكري ضــد حركة فتح، واحتلال كل المقرات، سواءً تلك التابعة للاجهزة الامنــية أو المؤســسات العائدة للسلطة الفلسطينية. هذا القرار الذي لم تنته تبعاته وتداعــياته بعــد، أفقد حماس وجناحها العسكري المعروف بــ "كتائب عزالدين القــسام" الهالــة الرصــينة والاحتــرام الــذين طالما تمتعا بهما، لا سيما بعد أن دخلت حماس في مشاحنات وشاركت في اعتداءات لم تقتصر على مواجهات مع عناصــر الاجهزة الامنية التابعة للسلطة والتي تدين بالولاء لحركة فتح، بل دخلت ايــضاً في صــراعات مع حركة الجهاد الإسلامي والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وغيرهما.

إن مــا حصل في غزّة من انقلاب لم يترك لحماس مجال الدفاع عن نفسها، كالقــول إنها كانت تردّ على ممارسات فتحاوية سيئة، على الرغم من أن الجميع يعرف أن فتح ارتكبت ممارسات بشعة ضد حماس. لكن بشاعة الطريقة التي نفذت بها حماس انقلابها، بما في ذلك رميها لخصومها من سطوح الابنية وسط قطاع غزّة، خلصت فتح من احتمال المحاسبة، بل حولتها إلى معتدى عليها، ومظلومة وضحية.

لقد اعطى النضال الفلسطيني نوعاً من القدسية للتنظيمات المسلحة. لكن في الفتــرة الاخيرة، دخلت المحاور الاقليمية بوضوح على الموضوع الفلسطيني، حتى صار الانطباع السائد أن حركة في حجم حماس تندرج، بموجب سياستها، في اطار

المحــور الإيــراني - السوري. وما الاصعب عليها هو أنها حركة انبثقت من رحم الاخــوان المــسلمين، أي من الرحم السني الواسع، وإذا بها تصنف اليوم "حليفة للفرس والشيعة"، على حدّ قول خصومها.

ويقــرّ كثيرون بأن حماس التي حكمت غزّة صيف عام 2007، باتت أضعف من حماس التي كانت تنازع فتح على فرض السلطة على القطاع، وإن بدت أقوى في الظاهــر. إضــافة إلى أن هناك شعوراً مماثلاً موازياً، بأن فتح التي تحكم الضفة الغربية هي أضعف اليوم مما كانت عليه في السابق، وإن بدت أقوى.

إن هــذا الواقــع سبّب لفتح متاعب مع الاميركيين والإسرائيلين باعتبارهم شركاء لمحمود عباس. وفي المقابل، اعتبرت حماس أنها تستطيع أن تحكم باسم فوزها في الانــتخابات، من دون أن تقدم تنازلات سياسية. وبذلك، خطت إلى السلطة وهي تعلم أن إسرائيل لن تقبل بميثاق حماس، وستجيّش العالم لدعم موقفها. كما أن الدول العربية المعتدلة اعربت عن عدم استعدادها لمجاراة حماس في هذه المواقف، لأنه لم يعد لها علاقة بقواعد اللعبة في الشرق الأوسط.

كمــا أن الحركة، رغم كل المتاعب التي سببتها حكومتها، لم تكن مستعدة لأن تقــدم شيئاً إلى شعبها ولا إلى الطرف الآخر أو إلى الوسطاء الذين كانوا على اســتعداد لمــسايرتها في وضعها، وفي مقدمتهم، دول الاتحاد الأوروبي التي لم تكن راضية عن الحصار والمقاطعة المفروضة على الحركة. لكن عدم تجاوب حماس، الذي اعتبره بعض المراقبين من مؤشرات عدم النضج السياسي، أدى إلى اتخاذ هذه الدول موقفاً مغايراً.

لهذا، عندما اندلع النــزاع بين قوتين متنافستين على السلطة، وحصل الطلاق بينهما، اكتشف الفلسطينيون ان النــزاع كان بين ضعيفين، لأن كل واحد منهما منفرداً ليس لديه التفويض الكامل أو القدرة على الحسم وقيادة المشروع الفلسطيني لوحده. وما سبق مؤتمر أنابوليس في الولايات المتحدة من تجاذب بين فتح وحماس حــول عدم الذهاب إلى الولايات المتحدة للمشاركة في هذا المؤتمر أو مقاطعته وما تــبعه ويتــبعه من مؤتمرات ولقاءات، لم يترك أي صدى لدى المواطن الفلسطيني خــصوصاً. فإن همّ هذا المواطن لا يتجاوز حدود بحثه عن سبل تأمين قوته وقوت

عـــياله، أو عـــلاج قـــريب لـــه مـــن أي من الأمراض المستعصية العلاج داخل أســـوارالقطاع المحاصر، بعدما تحوّل أكثر من ثلاثة أرباع سكان القطاع إلى شعب يعتمد على المساعدات التي تقدمها المنظمات الدولية ومؤسسات الاغاثة.

صـــحيح أن حركة حماس لم تنجح في اغتنام الفرصة، لكن من المبالغة القول إنهـــا ارتكبت كل الأخطاء. وأياً كانت النوايا الأميركية تجاه الفلسطينيين، إلا أن كثيرين يعتقدون بأنه ما لم يصبح قيام الدولة الفلسطينية حاجة ملحة جداً للمصالح الأميركـــية في الشرق الأوسط، فلن تجرؤ ادارة أميركية على الضغط على إسرائيل لإلزامها بتقديم تنازلات.

تمهيد

في غمـــرة شـــعور عـــارم من الترقب المشوب بالتوتر، أخرجت أمتعتي من الجمـــارك الأردنـــية. صباح ذلك اليوم من شهر أيار/مايو من العام 1998، حيث كنت أستعد لعبور حدود جغرافية و...نفسيّة! هي المرة الأولى التي أقترب فيها من حدود إسرائيل، وهويتي الفلسطينية تحتم خضوعي لاستجواب مفصل.

ركبت إحدى الحافلات القديمة التي تنقل الركاب بشكل منتظم بين الجانب الأردني مـــن الحـــدود ونقطة التفتيش الإسرائيلية. بدأت مسيرة اجتيازنا للمنطقة العازلة، أي جسر الملك حسين. إنه ممرّ ضيّق يفصل الأردن عن الحدود الإسرائيلية. راح نظري يجول على الركاب من حولي. غالبيتهم مثلي، فلسطينيون.

تناوب الجنود الإسرائيليون اليافعون على سؤالي عن الغاية من رحلتي. كانت الاستخبارات الإسرائيلية تشرف على سيل الأسئلة التي انهمرت عليّ بينما خضعت للتفتيش: من سأقابل؟ هل أحمل أيّة أسلحة؟ أين ولدت؟... ولدت في صور، على بعد بضعة أميال من الحدود الإسرائيلية مع جنوب لبنان...

طـــال الاستجواب، فتنبّهت إلى الواقع: أنا الواقف هنا، على أرض أجدادي، كنت أنا الغريب!

ســـاور الجنود الشك والريبة، فطلبوا مني الانتظار في قاعة الاستجواب فيما انـــتقلوا إلى قاعة مجاورة للتشاور في ما بينهم. لا شيء في تصرفهم يشير إلى نجاح اتفاقـــات أوسلو التي تمّ التفاوض عليها طيلة السنوات الماضية والتي ترافق توقيعها وإشـــادات مـــتفائلة جداً بنهاية عقود من إراقة الدماء والحقد والحروب. أخيراً، حـــصلت على الإذن بالدخول إلى إسرائيل. لم يكن الفضل في ذلك إلى جذوري الفلسطينية بل لجواز سفري البريطاني!

ما إن وصلت إلى الجانب الإسرائيلي من الحدود، حتى راحت تراودني أسئلة كثيرة عمّا تحضنه تلك الهضاب الصخرية من أسرار تزخر بها هذه الأرض الجميلة،

المسكونة بالتوتر. توجّهت إلى مدينة القدس، فصارت تتراءى أمام عينيّ ملامح القصص التي طالما كرّرها والداي وجدّاي على مسامعي، وقد حملوها معهم من أرض الوطن البعيد القريب. شيئاً فشيئاً، فارقني ذاك الشعور بالغربة عندما بدأت تطالعني، عبر النافذة، مناظر لم أعهدها سوى مجرد صور في خيالي.

ما وراء المساحات الشاسعة التي استوطنت ذاكرة والديّ، كانت تقبع مستوطنات أخرى... يهوديّة. صفوف متراصة من المنازل البيضاء المكّللة بالقرميد الأحمر، المنتشرة كالطفيليات على التلال، محدثةً تشويهاً ألحقته يد الإنسان بالمنظر الطبيعي.

انتابني شعور غامر: لم أكن أصدّق أنني وصلت! أخيراً، وصلت إلى القدس!

قرّرت النزول في فندق "أميريكان كولوني" لوجوده في القدس الشرقية، أي في الجانب الفلسطيني من المدينة. وكان زملائي قد نصحوني باختيار هذا المكان الحائز على رضى قاصديه من المراسلين الأجانب، تجنباً لإحساس محتمل بعدم الانتماء في المدينة المقدسة. انطلقت فوراً في جولة في القدس مع محمد سلهب، وهو صديق كان يسكن في حيّ مجاور لي في غرب لندن، وكان يقيم داخل أسوار المدينة القديمة ويملك متجراً لبيع التحف، على مقربة من المسجد الأقصى. هذا المسجد الذي أدرجته على رأس القائمة التي أعددتها بالأماكن الواجب عليّ زيارتها، يعتبر ثالث الأماكن المقدّسة بالنسبة للمسلمين في كافة أرجاء العالم. تنزوي قبته المتواضعة ذات اللونين الفضي والأسود وراء القبّة الذهبية التي يزدان بها مسجد "عمر"، المهيمن على المشهد، في مدينة القدس القديمة.

خرجنا نستكشف الأزقة الضيقة وما تحويه من متاجر صغيرة مكتظة بالبهارات والتحف النحاسية والفضية والخشبية القديمة. كان الفلسطينيون الرافلون بجلابياتهم التقليدية وبكوفيّاتهم المنمّقة بمربعات بيضاء وسوداء كما في لعبة شطرنج، يتحدثون إلى السيّاح المزودين بكتيّبات ودلائل، واليهود الأرثوذكس الذين يعتمرون قبعات سوداء مميزة ويلتحفون المعاطف الطويلة. تملّكني مجدداً شعور دفين بأنني رأيت كل ذلك من قبل: إن تلك المشاهد ذكرتني بكل ما طال وصفه لي من قبل أصدقاء، لسنوات بعيدة خلت، أثناء طفولتي في لبنان.

كـــان يوم جمعة، يوم العطلة لدى المسلمين. تحدّى الآلاف من الفلسطينيين، شـــباباً وشـــيوخاً، رجالاً ونساءً، الإجراءات الإسرائيلية التي تمنعهم من الصلاة في المـــسجد الأقـــصى. خـــلال تجوالنا في الأزقة المزدحمة بالناس، أثار محمد دهشتي وفضولي بجمعه كل صحيفة نظيفة أو قطعة من الكرتون يجدها على الأرض. لدى اقترابنا من البوابة المؤدية إلى ساحة المسجد، هالني حجم الوجود الإسرائيلي: كان الجـــنود ورجال الشرطة يتحققون من هوية كل شخص يدخل إلى المكان. في هذه اللحظـــة، أدركت سبب جمع محمد لتلك الأوراق. فقد فرشها على أرض الساحة كـــبديل عن سجادة الصلاة. كان الآلاف مثلنا سيصلون في الخارج لأن كل شبر من قاعة الصلاة في المسجد كساه المصلون. أعادتني أفكاري إلى والديّ اللذين طالما حلما بالصلاة في هذا المكان بالذات، حيث كنت جالساً. كان توقهما لأداء هكذا صـــلاة شديداً للغاية، ما جعلهما يعلقان على جدار منـــزلنا في مخيم برج الشمالي في لبـــنان، مجسماً ثلاثي الأبعاد لمبنى المسجد الأقصى وقبته-الرمز. لم يُسمح لهما بـــزيارة هـــذه البلاد منذ نـــزوحهما في العام 1948. شرح لي محمد، المتزوج من سيدة بريطانية، وغير الملتزم بممارسة شعائر الدين الإسلامي، الشعور العميق الذي يراوده والكثيرين مثله من الفلسطينيين، ويدفعهم للمجيء إلى هنا كل يوم جمعة. إنها طريقتهم في الإعلان على الملأ، على الأقل مرّة في الأسبوع، بأن القدس لهم أيضاً، وأنه لا يمكن للإسرائيليين تجاهلهم.

اســـتغرقت زيـــارتي الأولى للأرض المقدسة شهراً واحداً. لم تكن مجرد زيارة شخـــصية، لأنني عهدت تغطية فصول القضية الفلسطينية ومآثر قادها حول العالم مـــنذ عقود. بعد التوقيع على اتفاقات أوسلو في العام 1993، عاد هؤلاء القادة إلى بلادهـــم، وكانـــوا يحاولون بناء دولتهم. طيلة سنوات، بعد عودته من المنفى في تونس، دأب الزعيم الفلسطيني ياسر عرفات على تشجيعي لزيارته في مقرّه في رام الله وغـــزّة. كـــذلك فعـــل كلٌّ من الزعيم الروحي لحماس، الشيخ احمد ياسين، والدكـــتور عـــبد العزيز الرنتيسي، أحد قادة حماس النافذين، في سياق المقابلات الهاتفية التي كنت أجريتها معهما من لندن. رغبت أيضاً في رؤية الرئيس الفلسطيني محمـــود عباس الذي كان آنذاك يترأس الوفد الفلسطينيّ المفاوض مع إسرائيل. بذل

محمود عباس قصارى جهده لإقناعي بزيارة مسقط رأس والديّ في "الجليل". لكنني لم أذعن لمحاولاته إذ كان من الصعب عليّ القيام بتلك الرحلة ما لم يتم التوصل إلى اتفاق سلام عادل.

بعد وصولي إلى القدس بوقت قصير، دعاني عرفات لتناول طعام الغداء في مقرّه في رام الله، الذي كانت تتخذه سلطة الانتداب البريطانية مركزاً لها، قبل أن يتحوّل لاحقاً إلى مقرّ للإدارة المدنية الإسرائيلية في الضفة الغربية، ثم استقرّ فيه عرفات، فرتب مكتبه على الطراز نفسه الذي اعتمده في كافة مقرّاته السابقة في المنفى: ملصق للمسجد الأقصى خلف طاولة مكتبه حيث تتكدس أكوام من الأوراق والفاكسات، وطاولة ضخمة تستقبل عند كل وجبة طعام عدداً من المستشارين وملتمسي الطلبات والزوار. لن أنسى أبداً تعبير الفرح الذي ارتسم على وجه عرفات عندما قبلني وعانقني بحرارة ورحّب بي قائلاً: أهلاً بك في فلسطين".

بعد الغداء، جلسنا وتحدثنا على انفراد. كان على وشك المغادرة إلى المملكة العربية السعودية لمقابلة الملك الراحل فهد بن عبد العزيز، وطلب مني الانتظار في غزّة إلى حين عودته بعد ثمانٍ وأربعين ساعة. أتيح لي في قطاع غزّة، وعن قرب، رؤية حشود النساء الفلسطينيات اللواتي يتجمّعن في محاذاة مكتبه المطلّ على شاطئ غزّة، لطلب العون الماديّ أو أي نوع آخر من المساعدة. كان عرفات أشبه بالطفل في تعبيره عن حماسته بشأن كلّ ما مصدره من غزّة. هو الذي ولد ونشأ في غزّة، كان كلما يدعوني إلى تناول الغداء أو العشاء على مائدته يقول لي مثلاً: أليس سمك غزّة أفضل ما تذوقته في حياتك؟

إلتقيت أيضاً، وجهاً لوجه، بالشيخ احمد ياسين وبالدكتور عبد العزيز الرنتيسي. كان الرنتيسي الشخصية الأكثر نفوذاً في حركة حماس في ذلك الوقت، واحتلّ المكانة الثانية على مستوى القيادة بعد الشيخ ياسين. عندما كانت تسنح لي فرصة مكالمتهما عبر الهاتف، كانا يتحفظان في أجوبتهما، أما الآن، هنا، في منزليهما، وأنا أبادلهما الحديث عن مشاريعهما وأهدافهما، سمحا لنفسيهما بالمزيد من صراحة الكلام، وقدّما لي شرحاً مسهباً عن المنظمة السياسية السريّة التي يسعيان لإنشائها.

بعد مضي شهر على وجودي في الضفة الغربية وغزّة وإسرائيل، قفلت عائداً إلى لبـــنان. نجحت خلال يوم واحد، في السفر عبر ثلاث دول، منتقلاً من القدس إلى الأردن عـــبر جسر "اللنبي"، ثم بالطائرة من عمّان إلى بيروت، بعد ظهر اليوم نفسه. خلال تلك الرحلة التي أقلتني إلى العاصمة اللبنانية، فكرت كيف أن الرحلة بالاتجاه المعاكس كانت لتمثل الحلم الأغلى على قلب والدتي فاطمة، والدتي التي لا تـــزال تعيش اليوم في مخيم اللاجئين في جنوب لبنان، والذي اضطرت للانتقال إليه بعـــد هروبها من قريتها في الجليل. كان الترحيب الذي لقيته لدى عودتي إلى مخيم بـــرج الـــشمالي حـــيث نشأت، صاخباً. الساعة تقارب منتصف الليل، ووالداي عاجـــزان عـــن التصديق بأنني بجوارهما. لقد شاهداني في اليوم نفسه أقدم تقريراً مباشـــراً علـــى الهـــواء من قطاع غزّة. ما كدت أخبرها بأنني صليت في المسجد الأقـــصى في القـــدس، حـــتى استسلمت أمي للبكاء. إنهمرت دموعها غزيرةً، لا تتـــصدى لها رغبة أو إرادة. إن أمنيتها بالصلاة هناك قبل أن تلاقي وجه ربها، لم تعرف بعد سبيلاً لها من الحلم إلى الحقيقة.

إستلقيت على سريري تلك الليلة، وراح شريط الرحلة يمرّ في مخيّلتي وتذكرت التجارب التي اختبرتها خلالها. فقد رأيت، بأمّ العين، كيف يعيش الفلسطينيون في المخـــيّمات في الأراضـــي المحتلة، وأيقنت أنهم مصممون ومستعدون لتحمل شتى المشقات من أجل استرجاع هويتهم والعيش بكرامة، تماماً كما يفكر هؤلاء الذين يعيشون في مخيم اللاجئين حيث عائلتي في لبنان.

كانـــت تلك زيارتي الأولى إلى فلسطين، عدت بعدها مراراً إلى هناك. أولاً، لتغطـــية وقائـــع الـــوفاة الغامضة لياسر عرفات، ثم اغتيال كلٍّ من الشيخ ياسين والرنتيسي. تساءلت يومها، كما لا أزال أفعل الآن، كم من الدماء ينبغي أن تُهرق بعـــد، للـــتأثير علـــى صانعي القرار وحثهم على القيام بالخطوات الصعبة، ولكن الممهدة لإحقاق السلام والعدالة للفلسطينيين، والسلام والأمن للإسرائيليين.



النصر المنسق

المكـــان: على بعد مبانٍ عدّة من البيت الابيض، في مبنى هاري س. ترومان التابع لوزارة الخارجية.

الزمان: يوم سبت، خارج ساعات دوام العمل العادية[1].

عقــدت وزيـــرة الخارجية الأميركية كوندوليزا رايس وفريق عملها اجتماعاً اســـتثنائياً. على جدول الاعمال، الانتصار الساحق لحماس في الانتخابات الوطنية الفلـــسطينية. كـــيف يعقـــل أنّ أحداً لم يتوقع حصول ذلك؟ سألت رايس، ثم استرسلت في الإجابة على سؤالها: هذا يعني أننا لم نكن مطلعين بشكل وافٍ على مـــسار الأمور. بادر أحد مساعديها إلى القول إن هذه النتيجة هي انعكاس مباشر لعمـــق الانقسامات القائمة بين الفلسطينيين والإسرائيليين، على الرغم من الدعم والتـــشجيع الـــذي يلقاه الطرفان من المجتمع الدولي لوضع حدٍّ لخصومتهما المريرة والمديـــدة. حـــركة فـــتح المستأثرة بالسلطة والخاضعة لسيطرة ياسر عرفات منذ الستينيات، كانت قد بدأت مفاوضات سلام مع إسرائيل منذ أكثر من عقد، لكن الفلـــسطينيين تخلوا عنها، وأدلوا بأصواقم لصالح حركة حماس، التي تجيز استخدام العنف وترفض الاعتراف بإسرائيل. كان التصويت تعبيراً واضحاً، بل صارخاً، عن رأي الفلـــسطينيين بقادقم السياسيين التقليديين. أضافت رايس: لا أعرف أحداً لم يؤخذ على حين غرّة من أداء حماس القوي[2].

في الـــيوم التالي، انتقلت رايس إلى لندن للمشاركة في مؤتمر عقد على مدى يـــومين، حضرته وفود من سبعين دولة، لمناقشة الوضع في أفغانستان والنـــزاع في الـــشرق الأوســـط والتوتر المتفاقم مع إيران. وفي ما يمثل دليلاً إضافياً على فشل أميركا في البقاء على إطلاعٍ تام على واقع الأمور، نقل عن رايس تعليقها: "يقول البعض إن حماس نفسها تفاجأت من أدائها الجيّد جدّاً"[3].

لكن الحقيقة أن حماس لم تفاجأ. لقد ذهل كثيرون من المعلقين الفلسطينيين مما أظهرته رايس وغيرها من المسؤولين الأميركيين، من جهل لعمق العداء الذي يكنه الفلسطينيون لقيادهم ولإسرائيل. فالفضل في نجاح حماس يمكن ان يُنسب، في جزء منه، إلى استراتيجية الخداع المنسّقة بمهارة التي اعتمدها حماس.

اليوم الذي جرت فيه الانتخابات الفلسطينية في 25 كانون الثاني/يناير من العام 2006، شهد مشاركة 1073000 فلسطيني في الاقتراع[4]، إلتقيت خلاله الدكتور محمود الزهار، أحد قادة حماس المرموقين. هو طبيب عين لاحقاً وزيراً للخارجية في أول حكومة تشكلها حركة حماس بقيادة اسماعيل هنية. خلال احتسائنا الشاي في منزله في وسط مدينة غزّة، إبتسم لي "أبو خالد"، كما يُلقب، وأخبرني بأن حماس قد استعدّت بشكل جيّد لهذه الصدمة المزعومة.

خلال الأشهر الستة التي سبقت موعد الانتخابات، عمل الموالون للحركة مع قاعدهم الناشطة، على إبقاء الجميع، بمن فيهم مؤيّدي فتح وحماس، على غير علم بالفوز المخطط له. وكشف لي الزهار كيف تلقى الناخبون من عناصر الحركة وأنصارها تعليمات بأن يتفادوا الإجابة، إذا استطاعوا، في حال سُئلوا عن مرشحهم المفضل. ولكن إذا أحرجوا بسؤال حثيث وملحّ، فليعطوا جواباً مضللاً. هذا الأداء أوقع مستطلعي الرأي، قبل أشهر من الانتخابات، في فخ التكهن بأن فتح ستتولى مرّة جديدة تشكيل الحكومة المقبلة.

ومثلما فوجىء رايس ونشطاء فتح، سبق لرئيس لرئيس هيئة الأركان في الجيش الإسرائيلي، الجنرال دان حالوتس، ان أسرّ عشية الانتخابات، إلى لجنة الخارجية والأمن في الكنيست، بأنه يتوقع فوز حركة فتح، لكن بغالبية ضئيلة. كان توقعه مرتكزاً على "حكماء الاستخبارات الإسرائيلية"[5]، في إشارة إلى وحدة الاستخبارات العسكرية الخاصة، "أمان" التي، من بين مهامها، بالإضافة إلى قضايا أساسية أخرى، إصدار تقديرات وتوقعات استخباراتية لحساب رئيس الوزراء وحكومته.

شكل هذا الفشل في توقع نتيجة الانتخابات إحراجاً هائلاً لوكالات الاستخبارات كافة. وورد في افتتاحية صحيفة "يديعوت احرونوت" السؤال التالي:

إن كانوا لا يعرفون ماذا يحصل في الأراضي الفلسطينية، كيف سنعتمد عليهم لمعرفة ماذا يجري في إيران؟

في سياق سعيها لإيجاد كبش محرقة، ألبست الاستخبارات التهمة للدكتور خليل الشقاقي، وهو عالم اجتماع وأخصائي في استطلاعات الرأي، زاعمة أنه ضللها بشكل فاضح. واعتبرت أن الاستفتاء الذي تولاه المركز الفلسطيني للسياسة والابحاث[6] لم يودِّ فقط إلى تضليل وكالات الاستخبارات والحكومة، بل إن صانعي القرار ومراكز الدراسات في كل أنحاء العالم قد أخذوا على محمل الجدّ الآراء الصادرة عن المركز الذي يديره الشقاقي، نظراً إلى سمعة الأخير كمحلل سياسي فلسطيني مرموق ومحترم. على الرغم من كونه شقيق فتحي الشقاقي، مؤسس حركة الجهاد الإسلامي، إلا أنه لم يكن يشاركه آراءه المتطرفة. يحمل خليل الشهادات العالية من الجامعة الأميركية في بيروت ومن جامعة كولومبيا. وقد عمد في العقد الأخير إلى تنسيق أبحاثه مع منظمات متعدّدة مثل المعهد الملكي للشؤون الدولية في لندن، ومعهد "هاري س. ترومان" لنشر السلام في الجامعة العبرية في أورشليم القدس. في نهاية المطاف، تبيّن أن وكالات الاستخبارات الإسرائيلية اعتمدت على المعلومات المستقاة من الإنترنت كقاعدة بيانات رئيسية لبناء تحاليلها المتعلقة بالانتخابات.

بعد يوم أمضيته في إجراء مقابلات صحافية مع المرشحين والناخبين المتوجهين إلى مراكز الاقتراع، عدت إلى الفندق عبر الطرقات المهجورة التي أضاءها لهيب الإطارات المحترقة. في البعيد، علت أصوات أبواق السيارات يطلقها المؤيدون لحركتي فتح وحماس وممن ينتمون إلى جناحيهما العسكريين. كان الجميع قد استبق إعلان النتائج وباشر الاحتفال بفوز اعتبره محتماً.

في غرفتي في فندق فلسطين الدولي المطلّ على مرفأ مدينة غزّة، تابعت، عبر شاشة التلفزيون، التحليلات التي أعقبت الانتخابات. وفي وقت متأخر من تلك الليلة، ظهر الشقاقي عبر محطة الجزيرة في مقابلة مباشرة من رام الله. سُئل بشكل فظ: كيف أخطأت؟ بدا الشقاقي محرجاً ومتردداً، ووجد صعوبة في تبرير فشل إحصاءاته في تقدير نوايا جمهور الناخبين في الاشهر التي سبقت الانتخابات، من

خلال استطلاع نشر في كانون الأول/ديسمبر 2005، وتحدث عن زيادة حظوظ فتح، موضحاً أن "التحسن في شعبية فتح في قطاع غزّة في الاشهر الثلاثة الماضية جاء نتيجة ترحيب الناس بالانسحاب الإسرائيلي من قطاع غزّة قبل شهر واحد".

في ذلك الوقت، كان الاستطلاع توقع حصول فتح على 50% من الاصوات، مقابل 30% لحماس، فيما تؤول 9% إلى المرشحين الآخرين ويبقى 9% من الناخبين مترددين. وكان استطلاع سابق نشره المركز في 25 أيلول/سبتمبر من العام 2005، توقع بأن يصوّت 47% من الناخبين لصالح فتح، و32% لصالح حماس، و11% للمرشحين الآخرين، وأن يبقى 12% مترددين. وقدّر الاستطلاع هامش الخطأ بنسبة 3%). كان الشقاقي توقع أن تخسر فتح نحو 10% من الاصوات إذا فشلت في اختيار المرشحين المناسبين في بعض الدوائر الانتخابية، لكن في يوم الانتخابات، فازت حماس بأكثر من نصف المقاعد، في حين حصلت فتح، رغم إمساكها بزمام السلطة آنذاك، على الثلث فقط. وجاءت النتيجة النهائية على الشكل التالي: حصدت حماس 74 مقعداً من أصل 132 مقعداً في المجلس التشريعي الفلسطيني، مقابل 45 مقعداً لفتح.

قبل تسعة أشهر، وإثر جولة من المحادثات استمرت ثلاثة أيام في القاهرة، حضرها وفود من ثلاثة عشر فصيلاً فلسطينياً، أعلن ممثلو حماس عن نيّتهم المشاركة في العملية الانتخابية المقبلة، بعدما كانوا قد قاطعوا انتخابات العام 1996 احتجاجاً على اتفاقية أوسلو التي وقعتها منظمة التحرير الفلسطينية مع الحكومة الإسرائيلية. فسّرت المجموعات الأساسية المسيطرة، كفتح مثلاً، هذا التغيير في موقف حماس على أنه إقرار بالامر الواقع الذي تمثله اتفاقيات أوسلو، وتراجع عن رفضها حق إسرائيل في الوجود.

بعد عودتهم إلى القاهرة من غزّة، تولى قادة حماس تعيين فريق لادارة الحملة الانتخابية، مؤلف من خبراء في مجالات الاتصالات وعلم الاجتماع والسياسة والاقتصاد. كلف أعضاء هذا الفريق الإمساك بزمام الأمور في كل المجالات الحيوية داخل المجتمع الفلسطيني، واتخذوا من الجامعة الإسلامية في غزّة حجر الزاوية لاستراتيجيتهم الانتخابية. تمثلت أولى مهامهم بتقسيم الناخبين إلى ثلاث فئات:

المــؤيدون والمتـــرددون والمنافسون. حظي المترددون بأقصى درجة من الانتباه لأن واضعي الاستراتيجية التابعين لحماس اعتبروا أن غالبية الناخبين تقع في هذه الخانة. لم تكن خطتهم تقضي باقناعهم ألقبول بسياسات حماس بل إبراز مساوىء سياسة منافسيهم. من خلال استغلال تاريخ فتح في سوء الإدارة والحكم والفساد والفشل في تحقـــيق أيّ تقدّم فعلي في المفاوضات مع إسرائيل، استطاعوا إقناع العدد الكافي من المترددين بالتصويت لصالح مرشح حماس. ومن الفئات التي عمل الناشطون في حمـــاس بجهد لاستدراجها أيضاً فئة الشباب. ولهذه الغاية، إستخدموا مجدداً سجل حكـــومة فتح في شقه المتعلق بالبطالة المتفاقمة والوضع الاقتصادي السيىء والفساد والحاجـــة إلى الـــشفافية في الحكم، من أجل إقناع هذه الشريحة بالتصويت لصالح التغيير. الناخبات المترددات كنّ الاكثر تأثراً بوسائل عمل حماس، بما أن قطاع غزّة كان يشهد عمليات خطف وأعمال عنف تهدد سلامتهن.

وفي سعيها لاختيار شعار للائحتها الانتخابية، حرصت حماس على تجنب ما قد يـــشير إلى جدول أعمالها العسكري، فاكتفت بشعار متفائل وجامع: "من أجل التغيير والإصـــلاح". هكـــذا صـــوّرت حمـــاس نفسها على أنها الصوت المعبِّر عن القلق الاجتماعي، وأعلنت أنها ستدخل تغييرات جذرية على حياة الناس. وفي سياق عملها علـــى اســـتمالة أصـــوات الفلسطينيين، امتنعت الحركة أيضاً عن إبداء أية إشارة إلى طمـــوحاتها بـــتدمير إسرائيل، كما عن التلميح إلى أيِّ تقارب مدروس معها. وأعلن المرشح الثاني للمجموعة، الشيخ محمد أبو طير، في مقابلة أجريت معه خارج المسجد الأقـــصى في القدس: "لن نستبعد إمكانيّة أيّ مفاوضات مع الدولة العبرية". وأضاف قائلاً: "تستطيع إسرائيل والدولة الفلسطينية المستقبلية العيش معاً جنباً إلى جنب. على الأقـــل لمـــدة جيل أو جيلين". ذكّرني هذا الكلام بما أخبرني إياه، قبل عشر سنوات، الـــشيخ احمد ياسين، بحضور اسماعيل هنية، عن استعداد حركته للتفاوض على هدنة طـــويلة الأمد مع إسرائيل. لكن الزعيم الروحي لحماس كان يشعر باستحالة المحافظة علـــى هكذا هدنة، ففضّل ترك معالجة هذه المعضلة للأجيال المقبلة، بعد زوال مجموعة المقـــاتلين والسياسيين القدامى، وحلول دم جديد مكانهم. وأردف قائلاً، مع ابتسامة ذات مغزى، إن حدسه ينبئه بأن الدولة العبرية لن تكون موجودة بعد ثلاثة عقود.

يـــوم الانتخابات، لم تفوّت حماس أيّة فرصة لاقناع الناخبين المترددين بوضع علامة قرب إسم مرشح حماس. لقد قصد أعضاؤها ومناصروها المساجد والمعارف العائلية والجيران والمدارس وأماكن العمل. وعلى الجبهة الاعلامية، كان المتحدثون باســـم حماس، على أهبة الاستعداد دائماً لتلبية طلبات الصحافيين الراغبين باجراء المقـــابلات وتأمين المعلومات لهم أو مرافقتهم في جولة انتخابية. جرى التعامل مع تلـــك الطلـــبات وفقاً لأولوية تحددها أهمية المحطة التلفزيونية أو الصحيفة، ونسبة مـــشاهديها أو قـــرّائها. في حال الإعداد لمناظرة تلفزيونية أو إذاعية بين مرشحي حمـــاس ومنافـــسيهم، كان المسؤولون في حماس يتدبرون بذكاء أمر التفاوض مع المخرجين كي يحظوا بالكلمة الأولى و...الأخيرة!

أمـــا حجم الأموال التي إستثمرتها حماس لتحقيق الفوز، فلم يتم تحديده بعد. لكـــن منافسيها في حركة فتح قالوا إن الأرقام تتراوح بين 22 و30 مليون دولار أميركي، فيما اقتصر الرقم الرسمي الذي حصلت عليه من اللجنة الانتخابية على 3 ملايين.

شـــارك في التجمعات التي أقامتها حركة حماس في مدينة غزّة عشرات آلاف الأشخاص. كانت تعلمهم بعقد هذه النشاطات جداول توزّع مسبقاً في المساجد والمكتبات والمدارس والجامعات، إضافة إلى المعلومات التي تبث عبر الاذاعات المحلية والانترنت التي تحولت بين أيدي حماس إلى أكثر وسائل الاتصال فعالية. لكن كل تلك التجمعات اتسمت بالسلمية والهدوء.

يـــوم الانـــتخابات، إنتشر رجال الشرطة لتنظيم السير ولضبط الحشود. وتم توزيـــع السندويـــشات والمشروبات الباردة على كل العاملين في إطار حملة حماس الانتخابية لضمان فعالية أدائهم طيلة ذاك اليوم. كانت عملية احتساب الاصوات لا تـــزال متواصـــلة في الساعات الاولى من صباح اليوم التالي عندما اتصلت بمكتب الدائـــرة الانتخابية لنجم فتح الصاعد محمد دحلان، مستفسراً عن النتائج. أبلغني أحـــد مـــساعديه بأنه يعقد اجتماعاً في دائرة خان يونس الانتخابية واقترح عليّ الذهاب إلى هناك. حين وصلت إلى ثاني أكبر مدن غزّة، طالعتني قوافل السيارات والـــشاحنات والحـــافلات المتقاطرة من رفح القريبة كما من مختلف أطراف مدينة

خان يونس، قاصدة مركز الاحتفال بنصر فتح في معقل الحركة. لا بدّ أن الوافدين استندوا إلى التوقعات الأولية للنتائج التي نشرها مستطلعو الرأي بمن فيهم الشقاقي، واقتبستها عنهم محطات التلفزة كالجزيرة والعربية وغيرها من شبكات التلفزة الاجنبية. كان دحلان في لباس عادي، يتابع الاخبار ويجيب على الكمّ الهائل من اتصالات التهنئة الواردة إليه من كل أنحاء الأراضي الفلسطينية. حاول بكل هدوء أن يلجم حماسة محدثيه الزائدة، وطلب منهم التحلي بالصبر وبانتظار النتائج الرسمية. ثم قرّر القيام بجولة في السيارة عبر شوارع خان يونس لكي يستطلع بنفسه جوّ الناخبين، وطلب مني مرافقته. تعرّف المارّة إلى موكبه، فراح يردّ عليهم التحية فيما نحن متوجهون إلى مستشفى الأمل حيث أقام مكتباً لفريق حملته الانتخابية. دحلان هو السياسي الوحيد من بين من قابلتهم خلال تلك الانتخابات الذي رفض الاستناد إلى الاستفتاءات المستقلة. كان دائم التشكيك في دقة استفتاءات الرأي، مفضلاً الاعتماد على الابحاث التي يقوم بها أعضاء فريقه الانتخابي. كان هؤلاء منكبين، كلٌ على حدى، على تحليل توجهات الناخبين. لقد وجد مساعدوه صورة مناقضة لتلك التي كانت تقدمها استطلاعات الرأي. كما بدأ يتلقى أنباء مقلقة تفيد بأن عدداً كبيراً من رجال الشرطة الفلسطينية وعناصر الاجهزة الامنية قد صوّت لصالح حماس. وأفادت توقعات مستشاريه بأن نحو 40% من هؤلاء الموظفين الحكوميين التابعين للسلطة الفلسطينية قد صوّتوا لحماس، ما أدى إلى تغيير النتائج بشكل دراماتيكي لصالح منافسيه. أدرك دحلان أن حظوظ حركته بالفوز باتت تتضاءل، فبادر إلى دعوة المتصلين به إلى إفساح المجال أمام انتقال سلميّ للسلطة في حال فوز حماس في الانتخابات. وعلى الرغم من خسارة حركة فتح في الانتخابات، إستطاع دحلان، إضافة إلى مرشح آخر من فتح هو سفيان الآغا، أن يضمن فوزه بمقعد، إذ حصل على أكبر عدد من الاصوات في دائرته الانتخابية بلغ 38349 صوتاً، متقدماً بذلك على منافسه يونس الاسطل ألذي نال 37695 صوتاً[7].

عوامل اخرى ساهمت بفشل فتح، في مقدّمها غياب عدد كبير من مرشحيها الذين لم يتمكنوا من إيجاد مكان لهم على لائحتها الانتخابية، فاضطروا إلى الترشح

بـــشكل مـــستقل. بالـــتالي، خسرت فتح كمّاً بالغاً من الأصوات غنمها هؤلاء المـــستقلون، فيما شكلت الأرقام العالية التي حققتها حماس في مدن مثل غزّة ورام الله، وحـــتى في مدينة بيت لحم المسيحية بتاريخها وناسها، تصويتاً احتجاجياً ضد فتح، أكثر منه تصويتاً تضامنياً مع حماس.

أســـفر اعتـــراف الـــسلطة الفلسطينية بالدولة الإسرائيلية عن تحسين لصورة الفلـــسطينيين على الساحة الدولية، من دون أن تطال مفاعيل التحسين نوعية حياة العائلات في الضفة الغربية وغزّة. بل على العكس، إذ باتت ظروف العيش أسوأ مما كانت عليه قبل العام 1993 عندما انسحب الجيش الإسرائيلي من المدن الفلسطينية وبدأت ترتسم معالم ما كان يجب أن يكون حكماً فلسطينياً ذاتياً. خلال الاجتماع الاســـبوعي للحكومة الإسرائيلية المنعقد يوم الاحد 29 كانون الثاني/يناير من العام 2006 في أعقاب الانتخابات الفلسطينية، أصدرت الحكومة البيان الآتي:

"قـــال رئيس الحكومة بالوكالة (في ذلك الحين، إيهود) أولمرت: حالما أعلنت نتـــيجة انتخابات السلطة الفلسطينية، إستشرت عدداً من الأشخاص بهدف تحليل الوضع الجديد الذي طرأ. إثر تلك المشاورات، أعلنا أن دولة إسرائيل لن تتفاوض مع أيّة إدارة فلسطينية تتألف ولو جزئياً من منظمة إرهابية مسلحة تدعو إلى تدمير الدولـــة الإسرائيلية. هذا الموقف حظي بالاعجاب في إسرائيل وفي أنحاء العالم على حـــدّ علمنا، كما حظي بالموافقة الشاملة وبتفهم جميع الاطراف الدولية تقريباً. في الـــوقت نفسه، أعلنا أن إسرائيل ستواصل مكافحة الإرهاب في كل مكان وزمان؛ ليست لدينا النيّة للقيام بأيّ تنازلات في هذه المسائل".

كـــان إيهود أولمرت قد تسلم زمام السلطة فيما رقد آرييل شارون في غيبوبة في مستـــشفى في القدس، إثر جلطة دماغية ألّمت به بعد شهرين على تركه حزب "الليـــكود" المتـــشدد لتشكيل حزبه الخاص ألذي أطلق عليه إسم "كاديما"، وهي كلمة عبرية تعني "إلى الأمام". كان أولمرت يطمح للفوز في الانتخابات الإسرائيلية في الـــشهر الـــتالي، بحـــشده تأيـــيد كافة أعضاء حزب "كاديما"، إضافة إلى كل الشخصيات التي غادرت صفوف حزبي "الليكود" والعمل لتنضم إلى حزب شارون الجديـــد. كان على أولمرت أن يتصرف بحذر ودقة بعد وصول حماس إلى السلطة،

وأن يوفـــق بين مقاربة شارون الجديدة ذات المنحى الوسطي، ومواصلة التشدد في رفض التعامل مع حكومة حماس الملتزمة تدمير إسرائيل، علماً أن نهج الحزب الجديد الـــذي انـــشأه شـــارون المتشدّد إرتكز على فكرة محورية: أمن إسرائيل لا توفره المفاوضات المتواصلة والعقيمة مع الفلسطينيين، بل عملية فك الارتباط معهم كليّاً، وفقاً لشروط تل أبيب.

فوز حماس كان له وقع كبير على الحملات الانتخابية الإسرائيلية، بحيث قام سياســـيو المعارضـــة بصبّ جام انتقاداهم على الحكومة، لفشلها في منع وصول الحـــركة الإسلامية إلى موقع متقدم. سيلفان شالوم[8]، عضو الكنيست من حزب "الـلـــيكود" المحـــرّض على الحرب، الذي استقال من منصبه كوزير للخارجية قبيل انتخابات 28 آذار/مارس 2006، قال محذراً: نتحدث عن زلزال أعادنا نحو خمسين عامـــاً إلى الوراء، وسيوقع المنطقة كلها في الفوضى. وأعلن بنيامين نتنياهو، رئيس الوزراء السابق وزعيم حزب "الليكود"، أن "الانسحاب الأحادي الجانب لإسرائيل من غزّة قد عزّز من فوز حماس، لأنها باتت تستطيع أن تدّعي بأن الإرهاب فاعل"، داعـــياً القادة الإسرائيليين إلى وضع حدٍّ لأيّ انسحابات محتملة، وإلى نقل الحاجز الفاصل بين الجانبين نحو الشرق، إلى عمق الأراضي الفلسطينية، إذا تمسكت حماس بأجندهّا المتطرفة.

بعـــد أقلّ من يوم على إعلان النتائج الرسمية، توجه أقارب مئات ضحايا تفجـــيرات نفـــذهّا حمـــاس إلى مقهى في وسط القدس كان قد تعرّض لتفجير انـــتحاري في العام 2002. إيلي كوهين، صاحب المقهى قال: "إن الفلسطينيين اكـــتفوا بممارســـة حقهم في الإطاحة بحكومة غير مؤهلة وفاسدة. يظنون بأن حمـــاس ســـتقوم بعمل أفضل. لم يأتوا بها تشجيعاً للإرهاب. هذا هو رأيي. لا اعـــتقد أنهم يصوّتون من أجل الإرهاب. بل يصوّتون من أجل وظائفهم ومن أجـــل الطعـــام ومن أجل أولادهم". وأضاف إريك آشرمان، الناشط في جمعية "حاخامات من أجل حقوق الانسان": "إننا مسؤولون جزئياً عمّا حصل، لكن لا يـــزال لدينا شيء من الأمل بأن حماس ستولي أمرها لسياسيين ودبلوماسيين ورجال دولة، وليس لإرهابيين"[9].

بعــض المحللين السياسيين الإسرائيليين دعوا حكومتهم للاستفادة من الرفض العــام الذي تواجهه حماس، لا سيما في الأوساط السياسية الغربية، لتحسين صورة الدولة العبرية، التي تلطخت إثر عقود من الانتقادات بسبب احتلالها للضفة الغربية وغزّة، ومواصلتها بناء حاجز إسمنتي يطلق عليه الفلسطينيون تسمية "جدار الفصل العنــصري" أو "جــدار برلين"، ويصفه الإسرائيليون بــ "الجدار الفاصل". هذا الجــدار، الــذي يُتوقع أن يمتدّ على مسافة 650 كيلومتر، وأن يبلغ ارتفاعه ثمانية أمــتار، يضيّق الخناق على الفلسطينيين، ويقصي المزارعين عن أراضيهم، ورجال الاعمــال عن مواقع عملهم، ويفرّق العائلات، ويحول دون حصول الكثيرين على الماء.

أتاحت لي جولتي على مراكز الاقتراع في قطاع غزّة وخصوصاً في مدينة غزّة يــومها، أن أقدّر حجم الدعم الذي تحظى به حركة حماس. فالمدينة تضم عدداً لا بــأس به من المواطنين الميسورين والعائلات المولعة بالعيش الرغيد وبارتياد المطاعم والمقاهــي التي ازدهرت خلال فترة النهضة الاقتصادية المحدودة التي عرفتها مدينة غــزّة، في حين ظلت بقية الأراضي الفلسطينية ترزح تحت وطأة الفقر المدقع. لقد شــعر الفلسطينيون في الشتات بالأمل والتفاؤل بعد التوقيع على اتفاقيات أوسلو وواشــنطن للــسلام مع إسرائيل في العامين 1993 و1994، فعادوا إلى الأراضي الفلسطينية. كان العائدون ينتمون بمعظمهم إلى منظمة التحرير الفلسطينية، وأكانوا مــن الاعــضاء الرفيعي المستوى فيها أم لا، فقد كانت حياتهم أفضل من ظروف عــيش إخوتهم الفلسطينيين في غزّة والضفة الغربية. لقد شكلوا طبقة إضافية في نسيج الــنظام الاجتماعي السائد، وأطلق عليهم سكان غزّة تسمية "العائدين"، وهي تسمية توحي بأنهم "حديثي الثراء". كان "العائدون" معتادين على الترف وعلى أسلوب حياة مختلف تماماً عما تشهده الأراضي المحتلة. ففي الأراضي المحتلة لا توجد منازل أو شقق كالتي كانوا يقطنون فيها، لذا بدأوا ببناء الفيلات الفخمة أو المباني السكنية المؤلفة من ست طبقات. اللاجئون في المخيّمات، غير المعتادون على مظاهر الغنى هذه، وأطلقوا تــسمية "الأبراج" على تلك الشقق التي يقود اصحابها سيارات المرسيدس الفخمة أو السيارات ذات الدفع الرباعيّ الحديثة التي تميّزهم عن باقي الفلسطينيين.

إســتغلت حمـــاس وأتباعها هذا الانقسام الثقافي واستخدمته لانتقاد منظمة التحرير الفلسطينية واتهام مسؤوليها بالفساد وباختلاس الأموال العائدة إلى المواطنين الفقراء. أخبرني احد المواطنين: "نريد أن نلقنهم (أي فتح) درساً لكي لا يتجاهلوننا في المـــستقبل. نحن لا نؤمن بآراء حماس السياسية، لكننا نريد أن نبرهن لقيادة فتح بـــأنّ لديـــنا الخيارات، وإن أرادوا العودة، سيكون عليهم الأخذ بآرائنا واحترامنا كناخبين".

تـــناولت طعام الغداء مع اسماعيل هنيّة في منـــزله في مخيم الشاطىء في اليوم الـــتالي للانتخابات، تلبية لدعوة وجهها إليّ ابنه عبد. كانت السماء زرقاء صافية، إلا أن أشعة الشمس بالكاد اخترقت المنازل المتراصة في المخيم. عندما وصلت إلى هـــناك، كان المئات من دعاة الخير، بمن فيهم مجموعة كبيرة من مقاتلي كتائب عزّ الـــدين القـــسّام، الجناح العسكري لحماس، يسلكون الأزقة الضيقة باتجاه منـــزل هنيّة. كانت اصداء أغاني النصر تتعالى وطلقات الابتهاج تصدح كأنها تنافس جلبة زغاريـــد نساء المخيم المسنات، تلك الزغاريد التي استحالت في الشرق الأوسط، مـــنذ أزمنة غابرة، تقليداً يلازم الافراح والاتراح على حدّ سواء. قالت لي إحدى النساء المتشحات بالسواد، وهي من جيران هنيّة المقرّبين: أبو العبد – لقب هنيّة – قائد جيّد. نحن نشعر بالأمان في ظل قيادته.

تجـــاوزت بصعوبة صفوف الحشود المهللة بالفوز. كان عبد في انتظاري عند البوابة الحديدية المؤدية إلى منـــزله المؤلف من طبقتين. شقيق هنيّة البكر، المعروف أيـــضاً بـــأبي العبد، كان موجوداً، فهنأته على فوز شقيقه، فيما قدّم لي الحلويات العربية ترحيباً، بانتظار عودة اسماعيل الذي كان يرفع صلوات الشكر في المسجد. إصـــطف الـــناس مـــن كل الأعمار والفئات الاجتماعية خارج المنـــزل للتهنئة، وفوجـــئت لرؤية الكثير من ضباط الشرطة الفلسطينية وموظفين حكوميين. كان ذلـــك دلـــيلاً علـــى أن حماس تحظى بالدعم حتى في أوساط السلطة الفلسطينية. استأنفوا حديثهم بشكل طبيعي، فبدا لي أنهم يواصلون حواراً بدأوه منذ ما قبل يوم الانتخابات. في تلك اللحظة، أدركت تماماً إلى أيّ حدٍّ خابت آمال مرشحي فتح وقيادتهم. فقد اعتبروا أن غالبية أفراد الشرطة الفلسطينية الذين يبلغ عددهم حوالى

الـثمانين ألفـاً، إضافة إلى الذين ينتمون إلى مختلف المنظمات الأمنية وعائلاتهم، سيصوّتون تلقائياً لصالح فتح. لكن كما اتضح لاحقاً، فإن 40 % على الأقل أدلوا بأصواتهم لصالح حماس.

بـدا مـن صـخب الكلام الذي كان يتردد في أنحاء منـزل هنيّة في ذلك الصباح، أن فوزهم هو محور الحديث. كان شقيق هنيّة البكر حريصاً على إشراكي في الـنقاش، فأخبرني عن العمل الشاق الذي قام به شقيقه لتحقيق النجاح، وعن اقتناعه بإمكانية التحالف مع الآخرين بهدف تشكيل حكومة. أخيراً، عاد هنيّة إلى المنـزل وشقّ طريقه عبر حشد الكاميرات. كانت تبدو عليه إمارات رجل الدولة، بعباءته البنيّة المطرّزة ولحيته المشذبة الأنيقة والوشاح الأبيض الواقي من برد كانون الـثاني/ينايـر القارص، غير المتأثر بإيحاءات الطقس المشمس. على الفور، نُصبت خـيمة ووضعت الكراسي كبديل عن غرفة استقبال، فمنـزل هنيّة لم يعد يتسع لحشود المهنئين ودعاة الخير. بعد الاعتذار عن التأخير، ذكرني بلقائنا الأول في العام 1996 في منـزل الشيخ ياسين.

إن أسـلوب هنـيّة الهادىء في التعامل مع الآخرين أفسح المجال أمام اختياره تلقائـياً، قائداً جديداً لحماس. لم يكن لديه أيّ تاريخ من المواجهات مع غيره من القـادة الفلـسطينيين، وكان يتحدث باحترام عن محمود عباس، فيشير إليه باسم "الـرئيس". قال لي في هذا الخصوص: "نحن في حماس اعتبرنا الفوز مضموناً فقط عندما أعلن أبو مازن بنفسه أن حماس فازت في الانتخابات". وكان اول مهنئيه من حـركة فـتح، حسين الشيخ، أحد كبار المسؤولين في الحركة في رام الله والضفة الغربية.

علـى الرغم من يومه الحافل والصاخب، أصرّ الزعيم الجديد لحماس على أن أبقـى والمصور الذي يرافقني لمشاركته طعام الغداء مع ابنه وشقيقه، فطلب وجبة جاهزة من الدجاج بالأرز يمكن اعتبارها بمثابة وجبة احتفالية. خلال الغداء، عرض لي هنـيّة رؤيـاه لمـستقبل حكومـته، وعبّـر عن ارتياحه وسعادته لحسن سير الانـتخابات، وهـو أمر لقي الثناء في كل أنحاء العالم، ونوّه به الرئيس الأميركي السابق جيمي كارتر الذي كان مشرفاً على فريق المراقبين الأجانب.

في الساعات الأولى من يوم 26 كانون الثاني/يناير، كان كل شيء قد انتهى بالنسبة إلى فتح. حجم خسارة الحركة كان هائلاً وساحقاً. فامتنع الجميع عن الإجابة على الاتصالات، وأُطفئت الهواتف الخلوية. غابوا عن السمع إلى أن حلّت ساعات بعد الظهر، فبدأوا يقلبون الأجوبة التي سيقدّمونها لعائلاتهم وأصدقائهم وأتباعهم ومؤيّديهم في ما يتعلق بادائهم كحماة للقضية الوطنية.

مع حلول المساء، كان الجناح العسكري لحركة فتح عاجزاً عن احتواء وكبت غضبه. نزل مسلحو فتح إلى شوارع غزّة ورام الله، وصوّبوا حنقهم نحو السماء، فأطلقوا مئات الرصاصات من أسلحتهم الرشاشة، ترافقها هتافات تدعو إلى تحميل قادهم مسؤولية الخسارة. كان هاتف دحلان يرن بلا انقطاع. لم يبق سواه زعيماً من فتح قادراً على ضبط الأمور، على الأقل في قطاع غزّة. بعد الإجابة على اتصالات من محمود عباس والتحدث إلى عدد من كبار المسؤولين في فتح، وخلافاً لرغبة مستشاريه، قرّر دحلان مواجهة الغضب. فقد شاهد صوراً تلفزيونية مثيرة للقلق، يظهر فيها ناشطو فتح وهم يحتلون مكاتب المجلس التشريعي. حتى أن بعض المحطات التلفزيونية الإخبارية بدأ يورد احتمال تأجج حرب أهلية. دحلان، الذي يعتبره أتباع حماس عدوّهم الأول بسبب تمتعه بشعبية كبيرة في صفوف حركته، وبسبب كلامه القاسي ضدّ حماس، نجح في نزع فتيل الوضع المتفجر، بعد أن وعد مقاتلي فتح بأن المسؤول عن هزيمة منظمتهم سوف يحاسَب. كما دعاهم إلى احترام الانتخابات الديموقراطية العادلة التي أوصلت منافسيهم إلى السلطة.

في لائحة الفصائل السياسية الفائزة أيضاً، الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين التي انشأها جورج حبش والتي حظيت بثلاثة مقاعد. كما فازت الجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين بقيادة نايف حواتمه بمقعدين، وكذلك فعلت حركة "الطريق الثالث". إنها حركة مستقلة انطلقت حديثاً بقيادة سلام فياض، وهو مسؤول سابق في البنك الدولي، وحنان عشراوي، الوزيرة السابقة والمتحدثة بإسم السلطة الفلسطينية، والدكتور مصطفى البرغوثي، وهو شخص ملتزم بالمبادىء ومناهض للعنف، كان مرشحاً مستقلاً يرفع شعار "من أجل فلسطين المستقلة". وحصل

المستقلون على أربعة مقاعد، في حين فشلت الفصائل الفلسطينية الأخرى في كسب موقع لها في المجلس التشريعي، خصوصاً تلك التي كانت ناشطة على الساحة السياسية منذ الستينيات، كالجبهة الفلسطينية الوطنية بقيادة سمير غوش.

لم تفاجئني عدم شعبية أداء تلك الفصائل التي أنشئت منذ عقود عدّة. كوني نشأت في مخيم برج الشمالي، وهو مخيم للاجئين قريب من مدينة صور في جنوب لبنان، كنت أعرف أن تلك الفصائل تتموضع على أقصى يسار الحركة السياسية الفلسطينية، وأنها تتعاطف إلى حدٍّ ما مع الماركسية. حركات عديدة إستحوذت حقّ تمثيل بعض مخيمات اللاجئين. كانت مقرّاتها مزيّنة بصور "تشي غيفارا" أو "لينين" أو"ماو تسي تونغ"، وكانت موسكو، خلال الحقبة السوفياتية، تشكل مصدر إلهامها الإيديولوجي، فساد قول معروف مفاده: "إذا غطت الغيوم سماء موسكو، ستمطر على مقرّ قيادتهم". كثر هم الفلسطينيون الذين تلقوا الدروس أو التدريب العسكري في موسكو وكوبا والصين. كانوا يجلبون معهم كتباً يسجّوها في أمكنة الشرف داخل مقارّ قياداتهم: ها هو الكتاب الأحمر باللغة العربية يتكئ على أعمال "لينين" و"ماركس" فيما المجلات الروسية الزاخرة بالمقالات العربية والروسية تفترش الأرض.

لم يكن اللاجئون بشكل عام يؤيّدون سياسات هذه الفصائل ذات الميول اليسارية، بل يولون اهتمامهم للجهات القادرة على توفير شروط صحية أفضل لهم، وعلى تحسين ظروف عيشهم المتردية. فهم لا يحظون إلا بما يدخرونه من أجر زهيد يكسبونه من الأعمال الزراعية الموسمية. كان على تلك الفصائل أن تعمل جاهدة لجذب أتباع لها. وكانت تنجح في تحقيق ذلك إلى حدٍّ ما، من خلال إطلاقها بعض النشاطات الاجتماعية كالدورات التدريبية والرياضية التي تستهوي الشبان والنساء. لكن زمن تلك الفصائل ولى. لقد ظهر ذلك جليّاً في الساعات الاولى من يوم 26 كانون الثاني/يناير عام 2006، إذ كانت موجة عارمة من اللون الأخضر تجتاح كامل المشهد الذي يطالع المارّة في الشوارع. الأعلام واللافتات التي تحمل شعار "الإسلام هو الحل" وقبعات البايسبول والاوشحة والهلال الإسلامي المصنوع من الكرتون والقمصان، كلها تلوّح بلون الانتصار الموحّد: لون حركة

حماس، أي اللون الأخضر. على الرغم من ضخامة الحشود ومن نتيجة الانتخابات غـــير المتوقعة، لم تسجل آيّة أحداث عنف في ذلك اليوم. حتى إطارات السيارات المـــشتعلة أمام الفندق الذي أنـــزل فيه، وهي التي عادة ما تنبئ بالمشاكل، اعتبرها موظف الاستقبال مجرّد مظهر من مظاهر احتفالات حماس.

في المقابل، طالعني أثناء زيارتي لبعض الاصدقاء في معقل فتح في حيّ الزهراء في ضواحي غزّة، ما اعتبرته تناقضاً لافتاً: الصمت مطبق والشوارع مهجورة. كان الدكـــتور الزهّار قد أبلغني بأن حماس تخطط، لا للفوز بغالبيّة المقاعد فحسب، بل تعتـــزم أيـــضاً أن تتـــرك لدى ناشطي فتح صدمة وشعوراً بالعار والاحراج. قبل ســـاعات قلـــيلة، كان مؤيّدو فتح يجوبون شوارع مدينة غزّة في مواكب ضخمة ويطلقـــون أبواق سياراتهم ويلوّحون بالأعلام الصفراء العملاقة وهم في حال من الترقب المليء بالغبطة. كانوا قد استعدّوا للنصر فقط لا غير. لكن توقعاتهم خابت، فـــسادت أجـــواء عادةً ما تشهدها المآتم، كأن نذيراً بالشر المستطير قد أنبأ بسوء الطالع في المستقبل القريب.



... ولدت حماس

عند الساعة الثانية إلا عشر دقائق من بعد ظهر يوم السادس من حزيران/يونيو 1989، انهار الشيخ أحمد اسماعيل حسن ياسين، وهو أحد سكان مدينة غزّة، لدى سماعه أثناء وجوده في سجن غزّة المركزي، أصداء الضربات التي اعتقد أن ابنه عبد الحميد يتعرّض لها على أيدي سجانيه الإسرائيليين. كان قد خضع للتعذيب لأيام عدّة، وهذا ما دفع أخيراً بالشيخ المقعد إلى تقديم اعتراف كامل عن دوره في إطلاق حركة حماس. كان سبق له أن أنكر كونه "أب" حركة حماس، إلا أن الاعترافات التي كتبها رفاقه تحت الضغط والتي وضعته في دائرة الشبهات، مضافةً إلى تعذيب ابنه، أجبرت الشيخ على تغيير موقفه. أحد الجلادين استدعى المحقق الإسرائيلي شوكي أمزايج الذي يحمل الرقم 54962، وقال له إن الشيخ ياسين أصبح جاهزاً للاعتراف. تزوّد أمزايج بقلم وأوراق، وباشر بحثّ الشيخ على الكلام... وبدأ الاعتراف.

ولد الشيخ أحمد ياسين عام 1938 في قرية الجورة القريبة من مدينة المجدل الساحلية، في ما كان يعرف تحت الانتداب البريطاني، بفلسطين الجنوبية. المجدل هي اليوم مدينة عسقلان الإسرائيلية، لكن لا يزال يُشار إلى السجن الذي أقيم فيها باسمه الفلسطيني القديم. توفي والده عبدالله وهو لم يتجاوز الثلاث سنوات من العمر. أصبح معروفاً في الحيّ بأحمد سعدى نسبةً إلى والدته سعدى الهبيل. سُميَ هكذا لتمييزه عن أولاد أبيه من زوجاته الثلاثة الأخريات. كان للشيخ ياسين أربعة أخوة وأختان، فرّوا جميعاً مع أمهاتهم من القرية إلى غزّة خلال نزاع العام 1948 وأصبحوا لاجئين في مخيم الشاطئ القريب من البحر، في القسم الشمالي من مدينة غزّة. في ذلك الوقت، كان المخيم المكتظ يأوي 23 ألف لاجئ، محصورين جميعاً في مساحة تقلّ عن الكيلومتر المربع الواحد[1].

مرّت سبع وثلاثون سنة قبل أن يبوح ياسين لعائلته بالقصة الحقيقية للحادث الذي غيّر مجرى حياته عام 1952وتسبّب بشلله. فالحقيقة أنه أصيب أثناء مصارعته أحد أصدقائه واسمه عبدالله الخطيب. كان الشاب ياسين خائفاً، فلم يفصح عن هوية الصبي خشية أن يسبّب ذلك خلافاً بين العائلتين، واختلق قصة مفادها أنه أصيب بهذه الجروح والكدمات أثناء ممارسته لعبة الوثب المتبادل مع زملائه في حصة الرياضة على الشاطئ. بقي عنقه مثبتاً بالجص طيلة خمسة وأربعين يوماً. بعد إزالة هذا الطوق، تبيّن أنه سيمضي بقيّة حياته مقعداً. كان عموده الفقري قد تأذى، مسبّباً له شللاً حادّاً في معظم أنحاء جسده، جعله عاجزاً عن المشي أو حتى عن الإمساك بقلم حبر أو قلم رصاص. رغم أنه قدّم طلباً للدراسة في جامعة الأزهر في القاهرة، غير أنه لم يتمكن من متابعة دروسه بسبب تردّي حالته الصحيّة. فاضطرّ للدرس في المنزل، ما جعله يوسّع نطاق قراءاته لتشمل خصوصاً، المسائل الفلسفيّة والدين والسياسة وعلم الاجتماع والاقتصاد. شمولية ثقافته جعلت منه، وفقاً لقناعة أتباعه، واحداً من أفضل الخطباء في قطاع غزّة، فكانت خطبته الاسبوعية تستقطب حشوداً ضخمة أيام صلاة الجمعة[2].

بعد سنوات من البطالة، حظي ياسين بوظيفة مدرّس للغة العربية في مدرسة الرمال الابتدائية في غزّة. كان للمدير محمد الشوّا تحفظات حيال الاستقبال الذي سيلقاه الشيخ من التلاميذ. فقد تخوّف من ردود فعل الأطفال التي غالباً ما تكون سمجة إزاء العجز. لكنه أعلن لاحقاً أن ياسين تعامل معهم جيّداً، فازدادت شعبيته، لا سيما في أوساط الطلاب المثقفين. أثارت أساليب تعليمه ردود فعل متفاوتة لدى الأهل الذين لاحظوا أن أولادهم أصبحوا توّاقين لارتياد المساجد وتحصيل التعليم الديني. فيما الغالبية منهم كانت سعيدة بالأمر، قلة سجلت اعتراضات لدى المدير. يتذكّر الشوّا أحد الآباء الذي قال له إنه موافق على زيارة ابنه للمساجد بهدف تحصيل العلوم الدينية، "لكن هذه الوتيرة السريعة والمكثفة لارتياد المساجد في هذا العمر المبكّر أي مرّتان في الأسبوع، ... (بما أن الشيخ ياسين كان ينصحهم بالذهاب يومي الإثنين والخميس إلى المسجد) غير مقبولة". ساند المدير المدرّس، فاحتفظ ياسين بوظيفته، بل أصبحت وظيفة ثابتة، الأمر الذي منحه استقراراً

ماديّاً، وشجعه على الزواج من إحدى قريباته، حليمة حسن ياسين، في العام 1960 ، وهو في الثانية والعشرين من العمر. أنجبا معاً ثماني بنات وثلاثة أبناء.

ساهم الشيخ ياسين في نموّ الحركة الأسلامية في فلسطين لاقتناعه بأن تلاميذه يجب أن ينالوا تربية إسلامية ويفهموا معنى الجهاد. لكنه كان يعي أيضاً قيمة منحهم ثقافة شاملة. تحدثت إلى كثيرين من جيله، بمن فيهم الأخ بدر الذي قال لي في العام 1992 إن الشيخ شجّع الشباب على تنظيم فرق رياضية وعلى المساهمة في الوظائف الاجتماعية والثقافية إضافة إلى تحصيلهم الدراسة الدينية.

بعد الثورة المصرية وما أعقبها من اعتقالات جماعية لأعضاء في حركة الإخوان المسلمين، وسّع الرئيس المصري الراحل جمال عبد الناصر نطاق إجراءاته الصارمة بحق المنظمة المحظورة لتشمل قطاع غزّة الذي كان آنذاك يخضع للسيطرة المصرية. في العام 1966، تمّ توقيف أعداد كبيرة من الناشطين الفلسطينيين، إذ أن كل شخص يتعاطى السياسة الإسلامية كان موضع شك. وكان الشيخ أحمد ياسين من بين الذين تم اعتقالهم. فقد اتهم مع مجموعة من الشبان الفلسطينيين، بمحاولة قلب النظام في مصر. ولكن صحة ياسين المتردية حالت دون إرساله، مع آخرين، إلى سجن مصري. فقد رأت الاستخبارات المصرية أن عجزه بالغ للغاية، إلى حدٍّ يعيق قدرته على التسبب باضطرابات. اعتقل لمدة أسبوعين، ثم أطلق سراحه وأُمر بالبقاء في منزله في الإقامة الجبرية بعد أن وقع ورقة تضمن عدم إلقائه خطباً، خصوصاً اثناء صلاة الجمعة. وفي أوّل يوم جمعة بعد إطلاق سراحه، ذهب للصلاة في مسجد الشاطئ، فتوسّل إليه جمهوره في المسجد أن يلقي خطبته الأسبوعية. من دون تردّد، خرق ياسين الاتفاق، وما كاد الرجل الضئيل الملتحي، المُدثر من رأسه حتى أخمص قدميه بأثواب بيضاء، كأنه كائن أثيري آت من زمن غابر، ينهي خطبته، حتى حمله محبّوه المغتبطون على أكتافهم، احتفاءً به واحتفالاً بعودته.

بعد أشهر، وتحديداً في حزيران/يونيو 1967، شنت إسرائيل ما بات يعرف بحرب الأيام الستة، والتي يطلق عليها الفلسطينيون تسمية "ألنكسة". أسفرت هذه الحرب عن فرض إسرائيل سيطرتها على قطاع غزّة بدلاً من الحكومة المصرية،

وعلـــى الضفة الغربية التي انتزعتها من الأردن، إضافة إلى احتلالها هضبة الجولان السورية.

انطلاقاً من مسجد الشاطئ، باشر ياسين بتوسيع رقعة نداءاته، مكثفاً حضوره في مـــساجد أخرى في المنطقة. بات صوته الأكثر شهرة في قطاع غزّة، وبدأ بجمع التبرّعات، واضعاً صناديق صغيرة في المساجد لمساعدة المحتاجين والفقراء. تمّت إدارة هـــذه الحملـــة بحذر تجنباً للتوقيف من قبل القوات الإسرائيلية. شكّل إعلانه عن دروس دينية خاصة بالنساء تقدّم في المساجد، طرحاً ثورياً. حتى ذلك الحين، كان الذكـــور المواظبون على الصلاة في المساجد هم المؤهلون، دون سواهم، لتحصيل التعليم القرآني. في أواخر السبعينيات من القرن المنصرم، وصل إلى مدرسته موظف مـــن دائرة التربية، يرافقه ضابط إسرائيلي رفيع، يحامل بلاغاً مفاده أن الشيخ غير مـــؤهل للتعليم. أُجبر ياسين على التقاعد، لكنه حوّل هذا الوضع لمصلحته، فركز اهتمامه على التعاليم الإسلامية ووسّع دائرة أتباعه.

نـــشط ياسين في الأوساط السياسية الإسلامية في غزّة منذ السبعينيات. كما أعـــضاء حماس الأوائل، تأثر بأفكار الإخوان المسلمين الثوريّة، الذين أنشأوا هذه المنظمة كحركة إسلامية تجديدية، على إثر انهيار الإمبراطورية العثمانية، في مواجهة ما اعتبروه العلمانية الزاحفة وتغريب مصر. وتحولت الحركة التي أنشأها عام 1928 في مـــصر عـــالم الدين حسن البنا، في العام 1936 إلى مجموعة سياسية رفعت لواء قـــضية العـــرب الفلسطينيين في مواجهة الصهاينة والحكم البريطاني. البنا الذي عُرف بــــ "المرشد الأعلى" للحركة، بعث بإخوانه، بصفتهم مرسلين، لنشر الكلمة وإنجاز الأعمـــال الإجتماعية والخيرية والتربوية والدينية في المدن والقرى على حدٍّ سواء[3]. وزار البـــنا نفسه فلسطين ما بين عامي 1942 و1945، مؤسساً العديد من فروع المنظمة في بعض المدن الكبرى. انضمت أيضاً إلى هذه الحركة الإسلامية مجموعات في الأردن وســـوريا. لعـــبت هذه الفروع دوراً أساسياً في حرب عام 1948[4]. يومها، كان قطاع غزّة خاضعاً للسلطة المصرية، ما جعل المنظمة تلقي باللائمة على هـــذه الـــسلطة، علـــى اعتـــبار أنها غير فاعلة في مواجهة "الصهاينة"، وناصرت الفلـــسطينيين في حربهم ضدّ إسرائيل. استناداً إلى عبد الفتاح دخان، نائب الشيخ

ياسين في المرحلة الأولى بعد نشوء حماس، فإن "ما يزيد على ألف شهيد من حركة الإخوان المسلمين قضوا في الحرب في أرض فلسطين". آنذاك بدأت الحركة بتنفيذ عمليات "إرهابية" داخل مصر، ما أسفر عن حظرها مؤقتاً. في 28 كانون الأول/ديسمبر 1948، اغتال أحد الإخوان المسلمين رئيس وزراء مصر محمود فهمي نقراشي. على الأثر، قتل البنا على أيدي عملاء للحكومة في القاهرة في شباط 1949. أعادت الحكومة المصرية تشريع المنظمة لكن فقط بصفتها منظمة دينية. إلا أنه سرعان ما تبيّن أن هذا الإجراء ظرفي، وقد أوجبته ثورة 1952 المصرية[5].

كان ناصر حذراً إزاء الإخوان وطموحاقم السياسية والعسكرية وخصوصاً رغبتهم في أن تُحكم مصر بموجب الشريعة الإسلامية. سُجن آلاف الناشطين في المنظمة أو أُعدموا، وأعيد حظر المنظمة، ما حوّلها إلى العمل السرّي. هذه الإجراءات الصارمة حجّمت الحركة الإسلامية، مفسحة في المجال في الخمسينيات والستينيات أمام ازدهار الحركات القومية العربية والشيوعية وسواها من ذات التوجهات السياسية اليسارية.

لكن بعد عام 1967، عندما اقتنصت إسرائيل غزّة من مصر، أصبح نظير منظمة الإخوان في فلسطين أكثر نشاطاً، فدأب على نشر إيديولوجيتها وعلى زيادة تأثيرها داخل المجتمع الفلسطيني. لقد نجح في إنشاء جمعيات خيرية وتأسيس مدارس دينية وحضانات للأطفال عادة ما كانت مرتبطة بالمساجد. إتسع نطاق هذه النشاطات أكثر فأكثر في العام 1973، عندما أنشأت منظمة الإخوان وغيرها من المجموعات الإسلامية المؤيدة لها، جمعيات إسلامية في غزّة والخليل ونابلس والقدس.

ملتزماً أفكار وتعاليم منظمة الإخوان، أسس الشيخ ياسين، عام 1976، جمعية إسلامية. في العام 1978، برزت الحاجة إلى قيام مؤسسة أكبر وأفضل تنظيماً، لترويج القيم الإسلامية داخل المجتمع الفلسطيني، الأمر الذي يعتبره الإسلاميون مرتبطاً ارتباطاً عضويّاً بمقاومة إسرائيل. في ذلك العام، ساهم ياسين في إنشاء مؤسسة أخرى اطلق عليها اسم "ألمجمّع الإسلامي". أوّل عمل قام به ياسين بصفته رئيساً لهذه المؤسسه بين عامي 1973 و1983، (خلفه في هذا المنصب إثر سَجنه

أحد رفاقه من مؤسّسي حماس هو الدكتور ابراهيم علي اليازوري)، تمثل بتسجيلها في دوائر السلطات الإسرائيلية. مُنح الترخيص في غضون ساعتين، إنما بعد أقل من ساعة، أتى الإسرائيليون إلى الشيخ ياسين وسحبوا موافقتهم، مدّعين أنّ خطأ قد حصل. أقفل المسجد والحضانة التابعة له، واقتيد الشيخ ياسين والحاج أحمد دلول، وهو عضو آخر في المؤسسه، إلى التحقيق، بتهمة جمع تبرّعات وإنشاء مؤسسة من دون إذن.

تراجعت إسرائيل عن موقفها بما يتعلق بالترخيص عقب انتقادات أطلقها الشيخ محمد عوّاد الذي كان يتولى شؤون المحاكم الإسلامية. تزامن هذا التراجع مع توقيع اتفاقيات كامب ديفيد بين إسرائيل ومصر والولايات المتحدة الأميركية. كان الشيخ هاشم الخازندار المؤيّد لتوقيع مصر اتفاق سلام مع إسرائيل، قد خطط لإرسال بعثة إلى القاهرة تأييداً للحكومة المصرية. إستفاد الشيخ ياسين من مخططه هذا وأرسل الشيخ عبد العال، وهو ناشط من رفاقه، لمقابلة الشيخ الخازندار و"ليبلغه بأن السلطات الإسرائيلية على وشك سجننا بسبب المجمّع الذي أقمناه". رافق الشيخ عبد العال إلى مقرّ الإدارة المدنية الإسرائيلية في غزّة. أقنع الخازندار الإسرائيليين بالعودة عن ممانعتهم منح الترخيص واطمأن إلى أن الموافقة ستصدر قبيل عودته من مصر. استناداً لياسين، "هذا تماماً ما حصل".

شكّل القرار الإسرائيلي القاضي بمنح رخصة إلى المجمّع الإسلاميّ، رغم ما اعترضه من إعادة تقويم واضحة للعيان، مؤشراً لما ستكون عليه السياسة الإسرائيلية غير المعلنة ولكن الرسمية. كانت الحكومة الإسرائيلية تنظر إلى منظمة التحرير الفلسطينية ذات المنحى الوطني والعلماني، على أنها عدوّها اللدود، وكانت تعتقد أنها ستستفيد من تداعيات التنافس الذي سيقوم حتماً بين المجموعات الإسلامية، التي سمحت لها بالتكاثر والازدهار، والمنظمات الفلسطينية الآخرى، بما فيها منظمة التحرير الفلسطينية التي هي على طرف نقيض مع تلك المجموعات الإسلامية، فلا يعود من داعٍ لتدخل إسرائيلي مباشر على الأرض.

في سياق مقابلة معه في مكتبه في غزّة، قال لي مستشار عرفات للشؤون الأمنية محمد دحلان إن أعضاء في الكنيسيت سألوا إسحق رابين، وزير الدفاع في

حكومة إسحق شامير الائتلافية، عن الدعم المفترض الذي يمنحه لحماس من خلال تمويل المجمّع الإسلاميّ ونشاطاته. جاء جواب رابين مقتضباً، مؤكداً أن ذلك كان تكتـــيكاً "لتقويض تأثير منظمة التحرير الفلسطينية". وسئل من قبل عضو آخر في الكنيـــست عن احتمال عمل حماس ضدّ إسرائيل، فردّ رابين: "يمكن مناقشة هذا الموضوع لاحقاً".

كـــان مـــن المفتـــرض أن تتركز نشاطات المجمّع الإسلاميّ، وفقاً لما تحدّده رخـــصته، على الرياضة، لكن عملياً، ووفقاً لما اعترف به ياسين، "أننا ننشر رسالة الإســـلام، نحفـــظ القرآن، نبني المساجد والمدارس والعيادات الطبيّة". عندما أدرك الإسرائيليون طبيعة الأعمال التي التزم المجمّع القيام بها، فرضوا قيوداً قوّضت نطاق المسموح بممارسته. رغم ذلك، سرعان ما أصبح المجمّع أكبر مؤسسة في غزّة.

"لم تتوفـــر لدينا فعليّاً البنية التحتيّة الضرورية لتنفيذ عمليات عسكرية"، كما شرح ياسين في لقاء لي معه في منـــزله في محلة جورة الشمس في كانون الثاني/يناير 1999. "لكن في الثمانينيات، كانت قد زادت قوّتنا وبدأنا بتجميع السلاح. العديد مـــنا سُـــجن بسبب ذلك، ولكن عند إطلاق سراحنا عام 1985، كنا قد طوّرنا استراتيجية محدّدة المعالم. حضّرنا أنفسنا وبدأت الانتفاضة".

عام 1983، كان ياسين وقادة آخرون في المجمّع الإسلامي في صدد البحث عن عتاد لتسليح جناحهم العسكري، "مجاهدي فلسطين"، الذي كان ياسين قد أسّـــسه في العـــام المنصرم. لم يكن هؤلاء ضليعون بكيفية التزوّد بالسلاح، ما جعلـــهم عرضة لمراقبة جهاز الاستخبارات الإسرائيلي الشين بيت. فقد نجحت الاستخبارات الإسرائيلية في اختراق صفوف المجمّع الإسلاميّ وساهمت في عملية تـــزويد الجناح العسكري بالسلاح (أي بتعبير آخر، نصبت لأفراده الكمائن). نتـــيجة لذلك، تمّ توقيف الشيخ ياسين والدكتور ابراهيم المقادمه وعبد الرحمن تمرز ومحمد شهاب ومحمد عرب مهارة وآخرين، لحيازتهم أسلحة. هذه التجربة علمتهم أن عليهم توقيت الأمور بدقة إن هم أرادوا التحرّك تحت نير الاحتلال الإسرائيلي، وعدم استئناف تطوير الجناح العسكري إلا عندما تنضج الظروف الاجتماعية والسياسية لذلك.

لاحقـــاً، وصـــف لي مؤسّس حماس، في مقابلة صحافية أجريتها معه، مسيرة تطـــور حـــركته وفقـــاً لمراحل أربعة محدّدة بوضوح. تمثلت المرحلة الأولى ببناء مؤســـساتها، فتـــشكلت اللجـــان الخيرية والاجتماعية التي فتحت أبوابها للصغار والكبار، أي لكل من هو قادر على لعب دور في مقاومة المحتل. كانت هذه مقدمة لمواجهتهم العدو الإسرائيلي في الانتفاضة التي أكدً للشيخ ياسين أن حماس أطلقتها لوحدها، من دون أية مساهمة من الفصائل الفلسطينية الأخرى. في المرحلة الثانية، جرى العمل على ترسيخ جذور المقاومة داخل كل معقل في الضفة الغربية وغزّة، وعلـــى تعزيز مصداقيتها السياسية. في المرحلة الثالثة، تطوّرت قدراتها العسكرية، فارتقت من فعل الرشق بالحجارة بشكل بدائي وإطلاق زجاجات ألمولوتوف، إلى اســـتخدام الأســـلحة والقنابل اليدوية ومتفجرات أخرى. وكما قال ياسين، "أيّ شيء قد يؤرق الإسرائيليين". في المرحلة الأخيرة، تجاوزت حماس البعد الفلسطيني وأرســـت قواعد حوار مع جيرانها العرب والإسلاميين، لأنه، ودائماً وفقاً لياسين، فـــإنّ "عدوّنا يستدعي مواجهة من قبل قوة أفعل، والحصول على دعم دولي هام بالنـــسبة إليـــنا". وأعلن أن القضيّة الفلسطينية "يجب أن تذهب أبعد من شعارات مـــنظمة التحرير الفلسطينية"، الأمر الذي ذكر الدول العربية والإسلامية بضرورة دعمها القضية الفلسطينية. فقد نبّهها ياسين إلى خطورة ترك الفلسطينيين يأخذون قـــراراتهم بأنفـــسهم، بينما كان عرفات مصرّاً على أنهم يجب أن يبقوا بمنأى عن الـــتدخلات الخارجـــية. كانت حماس تنظر إلى نهج عرفات على أنه متهوّر، على اعتبار أن القضية الفلسطينية هي أيضاً قضية عربية وإسلامية.

مـــع بـــدء الانتفاضة، تمكّنت مختلف الحركات الإسلامية التي انضوت تحت جـــناح حمـــاس، من فرض نفسها (مع قليل من الدعم الإسرائيلي) كقوة فاعلة في الـــسياسة الفلـــسطينية، تتمتع برؤية واستراتيجية مختلفتين جذريّاً عن فتح. إلا أنها كانـــت تفتقـــر إلى الوحدة والإدارة والتوجيه والاستراتيجية العسكرية المتماسكة، بغـــضّ النظر عن حيازتها على السلاح. كان ذلك، في جزء منه، انعكاساً لانقسام المجـــتمع الفلـــسطيني. عندما انفجرت فجأة الانتفاضة في مخيم جباليا في 8 كانون الأول/ديسمبر 1987، سنحت الفرصة لحماس أن تحدّد ماهية توجهها العسكري.

"اعــتدنا أن ننتظر هكذا فرص من أجل تصعيد نــزاعنا مع العدو، ويشجعنا على ذلك الدعم والتوافق المتزايدين" كما شرح لي لاحقاً الشيخ دخان.

في هــذا الظرف المفصلي، أثارت حياة ياسين اهتمام المحققين الإسرائيليين في سجن غزّة المركزي. حاورت محامي ياسين في ما بعد، وتمكنت من الإطلاع على المــضمون السريّ لاعترافه. قصة تأسيس حماس وما لياسين من دور فيها، مسألة معقدة، وتفاصيلها لا تزال تثير اعتراضات مختلف المعنيين. لكن ارتباط الإثنين، أي نشوء حماس واضطلاع ياسين بدور في تأسيسها، أمر لا يرقى إليه شك. لقد أمعن المحققون الإسرائيليون في الاستماع إلى الشيخ ياسين المقعد في كرسيّه، وهو يصف، بصوته الرفيع الحاد المميّز، ظروف ولادة الحركة:

"قــبل شهرين من انطلاقة الانتفاضة في كانون الأول/ديسمبر 1987، إلتقيت الشيخ صلاح شحادة الذي تعرّفت عليه للمرّة الأولى في سجن المجدل[6]. كنت قد قــرّرت إنــشاء حركة في غزّة للعمل ضدّ سياسة الاستيطان الإسرائيلية ولمقاومة الاحــتلال ولتشجيع الفلسطينيين على المشاركة في جهود المقاومة ضدّ إسرائيل". ويتابع الشيخ ياسين روايته: "أثناء اجتماعنا، اتفقنا على إقامة جناح مسلح وجناح أمني لهذه الحركة الإسلامية الجديدة، على أن يتولى الجناح العسكري محاربة الجيش الإســرائيلي المحــتل. بــنى صلاح شحادة هذا الجناح، وكان الهدف جمع أسلحة لاستخدامها في النضال. كُلف الجناح الأمني بمراقبة وتوقيف المخبرين الفلسطينيين وتجــار المخــدرات وبائعــات الهــوى ومنع بيع وشرب الكحول في الأراضي الفلسطينية".

ويتذكــر الــشيخ ياسين أنه "في بدايات شهر كانون الأول/ديسمبر 1987، شــكّلت مجموعة من الأشخاص لتناقش مسألة إنشاء الحركة. حضر الشيخ صلاح شــحادة، 40 عامــاً، وهو من بيت حانون ويعمل في الجامعة الإسلامية في غزّة، وعيــسى النــشّار وهو مهندس في الخامسة والأربعين من رفح، والدكتور ابراهيم الــيازوري، وهو طبيب صحة عامة من غزّة في الأربعين من عمره، والدكتور عبد العزيــز الرنتيسي، طبيب صحة عامة في الأربعين من عمره من خان يونس، وعبد الفــتاح دخــان، مدير مدرسة من مخيّم النصيرات، ومحمد الشمعة وهو مدرّس في

الخمـــسين من العمر من مخيم الشاطئ". أما كيف وقع الاختيار على اسم حماس، فيفيد ياسين أنه "خلال هذا الاجتماع، اتفقنا على تسمية الحركة "حماس" كتصغير لعبارة "حركة المقاومة الإسلامية". كما تقرّر أن يكون كل واحد منا مسؤولاًعن المنطقة التي يقطن فيها. كان عليّ أن أترأس حركة حماس في قطاع غزّة".

إجـــتمعت قـــيادات مختلف الاجنحه تحت مظلة إسم حماس في الحفل الذي خصص لإطلاق التسمية على الحركة الوليدة. كان ذلك الحفل أشبه بعملية سحب بالقـــرعة أعقـــبت مداولات مستفيضة تناولت مجموعة كبيرة من الهويات البديلة. خـــرج الجسم التنظيمي السياسي إلى الحياة العامة بصفة حركة المقاومة الإسلامية التي اختصرت إلى تصغير تمثل بحروف (ح م س) هي الحروف التي تستهل كلمات التسمية العربية الأساسية "حركة المقاومة الإسلامية". ورد أخيراً اقتراح بأن تصبح التسمية "حماس"، وهي كلمة عربية تعني "الاندفاع" الذي يجسّد قيم شعار منظمة الإخوان المسلمين: "حق! قوّة! حرية!"

وأضاف الشيخ دخان تفسيراً آخراً للاسم المختار: "إن اسم حماس أقل إثارة للتهديد. كنا نريد شيئاً لا يخلق انطباعاً أننا منظمة تحارب الإسرائيليين، بل يخفف مـــن حدّة المواقف المناهضة للإخوان المسلمين المقيمين في الخارج. لقد رغبنا أيضاً بتجـــنب أيّ ردّة فعل سلبية قد تصدر عن الحكومات العربية الأخرى. حماس هي حـــركة مقاومـــة، وكما شدّدنا على ذلك في ميثاقنا، إنها ائتلاف لا يرتبط فقط بمـــنظمة الإخـــوان المـــسلمين، إنما هو قادر على استيعاب كل منظمات المقاومة الفلسطينية وأنصارها وأصدقائها[7].

في تقـــويم ياسين الوارد في اعترافاته، كما في مقابلاته اللاحقة معي، شكلت واقعة جباليا مجرّد حادث، إذ اعتبر ياسين أنه قاد الانتفاضة بنفسه باسم حماس. أما في حسابات أخرى كالتي اعتمدها صلاح شحادة، فإن واقعة جباليا حدث محوري أدّى مباشرة إلى تشكيل حماس.

جبالـــيا هـــو أكبر مخيّم للاجئين في القطاع، يقع إلى الشمال من مدينة غزّة. في ذلـــك الوقت، بلغ عدد قاطنيه حوالى 60 ألف شخص يعيشون في أحياء ضيقة تحت وطـــأة ظـــروف معيشية بائسة. في السادس من كانون الأول/ديسمبر 1987، طعن

مستوطن إسرائيلي حتى الموت في المنطقة التجارية الرئيسية في غزّة. بعد يومين، إنحرف سائق شاحنة إسرائيلي مدنيّ عن مساره، واصطدم بسيارة آتية قبالته تقلّ عمّالاً عرب، في ما صار يعرف بحادثة "مقطورة". مات أربعة عرب وأصيب الآخرون بجروح بليغة. أذيعت أخبار الحادث عبر أجهزة الراديو، وانتشرت شائعات حول جباليا كما النار في الهشيم، مفادها أن ما قيل عنه إنه حادث، هو في الحقيقة انتقام متعمّد نفذه أحد أقرباء الإسرائيلي الذي طعن قبل يومين. بينما كان المشيّعون عائدين من مراسم دفن الفلسطينيين الأربعة عصر ذلك اليوم، فجّروا غضبهم المكبوت ضدّ حاجز الأسلاك الشائكة الذي أقامه الجيش الإسرائيلي حول جباليا وهم يصرخون: "جهاد! جهاد!". حاول الجيش الإسرائيلي تفريق الحشود بواسطة القنابل المسيّلة للدموع وبإطلاق العيارات النارية التحذيرية في الهواء. لكن شيئاً لم يكن قادراً على حقن غضب الفلسطينيين الذين ردّوا برشق الحجارة والقنابل الحارقة. فانضمّت شرطة الحدود إلى الجيش لخوض المواجهة، فيما أعمال الشغب اجتاحت أرجاء المخيم[8].

كان المستوطن الإسرائيلي قد طعن من قبل عضو في الجهاد الإسلامي، واعتبر قائد الجيش الإسرائيلي في القطاع الجنوبي، المايجور جنرال إسحق موردخاي، في معرض تفسيره لظروف الواقعة، أن الطعن وما تلاه من انتفاضة كان ردّة فعل على قرار الجيش بإبعاد ثلاثة أعضاء في الجهاد الإسلامي قبل ثلاثة أسابيع في 17 تشرين الثاني/نوفمبر 1987، وأن "اصطدام الشاحنة كان حادثاً مرتقباً وقد صبّ الزيت على نار عصيان عفويّ"[9].

في ذلك اليوم من شهر كانون الأول/ديسمبر، دعت الهيئة العامة لحركة الإخوان المسلمين في قطاع غزّة، والتي كان الشيخ ياسين أحد أعضائها، إلى اجتماع طارئ لمناقشة الأحداث التي وقعت في مخيم اللاجئين في جباليا[10]. وصف صلاح شحادة، القائد المعيّن للجناح العسكريّ في قطاع غزّة، في مذكّراته ليلة ولادة حماس: "اليوم الثامن من كانون الأول/ديسمبر 1987 هو أحد أيام الله. إنه إحياء ذكرى بداية جديدة ستشعّ ضياءً عبر تاريخ الأمة الإسلامية".

الدكتور عبد العزيز الرنتيسي، الذي خلف الشيخ ياسين بعد اغتياله، وقبل أن يتم اغتياله أيضاً في ما بعد، أكد أن الاجتماع الأول لإطلاق حماس عقد في

منـــزل الـــشيخ ياسين في التاسع من كانون الأول/ديسمبر 1987[11]. وشرح الرنتيـــسي أن حماس كانت فرعاً من حركة الإخوان المسلمين الشاملة، وأصدرت أول بيان لها في 14 كانون الأول/ديسمبر. حتى ذلك التاريخ، لم يكن هناك جبهة مـــوحّدة تقـــود الانتفاضـــة في الضفة الغربية وغزّة. أوقف الإسرائيليون الرنتيسي لمشاركته في تأسيس حماس وتوزيعه بيانات. لقد وصف الرنتيسي كيف أن حماس وضعت نصب عينيها تولي السلطة السياسية: "كما العديد من الحركات الناجحة، بـــدأت من الصفر ولم تكن في البداية، منظمة عسكرية". أدار مجلس للشورى[12] الحـــركة وهـــو مجلـــس أرتكز على الأسس القانونية لحركة الإخوان المسلمين في فلـــسطين التي كانت مؤلفة، في أيامها الأولى، من أربعة وعشرين عضواً. "إلا أن العـــدد كـــان يتبدّل وفقاً لعدد الأعضاء الذين يسجنهم الإسرائيليون في أي وقت كـــان"، كمـــا أوضح الرنتيسي. كانت هناك مجموعة أساسية من صانعي القرار قـــوامها سبعة أعضاء. رغم التوقيفات العديدة، لم ينجح الإسرائيليون أبداً بتفكيك المـــنظمة، إذ سرعان ما كانت تنشأ قيادة جديدة تبادر فوراً إلى إصدار البيانات، وإلى مواجهة الإسرائيليين، ومهاجمة مراكزهم العسكرية ودورياتهم.

كـــان من المقرّر أن يبدأ الاجتماع الطارئ في الساعة الثامنة مساءً، إذ يوفر مساء الشتاء المعتم ظروفاً أمنية فضلى. وصف صلاح شحادة الجوّ السائد في تلك اللـــيلة من شهر كانون الأول/ديسمبر بـــ "البارد، إلا أن الدم الذي كان يدبّ في عروقنا كان كفيلاً بمنحنا الشعور بالدفء".

قوّم الأعضاء السبعة ما حصل في مخيّمات وشوارع قطاع غزّة، فكانوا متفقين علـــى ضـــرورة تصعيد المواجهة بجميع أشكالها. أعلن شحادة أنه توصّل إلى خطة "لإشـــعال النار في كامل قطاع غزّة ولمهاجمة الإسرائيليين، ليس فقط بقيام الشبان برشـــقهم بالحجـــارة، ولكن بتجنيد كل الشعب الفلسطيني في عمل ذات منحى عسكري".

الدكـــتور ابـــراهيم الـــيازوري، الذي كان أيضاً حاضراً في ذلك الاجتماع التاريخـــيّ، ســـاند شـــحادة في موقفه قائلاً: "مشاعر قوية اعترت عدداً كبيراً من إخواننا الذين كانوا يدعون لقيام انتفاضة ولحَثّ الشعب، وخصوصاً الشباب، على

تصعيد مقاومته ضد الاحتلال ونقل الثورة إلى الشوارع". تمّ الاتفاق، كما يتذكر اليازوري، على أن تكون أعمال المقاومة هذه منسّقة من قبل جهاز الأحداث، أي المنظمة الخاصة بمن هم دون الثامنة عشرة من العمر، لتشمل تظاهرات منتظمة وإضرابات ومواجهات مع الجيش الإسرائيلي، تستخدم فيها الحجارة وزجاجات المولوتوف.

وفقاً لشحادة، فإن الهيئة العامة كتبت أول إعلان لها في ذاك المساء، تمّ طبعه وتوزيعه فوراً في جميع مساجد قطاع غزّة. كان الإعلان موقعاً من قبل "حركة المقاومة الإسلامية". "كنا في وقت سابق قد وزّعنا عدداً من البيانات العامة تحت أسماء مختلفة كـ "الفصيل الإسلامي" و"صراط الإسلام" و"الدفاع الإسلامي"، لكن اسم "المقاومة الإسلامية" اختاره الله" بحسب شحادة.

يتذكر الشيخ ياسين أنه تمّ إعداد المناشير في منزل خالد الهندي وقد تسلّمها روحي مشتهى وآخرون لإنجاز طباعتها في مطبعة أكرم شرباتي. اعتاد ياسين لقاء المجموعة مرّة في الشهر، إمّا في منزله في غزّة أو في منازل عيسى النشّار أو غازي عبد العال، حيث كانوا يناقشون الوضع العام ويضعون الخطط المتعلقة بنشاطات مستقبلية.

هل أطلقت حماس الانتفاضة أم أنها تفاعلت معها؟ هذه مسألة مهمة جداً. كل من كان معنيّاً بالسياسة الفلسطينية حاول أن يستحوذ على فضل إطلاق الانتفاضة في أواخر الثمانينيات. في ذلك الوقت، كانت منظمة التحرير الفلسطينية والحكومة الأردنية على خلاف عميق. لقد أراد كل منهما أن يقدّم تفسيره الخاص عن الانتفاضة. فادّعت منظمة التحرير الفلسطينية أنها هي من أطلقها بغية الاستئثار بالشرعية التي كانت الحركة تحظى بها، فيما هدفت الحكومة الأردنية إلى إنكار أية علاقة للانتفاضة بمنظمة التحرير الفلسطينية التي كانت تصفها بالهامشيّة، حتى تواصل ادعاءها أنها الممثل الوحيد للشعب الفلسطيني، أو على الأقل، الممثل الوحيد لهؤلاء المقيمين في الضفة الغربية.

أراد ياسين أن يعطي الانطباع بأن حركته لعبت دوراً قيادياً في الأيام الأولى

للانتفاضـــة. فقد أصرّ على أنه هو بنفسه كتب البيان الذي أطلق الانتفاضة في 14 كانـــون الأول/ديـــسمبر 1987، بعد أسبوع من بدايتها، ووقعه بحروف "ح. م. س"، أي التـــصغير العربي لحركة المقاومة الإسلامية. "لم يخطر ببالي آنذاك أن هذه الحروف تمثل لفظة أخرى باللغة العربية"، كما يستذكر ياسين، "لكن، مع صدور بياننا الثالث، اقترح إخواني في النضال أن نسمي أنفسنا "حماس". منذ ذلك الحين، صار هذا اسم حركتنا".

كثـــرت النقاشـــات المتباينة حول الموقع الواجب اعتماده كقاعدة لإطلاق العمليّات. وتمّ التداول أولاً في احتمال إيجاد مكان آمن داخل دولة إسلامية، لكن أيّاً من الدول العربية المجاورة لإسرائيل لا يحظى بنظام إسلامي قادر على منح حماس قاعـــدة الانطلاق الضرورية لعملياتها. فمصر كانت قد وقعت مع إسرائيل اتفاق كامب ديفيد للسلام الخاص بها والذي عارضته حماس؛ الأردن لا يزال يستعيد قواه بعـــد معركته مع قوّات منظمة التحرير الفلسطينية في أيلول 1970، وهي معركة هدّدت المملكة بالزوال؛ سوريا كانت تشارك إسرائيل حدوداً هادئة بفضل دبابات قـــوات حفظ السلام الدولية المنتشرة في الجولان؛ أمّا لبنان، فهو لم يفرغ بعد من تـــضميد جراحه جرّاء الاجتياح الإسرائيلي لبيروت في حزيران/يونيو 1982 الذي شـــكّل محاولة للقضاء على منظمة التحرير الفلسطينية. كان عرفات قد اتخذ مقرّاً أساسياً له في لبنان بعد طرد منظمة التحرير الفلسطينية من الأردن في فترة 1970–1971، وكـــان يـــستخدم جـــنوب لبنان قاعدة لإطلاق هجمات ضد إسرائيل، مـــستفيداً من اتفاق القاهرة الذي وقعته منظمة التحرير مع الحكومة اللبنانية برعاية جمـــال عبد الناصر، في العام 1969. بموجب صفقة عقدها فيليب حبيب، المبعوث الأميركـــي إلى لبـــنان، وآرييل شارون، وزير الدفاع الإسرائيلي، مُنحت منظمة التحرير الفلسطينية، بعد الاجتياح الإسرائيلي للبنان في العام 1982، مخرجاً آمناً من لبنان، على متن مجموعة من السفن المتجهة إلى اليونان، حيث توجه على متن إحداها ياسر عرفات، ومنها غادر إلى تونس، حيث أقام مقرّه العام الجديد في المنفى.

مـــع استبعاد الجيران الأقرب، رجح الخيار الذي حظي بتفضيل الشيخ ياسين والـــذي ظهّر فوائد إدارة المعركة من داخل فلسطين، وبخاصة، من داخل الأراضي

المحتلة، "إلى حين إيجادنا بلداً يمكنه أن يوفر لنا قاعدة آمنة لمحاربة الدولة اليهودية انطلاقاً منها".

طوال فترة محاكمته التي دامت سنة، شرح الشيخ ياسين للمحقق الإسرائيلي كيف تمّ إنشاء فرع حماس في الضفة الغربية. في شهر كانون الثاني/يناير 1988، قام جميل حمامي، العضو في حركة الإخوان المسلمين في الضفة الغربية، بزيارة ياسين في منزله في غزّة. كان حمامي يعمل ويدرّس في معهد أبو ديس للشريعة وعيّن لاحقاً قيّماً رئيسياً على مدينة بيت لحم. كان يتمتع بشعبية كبيرة على مستوى القاعدة. سأله الشيخ ياسين: "لماذا لا تساهم في الانتفاضة بالضفة الغربية؟"، فوافق على إنشاء فصيل هناك، ووعد ياسين بمساعدته من خلال إرساله مناشير يحملها إليه روحي مشتهى وفايز عبد العال. عندما تم تأسيس الحركة في الضفة الغربية، دأب جميل على طباعة كميات كبيرة من المناشير وتوزيعها على أعضاء حماس هناك. أرسل أيضاً بعض هذه المناشير إلى الأردن. كانت الاتصالات بين ياسين وأعضاء كبار آخرين في الحركة تمرّ عبر جميل أو من خلال أشخاص في المساجد. شرح ياسين كيف كانت الحركة في غزّة تنجح في زيادة حجم مداخيلها عندما تشحّ:

"كنت أقول لجميل الذي يتصل بناشطين في الأردن، أو يتصل ناشط في لندن يدعى منير العشّي بالأردن، ويطلعهم على حاجاتنا. كنت أعطي كل واحد من كبار ناشطينا شيفرة، عادة ما تتمثل برقم، عوضاً عن الإشارة إليهم باسم، حتى لا يتمكن أحد من الإفصاح عن أيّة تفاصيل تتعلق بأعضاء آخرين من المجموعة في حال توقيفه".

خالد مشعل، الذي أصبح يلعب دوراً أساسيّاً على مستوى القيادة السياسية في حماس، يتذكر أن أوّل اجتماع بين قادة حماس في الضفة الغربية وغزّة وأولئك المقيمين في الدول العربية المجاورة عقد في العام 1983 قبل توقيف الشيخ ياسين. لم يتمكن ياسين من الحضور بسبب حظر التنقل الذي كان خاضعاً له آنذاك. ذكر مشعل في ذلك الاجتماع أن العمل جارٍ على وضع استراتيجيّة محدّدة بغية إطلاق حركة فلسطينية إسلامية جديدة. كان مشعل بالتأكيد على علم بتفاصيل تلك الاستراتيجية، لكن الشيخ ياسين لم يشر أبداً إلى دوره حين كان يتحدث عن

كيفية إطلاق مؤسسي حماس لهذه الحركة. بالتالي، فإنه من غير المؤكد أن يكون مشعل قد أدّى دوراً أساسياً في تلك المرحلة.

قبلها، سبق وتأسست حركة إسلامية داخل إسرائيل في العام 1979، قادها الشيخ عبدالله نمر درويش، وتولى الشيخ رائد صلاح مهام نائبه. أما أعضاء هذه الحركة فكانوا يقيمون في إسرائيل ويحملون الهوية الإسرائيلية. كان هؤلاء العرب الإسرائيليون الإسلاميون على علاقة تقارب وتناغم مع فلسطينيي الحركة الإسلامية، كما مع فصائل فلسطينية علمانية كفتح في الضفة الغربية وغزّة. عُيّن الشيخ صلاح لاحقاً قائداً للحركة الإسلامية إثر حصول شرخ مع درويش. نشط الإثنان، درويش وصلاح، كلٌّ على حدى، في محاربة إسرائيل التي كانت قد باشرت ببناء نفق تحت المسجد الأقصى في القدس. سجّل الشيخ رائد هذا الخرق الفاضح للقانون الدولي، في هذا الموقع الديني الإسلامي الحساس، على شريط فيديو مرّره إلى ياسر عرفات، ليعمد هذا الأخير إلى تحذير قادة العالم من نشاطات إسرائيل غير القانونية على الإطلاق.

آنذاك، لم تكن العلاقة بين الحركات الإسلامية في الضفة الغربية وغزّة وداخل إسرائيل قائمة. كان الناشطون الإسلاميون من الضفة الغربية وغزّة يتنقلون بين حيفا ويافا والناصرة للمشاركة في النشاطات الدينية، بينما كان الشبان الفلسطينيون داخل إسرائيل يفضلون الدراسة في جامعات الضفة الغربية مثل بيرزيت والنجاح. خلال فترات الحصار وحظر التجوّل التي كانت تفرضها إسرائيل، كانت الحركة تجمع الأغذية والحاجات الأخرى لمساعدة من هم في الجانب الآخر من الحدود. بين عامي 1985 و1986، بدأ ناشطو حماس في الدول العربية بجمع تبرّعات لتمويل نشاطاتهم، وطلبوا المساعدة من حركات إسلامية أخرى كما من الجاليات الفلسطينية المنتشرة في الخارج. لكن في هذه المرحلة، كانت حماس تسوّق فكرة مفادها ضرورة أن تكون القضية الفلسطينية القضية رقم واحد بالنسبة للأمم الإسلامية في العالم أجمع، مذكّرةً آيّاها بأن فلسطين هي "أرض الأنبياء" بمن فيهم محمد وموسى والمسيح. إنها أيضاً وطن المسجد الأقصى في القدس، الذي يقدّسه المسلمون في كل أنحاء العالم لارتباطه بالإسراء والمعراج،

وهـــي الرحلة الليلية الشهيرة التي قام ها النبي محمد من مكة إلى القدس، التي صعد منها إلى السماء السابعة، وفقاً للوصف الوارد في القرآن:

﴿سُبْحَانَ الذي أَسْرَى بِعَبْدِه لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الذي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[13].

في بداية الثمانينيات، كان العالم الإسلامي أكثر اهتماماً بالقضية الأفغانية. لقد تـــراجع الاهتمام بالقضية الفلسطينية بعدما بردت وتيرة العمليات العسكرية لمنظمة التحريـــر الفلسطينية عقب الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام 1982، ذاك الاجتياح الـــذي أعقبه خروج الفلسطينيين عنوةً من لبنان، ومغادرهم الدول العربية المحيطة بإســـرائيل. كـــان حجم التبرعات للقضية قد تدنّى وذلك حتى الشهور التي تلت الانتفاضة الأولى.

تغيّـــر ذلك الواقع عندما استعرت الانتفاضة في غزّة في العام 1987. رغم أن حمـــاس لم تتولَّ قيادة الانتفاضة، كما أكد الشيخ ياسين، إلا أهّا كانت قوّة فاعلة على الأرض في محاربة الإسرائيليلن.

تسمية الأقسام

قـــبل قيام الانتفاضة، كان كلّ جناح من أجنحة حماس يعمل بشكل مستقلّ عـــن الآخر، دون تمتع أيٍّ منها بأسماء أو أجندات محدّدة. بعد الاجتماع التأسيسي في 8 كانـــون الأول/ديـــسمبر 1987، باتت تلك الأجنحة منضوية ضمن هيكلية تنظيمية موحّدة وقد خصّص كل واحد منها بوظائف معيّنة تشمل مجالات السياسة والاتـــصالات والأمـــن والشباب والانتفاضة والسجناء. أُسِّس الجناح الأخير بعد ارتفـــاع ملحوظ ومثير للقلق في أعداد الأعضاء المعتقلين في السجون الإسرائيلية، فـــيما حظي جناح الانتفاضة بالمقام الأرفع. إنتهج هذا الجناح سياسة التحفظ في الكـــشف عـــن العملـــيات العسكرية حماية للمقاتلين وحصر ادّعاءات المسؤولية بإشـــارات ممـــوّهة إلى هـــذه المهمّات في نشراته الداخلية. أمّا جناح الشباب، أو الأحـــداث، تمّ تأسيسه في بداية الانتفاضة لتوفير أقصى درجات المشاركة من قبل العموم في الإضرابات والتظاهرات.

استخدام الإسرائيليين الوسائل كافة كان يجبر التجار على إبقاء أبواب محالهم مفتوحة تحدياً لإضرابات حماس العديدة. أحد التكتيكات الإسرائيلية قضى بتزييف الدعوات إلى الإضراب التي يتلقاها أصحاب المحال التجارية غير المشككين بصحة الدعوة الجديدة، فيعمد المخبرون إلى إستبدال الدعوة الأساسية بالإعلان عن إلغاء الإضراب المقرّر. كان هذا يسبّب مشكلات كبرى للتجار الذين يعاقبهم قادقم المحليون لإهمالهم تلبية الدعوة إلى الإضراب العام. فكل من يخرق الإضراب كان يجد إطارات محترقة خارج منزله، كشكل من أشكال الإذلال والتهكّم. هذا ما جعل من رائحة دخان إطارات السيارات السِمة المميّزة للانتفاضة.

وكان الجنود الإسرائيليون يصادرون أيضاً إجازات السوق العائدة لسائقي سيارات الأجرة الفلسطينيين الذين يذعنون للأوامر بالإضراب. فقد كانوا يريدون أن يبقوا الحركة في الطرقات على وتيرتها بهدف خلق انطباع بأن الحالة عادية وأنهم مسيطرون تماماً على الوضع.

كان الأحداث يُعلمون الجمهور بنشاطات الانتفاضة وبالتقدّم الذي تحرزه، من خلال كتابات يخطونها على الجدران، حتى صارت هذه الكتابات بمثابة نشرتهم غير الرسمية التي تتحدّى الممنوعات التي فرضها الإسرائيليون على النشر العلني للأدب السياسي. في بعض الأحيان، كانت هذه الكتابات الجداريّة تدعو المجتمع الأهلي للصعود إلى أسطح المنازل والصراخ: "الله أكبر!" احتجاجاً على تضييق الخناق الإسرائيلي على حياتهم. عندما يستشهد أحدهم، كان جناح الشباب يتواجد لتقديم الدعم وتنظيم المساعدة المالية للعائلة. كما يتولى ترتيب مراسم الدفن وإقامة الخيمة المخصصة لتقبل التعازي ويؤمن الطعام للمحزونين. ألقيت مسؤوليات أخرى على عاتق هذا الجناح كتوفير الترتيبات اللازمة للطلاب الراغبين بمتابعة تحصيلهم العلمي في منازلهم أو في الجوامع، على أيدي متطوعين، تعويضاً عن الساعات التي خسروها بسبب إغلاق الإسرائيليين دوريّاً للمدارس والجامعات. كان جناح الشباب كفيلاً بتأمين استمرارية الحياة رغم إجراءات حظر التجوّل والحصار التي تفرضها قوات الاحتلال.

تمّ تأسيس جناح الاعلام قبل انطلاق الانتفاضة، ولكن على إثرها، أصبح هذا الجناح أكثر نشاطاً. فقد تولى مهمة كتابة الشعارات وإصدار بيانات باسم القيادة تغطــي بالتفاصــيل، أخبار الانتفاضة في الضفة الغربية وغزّة، وتمرّر معلومات عن واقــع الأمور للمراسلين المحليين والصحافيين الأجانب. إستلم مسؤولية هذا الجناح خــلال الانتفاضــة الأولى عمــاد الدين العلمي ويحيى موسى ومجدي أبو شمالة، وجميعهم من الجامعة الإسلامية في غزّة. في العام 1983، شكّل الشيخ أحمد ياسين الجــناح العــسكري الذي سلف ما يعرف حالياً بـــ "كتائب عزّ الدين القسّام"، والــذي أنــيطت قــيادته حيــنها بصلاح شحادة، وسمّي هذا الجناح "المجاهدون الفلسطينيون"، وضمّ مجموعة من الخلايا المترابطة بشكل وثيق. وتألفت كل واحدة مــنها مــن مقاتلين أو ثلاثة. الخليّة الأولى كانت تدعى "مجاهدو المغراقة" وكان يقــودها يحيى الغول. تمّ تأسيس هذه المجموعة في العام 1985. المجموعة الثانية سمّت نفــسها "مجموعة 44" وكان يقودها صلاح شحادة بنفسه. لقد تأسست في العام 1986. وثمة خلية أخرى عرفت باسم "خلية 101" ترأسها محمد الشراتحة وتشكلت قبل أشهر قليلة من انطلاق الانتفاضة الأولى. وفي العام 1986، جمع اسم "المقاومة الإســلامية" بــين كل هذه الخلايا. كان لهذه التسمية تأثير قويّ زاد من جاذبية الانتفاضــة. عــندئذ، أصــبح الجناح العسكري معروفاً باسم "الجهاد والدعوة". اختصرت هذه التسمية لتصبح "مجد"، وهو الاسم الذي تبناه لاحقاً الجناح الأمني. أخيراً، اعتمد اسم "عزّ الدين القسّام" نسبة إلى قائد ثورة ضدّ الشرطة البريطانية-الفلسطينية إبان حقبة الانتداب البريطاني.

تحــوّل قــتال الــشيخ عزّ الدين القسّام ضدّ الاحتلال البريطاني مصدر إلهام لحمــاس في معــركتها الخاصة ضدّ قوات الاحتلال الإسرائيلي. وقسّمت حماس تنظيمها إلى وحدات قيادة منفصلة عن بعضها بعضاً. كل واحدة منها تتكفّل باتمام وظائــف عــدّة، تماماً كما فعل القسّام. وفي لفتة رمزيّة، اعتمد اسمه كنيةً لجناح حماس العسكري. تعرّضت قيادة حماس لضغوط مارسها عليها المنضوون الجدد في الجناح العسكري. فقد أصرّ هؤلاء على بدء المواجهة ضدّ إسرائيل في حين كانت القيادة متردّدة خوفاً من تكرار تجربتها السابقة غير الناجحة، المتمثلة باعتقال معظم

أعضاء القيادة، ما كاد يتسبّب بالقضاء على الحركة. خلافاً لفصائل فلسطينية أخرى، إفتقر أعضاء حماس إلى الخبرة والقدرة على خوض الحملات العسكرية، بما أن ثقافة حركة الإخوان المسلمين التي نشأوا عليها لم تكن صدامية عموماً. كان ذلك لصالحهم في المراحل الأولى، إذ خلق لدى الإسرائيليين انطباعاً خاطئاً، فلم يتعرّضوا لهذه الحركة اليافعة ذات النشاطات الثقافية السلمية ظاهرياً. لقد اعتقدوا أن عدم إعاقة ازدهار هذه المنظمة أمر سيخدم مصالحهم الخاصة، إذ أمل الإسرائيليون أن تساهم هذه الحركة في إضعاف منظمة التحرير الفلسطينية التي كانت حينها ألدّ أعداء إسرائيل. فيما بعد، ندمت إسرائيل لاعتمادها هذه الاستراتيجية عندما أطلقت حماس العنان لجناحها العسكري كلاعب أساسي على مسرح الانتفاضة.

خلال تلك الفترة، تلقى قائد الجناح العسكري صلاح شحادة دروساً قاسية، جعلته يدرك ضرورة عدم الاتكال على مساعدة خارجية لتوفير السلاح. كانت خلاياه الصغيرة المنضبطة مصمَّمة لتتمتع باستقلالية ماديّة وعسكريّة. في وقت كان الاعتماد على تجار السلاح محفوفاً بالخطر ومكلفاً ماديّاً، فيما سرقة الأسلحة من الجنود الإسرائيليين والمخبرين الفلسطينيين أقلّ ثمناً، وإن كان أكثر خطورة. وقد رحّب جيل الشباب، الذي يتحلى بالشجاعة وبالالتزام العقائدي، والمصمّم على خوض المعركة، بذلك التحدّي. أوّل مدفع "عوزي" إسرائيلي الصنع حصل عليه الجناح العسكري، كلفه حياة غسان أبو الندى الذي حاول نصب كمين لمخبر فلسطيني مدجّج بالسلاح متوجّه إلى إحدى المستوطنات الإسرائيلية في غزّة. شجّع الجناح العسكري لحماس الفرع الفلسطيني لحركة الإخوان المسلمين على الانضمام إلى صفوفه في التظاهرات والهجمات العسكرية. كانت الحركة سعيدة بالتجاوب، فقد رغبت في تأمين موقع لها على الخريطة السياسية الفلسطينية، تنشر، انطلاقاً منه، عقيدتها الإسلامية. كما أرادت العمل مع منظمة التحرير الفلسطينية ألعلمانية والمتأصلة في المجتمع الفلسطيني.

في اعترافاته، سمّى الشيخ ياسين كلاً من يحيى سنوار، وهو طالب في الجامعة الإسلامية، وخالد الهندي، كمسؤولين عن إنشاء الجناح الأمني. وقد أعطاهما

ياسين الضوء الأخضر للبدء في تجنيد أعضاء جدداً، مانحاً سنوار المسؤولية على النصف الجنوبي من قطاع غزّة، فيما تسلم الهندي الإشراف على مدينة غزّة والقسم الشمالي من القطاع. يقول ياسين مستعيداً ذكرياته: "بدأ الجناح العسكري بجمع المعلومات، وقلت لسنوار: أيّ مخبر فلسطيني يعترف بالتعامل مع السلطات الإسرائيلية، اقتله على الفور".

تحوّلت "مجد" إلى جهاز استخباراتي بدائي. في العام 1989، اعتقل عدد كبير من أعضائها بتهمة التجسس لصالح الإسرائيليين. بعد استجوابهم وتسجيل اعترافاتهم، أصدر الجناح الأمني أحكاماً بالإعدام بحق من وجد مذنباً. من سخرية الأمور أن سنوار وقع في الفخ الذي نصبه بنفسه إذ وجد نفسه يعترف للمحققين الإسرائيليين بمسؤوليته عن قتل أربعة مخبرين. كان الجناح الأمني يوجّه إلى المخبرين تحذيرات قبل اتخاذ التدابير بحقهم. أحرقت مئات السيارات العائدة لمخبرين، وكانت تحذيرات مكتوبة تلصق على جدران أو أبواب المساجد أو في مواقع استراتيجية في الأسواق لمنحهم فرصة التخلي عن ارتباطاتهم بالإسرائيليين. وفي حال لم يتجاوبوا مع هذه التحذيرات، كانوا يقتلون، بعد التحقيق معهم وتوقيعهم على نص اعترافاتهم التي كانت تلصق في أمكنة استراتيجية لتكون رادعة لآخرين.

شكّلت علاقة حماس بالقيادة الموحدة للانتفاضة بزعامة ياسر عرفات عائقاً أساسياً في وجه حماس النامية. أصبحت هذه العلاقة متشنجة بعدما وجدت فتح أن حماس تقف في الموقع المنافس لها، وأنها تحظى بدعم الكثيرين. إندلعت الصراعات بين أنصار فتح وحماس في مختلف المدن الفلسطينية. ووفقاً لصلاح شحادة، فقد وقع العديد من الأحداث التي كادت أن تؤدي إلى انهيار الانتفاضة وتمنح إسرائيل إمكانية السيطرة على الوضع. "كنا مدركين منذ بداية الانتفاضة أن الاستخبارات الصهيونية تحاول خلق الشقاق بيننا، من خلال نشرها بيانات مهينة تحمل زيفاً اسم حماس وترسلها إلى القيادة الموحدة. كشفنا المؤامرة، وفيما كانت الانتفاضة تشهد توتراً في العلاقات بين المنظمتين، كنا نتخطى هذه التشنجات بفضل المساعي التي بذلها أخواننا في حماس وولاء فصائل أخرى. تمكّنا بعون الله من السيطرة على النزاعات وخنق أية خلافات محتملة في المهد".

والد الحركة

شـــكّل وجود قائد قوي تتوحّد حوله الحركة اليافعة ضرورة في الأيام الأولى لنشوء حماس وانطلاق الانتفاضة. والشيخ أحمد ياسين صاحب الكاريسما الساحرة التي يعزّزها علمه وتقشفه وشجاعته، طابق المواصفات.

عـــن غير قصد أو وعي، وفر الإسرائيليون للشيخ ياسين دعايةً لا سابق لها. فبعد توقيفه في 18 أيار - مايو 1989، بثت محطات التلفزيون الإسرائيلية محاكمته، الـــتي امـــتدت ما يقارب السنة، مباشرة على الهواء. وكان يرأس المحكمة القاضي العسكري في سجن غزّة المركزي زكريا كاسبي. وفقاً لمحامي ياسين، ناظم عويضة، كـــان الإسرائيليون حريصين على متابعة كل جلسة. "الشهود الذين وقفوا ضدّه كانـــوا مـــن الاستخبارات الإسرائيلية ومن الشرطة الإسرائيلية. لم يكن هناك أيّ شـــهود عرب". هذا ما عزّز مكانة ياسين أكثر فأكثر بالنسبة للفلسطينيين، وجعل منه، علانيّةً، شهيداً حيّاً. الاتهامات التي وجهت إليه كانت: إنشاء منظمة المجاهدين الفلسطينيين (مجد)؛ حيازة أعضائها على أسلحة؛ سعيهم لإزالة إسرائيل من الوجود وإحـــلال أمـــة إســـلامية مكانها. قدّمت الاستخبارات الإسرائيلية في المحكمة بعض الأســـلحة كأدلة دامغة ضدّ الشيخ. استناداً لأقوال ناظم، "كان ذلك عدداً محدوداً من الأسلحة المخصصة للاستخدام الفردي". في ردّه على مرافعة ناظم الأولى، قال رئيس المحكمـــة العسكرية: "إن المحامي المثقف يدّعي أنه يستحيل على موكّله، نظراً لإعاقته الجسدية، تأليب أي طموح منطقي بإزالة إسرائيل، في وقت فشل ستة ملايين عربي في تحقـــيق ذلك. المسألة لا تتعلق فقط بإمكانياته الماليّة، ولكن بالأحرى، هي ترتكز على الاعـــتقادات الإيديولوجية والمعنوية التي يتمسّك بها المتهم". قال لي ناظم إن القاضي الإســـرائيلي خاض في مقارنة بين طموح آية الله الخميني ونجاح رجال الدين في إلغاء النظام السياسي العلماني في إيران، وإقامتهم دولة إسلامية.

قـــدّر محامي ياسين أن تسعين في المائة من المعتقلين الذين تمّت إدانتهم طلبوا - كآخـــر أمنية لهم - السماح والرحمة، وأظهروا ندماً على ما فعلوه. الشيخ ياسين وقلة آخـــرون رفضوا الاعتذار، بأي شكل من الأشكال، أمام المحكمة. على الرغم من أن ذلـــك قد عزّز موقع الشيخ ياسين في غزّة، إلا أنه أسفر عن حكم صارم ومبرم بحقه:

الـــسجن المـــؤبد. لكن، في وقت لاحق، وتحديداً في الأول من تشرين الأول/أكتوبر 1997، أطلق سراح الشيخ ياسين. لقد نال حريته بفضل وساطة قام بها العاهل الأردني الملـــك حـــسين، تقضي بمبادلته بعميلين للموساد كانا قد فشلا في اغتيال قائد حماس خالـــد مشعل. اعتقد ياسين أن إسرائيل أمّنت عودته "في وقت متأخر، للحؤول دون قيام احتفالات وتجمّعات حاشدة لاستقباله". لقد شُبّه وجوده في السجن بـــ "الإقامة في فندق خمس نجوم"، لأنه حظي بالوقت الكافي لحفظ القرآن والابتهال لله. "لولا أن السجن لم يفرّق بيني وبين عائلتي والناس الذين أحب، لكنت قادراً على البقاء فيه إلى الأبد. لقد تعبت من قيام الجيش الإسرائيلي بتفتيش بيتي مراراً وتكراراً، ومن الذهاب بشكل دوريّ إلى مراكز الاستخبارات الإسرائيلية".

المهـــندس الناشـــط في حمـــاس فريد زيادة كان واحداً من مجموعة سجناء فلـــسطينيين اعتـــنوا بالـــشيخ ياسين خلال العام 1994في سجن كفار يونا الذي إســـتخدم، بشكل أساسي، لإيواء المجرمين الإسرائيليين والعرب المسجونين لدواع أمنـــيّة. يذكـــر زيادة، وهو من إحدى قرى جنوب نابلس، الجلبة التي سرت في صـــفوف الـــسجناء الفلسطينيين في سجن نابلس المركزي عندما علموا أنه سيتم نقلـــهم إلى كفـــار يـــونا. أمر واحد شغل بالهم: كيف سيتقرّبون من قائد حماس الروحي، ليس فقط لخدمته والاعتناء به، ولكن للاستماع لأقواله الحكيمة. مفصّلاً حـــياة الـــشيخ ياســـين اليومية في السجن(14)، يصف زيادة كيف أن الشيخ كان يستيقظ في الساعة الثالثة صباحاً ليستعدّ لصلاة الصبح. وبعد تأديته فرض الصلاة، يـــستغرق في قـــراءة القرآن حتى مغيب الشمس. عندما يطلع النهار، كان زيادة وســـجين آخر يأخذانه إلى باحة السجن ويدلكان ذراعيه للتخفيف من الآلام التي يـــسببها له مرضه المزمن. بعد هذه الفسحة القصيرة في الخارج، كان يُحمل مجدّداً إلى زنـــــزانته حيث يقرأ من مجموعة الكتب المتوفرة لديه. كان قارئاً نهماً، يحفظ كميات هائلة من الكتابات عن ظهر قلب. يتذكر زيادة أن ياسين "لم يشتك يوماً، وأنه كان يحب المزاح مع الآخرين في السجن، للمحافظة على معنوياتهم مرتفعة".

ويـــصف سامي علاوة من نابلس المئة يوم التي اعتنى خلالها بالشيخ ياسين بأنها "أفـــضل مئة يوم في حياتي... رغم أننا كنا محتجزين في زنـــزانة ضيقة لا يصلها نور

الـــشمس". وقـــال إن السجناء الفلسطينيين اعتادوا أن يتنافسوا على خدمة مؤسس حماس، وإنهم كانوا يتعلقون بكل كلمة من كلماته. "صحيح أنه قلما ما كان يتكلم" يقـــول علاوة، "ولكن عندما يفعل، كانت كلمات ملؤها الحكمة"[15]. ضابط سجن إســـرائيلي في كفار يونا صرّح للتلفزيون الإسرائيلي أن ما من شيء في تصرّف الشيخ ياســـين أو في حـــركاته، كان ليوحي أن الشيخ عدائي أو من النوع الذي يحث على الإرهـــاب[16]. الـــضابط الذي بقي اسمه طيّ الكتمان، قال: "إعتدتُ مراقبة تصرّفاته وأدائــــه بحـــقّ السجناء الذين يعتنون به. كان دائماً طيّباً ومحبّاً، ولهذا كانوا يهتمون لأمره". ويتابع الضابط قائلاً: "أدركت أن أعضاء حماس مستعدّون للانتقام بأي شكل من الأشكال، في حال تعرّض الشيخ ياسين للسوء، بما أنه كان زعيمهم الروحي"[17].

مـــن جهـــته، وصف ناظم الشيخ بأنه "شخص هادئ للغاية. هدوؤه مرتبط بشخـــصيته ولا علاقة له بمرضه. حتى عند إطلاق سراحه وتوليه مسؤوليات عامة، بقـــي قليل الكلام". وفي السياق نفسه، يضيف: "ما أستطيع أن أذكره عنه هو أنه كان شخصاً عقائدياً، لم يشعر يوماً بندم، و لم يعبّر أبداً عن أسف. كانت ابتسامته توحي بأنه واثق من أن سراحه سوف يطلق. كما كان يشدّد على ضرورة تعايش الـــيهود والمسيحيين والمسلمين، معلناً أنه ليس ضد اليهود كشعب ينتمي إلى الدين اليهودي، بل أنه ضدّ من اغتصب أرضنا".

أيّاً كانت طبيعة الاتفاق الذي عقده الشيخ ياسين مع إسرائيل بالنسبة لمستقبل فلـــسطين والتعايش مع اليهود في دولة واحدة، أكان وقفاً لإطلاق النار أم الحفاظ علـــى فترة طويلة الأمد من التهدئة، فإن ذلك يمثل إجراءات مؤقتة، ليست تمهيداً لـــسلام دائم. إن طموحاته على المدى البعيد كانت ثابتة: المطالبة بكامل فلسطين كمـــا كانـــت عليه قبل العام 1948 مع القدس كعاصمة فلسطينية؛ إعادة ترسيم الحـــدود وفقاً لما كانت عليه قبل العام 1967؛ وتفكيك المستوطنات. بقيت قناعته الراســـخة حتى يوم اغتياله أن المستقبل تقرّره الأجيال الفلسطينية المقبلة، لا الجيل الحـــالي المناضل في زمن اختلت فيه موازين القوى لغير صالح الفلسطينيين. وحتى تاريخه، لم تظهر حركة حماس أي مؤشرات تنبئ بإدخالها تعديلات على نص البيان التأسيسي الذي اعتمدته يوم إطلاقها منذ ما يقارب العقدين من الزمن.

كتائب عز الدين القسام

حمل الجناح العسكري لحماس إسم عزّ الدين القسّام تيمناً بذاك الرجل الذي أبصر النور في العام 1882 في جبلة، جنوب اللاذقية، على الساحل السوري للبحر الابيض المتوسط. لم تتوفر في المنطقة آنذاك مدارس رسمية. فقطع والد القسّام، عبد القــادر، وهــو الضليع في شؤون الشريعة الإسلامية، عهداً على نفسه، بتعليم ابنه القــرآن واللغة العربية والخط العربي والشعر والمدائح الدينيين. حثّ عبد القادر ابنه وســواه مــن الشبان اليافعين في البلدة على استيعاب شريعة الجهاد. تزوَّد القسّام بركائز راسخة في مجمل الأمور الروحية والثقافية والدينية قبل أن ينتقل إلى القاهرة لينتــسب إلى جامعــة الأزهر، أشهر مؤسسة علمية دينية في ذلك الوقت، لتلقين الشريعة والدراسات الإسلامية. نشاطات بعض الحركات التحررية في مصر أثارت انتبــاهه، إذ كانت المقاومة ضد الاحتلال البريطاني تحظى بدعم كبير في الأوساط الــشعبية والثقافية. وجذبته بشكل خاص طروحات مفكرين إسلاميين أمثال محمد عبدو، المتأثر بالمدرسة السلفية للفكر الإسلامي[1].

في العام 1906، وقبل عودته إلى بلاده ليمارس مهنة التعليم في مدرسة والده، قــام القــسّام بجولة على مساجد تركيا، مستطلعاً أساليب التدريس فيها. عندما احــتلت القــوات الايطالية مدينة طرابلس في ليبيا في العام 1911، سار على رأس تظاهــرة في شــوارع جــبلة، داعياً مواطنيه إلى التطوّع لطرد الاحتلال الايطالي. وعــندما احتلت القوات الفرنسية سوريا في العام 1920، قاد القسّام المقاومة ضد الفرنسيين في مناطق الساحل الشمالي لسوريا، وباع منــزله وسائر ممتلكاته لشراء أربــع وعــشرين بندقية. حاول الفرنسيون إقناعه بالتخلي عن ثورته والعودة إلى مــسقط رأسه، وعرضوا عليه منصباً إدارياً. لكنه رفض عرضهم، فحكمت عليه السلطات الفرنسية في اللاذقية بالإعدام، إلا أنه تمكن من الفرار. هرب إلى دمشق، ومــنها إلى فلــسطين، حــيث استقر في احد أحياء مدينة حيفا القديمة وبادر إلى

مساعدة المحتاجين الأميّين. شرع في إقامة صفوفاً ليلية مخصصة لتعليمهم القراءة مستخدماً النص القرآني، ولإطلاعهم على واجب الجهاد. كان طلابه عمّالاً في السكة الحديد وفي البناء وحرفيين واصحاب متاجر صغيرة ومزارعين طردهم الصهاينة من أرضهم في نهاية العشرينيات من القرن المنصرم. أنشأ القسّام جمعية الشبان المسلمين على غرار جمعية الشبان المسيحيين، فكان يشجع الشباب على أداء واجب الجهاد للتصدي لخطر الاحتلال البريطاني وللدعم غير المباشر الذي تقدمه القوات البريطانية للحركة اليهودية.

عندما عُين قاضياً في المحكمة الشرعية في حيفا في العام 1930، كان قد عزّز علاقاته وشعبيته بين الفلسطينيين من كافة الفئات الاجتماعية. بدأ يعقد الاجتماعات السرية في منزله، وكان اتباعه من الأشخاص المواظبين على حضور صفوفه المسائية أو على سماع الخطب التي يلقيها في المسجد يوم الجمعة. وتشكلت خلايا جهادية صغيرة، اقتصرت عضويتها على الأشخاص المستعدين لبذل التضحيات على اختلاف أنواعها. شكلت هذه الخلايا جزءاً من قوة جهادية أكبر، تولى القسّام تقسيمها إلى عدّة وحدات: وحدة لشراء الاسلحة، وحدة لتقصي المعلومات مهمتها مراقبة النشاطات البريطانية واليهودية، وحدة ثالثة للتدريب العسكري، ورابعة للاتصالات والدعاية وللدعوة إلى الجهاد، فيما تولت وحدة خامسة الاهتمام بالشهداء والسجناء وعائلاتهم.

فور إنشائها، باشرت تلك الوحدات بمهاجمة المستوطنات الإسرائيلية بهدف وضع حدٍّ للهجرة اليهودية إلى فلسطين. خصصت الحكومة البريطانية مبالغ طائلة من المال لتشجيع المخبرين الفلسطينيين على فضح هويات مقاتلي القسّام ونشاطاتهم. وفي 30 تشرين الثاني/نوفمبر من العام 1936، أحكمت الشرطة البريطانية في فلسطين الطوق على القسّام ومقاتليه عند ضواحي مدينة يعبد في مقاطعة جنين. وقعت مواجهات مسلحة عنيفة بين القوات البريطانية ومقاتلي القسّام في غابات منطقة يعبد، تخللها تبادل كثيف لاطلاق النار. قتل القسّام مع عدد كبير من المقاتلين إلى جانبه، وألقي القبض على من بقي منهم على قيد الحياة[2]. أُعلن يوم الجمعة الذي تلا هذه المعركة الدامية يوم حداد التزمت إحياءه المساجد

في كل انحاء فلسطين. ومنذ ذلك الحين، صار عزّ الدين القسّام مثالاً أعلى يحتذى به في التضحية الوطنية والجهاد يحتذى به.

إستخدم رجال القسّام الأسلحة لإيقاع خسائر كبيرة في صفوف القوات البريطانية، امّا المقاتلين المنتمين إلى كتائب عزّ الدين القسّام الحديثة العهد، فلم تتوفر لديهم سوى البنادق والخناجر. وبالمقارنة مع حقبة القسّام ومجاهديه، فإن رفاق عماد عقل، قائد الجناح العسكري لحماس، يذكرون مدى الكبت والقهر اللذين عانوا منهما بسبب خوضهم المعارك الضارية بأسلحة بدائية كالحجارة والقنابل اليدوية والصواريخ المحلية الصنع.

ولد عماد ابراهيم عقل في مخيم جباليا للاجئين، شرق مدينة غزّة، في 19 حزيران/يونيو من العام 1971. قبل قيام دولة إسرائيل في العام 1948، أرغمت القوات اليهودية والديّ عقل على الهرب من قريتهما القريبة من بلدة المجدل (التي اصبحت اليوم مدينة عسقلان أو أشكلون الإسرائيلية). كانت قرية العائلة تقع خلف الخط الأخضر، الذي رسم في أعقاب حرب العام 1948 بين إسرائيل وخصومها العرب، أي فلسطين ولبنان وسوريا والأردن ومصر. رسم هذا الخط الأخضر المزعوم الحدود المفروضة بحكم الأمر الواقع بين إسرائيل والدول العربية المجاورة لها. إلا أن أجزاء من الأراضي العائدة لتلك الدول ستحتلها إسرائيل لاحقاً خلال حرب الأيام الستة في العام 1967. عندما ولد عماد، وكان والده يعمل في "مسجد الشهداء" في مخيم جباليا، وكان يطمح بأن يصبح ابنه مجاهداً. فأسماه عماد تيمناً بالبطل المسلم والمسايف عماد الدين زنكي الذي استرجع أرض أديسا[3] من الصليبيين في العام 1144. كانت هذه الواقعة التاريخية قد أسفرت عن حروب صليبية متعاقبة أمر الملوك الأوروبيون بشنها بداعي استرجاع فلسطين من المسلمين. وقد شهدت هذه الحملات العسكرية بروز شخصية مسلمة أسطورية أخرى هي صلاح الدين الأيوبي الذي حمى في العام 1187، مدينة القدس من الجيوش المسيحية الغازية.

تلقى عماد علومه في المدرسة التابعة لوكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين "الأونروا" في المخيم، حيث ذاع صيته كطالب لامع، وما أن بلغ

الثانـــية عـــشرة من عمره، حتى أصبح من روّاد المساجد المجاورة، ومنها "مسجد الـــنور" على وجه الخصوص، حيث نال احترام كبار السن وخاض تجربة النشاط السياسي للمرة الأولى من خلال جماعة الإخوان المسلمين. وفي السابعة عشرة، قرّر أن يـــدرس الكيمـــياء. لكن قبل أن يتمكن من ادخار تكاليف الدراسة، انطلقت الانتفاضة الأولى في قطاع غزّة في كانون الأول/ديسمبر عام 1987، فخاض عماد غمار الحملات المناهضة لإسرائيل، وصار يخط الشعارات على الجدران ويشارك في التظاهرات العامة. أنشأ مجموعة عرفت بإسم "السواعد الرامية" والتي تحوّلت لاحقاً إلى الجناح العسكري الخاص بالشباب والمتعارف على تسميته بـــ "الأحداث". تمثل المـــراهقون بعماد، فأقدموا على المشاركة في أعمال الانتفاضة، الأمر الذي عرّضه للاعـــتقال شـــهوراً عـــدّة في أحد السجون الإسرائيلية. تبددت أحلامه بدراسة الكيمياء، فشرع بتلقي علوم الشريعة الإسلامية في عمّان، حيث كان شقيقه يشغل مقام إمام أحد المساجد. لكن الاستخبارات الإسرائيلية أعاقت مرّة أخرى مساعيه لاســتكمال تحـــصيله العلمـــي، إذ حالت دون تقديمه طلب انتساب إلى الجامعة، ورفضت منحه الإذن بالسفر إلى الأردن بحجة دوره الفاعل في الانتفاضة.

مـــع بدايـــة شهر أيار/مايو من العام 1990، أضحى الجناح العسكري الذي انشأه صلاح شحاده والشيخ أحمد ياسين يضمّ مجموعة صغيرة من المقاتلين. ازداد عديـــد هـــذه النواة الأولية بفضل عمليات تجنيد المقاتلين المنتشرين في مختلف انحاء قطـــاع غـــزّة. ورد اسم عماد عقل مسجلاً في مقدمة لائحة المنتسبين الاوائل إلى الجـــناح العسكري لحماس، بصفته قائد الجناح العسكري، وجاءت اللائحة على الشكل الآتي:

عمـــاد عقـــل، ولـــد في جبالـــيا في العام 1971 واستشهد في 24 تشرين الثاني/نوفمبر من العام 1993.

غـــسان مـــصباح أبو الندى، ولد في العام 1969 في جباليا، واستشهد في 2 أيار/مايو من العام 1991.

محمد عبد الكريم أبو العطايا، ولد في حيّ اليرموك في غزّة في العام 1968 واعتقل في 29 تموز/يوليو من العام 1992. صدر بحقه سبعة عشر حكماً بالسجن المؤبد.

محمد ابو عايش، ولد في العام 1967 في اليرموك. اعتقله الجيش الإسرائيلي مع أبو العطايا وصدرت بحقة خمسة أحكام بالسجن المؤبد.

محمـــد علـــي حارث، ايضاً من اليرموك، ولد في العام 1968 واعتقل مع ابو عايش ومحمد علي حارث. صدرت بحقه ثمانية أحكام بالسجن المؤبد.

مجـــدي أحمـــد حمـــد، ولد في جباليا في العام 1965 واعتقل في 26 كانون الأول/ديسمبر من العام 1991. صدرت بحقه ستة أحكام بالسجن المؤبد.

طـــلال صالح، ولد في العام 1969 في حيّ الزيتون في غزّة، غادر المنطقة عبر شـــبكة الانفاق برفقة كل من بشير عودة حمد الذي ولد في جباليا في العام 1967، ونهرا مسعود الذي ولد ايضاً في جباليا في العام 1971. فرّ صالح وحمد ومسعود من قطـــاع غزّة إلى مصر خوفاً من اعتقالهم، بعدما تعرضت منازلهم ومنازل كل من زاروهم للمداهمة والتفتيش.

بصفته القائد التنفيذي للجناح العسكري لحماس، أدرك عقل أنه يتوجب عليه تسليح هذا الجيل الجديد من المقاتلين. فبدأ بتجنيد شبان كلفهم مهمة إيجاد مصدر للتـــزوّد بالسلاح. لقد أخبرني أحد كوادر القسّام الذي رفض الكشف عن هويته، وســـأطلق عليه اسم "طارق"، أنه حين بدأت كتائب عزّ الدين القسّام هجماتها في العام 1991، لم يكن في متناولها أكثر من 20 رشاشاً، هي كل ما توفر في ترسانتها من سلاح حتى العام 2000.

أراد عقـــل أن يسلّح مجموعة جديدة من المقاتلين كان قد باشر تشكيلها في القسم الشمالي من قطاع غزّة واطلقت على نفسها اسم "مجموعة الشهداء". قضى اول اهدافها المعلنة باستهداف العملاء الفلسطينيين وسرقة الأسلحة المتوفرة بحوزتهم والتي عادة ما كان رعاتهم الإسرائيليون يزوّدوهم بها. أول من تمّت تصفيته هو يحيى الأحول. وبعد فترة قصيرة، أعقبت مقتل الأحول، محاولة اغتيال مصطفى المشلوح.

انقسمت الخلايا العاملة في المنطقة الشمالية إلى مجموعتين، استقلت كل منهما ســـيارة، وانطلقتا في مهمة قتل المشلوح الذي كان يقيم في منـــزل يخضع لحماية مشددّة، يتولاها حراسه الشخصيون وحراس حدوديون إسرائيليون تلقوا التدريب في مستوطنات مجاورة. في 2 أيار/مايو من العام 1991، تعقبت السيارتان تحركات

المشلوح تمهيداً لمهاجمته وللاستيلاء على ترسانة الاسلحة الضخمة التي كان معروفاً عنه أنه يحملها معه أينما ذهب، بما فيها رشاشات "أم – 16" ورشاشات "عوزي" الإسرائيلية الصنع. عندما اعترضوا سيارته، فوجئوا بأن المشلوح كان يحمل رشاشاً، فقتل غسان ابو الندى على الفور. أصيب أيضاً محمد ابو العطايا الذي كان يحاول السيطرة على سيارة المشلوح، وقد توفي لدى وصوله إلى مستشفى المعمداني حيث كـــان يعمـــل. أما المشلوح فهرب إلى إحدى المستوطنات المجاورة. لم تكن هذه البداية مبشّرة بنجاح هذا النوع من العمليات.

لكـــل مقاتـــل مآثر بطولية خاصة به تلازم اسمه ويعرفها جميع شبّان غزّة عن ظهر غيب، ومنها ما يروى عن مجدي حمد، الذي تعرّض لتجربة مريرة للغاية يوم 14 كانـــون الأول/ديـــسمبر من العام 1991. إذ درجت العادة حينذاك أن تحتفل كتائب القسّام بذكرى اليوم الذي أصدرت فيه حركة حماس في العام 1987، بيانها التأسيسي، على حدّ قول قادتها، الذي فصّلت فيه مخططها الذي عزمت على تنفيذه في مـــواجهة الاحـــتلال الإســـرائيلي للأراضي الفلسطينية. وفي الذكرى الاولى لانـــشائها، قرّرت كتائب عزّ الدين القسّام إحياء المناسبة باستعراض عسكري في مخـــيم اللاجئين في جباليا. شارك مجدي حمد، الذي كان قائد إحدى الخلايا التابعة للكـــتائب في مخـــيم الشاطىء المجاور، في الاستعراض حاملاً رشاشاً قديماً سويدي الصنع، من نوع "كارل غوستاف أم. 45"، عيار 9 ملم، كان قد استعاره من احد الأعـــضاء في خليـــته. كـــان رشاش "كارل غوستاف" السلاح الرسمي للجيش الـــسويدي بعد الحرب العالمية الثانية، وكان يُصنّع، بين العامين 1965 و1970، في مصر بموجب رخصة، حيث سُمّي "رشاش بور سعيد"[4].

لم يحمل أيّ من المشاركين الآخرين في الاستعراض العسكري سلاحاً، أكان حقيقياً أم لا، خشية أن تقوم الاستخبارات الإسرائيلية باعتقالهم بداعي أنهم اعضاء في ميليشيا مسلحة. مجدي رجل ممتلىء الجسم، وعلى الرغم من انه كان يعمد إلى لـــف رأسه بالكوفية، في محاولة منه للتخفي، فهو يُعرف على الفور. لقد أثار قلق الآخرين لدى اطلاقه عيارات نارية في الهواء ابتهاجاً، فدعت قيادة مجموعة الشهداء إلى اجتماع عاجل، وقرّرت إرساله إلى الخارج، طالما أنه كان عرضة للاعتقال وقد

يُـــرغم على البوح بهوية رفاقه وبمعلومات أخرى. تمّ الاتفاق على أن يجتاز مجدي الحـــدود إلى مـــصر، برفقة حسن العايدي، الذي كان أيضاً مطلوباً من الاجهزة الأمنـــية الإســـرائيلية، لتورطه ببعض الأعمال مع الأحداث في وسط غزّة. تجنب الاثـــنان المرور عبر معبر رفح الذي يخضع للمراقبة المشدّدة، وعمدا إلى السباحة في مياه البحر الأبيض المتوسط تحت جنح الظلام، في محاولة لبلوغ شاطئ الأمان على الجانب المصري من الحدود. لكن الدوريات الإسرائيلية التي كانت تجوب شاطىء غـــزّة رصـــدت مجدي والعايدي وسط الأمواج، فاعتقلتهما ونقلتهما إلى سجن الـــسرايا، أي الـــسجن الرئيس في غزّة. وكما تخوّفت منظمتهما، تعرّضا للتعذيب وأرغمـــا على الإدلاء باعترافات. كان سبق لمجدي أن سجن أربع مرات، وأطلق سراحه قبل شهرين من اعتقاله مجدّداً.

نتـــيجة اعترافات مجدي، أصبح عماد عقل وفريقه المؤلف من أبو العطايا وأبـــو عياش وحارث وبشير وطلال، منذ تاريخ 26 كانون الأول/ديسمبر من العام 1991، رجـــالاً مطلوبين. بات عقل، على حدّ وصف أحد رفاقه، دائم التيقظ والتأهب. ذات ليلة، وفيما كان الرجال الستة مجتمعين في ملاذهم الآمن، طلبوا مـــنه الانضمام إليهم للصلاة سوياً. فأجابهم بأن يؤدوا هم الصلاة معاً، أما هو فـــسيواصل الحراسة. لم يعد يأكل كثيراً، بل يمازح رفاقه الأكثر شرهاً قائلاً لهم إنـــه من الأفضل له أن يخفف من الطعام لئلا يصبح كسولاً أو تنال منه الرغبة بالنوم.

لم يحُل افتقارهم للاسلحة دون شنّهم الهجمات ضد الجيش الإسرائيلي أو ضد المـــستوطنين اليهود. لقد سجلت أولى عملياتهم في 14 أيار/مايو من العام 1992، عـــندما حاول عقل اطلاق النار على ضابط شرطة إسرائيلي رفيع الرتبة في غزّة، بواسطة الرشاش السويدي "كارل غوستاف". ألحق الهجوم أضراراً بسيارة حرّاس الـــضابط الشخـــصيين، لكن الضابط نجا. الهجوم الثاني نفذه محمد أبو العطايا بعد ثلاثـــة أيـــام. استقلّ وأحد رفاقه سيارة من طراز بيجو 404 وتعقبا سيارة يقودها ديفيد كوهين، وهو تاجر مواشي إسرائيلي، على الطريق إلى بيت لاهيا، وأرغماه على التوقف ثم قتلاه على الفور.

عدا الهجمات ضدّ أهداف إسرائيلية، قتل عقل ومجموعته ثلاثة عشر فلسطينياً على الأقل، بعضهم عملاء لدى الاستخبارات الإسرائيلية، والآخرون تجار مخدرات في غزّة. كان الوجود الإسرائيلي في القطاع في ذلك الوقت كثيفاً للغاية، ما اضطرّ عقل ومجموعته إلى البحث عن ملاذ آمن في مكان آخر. حاجتهم الملحّة إلى رشاشات أجبرتهم على العبور إلى الضفة الغربية، إذ إنهم استبعدوا فكرة مغادرة الأراضي الفلسطينية بعد فشل محاولة مجدي حمد في الهرب إلى مصر. لم يكونوا مزوّدين إلا برشاش الـ "كارل غوستاف" الوحيد إياه، فسعوا جاهدين للحصول على رشاش إضافي من الطراز نفسه، وعلى مسدس من قيادة الحركة.

استشار عقل وزملاؤه في مجموعة الشهداء قيادة كتائب القسّام في قطاع غزّة والضفة الغربية، ووضعوا خطة للانتقال من غزّة إلى الضفة الغربية. كانت الخلايا في الضفة قد نجحت في سرقة عدد من الهويات العائدة لعرب إسرائيليين يقيمون داخل إسرائيل. لقد قضت خطتهم بتزوير هذه البطاقات، واستبدال الصور والتفاصيل الشخصية بتلك التي تخص أفراد المجموعة. وقرّر الرجال أن ينتقلوا الواحد تلو الآخر إلى داخل إسرائيل عبر معبر إيريز، على أن يبدأوا باجتياز القسم الشمالي من قطاع غزّة اعتباراً من 22 أيار/مايو من العام 1992.

يبلغ طول معبر إيريز 22 متراً، وهو يرفد عدداً من الطرقات الضيقة المؤدية إلى مراكز تفتيش مدعّمة بالحديد الواقي. كان عماد عقل أول العابرين من بين أفراد المجموعة. وقف في واحد من الصفوف الطويلة التي يصطف فيها الفلسطينيون وقد أرهقهم طول الانتظار. ساعات طويلة يمضونها تحت وطأة أنظار المراقبين، منتظرين صدور إذن بالدخول إلى إسرائيل للعمل. لم تثر هوية عماد المزوّرة ريبة حراس الحدود الإسرائيليين، فتوجه في سيارة أجرة إلى القدس، التي تبعد مسافة ساعة من الحدود. استأجر شقة صغيرة في حيّ أبو ديس الواقع على جبل الزيتون، عند التخوم الشرقية لبلدية القدس. لقد قضت اتفاقيات أوسلو الموقعة في العام 1993 بإخضاع أبو ديس إلى سلطة الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات. نظراً لذلك، وبما أن حيّ أبو ديس يناجي قبة مسجد عمر الذهبية وقبة المسجد الأقصى الفضية المرتفعتين قبالته، فقد حظي بترشيح شابه كثير من الجدل، لأن يكون عاصمة الدولة الفلسطينية المرتقبة.

في اليوم التالي، إلتحق عقل في أحد المعاهد التعليمية لدراسة الاعلام والاتصالات، تغطية لنشاطاته. كان يحضر الصفوف بانتظام، بانتظار وصول باقي رفاقه إلى الضفة الغربية. بعد بضعة ايام، انضم اليه محمد ابو عياش ومحمد حارث في أبو ديس، وفي حوزتهما مسدس واحد فقط. طلال صالح الذي كان قد عبر إيريز بالطريقة نفسها، استأجر شقة في رام الله تقاسم استخدامها مع خمسة طلاب من غزّة. التحق هو أيضا في معهد لدراسة الاعلام والاتصالات.

تعرّضت المجموعة لشتى أنواع المشقات. وإلى حين اكتمال عقد أفرادها في الضفة الغربية، وقبل اتصالهم بقيادة حماس في المنطقة، اقتصر مجمل ما يملكونه من أسلحة على مسدس واحد ورشاشين من طراز "كارل غوستاف" وبضعة خناجر.

مرّت أسابيع عدّة قبل وصول بشير حمد إلى الضفة الغربية[5]. ثم تبعه محمد أبو العطايا الذي غادر غزّة إثر إخفاقه في قتل شرطيين إسرائيليين كانا يقفان أمام فندق الشاطئ الذي كانت الشرطة الإسرائيلية تستخدمه كمقرّ لها في مدينة غزّة. كان شابان من جناح الأحداث قد عمدا إلى إلهاء الشرطيين تسهيلاً لمهمة أبو العطايا. في وقت لاحق من ذلك اليوم، أصدرت الشرطة بياناً أعلنت فيه أنه على الرغم من أن اطلاق النار تمّ من مسافة قريبة، إلا أن الرشاش "كارل غوستاف" فشل في إصابة اهدافه. لقد اشتهر هذا الرشاش في قطاع غزّة بأدائه السيئ، إذ عُرف عنه أنه قادر على إطلاق 600 رصاصة في الدقيقة الواحدة، لكن عندما تسخن ماسورته، كانت الطلقات تسقط من الفوهة مباشرة، بدلاً من الانطلاق بسرعة عالية.

بعد ثلاثة أيام، على مقربة من الحدود داخل إسرائيل، قام أبو العطايا وفريق الدعم التابع لجناح الأحداث بطعن مستوطنين كانا يعملان في مصنع لتعليب الحمضيات في كيبوتز "نحال عوز". يقع هذا المصنع في جوار معبر "كارني" أو نقطة التفتيش "أوز شالوم" وهي منطقة تجارية يتمّ عبرها إدخال الطعام والمنتجات الزراعية والمساعدات الانسانية إلى قطاع غزّة.

حالما اجتمعت المجموعة في رام الله والقدس، أجرى أفرادها الستة اتصالاً بصالح العاروري، الذي كان مسؤولاً عن الجناح العسكري لحماس في الضفة الغربية. كانت المجموعة تسعى يائسةً للحصول على أسلحة، وقد تلقت وعوداً

بتلقيها تعزيزات. في هذه الاثناء، لم يضيّع أفرادها الوقت، بل بدأوا يخططون للانتقام من الإسرائيليين الذين تسبّبوا بالمجزرة التي وقعت أمام المسجد الأقصى في القدس قبل ثمانية عشر شهراً.

لقد قضت خطتهم بتنفيذ هجمات بالسكاكين. اختاروا اثنين من بينهم ومعهم سائق، للذهاب في مهمة استطلاع. استيقظوا الساعة الثالثة فجراً يوم الأربعاء الواقع فيه 29 تموز/يوليو، وانطلقوا في السيارة باتجاه المدينة القديمة في القدس. كان يريدون استهداف الجنود الإسرائيليين الذين يقومون بدوريات منتظمة في أنحاء المدينة القابعة وراء أسوار مهيبة ترتفع إلى علوّ أربعين قدماً، حاضنةً كنائسها ومساجدها التاريخية وحائط المبكى اليهودي. وصل الرجلان حوالى الساعة الثالثة والنصف فجراً، ودوّنا ملاحظاقما استعداداً للهجوم في اليوم التالي. بعدها، أوصلهما السائق إلى شقتهما في أبو ديس، وعاد أدراجه إلى رام الله، بعدما اتفق معهما على العودة لاصطحابهما في اليوم التالي. في وقت متأخر من تلك الليلة، اعتقلت الاستخبارات الإسرائيلية محمد أبو العطايا ومحمد أبو عياش ومحمد حارث، بعد محاصرة الشقة التي كانت المجموعة قد استأجرقا في رام الله.

كان جهاز الشاباك[6]، بالتعاون مع وحدات خاصة تابعة للجيش الإسرائيلي ووحدة حرس الحدود الإسرائيلي، قد نسّق عملية بحث وتعقب للعثور على أفراد مجموعة القسّام، إذ تسبّب اختفاؤهم من الضفة الغربية برفع درجات الاستنفار الإسرائيلي. في 17 تموز/يوليو 1992 في خان يونس، وبناءً على معلومة أدلى بها أحد المخبرين الفلسطينيين، تمّت عملية اغتيال ياسر النمروطي، أحد قادة كتائب القسّام. لقد حصل الإسرائيليون إثر هذه العملية على معطيات بالغة الأهمية، منها صورة جديدة لطلال صالح. كما تعرّفوا على هيئة محمد أبو عياش الذي شكل لون سحنته الداكن علامة فارقة بالنسبة إليهم، يمكنهم الاستناد عليها لرصده. كل هذه الاشارات والدلائل البصرية الأساسية ساعدت جهاز الشاباك على إحكام الطوق على المجموعة. وحده التغيير الذي طرأ في اللحظة الأخيرة على مخططاقم كان كفيلاً بإنقاذ طلال وبلال وعماد من الاعتقال. قبيل الساعة العاشرة والنصف مساء، دعا طلال كلا من بلال وعماد إلى قضاء الليل في شقته القريبة التي يتقاسمها

وعـــدد مـــن الطلاب الذين غادروها عائدين إلى غزّة لقضاء عطلة. كانت الشقة فسيحة وتوفر على عماد مشقة العودة إلى أبو ديس في هذا الوقت الخطير من الليل. انطلقوا في سيارة البيجو. على الطريق، لمحوا سيارة "جيب" إسرائيلية. ساور عماد الـــشك، كونه كان دائم التيقظ والحذر. لكن الرجال الثلاثة أكملوا طريقهم غير مدركين بأن رفاقهم الثلاثة الآخرين قد تعرّضوا لكمين.

بعـــد مـــضي تـــسعة أيام على هذه التوقيفات، أكد متحدث باسم الجيش الإســـرائيلي بأنـــه تمّ العثور في الشقة التي استأجرتها المجموعة، على زورق مطاطي وعلـــى رشاش "كارل غوستاف" وذخيرة وخناجر وأشرطة فيديو تصوّر هجمات عسكرية وبطاقات هوية إسرائيلية مزوّرة[7].

في لقائـــه الاول معهـــم، حـــذر زعيم حماس في الضفة الغربية الشيخ صالح العاروري أفراد المجموعة من مخاطر العيش في رام الله، بسبب وجود عدد كبير من الأشخاص المشتبه بأنهم مخبرين لحساب الإسرائيليين في المنطقة. لقد نصحهم بالتنقل من منـــزل آمن إلى آخر، إلى أن يصلوا إلى مدينة الخليل حيث تتمتع حماس بشبكة دعـــم أكـــبر. هناك، أصبح عقل من روّاد المساجد المحلية، واعتاد استخدام أسماء مخـــتلفة، مـــن بينها حسين وأيوب، في محاولة لتضليل الاستخبارات الإسرائيلية. واســـتحدث لاحقاً أساليب جديدة كخطف جنود إسرائيليين، لمبادلتهم بمعتقلين فلسطينيين في السجون الإسرائيلية. في إحدى المرّات، أوفد عقل عباس شبّانة، أحد مقاتلي القسّام البالغ من العمر اثنين وعشرين عاماً، لمقابلة محمد عبد الفتاح دخان، نجـــل أحد مؤسسي حماس والمسؤول عن تنسيق نشاطات القسّام في الضفة الغربية وغـــزّة. لقد كان يحتاج إلى سيارة تحمل لوحة إسرائيلية صفراء إضافة إلى الأسلحة والـــذخيرة. طلـــب من مساعدين له في الخليل أن يبحثوا له عن كهف في التلال المجـــاورة، يمكن استخدامها لاحتجاز الجنود الإسرائيليين المخطوفين. أكثر من الف فلسطيني يعيشون مع عائلاتهم ومواشيهم في الكهوف، جنوب الخليل. حياتهم أشبه بمـــا تـــصوّره روايات التوراة. كان عقل يفكر أيضاً باستخدام الكهف المطلوب كمنـــشأة تدريب لأربعة من المجندين الجدد الذين انضموا إلى كتائب القسّام قبل بضعة أيام.

إن أكثـــر الهجمات جرأة، تلك التي نفذها عماد عقل ورفاقه في وضح النهار في 25 تـــشرين الأول/أكتوبـــر من العام 1992، ضدّ مخيم عسكري قرب مسجد ابـــراهيم. لقد أطلقوا النار على جنديين من مسافة ثلاثين متراً ثم هربوا من المنطقة مـــن دون أن يخلفـــوا وراءهم أيّ أثر، على الرغم من وجود عدد كبير من الجنود داخـــل المخيم الخاضع لحراسة مشدّدة للغاية. في وقت لاحق من ذلك اليوم، أكد مـــتحدث إسرائيلي بأن السترات المضادّة للرصاص لم تقِ أحد الجنديين من الموت، في حين أن الآخر أصيب إصابة بليغة. كانت هذه واحدة من الهجمات العديدة التي نُفـــذت في الخلـــيل، والتي أرغمت الإسرائيليين على تعزيز أجهزة مراقبتهم وتجنيد المـــزيد من المخبرين لتعقب الفاعلين. إتهم جهاز الأمن الداخلي الإسرائيلي، الشين بيت، والاستخبارات العسكرية كتائب القسّام - فرع غزّة، بتنفيذ تلك الهجمات. عندما كثف الإسرائيليون إجراءاتهم العسكرية، اقتنع عقل بضرورة التخطيط لهروبه مـــن الخليل على الرغم من تزايد شعبيته في صفوف كتائب القسّام وحركة حماس بـــشكل عـــام. فقد أكسبه حسّه التنظيمي وهجماته الناجحة وشجاعته وتصرفه الهـــادئ شـــهرة ذائعـــة خلال الأشهر التي أمضاها في المدينة. كما أنه عزّز نظام الـــتدريب المخصص للمجندين الجدد، ونقل خبرته ومسؤولياته في المنطقة إلى حاتم المحتسب ومحمد دخان.

في 23 تـــشرين الثاني/نوفمبر من العام 1992، خرج عقل خلسة من الخليل، وتـــوجه عائـــداً إلى غـــزّة عـــبر معبر إيريز. فاجأ رفاقه في ذلك الصباح بتنكره كمستوطن يهودي متوجه إلى مستوطنته في قطاع غزّة.

كانـــت غزّة تخضع لحظر تجوّل صارم إثر قيام مقاتلي القسّام بخطف الجندي الإســـرائيلي ألون كرفاتي. لقد عمدوا أيضاً إلى سرقة بزته وسلاحه ثم قتلوه. نظراً للتدابير الأمنية المشدّدة التي فرضها الجيش الإسرائيلي، أبلغت قيادة القسّام أعضاءها بـــضرورة مغـــادرة غزّة والانتقال إلى مصر. كثيرون أخذوا بالنصيحة، لكن عماد عقـــل قرّر المجازفة والبقاء في غزّة. لم يكن عماد وحده يتعرّض للضغط، بل أيضاً أفراد عائلته بالكامل. فقد احتجز شقيقه عادل تسع مرات، وتمّ ترحيله لاحقاً إلى مـــرج الـــزهور في جنوب لبنان في 17 كانون الأول/ديسمبر من العام 1992. في

زيارة مفاجئة إلى مخيم جباليا للاجئين، التقى وزير الدفاع الإسرائيلي إسحق رابين بعادل، فقال له إن إسرائيل مستعدة للسماح لعماد باللجوء إلى مصر طيلة ثلاث سنوات، وإن الصليب الأحمر الدولي سيتولى القيام بكافة الترتيبات. لكن عماد رفض الاقتراح، وتابع عملياته الجهادية في غزّة. فعمدت الاستخبارات الإسرائيلية، وبشكل دوري ومنتظم، إلى مداهمة كل منزل تشكّ بأن عماد يختبئ فيه. كما نُشر مئات الجنود المسلحين واستخدمت الطوافات والدبابات وسيارات "الجيب" في عملية مطاردته، لكن فشل الإسرائيليين بإلقاء القبض عليه جعلهم يستنتجون بأن السكان المحليين يساعدونه على الاختباء.

بالفعل، كانت والدة أحد المقاتلين ويدعى نضال فرحات، تعمل جاهدة على حمايته. لطالما تعاطفت مريم فرحات مع المقاتلين الفارين من القوات الإسرائيلية. عندما علمت بأمر عقل، طلبت من ابنها البكر نضال أن يحفر نفقاً تحت منزلهما من أجل إخفاء عقل وسواه من المطاردين. وافق نضال وزوجها السابق على هذه الخطة. وصفت مريم إحساسها العميق بالشرف الذي شعروا به كعائلة "لإيوائنا ذاك القائد النبيل في منزلنا". اعترفت بأنها كانت تخشى على حياة ابنائها في حال حصول مداهمة إسرائيلية لمنزلها. "لقد أتوا إلى منزلنا مراراً بحثاً عن المطلوبين، لكنهم فشلوا في العثور على أحد منهم، والحمد لله". لقد داهم الإسرائيليون هذا المنزل بالذات مرّات عديدة، كان أثناءها عقل في مخبئه يواصل أعمال حفر النفق. كما أنه عاد في أحيان كثيرة ملطخاً بالدم، إثر هجمات نفذها مع رفاقه في حيّ الزيتون. تروي مريم حادثة وقعت أثناء محاصرة الجيش الإسرائيلي للمنزل.

"كنت أغسل سروال عقل الذي كان ملطخاً بالدم. دفعت به إلى مدخل النفق القريب من باب المطبخ، وتأكدت ما إذا ترك مسدسه أو رصاصاته في أي مكان. ثم واجهت الجنود، وتصرفت ببراءة عندما سألوني إن رأيت شخصاً سرواله ملطخ بالدم".

نجا عقل من الملاحقات في غزّة مدّة عامين، قبل أن يشي به أحد المخبرين واسمه وليد راضي حمدية، فقتل. كما كل الذين ساروا في قافلة الشهداء، عاش عقل حياة خطرة ولكن جريئة، وإن قصيرة. وسرعان ما أصبح من الشخصيات

الأسطورية خلال الانتفاضة الأولى. لقد كان معروفاً بشجاعته وبشعاره: "قتل الإسرائيليين عبادة".

نموّ المنظمة

في حرب الأيام الستة عام 1967، نجحت إسرائيل في مواجهة القوات الأردنية والمصرية والسورية مجتمعة واحتلت في وقت قياسي الضفة الغربية وقطاع غزّة، وصحراء سيناء، ومرتفعات الجولان. لم يستوعب العرب والفلسطينيون فظاعة هذه الهزيمة بسرعة، لذا مضى بعض الوقت قبل تمكنهم من تنظيم مقاومتهم ضد الاحتلال الإسرائيلي.

وتقدّمت منظمة التحرير الفلسطينية في هذا مجال مقاومة إسرائيل على الحركة الإسلامية وذلك على المستويين العسكري والشعبي. ففي أعقاب الاحتلال الإسرائيلي لقطاع غزّة والضفة الغربية في العام 1967، انضوت فصائل فلسطينية مسلحة عدّة تحت مظلة منظمة التحرير الفلسطينية: الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين والجبهة الديموقراطية الشعبية لتحرير فلسطين، والجبهة الديمقراطية الشعبية لتحرير فلسطين- القيادة العامة وجبهة التحرير الفلسطينية وجيش التحرير الفلسطيني والصاعقة ومنظمات فتح. نفذت منظمة التحرير الفلسطينية عمليات عسكرية ضد القوات الإسرائيلية والمستوطنين اليهود، كما قامت بخطف الجواسيس والمخبرين واعتقلتهم، وأصدرت بحقهم أحكاماً بموجب أعراف وقوانين سنتها بنفسها. في غزّة، استحوذت جبهة التحرير الفلسطينية، الجناح العسكري لجيش التحرير الفلسطيني، دون سواها، على صفة القوة العسكرية المدرّبة، باستثناء القوات المصرية التي بقيت في القطاع حتى العام 1967. كان تقتصر المجموعات الفلسطينية الناشطة على بعض المنظمات اليسارية مثل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، والجبهة الديمقراطية، وفتح الذي ينبثق اسمها من تصغير لـ "حركة التحرير الوطني الفلسطيني". كان محمد الأسود، المنتمي إلى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين والملقب بـ "غيفارا غزّة" تيمناً بالبطل الثوري الماركسي "تشي غيفارا"، المقاتل الأكثر شهرة في السبعينيات. لقد اكتسبت المقاومة المسلحة قوتها خلال السبعينيات، مع

تدفق المتطوعين الفلسطينيين والعرب بالآلاف، للانضمام إلى معسكرات التدريب التي أنشئت في سوريا والأردن. بذلت القوات الإسرائيلية، بقيادة وزير الدفاع موشي دايان، كل ما في وسعها لفرض الهدوء على طول الحدود في صحراء سيناء، في الأراضي المحتلة أخيراً، والمليئة بالتوتر.

خلال الانتفاضة الفلسطينية الاولى ما بين العامين 1987 و1993، نجحت إسرائيل بفرض سيطرتها الصارمة على حدودها مع مصر، وتمكنت بفضل وجودها المسلح الكثيف في غزّة، من تقليص كميات الاسلحة والذخائر الموجودة في متناول المنظمات الفلسطينية المسلحة. في وقت لاحق، عندما بدأت الانتفاضة الثانية في أيلول/سبتمبر من العام 2000، عمدت حماس إلى إدخال الأسلحة خلسةً عبر شبكة الأنفاق المحفورة تحت الأرض والتي تربط غزّة بمصر، ونقلت جزءاً من وحداتها إلى الضفة الغربية. لقد سهّل هذا الطريق السريّ عملية الحصول على كميات كبيرة من الأسلحة. إضافة إلى توفر كميات ضخمة من الذخائر التي تركها المصريون والإسرائيليون في أرض المعركة في صحراء سيناء بعد حرب 1967 والتي كان تجار الاسلحة المصريون ينبشونها ويبيعونها للمنظمات الفلسطينية. لم تستخدم هذه الأسلحة والمتفجرات إلا في مرحلة متقدمة من الانتفاضة الأولى، عندما اشتدت حدّة وكثافة العمليات العسكرية التي نفذها كلّ من حماس والجهاد الإسلامي ومنظمة التحرير الفلسطينية. وكان قسم كبير من المتفجرات يصنع محلياً بواسطة مواد عادية موجودة في الاسواق.

لم تجد أية منظمة فلسطينية صعوبة في تجنيد أعضاء ومتطوعين. لقد شكلت الجامعات أحد روافد التجنيد، فيما كانت المساجد مصدره الآخر. كان يتم اختيار مقاتلي القسّام من صفوف حركة الاخوان المسلمين في غزّة وفقاً لمعيارين محدّدين: تمتعهم بالتزام ديني قوي، وتصميمهم الشديد على الدفاع عن القضية. ولكن، "في حالات النزاع، كل شيء مسموح". هذا ما قاله لي، بكل بساطة، مخبري طارق، موضحاً أن "أعضاء حماس ليسوا من صنف الملائكة".

على غرار أعضاء فتح والجبهة الشعبية وحركة الجهاد الإسلامي وغيرها من المنظمات الفلسطينيّة، كان أفراد حماس عرضة لمحاولات الاغتيال. فقد اخترق

صفوفها جواسيس إسرائيليون أو مخبرون فلسطينيون أجبروا على التعامل مع إسرائيل إثر تعرّضهم للتعذيب أو للابتزاز أو لقاء حصولهم على مكافأة مادية، أو بسبب هذه الممارسات الثلاثة مجتمعة. بدورها، اخترقت حماس أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية باستخدامها عملاء إسرائيليين، أو بواسطة فلسطينيين أقنعتهم بالانضمام إلى جهاز الأمن الداخلي الإسرائيلي، "ألشين بيت"، لينقلوا إليها المعلومات المتعلقة بنشاطاتهم ضمن هذا الجهاز.

بدا وكأن الاستخبارات الإسرائيلية نجحت في استباق كل حركة تقوم بها المقاومة الفلسطينية. فلم تتمكن المنظمات العسكرية المختلفة من توفير خروج سهل لأعضائها من قطاع غزّة إلا بعد الانسحاب الإسرائيلي في العام 2005، الذي تزامن وتسلم السلطة الفلسطينية زمام الأمور. عندئذ، أصبح تطوير وتصنيع المتفجرات والصواريخ المحلية الصنع ممكناً، فعاد الأعضاء الذين يتمتعون بالخبرة في هذا المجال من الخارج حيث كانوا يقيمون، للمساهمة في هذه العملية. كان المعلقون الإسرائيليون يزعمون بأن خبراء المتفجرات جزء لا يتجزأ من السلطة الفلسطينية وأهم المساهمون الأبرز في صناعة الأسلحة في الضفة الغربية وغزّة، بالنيابة عن كل المنظمات الفلسطينية، في محاولة واضحة لتلطيخ مصداقية السلطة الفلسطينية.

كان قادة حماس السياسيون، بمن فيهم الشيخ احمد ياسين ومحمود الزهار وعبد العزيز الرنتيسي وأبو شنب يقفون علناً على مسافة بعيدة من الجناح العسكري للمنظمة، وينكرون أيّة مسؤولية شخصية لهم عن الاعتداءات التي ينفذها هذا الجناح. كانوا يشددون على هذا الموقف غداة كل هجوم تنفذه "كتائب القسّام" في عمق إسرائيل أو بعد أية عملية انتحارية تتبناها، حتى صار يصدر تعليقهم في بيان تقليدي على الشكل الآتي: "لا توجد علاقة بين القيادة السياسيّة لحماس وكتائب القسّام. ليس للقيادة السياسية من مصلحة في إقامة أية علاقة بالجناح العسكري. لهم قيادتهم الخاصة ومقاتلوهم الذين يخططون وينفذون هجماتهم وكل شيء آخر مرتبط بهذه الناحية".

رغم ذلك، فإن الشيخ ياسين، الذي تزامن وجوده في السجن وإنشاء الجناح العسكري، كان يحظى باحترام فائق في صفوف كتائب القسّام، وكان إرشاده

الديني يؤخذ بالاعتبار ويطبق. إطلع ياسين باستمرار، كما سائر الكوادر السياسيين الآخرين داخل حماس، على كافة التطورات، وعلى وضع العلاقات مع المنظمات الفلسطينية الاخرى.

كانت أواصر العلاقات والتأثيرات المتداخلة على الساحة الفلسطينية كثيرة، ما أوجب قيام تعاون وتنسيق وثيقين بين المنظمات الفلسطينية كافة، ومنها "كتائب القسّام" و"الجهاد الإسلامي" و"كتائب الأقصى"، الجناح العسكري لحركة فتح، وغيرها. لقد وصف لي طارق حدّة الضغط الذي كان يفرضه الإسرائيليون على كل الفصائل، ما أرغم الفلسطينيين على تشكيل جبهة موحدة وتنفيذ عمليات مشتركة. لكن، وكما قال لي، "لسوء الحظ، يوجد اعضاء في كل الفصائل يحاولون إثارة النزاعات والحقد والغيرة، وهي أمور تسبّب الخلاف والشقاق".

بدأت العمليات المشتركة في العام 1992، قبيل انتهاء الانتفاضة الأولى، عندما وحّدت حماس وفتح قواهما في عملية في خان يونس، أسفرت عن مقتل مستوطنين إسرائيليين وعدد من العسكريين. مع بداية الانتفاضة الثانية، كان التعاون بين كل المجموعات قد بلغ أقصى مداه.

يعيش مقاتلو القسّام، الذين يكشف الإسرائيليون النقاب عن هويّاهم، حياة شاقة وصعبة، كما يصفها طارق، الذي كان يتكلم بصفة العارف، بما أن اسمه كان مدرجاً، لسنوات عدّة، على لائحة أهداف الجيش الإسرائيلي. "كان الجيش الإسرائيلي موجوداً في كل مكان في قطاع غزّة". وفي حين أن هذا الجيش هو العدو الظاهر للعيان، هناك عدو غير منظور تصعب محاربته، يتمثل بالجواسيس الفلسطينيين. فمجرد وجودهم في أحياء المنطقة كان يعرّضها للخطر الدائم. فقد كان الجيش الإسرائيلي يداهم دورياً منازل المشتبه بهم، أو منازل أقاربهم وأصدقائهم، ما يرغم الناشطين الفلسطينيين على الهروب بشكل مستمر أو على الاختباء. "هذا الأمر فرض على رفاقي ضغطاً هائلاً. لقد بذلوا ما بوسعهم للتكيف مع أسلوب الحياة هذا".

أضف إلى ذلك أن نجاح حماس في الانتخابات التشريعية في كانون الثاني/يناير من العام 2006، وتشكيلها الحكومة، قد تسبّبا بتصدع كبير داخل الحركة التي

باتت على تناقض مع شعارها: "يد للمقاومة ويد لإعادة الإعمار"، الذي يعني ضرورة قيام توازن بين المقاومة والمشاركة السياسية. ومع دخولها إلى الحلبة السياسية، بدأت حماس تدرك مدى التباين القائم بين بناء مجتمع آمن وبين خوض الحرب في الشوارع.

"المهندس"

نشأ يحيى عياش في قرية "رافات" شمال القدس. إنها القرية التي أصبح اسمها محط صيحات الاحتجاج الدولية الشديدة اللهجة المندّدة بالجدار غير الشرعي الذي تبنيه إسرائيل. ولد عياش في 22 آذار/مارس من العام 1966، وترعرع في بيت محافظ وفقير نسبياً. كان فتى خجولاً، هادئاً وذكياً. بدأ يحفظ القرآن في السادسة من عمره وكبر معه شغفه بتحرير فلسطين. درس في مدرسة القرية الابتدائية. وطالما راودته ذكريات راسخة، لعل أبرزها وقوفه إلى جانب الطريق بعد المدرسة، محدّقاً بشاحنات المستوطنين وهي تعمل على توسيع الطريق المؤدي إلى المستوطنة القريبة من قريته حتى يصبح قادراً على استيعاب زيادة تدفق حركة السير عليه. لقد أصبحت المستوطنة حالياً جزءاً من كتلة "آرييل" الاستيطانية التي تضمّ سبعاً وعشرين مستوطنة، وهي بالتالي أكبر تجمع استيطاني في الضفة الغربية إذ يبلغ عدد سكانها سبعة وثلاثين ألف نسمة(8).

في الثانوية، بدأ يحيى في خوض غمار النشاط السياسي. وبرز حينها أيضاً تفوّقه في العلوم، خصوصاً في الكيمياء، الأمر الذي قاده إلى جامعة "بيرزيت" قرب رام الله للتخصص في الهندسة الكهربائية. ومعروف عن جامعة "بير زيت" بأنها موئل للناشطين السياسيين. في مناسبات عدّة، وفيما كان عياش يحصّل علومه، أقفلتها السلطات الإسرائيلية مراراً، ما كان يرغم القيمين عليها على استئناف التدريس فيها سراً.

بعد تخرجه من الجامعة في العام 1991، حاول عياش الحصول على تأشيرة سفر لمتابعة دراساته العليا في الأردن، لكن السلطات الإسرائيلية رفضت طلبه، وهو ما ندم عليه بعد ذلك رئيس الاستخبارات الإسرائيلية يعكوف بيريس، وقال:

"لــو كنا نعلم أن المهندس سيقوم بما يفعله، لأعطيناه تصريحاً بالمغادرة، إضافة إلى ملــيون دولار"[9]. تــزوّج عــياش بعد تخرجه من الجامعة من إبنة خالته، ورزق بولدين: براء، وهو البكر، ثم يحيى الذي ولد في 20 كانون الأول/ديسمبر من العام 1995، قــبل اغتيال والده بوقت قصير. مع اندلاع الانتفاضة الاولى، بعث عياش برســالة إلى جناح الشهداء التابع لكتائب عزّ الدين القسّام، يشرح فيها الخطوط العريضة لمخططاته التي قضت بمقاتلة اليهود بواسطة التفجيرات الانتحارية.

كــان عياش يبدّل ملامحه يومياً، ونادراً ما كان ينام لأكثر من ليلة واحدة في المنـــزل نفسه. لقد خدعت تنكراته المتنوعة حتى رفاقه المقربين خصوصاً أنه كان يلبس احياناً كمستوطن يهودي، عاقصاً سالفيه، ومعتمراً القلنسوة اليهودية ومعلقاً رشاشاً من نوع "عوزي" على كتفه. مرّات أخرى، كان يسير في شوارع تل ابيب كأنــه دبلوماسي أجنبي، أو يقود سيارة إسرائيلية تحمل لوحة تسجيل صفراء. لقد زعمــوا أنه حضر مأتم كمال خليل، أحد كبار اعضاء كتائب القسّام، في الضفة الغربية، متنكراً بزيّ امرأة. وقال رابين ذات مرة في البرلمان الإسرائيلي: "أخشى أن يكون عياش جالساً بيننا في الكنيست".

لقــد كان يحيى عياش ماهراً في صنع القنابل وخبيراً في إعداد المتفجرات، ما أكــسبه لقب "المهندس". أثناء توليه قيادة مجموعة الشهداء، تصرف بناء لما اعتبره برنامج انتقام لضحايا الإرهاب الإسرائيلي واليهودي الذي يمارس منذ بداية القرن الماضي.

كانت مجزرة الخليل الحافز وراء تصعيد عياش حملته المناهضة لإسرائيل. فطالما شــكلت مدينة الخليل في الضفة الغربية معقلاً للتوتر بين الفلسطينيين والإسرائيليين علــى خلفــية وجــود خمسمئة مستوطن يهودي يعيشون في منازل محصنة وسط الــسكان العرب الذين يقدر عددهم بنحو مئة وعشرين ألف نسمة. ويقوم على حماية هؤلاء المستوطنين، آلاف من الجنود الإسرائيليين الذين ينتشرون على سطوح المــنازل الفلــسطينية ويخضعون المدينة للمراقبة المكثفة. تحظى هذه المدينة المقدسة باحترام اليهود والمسيحيين والمسلمين على حدّ سواء، اذ يسود الاعتقاد بأنها تحتضن المكــان الــذي دفــن فيه آباء وأمهات الأديان السماوية الثلاثة: اسحاق ورفقا،

ويعقـــوب وليا، وابراهيم وساره. إن بعض السياح الذين يتجرأون على المجيء إلى الخلـــيل يأســـرهم سحر شوارعها الضيقة والمتعرجة والمرصوفة بالحصى. منهم من للحـــج في الحـــرم الابراهيمي المهيب. يرقى تاريخ هذا المسجد إلى زمن هيرودس العظيم الذي شيّد في المكان معبداً يهودياً. ثم أصبح في القرن الرابع كنيسة بيزنطية قـــبل أن يتحوّل إلى مسجد في القرن السابع مع ظهور الإسلام. أعاده الصليبيون كنيـــسة إلى أن اســـتولى علـــيه صـــلاح الدين وحوّله مجدّداً إلى مسجد. في 25 شـــباط/فبراير من العام 1994، في يوم عيد "البوريم" أو "عيد المساخر" اليهودي، ارتكـــب بـــاروخ غولدشـــتاين، وهو طبيب يهودي ولد في"بروكلين" بالولايات المـــتحدة الأميركـــية، بمجـــزرة وحـــشية داخـــل المسجد. فقد قام هذا اليهودي الأرثوذكـــسي المقيم في مستوطنة "كيريات أربع" المجاورة، برمي قنبلة يدوية على المـــصلين الـــراكعين لـــتأدية صـــلاة الفجر خلال شهر رمضان، ثم حمل رشاشاً أوتوماتيكـــياً من نوع "غاليل" وقتل تسعة وعشرين فلسطينياً داخل المسجد المكتظ بالمـــصلين. في المقابل، أشبع حشد غاضب من شهود العيان غولدشتاين ضرباً حتى المـــوت. دفـــنت جـــثث ضـــحايا غولدشتاين في اليوم نفسه كما تقتضيه الديانة الإســـلامية، لكن مئات الاحذية الملطخة بالدماء بقيت عند مدخل المسجد لأيام طويلة، تذكّر بالمأساة المروّعة.

لقد شعر عياش بالغضب الشديد، جرّاء المجزرة، وأقسم أمام رفاقه بأن انتقامه سيشعر كل الإسرائيليين وحكومتهم بندم عميق، فردّ على هذه المجزرة المروّعة في 6 نيسان/أبريل من العام 1996. يومها، أصبح رائد زكارنة أول انتحاري من حماس. فقد حمل عبوة ناسفة جهزها عياش، إلى محطة للحافلات في "العفولة" وفجرها، ما أدّى إلى مقـــتل ثمانية إسرائيليين وجرح أربعة وأربعين آخرين. عياش، الذي حزن لخـــسارة رائد، وإن خدمةً للقضية، تعهّد بأن هذه العملية ستكون جزءاً صغيراً من المخطط الشامل الذي أعدّه.

وعلـــى خلفـــية ذكرى الأربعين لمجزرة الحرم الابراهيمي في الخليل[10]، أطلق عـــياش العـــنان لسلـــسلة مـــن الهجمـــات المتتالية. بعد أقل من اسبوع، في 13 نيسان/أبريل، فجر عمار عمارنة نفسه بحزام ناسف من صنع عياش على متن حافلة

في الخـــضيرة داخـــل المنطقة الخضراء، فقتل ستة إسرائيليين وجرح ثمانية وعشرين آخـــرين، من بينهم ثمانية عشر جندياً إسرائيلياً. وفي 19 تشرين الأول/أكتوبر من العـــام 1994، عـــند الساعة 8.55 صباحاً، في ساعة الذروة، إستقل صالح نـــزال إحدى الحافلات العائدة لشركة النقل "دان" تحمل الرقم 5، قرب ساحة ديزنغوف في تل ابيب، حيث أدى الفعل نفسه، فقتل معه إثنين وعشرين إسرائيلياً وجرحت ثمانـــية وأربعـــين آخرين. هذا الهجوم دفع اسحاق رابين إلى قطع زيارته إلى لندن والعودة فوراً إلى إسرائيل لعقد اجتماعات طارئة مع الأجهزة الامنية وتحديد خطة تـــضع حدّاً لحكم الإرهاب الذي يمارسه عياش. عند هذا الحدّ، بلغ مجموع الذين قتلهم "المهندس" وطلابه سبعين شخصاً على الأقل وأكثر من أربعمئة جريح.

لقد أدرج الإسرائيليون اسم عياش على لائحة المطلوبين منذ اكتشافهم سيارة مليئة بالمتفجرات في ضاحية رامات إفعال، قبل عامين، في تشرين الثاني/نوفمبر من العـــام 1992. ومـــع تصعيده لعملياته التفجيرية، كثف الإسرائيليون بحثهم عنه، فاعـــتقلوا والدته، الحاجة عائشة، ووالده وشقيقيه مرعي ويونس مرّات عدّة. لقد فقـــد والده حاسة السمع نتيجة التعذيب الذي تعرّض له في الاعتقال. كما نالت قريته قسطها من العقاب، إذ حرمت من الكهرباء وأهملت صيانة طرقاها.

اسحق رابين هو من أطلق لقب "المهندس" على عياش خلال أحد اجتماعات الحكـــومة. وفقـــاً لجدعون عزرا، أحد القادة السابقين لجهاز الشاباك، كان رابين مذهولاً من طاقة عياش وقدرته على الاحتمال. لقد حيّر عياش الجيش الإسرائيلي والحكومة الإسرائيلية والبلاد بأسرها وفاقهم جميعاً دهاء. كان مراوغاً للغاية وقادراً علـــى الـــتملص في أصـــعب الظروف، حتى أهم شبهوه بالشبح الذي يطاردهم، وبالكابـــوس الذي يقض مضاجعهم. وكتب المحللون الإسرائيليون في ذلك الوقت، أن شبح عياش قد استأثر بحياة رابين، الذي سخر الجيش بكامله، والأجهزة الامنية وكميات هائلة من المال في سعيه لاعتقاله.

مـــنح بعض المفكرين الإسرائيليين "المهندس" صفة رجل العام 1995 بسبب عمق تأثيره على الشعب الإسرائيلي في ذلك الوقت. فقد أجبرهم مآثره على اعتماد خيارات سياسية محدّدة، لا سيما ما يتعلق منها بتشكيل الحكومة. وخصص العديد

مـــن البرامج التلفزيونية والاذاعية لمناقشة الظاهرة التي مثلها. أما البرنامج التلفزيوني الـــذي أثار ضجة كبيرة، فكان برنامجاً حوارياً عُرض في 25 كانون الثاني/يناير من العام 1995. فقد دعيت هيئة من أربعة محللين لمناقشة استراتيجية عياش وتكتيكه، وبـــشكل خاص، لتقويم أسباب فشل أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية المختلفة في القـــبض علـــيه. كانـــت الهيئة المذكورة تضم قائد الشاباك السابق شمعون رومح، والمراســـل التلفـــزيوني الخبير في شؤون الشرق الاوسط إيهود ياري. علق شمعون رومـــح ســـاخراً بالقول: "إنه لمن دواعي الأسف أن أجد نفسي مضطراً للإقرار بإعجابي بهذا الرجل الذي يبرهن عن قدرات هائلة وخبرات تفوق كل الحدود. "

لكـــن الأمور ازدادت صعوبة بالنسبة لعياش بعد موت صديقيه علي عاصي وبـــشار العامودي، وكلاهما من الناشطين في كتائب القسّام. فقد كان عياش يثق بهمـــا ويعمـــل معهما بشكل وثيق. ولما نقل مسرح عملياته من الضفة الغربية إلى قطـــاع غزّة، شكل هذا الأمر ضربة موجعة بالنسبة للاستخبارات الإسرائيلية التي اعتقدت بأنها كادت أن تطبق عليه.

"انـــه رجـــل خجـــول، قليل الكلام". هكذا تصفه زوجته أسرار في إحدى المقابلات عبر الانترنت[11]. لقد انتقلت أسرار مع ابنها إلى منـــزل حميها في الضفة الغربية، منذ أن بدأ الإسرائيليون يطاردون زوجها. من وقت إلى آخر، كان عياش يـــبعث اليها برسالة كتبها بخط يده، يسألها فيها إن كانت ترغب بلقائه في غزّة. كـــان أحـــد رفاقه يحضر إلى قرية حميها مستخدماً كلمة سرّ متفق عليها مسبقاً، لـــيؤكد بأنـــه رسول مأمون، ويرافق اسرار وابنها وحماها إلى غزّة. عادة ما كان الـــشاب مـــزوّداً بأوراق هوية مزوّرة تسمح له باجتياز نقاط التفتيش الإسرائيلية. كانوا يبدّلون السيارة التي يستقلونها بعد كل نقطة تفتيش، كتدبيرٍ إحتياطي، رغم أنه في ذلك الوقت، كان من السهل نسبياً على النساء والاطفال المرور.

تقـــول أســـرار عن زياراتها إلى غزّة: "لم يكن زوجي يمكث سوى ساعات معـــدودة في المكان نفسه. ثم يخرج دون أن يفصح عن وجهته". هي أيضاً لم تكن تقـــيم في منـــــزل واحـــد لأكثـــر من أسبوع. "لم أكن أقابل أحداً حتى لا أثير الـــشكوك. أنـــام والقـــنابل الـــيدوية قرب رأسي، وبندقيتي بجواري. لقد أتقنت

استخدامها، بما أن حياتنا كانت معرّضة للخطر في كل لحظة. لذا، كنت مستعدّة نفـــسياً لأية مداهمات يقوم بها الإسرائيليون. كنت أعلم بأنهم سيستغلونني كوسيلة للضغط على زوجي".

وتواصـــل أســـرار الإفصاح عن ظروف حياتها الصعبة: "ذات مرة، لازمت المنـــزل مدّة أسبوع كامل لأنني لاحظت بأن الجيران بدوا وكأنهم يشكون بشيء مـــا. اضطررت أن أختفي عن أنظارهم، فلا أرى أحداً غير زوجة أحد رفاق يحيى الـــتي كانت تحضر لي ولابني الطعام مرّة في اليوم، ولا تمكث معنا أكثر من عشرين دقيقة. وذات يوم، داهم الإسرائيليون المنـــزل. فاضطررت أن أختبئ وولدي براء داخـــل الخزانة، وأن أحكم إغلاقها علينا. الغريب أن براء، الذي لم يتجاوز الأربع ســـنوات، كـــان واعياً لحجم الخطر الذي يهدد حياتنا وحياة والده. بدلاً من أن أهدئ أنا من روعه حتى لا ينبث ببنت شفة، وضع هو يده على فمي حتى لا أتفوه بكلمة! حتى عندما كان يخرج ليلعب مع أولاد الحيّ، كان يُعرّف عن نفسه باسم "أحمد"، ولا يفصح عن هويته أبداً".

في مـــساء يوم خميس، كان عياش يستعد للنوم في احد المنازل الآمنة في حيٍّ يقـــع بـــين بيت لاهيا ومخيم جباليا، شمال قطاع غزّة. لكن هدير طائرة تحلق في السماء أثار توتره. وبما أنه كان دائم الانتقال من مكان إلى آخر، قرّر التوجه جنوباً إلى رفح لقضاء الليل في منـــزل آمن آخر اعتاد اللجوء إليه منذ نحو خمسة أشهر. كـــان المنـــزل ملكاً لصديق قديم وأحد زملاء الدراسة في جامعة بير زيت يدعى أسامه حماد. كانا قد تصادقا قبل عشر سنوات عندما عرفا انهما يعيشان في قرية أبو قش على مقربة من مبنى الجامعة في الضفة الغربية.

اقتصرت بداية الكلام بين "المهندس" وصديقه على الأمور التقليدية التي عادةً ما يناقشها الأصدقاء القدامى. ثم تناول عياش موضوع العمليات العسكرية، فأشار إلى ضرورة تنفيذ المقاتلين المزيد من الهجمات داخل إسرائيل، كي تصل الرسالة إلى الـــسياسيين الإســـرائيليين ومفادها بأن سياساتهم لن توفر لهم الأمن، بل ستتسبب المزيد من القتل. ثم بدّل عياش الموضوع ليعبر عن مدى اشتياقه إلى أهله وعائلته، ما ذكّـــر أســـامه بأن يخبره بأن والده عبد اللطيف كان يحاول الاتصال به عبر الخط

الارضي في مقرّ إقامته السابق، لكن عطلاً طرأ على الخط، فاتصل بأسامه على رقم الخلوي الذي كان عياش قد أعطاه إياه وقد خصصه للحالات الطارئة.

في صباح اليوم التالي، قرابة الساعة الثامنة، حضر قريب أسامه حماد، ويدعى كمال، حاملاً رسالة إلى أسامه مفادها أن ثمة من يحاول الاتصال به من إسرائيل على رقم الهاتف الخلوي الذي يتشأركانه. تبادل الرجال الثلاثة أطراف الحديث، وبعد وقت قصير، رنّ الهاتف، فأعطاه كمال رأساً إلى قريبه. لم يكن ذاك الاتصال المتوقع من إسرائيل، بل والد عياش القلق على ابنه. غادر القريبان الغرفة كي يسمحا لعياش بالتحدث إلى والده على انفراد. بعد قليل، سمع دويّ انفجار هائل، وارتفع الدخان من الغرفة. هرع أسامه إلى الغرفة، فوجد صديقه ممدّداً على الارض، وفي الجانب الأيمن من رأسه فجوة كبيرة. أخبرني بأن عياش قتل حتماً على الفور، في حين أنه يذكر سماعه هدير محرّك طائرة إسرائيلية تبتعد عن المكان. يشتبه أفراد كتائب القسّام بأن الطوافة أرسلت إشارة إلى قنبلة صغيرة مدسوسة داخل الهاتف الخلوي. لقد نجحت الاستخبارات الإسرائيلية أخيراً في الإيقاع بفريستها، وقد ساعدها على ذلك أحد المخبرين هو كمال حماد.

تساءل أفراد حماس عمّن يمكن أن يحلّ مكان صانع القنابل البطل. الدكتور محمود الزهار، وزير خارجية حماس في أول حكومة منتخبة في كانون الثاني/يناير من العام 2006، تحدّث معي عبر الهاتف بعد اغتيال عياش. قال لي إن موت عياش سيخلق "فراغاً كبيراً داخل الحركة". لكنه اضاف: "لقد نقل المهندس مهاراته في صنع القنابل إلى جيل جديد من شباب غزّة". وتابع قائلاً إنه خلال الشهر الذي سبق وفاته، كان عياش قد توقف عن استخدام الاجهزة الخلوية، شارحاً لأصدقائه أنه يخشى دنوّ الاستخبارات الإسرائيلية منه. كما نبّه أهله إلى وجوب الاتصال به فقط عبر الخط الأرضي. لقد استغل كمال حماد هذا القصور الواضح في التدابير الامنية التي تتخذها حماس، وأبلغ الاستخبارات الإسرائيلية بأن قريبه أسامه يؤمن ملاذاً آمناً للمهندس. فوضعوا السيناريو الذي بموجبه تمّ تركيب قنبلة صغيرة مؤقتة داخل أحد الهواتف الخلوية، على أن يعطى الهاتف إلى عياش عندما تسنح الفرصة.

ولسخرية القدر أن "المهندس"، المشهور بصنع القنابل المتطورة، وكأنه عندما انفجر هاتف خلوي في أذنه، قد قتل نفسه بيده.

كان كمال حماد، وهو رجل اعمال ينشط في المجال العقاري، يملك مبنى في شارع الناصر في غزّة، استأجر فيه رئيس أحد أجهزة الاستخبارات التابعة للسلطة الفلسطينية موسى عرفات شقته. أخبر حماد أفراد عائلته أن الاستخبارات الفلسطينية تحاول اعتقال عياش، في محاولة منها لضبط نشاطات حماس العسكرية التي بدأت تشكل إحراجاً للسلطة الفلسطينية. على الأرجح أنه كان يحاول التملص من شعوره بالخجل لتعامله مع الإسرائيليين.

أسامه حماد هو الشاهد الوحيد على عملية الاغتيال. لقد أخبرني أن قريبه كمال كان قد ألمح له مراراً بوجوب اقتنائه هاتفاً خلوياً، واقترح عليه أن يشاركه هاتفه. في بعض المناسبات، كان كمال يعير أسامه هاتفه لمدّة يوم أو يومين لكي يعتاد عليه، ثم يسترجعه.

رغم تقاضيه المال من الإسرائيليين لقاء تعاونه معهم، إلا أن إحساساً بالذنب خالج كمال حماد في لحظة ما، فحذر عياش من الخطر الذي يحيط به، وطلب منه ان يأخذ جانب الحيطة والحذر. لكن عياش أجابه على نحو فلسفي، إذ قال له إن احداً لا يموت قبل أوانه، وإنه يدرك تماماً بأن أيامه معدودة.

اعتاد عبد اللطيف، والد عياش، أن يتصل بابنه عبر خط أسامه وكمال المشترك، لكن عياش، ونظراً لضرورة اتخاذه أقصى تدابير الحيطة بحكم تعرضه الدائم للملاحقة، طلب من والده استخدام الخط الارضي فقط، ورتب بحذر أمر اتصاله به صباح كل يوم جمعة فقط. في ذلك اليوم، يوم الجمعة الموافق في 5 كانون الثاني/يناير من العام 1996، بدا وكأن الخطوط الارضية قد قطعت في كل المنازل الآمنة التي كان عياش يستخدمها. عند الساعة 9 صباحاً، اتصل والد عياش بأسامه على رقم هاتفه الخليوي ليبلغه بأنه لم يتمكن من الاتصال بابنه، فانتابه قلق شديد. بعد ثوان قليلة من إجابته على الهاتف، فيما كان يغادر الغرفة، سمع أسامه آخر كلمات قالها المهندس: "أبي، لا تتصل بي على الهاتف الخلوي".

أكد لي الدكتور الزهار أن كمال حماد كان من أعضاء حماس، وتقول الشائعات بأن الاستخبارات الإسرائيلية دفعت له مليون دولار كمكافأة لقاء قتل عياش. وضماناً لسلامته الشخصية، انتقل كمال للعيش في منـــزل آمن داخل إسرائيل.

دعـــا الزهار السلطة الفلسطينية إلى إعادة الاسلحة التي صادرتها من حماس، حتى تتمكن الحركة من حماية مقاتليها إزاء الكم الهائل من المخبرين الذين ما يزالون أحــــراراً وناشطين في القطاع. نفذت السلطة الفلسطينية مداهمات عدّة على منازل تخـــص ناشـــطين من الجناح العسكري لحماس، لاقتناع السلطة بأنهم يسعون إلى تقويض اتفاقيات السلام التي وقعتها السلطة الفلسطينية مع إسرائيل.

محمـــد دحـــلان، الذي كان مسؤولاً عن الاجهزة الامنية الفلسطينية، حمّل إســـرائيل مـــسؤولية قتل عياش، قائلاً إن حماس احترمت الاتفاق الضمني الذي تمّ التوصـــل إليه مع إسرائيل والقاضي بعدم تنفيذ مزيد من الهجمات التي تسفر عن مقـــتل عـــدد كبير من المدنيين الإسرائيليين. وانتقد موقف إسرائيل قائلاً: "بحسب اعـــتقادهم، إن كل فلسطيني مطلوب من إسرائيل، بمن فيهم انا من يتولى التنسيق معهـــم". لقد توقع دحلان فشل إسرائيل في حماية حدودها، بعدما توعدت حماس بالانـــتقام لمـــوت عياش، كما سبق لها أن فعلت بعد الهجوم الذي قام به باروخ غولدشتاين في الحرم الابراهيمي.

وصف مسؤولون في حماس وفي السلطة الفلسطينية قطاع غزّة بأنه صار يعجّ بالمخبرين الإسرائيليين بعد عقود طويلة من الاحتلال والترهيب. وقد اخبرني محمد دحلان ما يلي:

"الإسرائيليون يرغمون الناس على العمل لحسابهم عن طريق ابتزازهم، ويحوّلون حـــياتهم إلى جحيم. لو اننا اخترنا ان نتحمل مسؤولية الدفاع عن عياش وحمايته، لما اقترب منه الإسرائيليون أبداً. إننا نوفر الحماية لعدد كبير من الناشطين وهم لا يزالون علـــى قيد الحياة. احتجزنا هاني العبد، وهو ناشط من حماس، لمدّة شهرين، لكن حالما اطلقـــناه من معتقلاتنا، تعرض للاغتيال". لطالما أصرّ مسؤولون في السلطة الفلسطينية علـــى أنّ قادة حماس والناشطين التابعين لجناحها العسكري غير حذرين أمنياً. كانت الاستثناءات قليلة، لكنهم سمّوا محمد الضيف على سبيل المثال.

عــيّن محمــد ابراهيم دياب المصري، المعروف بمحمد الضيف من خان يونس، خلفــاً للمهــندس نظــراً لما يتمتع به من موهبة في تنظيم الهجمات. تعلم في الجامعة الإســلامية في غــزّة وعمل بشكل وثيق مع عماد عقل وعياش. كان قد شكل هدفاً بالنــسبة لإســرائيل لأكثر من عقد من الزمن، إذ اعتبرته مسؤولاً عن موت عشرات الأشــخاص في عمليات استشهادية منذ العام 1996. نجا الضيف من خمس محاولات اغتــيال على الأقل، بما فيها هجومين بالصواريخ بواسطة الطوافات في آب/أغسطس وأيلــول/ســبتمبر من العام 2002. لقد أدّى الهجوم الاخير إلى إصابته وتدمير سيارته وقــتل اثنين من حراسه. وعلى غرار يحيى عياش، يقال إنه صانع قنابل ماهر وإنه كان عضواً في الفريق الذي صمّم وأنتج صواريخ القسّام القصيرة المدى. كما يصفه عارفوه بالشخــصية الغامضة. وحتى لما ظهر ظله في شريط مصوّر في 27 آب/أغسطس من العــام 2005، فــإن هذا الأمر لم يبدّد الغموض الذي يلفه. في الشريط الذي نشرته كــتائب القــسّام، وجّه الضيف عدّة تهديدات ضد إسرائيل عشية انسحابها من غزّة: "لقــد احتليــتم ارضنا. ها انتم اليوم تغادرون غزّة أذلاء. حماس لن تنــزع سلاحها وستواصل نضالها ضد إسرائيل إلى أن تمحوها عن الخريطة".

آخر ظهور علني ليحيى عياش سجّل في مراسم تشييعه. لقد حُمل نعشه عالياً فوق بحر جامح من المؤيدين الذين قدّر عددهم بربع مليون شخص. وتدفق مقاتلو القسّام بقوة، عارضين القدرة الكاملة لجناح حماس العسكري، في تناقض واضح مع ما كانوا يقومون به في السابق عندما كان يقتصر عتادهم على البنادق البلاستيكية والعــصي والخناجر ورشاش وحيد من نوع "كارل غوستاف". هذه المرة، كانوا واثقين إلى درجة التحدي، بأن إسرائيل، مهما نفذت من مطاردات واغتيالات، لن تنجح في إخماد عزم الجناح العسكري لحماس.

جامع السلاح

مــا مــن أحــد شعر بالأسى لموت عياش أكثر من عدنان الغول. كان عدنان مسؤولاً عن صناعة وتوزيع الاسلحة، وعن تطوير صواريخ القسّام تحت إشراف محمد الضيف. في بداية الثمانينيات، قبل انطلاقة كتائب القسّام بشكل رسمي، كان قد ذاع

صيت الغول وصار اسمه لامعاً داخل حركة حماس. على غرار عدد كبير من الشبان، انتمى الغول بدايةً إلى حركة "الاخوان المسلمين" في مسقط رأسه، المغراقة، جنوب مدينة غزّة. كانت مهمته تقضي بجمع الاسلحة، لكنه كان أيضاً ينفذ الهجمات ضد القوات الإسرائيلية المحتلة. قتل رون تال، قائد الشرطة العسكرية في قطاع غزّة، وفيكتور رجوان، أحد قادة جهاز الشاباك، في أيلول/سبتمبر من العام 1987. إثر تلك الهجمات، صادرت القوات الإسرائيلية كميات ضخمة من الاسلحة التي كان الغول قد جمعها، وادرجت اسمه في مستهل قائمة المطلوبين من قادة حماس، حتى قبل اندلاع الانتفاضة الاولى. فهرب عبر غزّة بحراً في 11 كانون الثاني/يناير من العام 1988، وتسلل إلى داخل مصر بمساعدة بعض الصيادين ثم نزل على شاطئ العريش، حيث أمضى الليل. في صباح اليوم التالي، اتصل بأحد اقاربه الذي نصحه بأن يسلم نفسه إلى السلطات المصرية، بعدما تبيّن أنه لا يحمل أوراق سفر أو مال. ويتذكر الغول أنه تمّ استجوابه بتهذيب، وعومل باحترام[12]. لكن قيل له إنه سيبقى محتجزاً إلى حين إنجاز معاملات ترحيله إلى خارج البلاد. بعد شهرين، في 21 آذار/مارس، أخذ إلى المطار ووضع على متن طائرة متوجهة إلى سوريا. أمضى خمس سنوات في المنفى، طوّر خلالها مهاراته. فأثناء وجوده في سوريا ولبنان وإيران، تلقى الغول تدريباً مكثفاً وحصّل خبرة واسعة في صنع الصواريخ والمتفجرات والقنابل اليدوية والاسلحة الخفيفة. أطلق عليه كثيرون من الخبراء العسكريين الفلسطينيين لقب "أبُ صناعة الاسلحة". عاد في العام 1994 إلى غزّة عبر مصر، مستخدماً طريق السباحين، وحاملاً معه أربعين كيلوغراماً من المتفجرات من مادة الـ "تي. ان. تي" وغيرها من "التذكارات" التي جمعها خلال رحلته الطويلة، وهي مواد لم تكن متوفرة في غزّة. فور عودته، رُقي إلى رتبة رئيس قسم الاسلحة في كتائب القسّام.

في منتصف التسعينيات، كان عديد كتائب القسّام في الضفة الغربية وغزّة يحصى بالعشرات، وحتى في أفضل الظروف، لم يكن ليبلغ المئة. نظراً لقلة عدد أفرادها، قضت استراتيجية كتائب القسّام بالاعتماد على النوعية لا على الكمية، وعلى العمل ضمن خلايا صغيرة. لقد ركزت هذه الخلايا جهدها على اختيار الاهداف ومراقبتها، وعلى القيام بمهمات استطلاع وعلى تنفيذ العمليات الميدانية.

شكل لقاء الغول بيحيى عياش في العام 1995 نقطة تحول في مسيرة الغول المهنية. معاً، قاما بالتخطيط لعمليات عسكرية وبصنع القنابل من المواد العادية المتوفـرة للعموم. ساعدهم أفراد آخرون من كتائب القسّام، أمثال يوسف أبو هـين وسعد العربيد. بعد اغتيال عياش، عقد الغول عزمه على الانتقام، فخطط في العـام 1996 لخمس هجمات خطيرة، أدت إلى مقتل واحد وستين إسرائيلياً وإلى جـرح العـشرات. هـذه الهجمـات الانتقامية القاتلة أرغمت السلطة الفلـسطينية علـى اعتقال عدد كبير من الناشطين في حماس، من بينهم الغول. لكـنه تمكـن بعد بضعة أشهر من الفرار من السجن. لكن ألقي القبض على زوجته وعدد من أفراد عائلته في محاولة لاستدراجه. عندها، جاء دور ابو بلال (كمـا كـان يُـسمى الغول)، ليجد اسمه مسجلاً في أعلى قائمة المستهدفين بالاغتيال من قبل إسرائيل.

المحاولـة الاولى لاغتـيال الغـول حصلت في ربيع العام 1998 على يد مخبر إسـرائيلي. كـان "و. س". يعـيش في سـوريا، وسبق له أن انتمى إلى الجبهة الديموقـراطية الشعبية لتحرير فلسطين. نجح في التعرّف إلى الغول من خلال قريب لـه، فطلب مساعدته للحصول على وظيفة مع السلطة الفلسطينية. "رفضتُ طلبه بكـل تهـذيب، لكنه عاد في وقت لاحق يسألني إن كنت أرغب في شراء رشاش "كلاشـنكوف" ومسدس بسعر جيد، مدعياً أنه يحتاج إلى المال للسفر". ويروي الغول أنهما التقيا في مطعم حيفا في غزّة، ومن هناك، ذهبا إلى شقة "و.س"، حيث تفاوضـا على ثمن زهيد للأسلحة. دخل "و. س". المطبخ لاعداد القهوة ثم قدمها إلى عـدنان الذي باشر بتفقد الاسلحة، ودفع ثمنها وغادر. يقول الغول مستعيداً سياق الأحداث: "بعد ثلاث ساعات، بدأت أتقيأ كل خمس إلى عشر دقائق". عند منتـصف اللـيل، أدخـل إلى مستشفى الشفاء في مدينة غزّة حيث مكث طيلة أسبوعين. لقد أنقذه طبيب ألماني من الموت. وفيما كان يتعافى من آثار السمّ الذي دُسّ في قهـوته، أبلغ الغول الاستخبارات الفلسطينية بما تعرّض له، لكن، في هذه الاثـناء، كـان "و. س". قد فرّ إلى إسرائيل[13]. نجا عدنان من السمّ القاتل لكن تأثرت صحته سلباً بسبب مفاعيله وتداعت من جرّائه.

المحاولة الثانية لاغتيال الغول تمّت في 22 آب/أغسطس من العام 2001، عندما كان الغول، برفقة سعد العربيد، يختبر إطلاق أول صاروخ قسّام في منطقة المغراقة. يـــومها، أطلقت طائرة إسرائيلية صاروخاً على سيارة الغول، ظناً أنه في داخلها. لكن ابنه البكر، بلال، البالغ الثامنة عشرة من العمر كان يستقلها. كان سبق لبلال أن اقتـــرح علـــى والده أن يتبادلا سيارتيهما، بعد أن لاحظ تحليقاً لافتاً لطوافات الأباتشي في ذلك اليوم. هكذا، قضى بلال مكان والده.

المحاولـــة الثالثة وقعت بعد سنتين، عندما داهمت القوات الإسرائيلية منـــزله. مـــرة أخـــرى، نجا الغول من الموت. تولى ابنه الثاني محمد وأحد الاقرباء ويدعى عمـــران، إضافة إلى أحد الجيران واسمه زكريا، الدفاع عن المنـــزل، فخطفوا أحد الجـــنود. عندها، حصل تبادل لاطلاق النار، أسفر عن قتل الجنود عدداً كبيراً من الأشخاص من بينهم محمد وعمران وزكريا. ثم دمّر المنـــزل بالكامل.

قـــبل أربعة أشهر من بدء انتفاضة الاقصى في أيلول/سبتمبر من العام 2000، اجـــتمع صلاح شحادة، قائد الجناح العسكري لحماس، مع محمد الضيف وعدنان الغـــول وغيرهمـــا من كبار المسؤولين في القسّام، لمناقشة عملية إعادة تجميع خلايا حماس العسكرية. فقد بدأت الحركة تعاني من تأثير الخسائر الجسيمة التي تكبدتها، سواء بسبب تعرّض أفرادها للاعتقال أو للاغتيال على أيدي السلطة الفلسطينية او الاســـتخبارات الإســـرائيلية. قرّر الغول التركيز على تطوير الاسلحة فقط. فوضع استراتيجية لتسليح حماس بدءاً بالقنابل اليدوية والاسلحة المضادّة للدبابات، وصولاً إلى أحـــزمة المتفجـــرات للانتحاريين وصواريخ القسّام. لقد تولى أيضاً مسؤولية تدريب المئات من مجندي القسّام.

نـــضال فتحـــي رباح فرحات، الإبن البكر لمريم فرحات التي انتخبت لاحقاً كـــنائب في المجلس التشريعي عن حماس، كان من أفراد فريق تطوير الاسلحة التابع للغول. لقد طوّر نموذج صاروخ القسّام الذي استخدم منذ العام 2001 لاستهداف مـــدن وبلـــدات عدّة في إسرائيل، إذ صار يصل مداه إلى نحوعشرة كيلومترات. بحسب صلاح شحادة، إن الصواريخ التي تحمل نحو زنة عشرين كيلوغراماً[14] من المتفجـــرات "مـــصنوعة من مواد أولية بسيطة. حتى أن النساء يستطعن صنعها في

المنـــزل"[15]. إن هذه الصواريخ تطلق بشكل مستمر من بيت حانون على الطرف الـــشرقي من قطاع غزّة، ما جعل المدينة تحمل لقب "مدينة القسّام"، فيما تتحمل مستوطنة سيديروت الإسرائيلية القريبة من الحدود الشمالية لقطاع غزّة عبء تلقي تلك الصواريخ.

وفي 16 شباط/فبراير من العام 2003، تلقى نضال خبراً مفاده أن الجزء الثاني مـــن الطائرة الصغيرة الموجهة عن بعد التي كان يقوم بجمع أقسامها، قد وصل إلى منـــــزله في حيّ الزيتون في مدينة غزّة. حمل إليه الخبر عميل عربيّ إسرائيلي. شعر نـــضال بشيء من الريبة. رغم ذلك، ذهب إلى حيّ الزيتون. عندما وصل، كانت مجموعـــتان مـــن كتائب القسّام قد سبقتاه إلى هناك واقترحتا عليه الاشراف على عملية الجمع النهائية للطائرة نيابة عنه. إلا أن نضال كانت قد تبلغ بواسطة هاتفه الخلـــوي بوجوب أن يتحمل شخصياً مسؤولية جمع الطائرة. وفقاً للموجودين في المكان، لقد باشر بالعمل فوراً، مستخدماً كتيب تعليمات مفصّل.

لقـــد أثـــارت هـــذه القطعة التكنولوجية المتطورة حماسة نضال ورفاقه، لاعتقادهم أنها ستمكّنهم من إحراز تقدم في حربهم ضد إسرائيل. كانت الطائرة معـــدّة لـــتحلق فـــوق المستوطنات الإسرائيلية كجهاز استطلاع، كما يمكن استخدامها كطائرة انتحارية بدون طيار. فيما كانوا يفحصون القطعة الجديدة، تنـــبّهوا إلى صوت طائرة إسرائيلية تحوم فوق المنطقة. بعد بضعة ثوان، انفجرت المواد المفخخة التي كانت مخفية داخل أحد أقسام الطائرة، فقتل نضال فرحات وأكرم فهمي وأيمن مهنا، وجميعهم من كبار المسؤولين في كتائب القسّام، إضافة إلى ثلاثة أعضاء آخرين. القيادي في حماس، عبد العزيز الرنتيسي حمّل وزير الدفاع الإســـرائيلي شـــاوول موفاز مسؤولية موتهم. في اليوم التالي، شارك أكثر من خمـــسين ألف فلسطيني في مسيرة تشييعهم الجماعي. وانضم أكثر من مئة مقاتل مسلح من كتائب القسّام إلى كبار قادة حماس – الشيخ احمد ياسين، عبد العزيز الرنتيسي، اسماعيل هنية وغيرهم- في مقدمة الموكب الذي انطلق من مستشفى الشفاء في غزّة وبلغ مقبرة الشهداء شرق المدينة حيث ووري الرجال الثلاثة معاً الثرى، إنفاذاً لوصيتهم.

كان أبو حسين واحداً من زملاء نضال في فريق عدنان الغول لتطوير الاسلحة. لقد صمم صاروخ "آر. بي. جي" محلي الصنع، معروف بـ "صاروخ ياسين" تيمناً بالشيخ احمد ياسين. زعم أبو حسين أنه يستطيع أن يصنع قنبلة من لا شيء. ويقول رفاقه، إنه لم يضع سلاحه جانباً منذ نحو عشرين عاماً، لأنه كان مطارداً باستمرار من قبل الإسرائيليين أو مخبريهم. "بساتين البرتقال في غزّة تعرفني جيداً!" هذا ما قاله لي ضاحكاً، في إشارة إلى مخبئه الاعتيادي.

في 22 تشرين الأول/أكتوبر من العام 2004، استطاعت إسرائيل أن تحاصر خبير الاسلحة البالغ من العمر 46 عاماً، وأطلقت طائرة استطلاع إسرائيلية صاروخين على سيارته لدى مرورها في شارع يافا في مدينة غزّة، وهو في طريق عودته من صلاة الجمعة المسائية. أتت النيران بالكامل على السيارة التي كانت محملة بالمتفجرات. اسماعيل هنية، الذي كان مسؤولاً عن مكتب الشيخ احمد ياسين وقتئذ، تقدّم موكب التشييع ووصف وفاة أبي حسين بأنها "خسارة لحماس وخسارة للشعب الفلسطيني".

كان قادة حماس يتعرّضون الواحد تلو الآخر للاغتيال، بمن فيهم الأب المؤسس لحماس، الشيخ احمد ياسين، والعديد من رفاقه مثل الدكتور الرنتيسي وصلاح شحادة وابراهيم المقادمة والدكتور اسماعيل أبو شنب، إضافة إلى عدد كبير من الأعضاء في الحركة. لكن هذا الأمر لم يضع حدّاً لنشاط الحركة و لم يقوّض جناحها العسكري. فالمنظمة السرية التي كانت قد بدأت عملياتها في 1 كانون الثاني/يناير من العام 1992 بمجموعة صغيرة من المقاتلين الشباب المسلحين برشاش قديم فقط لا غير، تمكّنت أن تبرهن للعالم بعد أربعة عشر عاماً، أنها قادرة على انتاج أسلحة متطورة ومتفجرات وأساليب حربية عديدة لمواجهة الجيش الافضل تجهيزاً في الشرق الاوسط.

في صباح 25 حزيران/يونيو من العام 2006، خطفت مجموعة من الفلسطينيين المنتمين إلى ثلاث مجموعات ناشطة مختلفة، هي "كتائب عزّ الدين القسّام" و"سرايا القدس"، الجناح العسكري لحركة "الجهاد الإسلامي" و"كتائب الناصر صلاح الدين"، الجناح العسكري للجان المقاومة الشعبية، العريف الإسرائيلي الشاب،

البالغ من العمر تسعة عشر عاماً، جلعاد شاليط. لقد اجتاز مقاتلو الأجنحة الثلاث الحـــدود بـــين غزّة وإسرائيل عبر نفق يمتد على طول 800 متر، وينتهي عند نقطة تمركـــز للجـــيش الإسرائيلي قرب "كيريم شالوم" أو "كرم أبو سالم" عند الطرف الجـــنوبي لقطاع غزّة. هاجموا نقطة التفتيش فقتلوا جنديين وجرحوا أربعة آخرين قبل أن يخطفوا العريف شاليط ويأخذوه عبر النفق إلى قطاع غزّة.

بعدها، نجح مقاتلو حزب الله بالتسلل عبر "الخط الأزرق" إلى داخل إسرائيل مـــن جنوب لبنان، في عملية أطلق عليها اسم "الوعد الصادق". ففي يوم الاربعاء الواقـــع فـــيه 12 تموز/يوليو، انتظر مقاتلو الحزب مرور دورية إسرائيلية، فهاجموا سيارتي "هامفي" ثم خطفوا جنديين وقتلوا ثمانية، وجرحوا سبعة وعشرين آخرين. وتعمّد مقاتلو الحزب قصف المنطقة الواقعة شمال مستوطنة "شتولا" قرب الناقورة، مـــا مـــنع الجنود الإسرائيليين من استرجاع جثث رفاقهم. فقد أحجمت القوات الإســـرائيلية عـــن الـــتقدم لنحو سبع ساعات، خشية تعرّض الجنود الإسرائيين لمفاجـــآت اذا مـــا اقتربوا لسحب الجرحى والجثث. كما دُمّرت دبابة إثر وصولها لمـــساعدة سيارتي الـــ "هامفي" المحاصرتين. إلا أن إسرائيل ردّت على هذه العملية بشن حرب واسعة على لبنان، استمرت 33 يوماً، وتوقفت بموجب قرار صدر عن مجلس الأمن الدولي حمل الرقم 1701.

وفي تداعـــيات خطف شاليط، رفض رئيس الوزراء الإسرائيلي ايهود اولمرت أيـــة شروط تتقدم بها حماس لقاء إطلاق سراحه، وأمر جنوده باقتحام قطاع غزّة لتحريـــر رفيقهم المحتجز. على الرغم من كلام رئيس الحكومة الصارم والحاد، فقد بـــدا واضـــحاً للـــذين يعـــرفون قطاع غزّة ويتابعون التطورات التي شهدها بعد الانـــسحاب الإسرائيلي الأحادي الجانب منه، أن الجيش الإسرائيلي لا يستطيع أن يعيد فرض احتلاله على غزّة. فالثمن سيكون باهظاً جداً على رئيس الوزراء الجديد الـــذي تـــسلم زمام الامور قبل أربعة أشهر، والذي يفتقر إلى المقومات السياسية والشخصية التي ميّزت أسلافه.

خـــلال الايـــام الأولى للانتفاضة، كانت الدوريات الإسرائيلية العاملة على إحكـــام الـــسيطرة على المناطق الفلسطينية، قادرة على التنقل سرّاً بين قطاع غزّة

والضفة الغربية، إذ اقتصر قوامها على سيارتي "جيب" وعشرات الجنود، وربما دبابة أو دبابتي "ميركافا". في اسوأ الاحوال، كان الإسرائيليون يتعرضون لرشق بالحجارة أو لقصف بقنابل الوقود المصنوعة محلياً. لكن، في هذه الايام، يعمل الجناح العسكري لحماس على انتاج اسلحة متطورة. حتى أن القنابل اليدوية العادية مصممة بموجب مقاييس متطورة وفعالة كأية قنابل يدوية مصنوعة في الولايات المتحدة أو الصين، وكل المنتجات تحمل علامة "صنع في غزّة على يد القسّام". كانت الصواريخ المعروفة بـ "القسّام 1" و"القسام 2" تستهدف المستوطنات والمدن الإسرائيلية بشكل منتظم، خصوصاً سيديروت، مسقط رأس وزير الدفاع الإسرائيلي في ذلك الحين، عمير بيريتس، وتصيبها بأضرار محدودة. اما الآن فقد تمّ تطويرها. وقد اخبرني أحد كبار قادة القسّام خلال وجودي في غزّة لتغطية الانتخابات الفلسطينية، بأنها مجرد مسألة وقت، قبل أن يتمكن الجناح العسكري لحماس في الضفة الغربية من تصنيع أسلحة تجعل إسرائيل تختبر بعضاً مما تمارسه بحق الشعب الفلسطيني.

الجواسيس

لم تـــنجح حـــركة حماس في تطوير قدراتها الذاتية وتوسيع نطاق عملها و لم يـــتمكّن جناحها العسكري من تفعيل قدرته على تنفيذ العمليات العسكرية. فقد نجحت الاستخبارات الإسرائيلية في خرق أجهزة الحركة، من خلال دسّ عملاء في صفوفها، ومخبرين داخل المجتمع الفلسطيني.

خطـــط صـــانعو الاســـتراتيجية الإسرائيلية للقضاء على قادة حماس النافذين والمؤثـــرين جماهرياً، لما لهم من دور في الحفاظ على تماسك الحركة. فتمّت تصفية صلاح شحادة والشيخ ياسين والمهندس وعبد العزيز الرنتيسي، بناء على معلومات استخباراتية وفرها عملاء فلسطينيون.

لقـــد كشفت روايات هؤلاء العملاء عمق الخرق الذي حققته الاستخبارات الإسرائيلية، وطبيعة الأساليب والتكتيكات التي استخدمتها أجهزتها الأمنية، طوال ثلاثـــة عقـــود من الوجود الإسرائيلي في غزّة، وفي ظل الاحتلال المستمر للضفة الغـــربية، لتجنيد فلسطينيين. وتقدّر المنظمات الأمنية الفلسطينية عدد المتعاونين مع إسرائيل خلال هذه المدّة بما يزيد على عشرين ألفاً. على إثر الانسحاب الإسرائيلي مـــن قطاع غزّة، اضطر كثيرون منهم للجوء إلى داخل إسرائيل خوفاً من التعرّض للانتقام، فأقاموا في قرى بنيت خصيصاً لإيوائهم.

أكرم الزطمة

أدرجت إسرائيل إسم صلاح شحادة على رأس قائمة القادة المستهدفين. لقد اعتبرته عدوّها الأول، كونه قائد الجناح المسلح والمسؤول الأول عن سقوط مئات القتلى في سلسلة العمليات الانتحارية التي نسقتها ونفذها مجموعته. تعرّض شحادة للملاحقـــات المـــستمرة وللمطـــاردات المكثفة، فصار مجرّد فارّ من وجه القوات الإســـرائيلية، ما جعل شيمون بيريس، وزير الخارجية الإسرائيلية آنذاك، يصفه بأنه

"أسامة بن لادن محلي""[1]. واستخدمت إسرائيل الكثير من الحيل بهدف القضاء على قواعد مختلف الفصائل الفلسطينية وأجنحتها المسلحة. في سياق شهادات مسهبة أدلوا بها، شرح فلسطينيون كيف تمّ تجنيدهم لصالح إسرائيل. لقد تعرّضوا لشتى أنواع الإغراء كما للابتزاز الجنسي.

ليل 23 تموز/يوليو 2002، قرابة منتصف الليل، شنّ الطيران الحربي غارة على مبنى في حيّ آهل بالسكان في مدينة غزّة، بناء لمعلومات وفرها للاستخبارات الإسرائيلية مخبر فلسطيني. حوالى الساعة 11:55 ليلاً، فيما معظم الناس نيام، شوهدت مقاتلتا "إف 16" تحلقان لبضعة دقائق، بشكل دائري، قبل أن تطلق إحداهما قنبلة ذكيّة، زنة طنّ واحد[2]. فانهار المبنى المؤلف من طبقتين، متحوّلاً إلى ركام، مسبّباً سقوط منزل آخر وتضرّر أربعة. قتل صلاح شحادة على الفور. وقضى معه ستة عشر مدنياً، من بينهم تسعة أطفال ورضيعان، هما رائد مطر البالغ من العمر ثمانية عشر شهراً ودينا رامي مطر، شهران. وجرح ما يزيد على مئة وخمسين شخصاً. كان من الصعب جدّاً التعرف على الجرحى، فقد تضرّجت أجسادهم بالدماء وغطاهم الركام. نقلوا جميعاً إلى مستشفى الشفاء في غزّة. وهناك، كانت زوجة شحادة، ليلى صفيرة، وابنته إيمان، ومرافقه زاهر نصار، في عداد القتلى[3].

كان الجوّ لا يزال عابقاً بالغبار حين وصلت إلى محيط المباني المدمّرة، حيث سبق للمخبر الفلسطيني ألذي أرشد الطائرتين الإسرائيليتين إلى المكان، أن اختبأ. كان الجيران الذين لم يقضوا نحبهم في القصف الإسرائيلي، يتوعّدون بالانتقام لمقتل شحادة وللضحايا المدنيين.

أثار هذا الاعتداء المتعمّد على منطقة مزدحمة بالسكان ردود فعل عالمية بلغت حدّ الإدانة الدولية. حتى الولايات المتحدة الأميركية، حليفة إسرائيل الوفيّة، وصفت هذا الهجوم بـ "الظالم والقاسي"[4]. لكن رئيس الوزراء الإسرائيلي آريل شارون واجه هذه المواقف الحادّة. وقال في جلسة صباحية لمجلس الوزراء عقدت بعد تنفيذ الغارة، بشيء من الاعتذار: "بالطبع ليست لدينا مصلحة بقصف المدنيين، ونحن نأسف دائماً لسقوط مدنيين". إلا أنه أضاف، مبدّداً أي شعور

بالندم: "لكن، من وجهة نظري، إنّ هذه العملية، هي أحدى أكبر النجاحات التي حققناها". حاز هذا التصريح على تأييد نائب شارون لشؤون الاتصالات والإعلام، جدعون مئير، الذي برّره بالقول إنّ هذه الغارة استهدفت "إرهابياً معروفاً، كان مسؤولا عن تنفيذ مئات الاعتداءات ضدّ المواطنين الإسرائيليين في السنوات الأخيرة".

خططت الاستخبارات الإسرائيلية لهذا الهجوم بعدما حصلت على معلومات مؤكدة عن تحرّكات شحادة وفرها لها أكرم الزطمة. إلا أن الزطمة لم يعترف بخطورة تداعيات أعماله إلا بعد فوات الأوان. لقد أبدى، عندما كان محتجزاً في أحد السجون التابعة للسلطة الفلسطينية في غزّة، ندماً عميقاً، ولكن متأخراً، إذ قال: "إني أشعر بالألم والأسى. لقد سقط الكثير من الضحايا. إن كل من ارتكب جريمة يجب أن ينال عقابه"[5].

كان أكرم في الثانية والعشرين من العمر، عازب ويقيم في رفح. له سبعة أشقاء وأربع شقيقات. يملك أبوه متجراً متواضعاً للبقالة. كانت طموحاته كبيرة، فالتحق في جامعة الأزهر في مدينة غزّة. بدأ تعاونه مع الاستخبارات الإسرائيلية في مكتبة المركز البريطاني في غزّة. لقد كان طالباً في السنة الثالثة – أدب إنكليزي، حين ارتاد هذه المكتبة لإجراء بحث حول مسرحية شكسبير "الملك لير". هناك، صادف وجود شخص غريب يقرأ صحيفة بريطانية. بادر أكرم إلى التعرّف إليه بداعي الفضول. فقال له الرجل إنه يدعى تيري وهو كندي الجنسية واستاذ محاضر في علم الاجتماع في جامعة أوتاوا، جاء إلى غزّة لاستطلاع ظروف عيش الفلسطينيين. ما كاد حديثهما يشارف على نهايته حتى استخدم تيري أكرم كمساعد له في أبحاثه وكمترجم، لقاء حصوله على مئة دولار في الشهر. لاحقاً، قدم تيري لأكرم مزيداً من الاغراء، إذ وعده بمساعدته على السفر إلى كندا. زوّد أكرم تيري بصور فوتوغرافية عائدة له من النوع المناسب لجواز السفر، بغية حصوله على بطاقة هوية من السفارة الكندية في تل أبيب.

غادر أكرم وتيري غزّة، متوجهين إلى السفارة الكندية في تل أبيب، في خطوة بدت كأنها تمهيد لتعبئة أكرم استمارة تأشيرة سفر إلى كندا. وفي ما بدا أنه محض

صــدفة، عــرّف تــيري أكرم إلى مواطن كنديّ آخر يدعى ديفيد. يقول أكرم مــستذكراً: "إكتــشفت لاحقــاً أنهمــا كانا كلاهما ضابطين في الاستخبارات الإسرائيلية". إعترف ديفيد لأكرم بأنه في الحقيقة عميل إسرائيلي واسمه "أبو محمد". "بدآ بمضايقتي وبابتزازي، مستخدمين صوراً فوتوغرافية مزيفة تظهرني في وضعيات جنسية مريبة، وقالا لي إنهما سيستخدمان هذه الصور ضدّي إن لم أتعاون معهما". إن الأزهــر جامعة محافظة دينياً، وبالتالي، فإن تلك الصور ستعرّض أكرم لإحراج بالغ في حال نشرها.

كلــف أبــو محمد أكرم برصد "المواجهات" و"الأحداث الساخنة" في غزّة، وبتــزويده بأسمــاء المناضلين الفلسطينيين الذين ينفذون عمليات ضدّ المستوطنات اليهودية ومراكز القيادة الإسرائيلية. بعد بدئه العمل مع أبو محمد بمدّة قصيرة، تلقى أكرم إتصالا هاتفياً من عميل آخر أطلق على نفسه إسم "أبو إيهاب". ويقول أكرم في اعتــرافاته: "طلــب مني أن أبدأ بمراقبة الشهيد صلاح شحادة ومنــزله إضافة للأشــخاص الــذين يــزورونه، وأن أزوّده بتفاصيل عن السيارات التي يقودونها. شــرحت لأبو إيهاب أكثر من مرّة أن المبنى حيث يقيم الشهيد مكتظ بالسكان. لكن أبو إيهاب برّر أيّة عملية إغتيال بقوله: "إن لم يتم القضاء على صلاح شحادة هكذا طريقة، فإنه هو من سيتسبب بقتل الكثير من المدنيين".

لم تكــد تمرّ عشرون دقيقة على تحديد أكرم لمكان وجود شحادة ورفعه هذه المعلومات إلى مرجعه الإسرائيلي، حتى أسقطت الــ "إف 16" قنبلتها القاتلة.

نفت إسرائيل إدّعاءات أكرم بأن عملاء إسرائيليين تستروا بهويات كندية في سياق تنفيذهم عملية تجسس، إذ أن تمويه هؤلاء العملاء لهوياتهم الإسرائيلية الأصلية بهويات كندية كان ليشكل مخالفة فاضحة لوعد سابق قطعته إسرائيل لكندا. فقبل خمــس سنوات، إستدعت كندا سفيرها في إسرائيل بعدما ألقي القبض على عملاء تــابعين للموســاد ومزودين بجوازات سفر كندية مزوّرة، إثر فشل محاولة اغتيال اســتهدفت المــسؤول في حماس خالد مشعل في العاصمة الأردنية عمان. يومها، تقدّمت إسرائيل بالاعتذار من كندا وقطعت لها وعداً بعدم استخدام جوازات سفر كندية مجدّداً.

حيدر غانم

يعـود الفـضل في نجاح المزيد من العمليات التي خططت لها الاستخبارات الإسرائيلية إلى عميل فلسطيني آخر هو حيدر غانم، الذي تم استدراجه أيضاً ليعمل لحـسابها، ومن دون علمه بأن التقارير التي سبق له أن أعدّها لـ "مركز سنغافورة للدراسات الاستراتيجية" المزعوم، كانت مجرّد طعم أوقعه في الشرك الإسرائيلي.

عندما قابلت حيدر غانم في زنـزانته، طالعني شخص غير حليق الذقن، لكنه بدا لي حاد الذكاء، وعلى درجة عالية من الثقة بالذات[6]. كان يخالجه الندم لخيانته "أصدقاء" وثقوا به. واسترسل في الكلام، مفصحاً عن ظروف إجباره على التعامل مع جهاز الشين بيت:

"لقـد قرأت إعلاناً في صحيفة يدعو الفلسطينيين العاطلين عن العمل لتقديم سيرهم الذاتية، فحضّرت نص سيرتي الذاتية وأرسلته إلى العنوان المحدّد. فعلت ذلك في نهاية العام 1995، وجاءني الردّ في بداية عام 1996. حينها، طلب مني أن أتصل بمركـز الدراسـات الاستراتيجية، نظراً لعرضهم عليّ عملاً مرموقاً في الصحافة المكـتوبة يـتوافق ومؤهلاتي. وخصّصوا لي مقرّاً في ما يدعى المركز الإعلامي في الـضفة الغربية. بدأت عملي في الصحافة، وصرت أبعث بالمواضيع التي أعدّها إلى مقـرّهم الرئيـسي الموجود في سنغافورة، على ما أفادوني به. ثم طلب مني تحضير دراسـات عـن الوضـع في قطاع غزّة. لقد عملت معهم حوالى الستة أشهر، ثم أبلغوني بأنه سيطرأ تعديل على مهامي، إذ طلب مني العمل بصفة مراسل تابع لهم في غـزّة، وهذا ما قمت به طوال ستة أشهر إضافية، إلى أن دعوني لزيارتهم في تل أبيب. لقد قدّموا لي عذراً مفاده أنهم لن يتمكّنوا من مقابلتي في مكتبهم، نظراً لمـا يـشهده من حركة عمل كثيفة، لكنني دعيت أخيراً إليه، لعقد اجتماعنا الثالث. كان ضابط إسرائيلي رفيع حاضراً في الاجتماع، فأدركت للمرّة الأولى أن مدرائي إسرائيليون. عندما بادر الضابط إلى مناقشة الوضع المستجد في قطاع غـزّة، بـدأت أعي ما تورّطت به. لكنهم عندما شعروا بتردّدي، عمدوا إلى ابتـزازي قـائلين: "مـرّت سنة على بدء عملك معنا، وفي حوزتنا جميع تلك التقارير التي كنت ترسلها إلينا".

عندها، فهم حيدر أن لا مجال للعودة إلى الوراء، وبدأ يعمل تحت غطاء صحافي في غزّة، رافعاً إلى رؤسائه في الاستخبارات الإسرائيلية تقارير مفصّلة عن أية مسألة ذات أهمية. عوض الكتابة عن تظاهرة ما بأسلوب صحافي، كان يملأ تقاريره بتفاصيل هامة للغاية تعود بالفائدة على الموساد، كأعداد المتظاهرين، وهويات المنظمين والشعارات المرفوعة. كما عزّز اتصالاته بقادة مختلف المنظمات السياسية الفلسطينية، وكشف لي أسماء بعض من أجرى معهم مقابلات: "بالتأكيد أجريت أحاديث صحافية مع الشيخ أحمد ياسين، قائد حماس، في مناسبات عدّة. بالإضافة إلى ياسين، التقيت من حماس، اسماعيل أبو شنب والدكتور محمود الزهّار. من الجهاد الإسلامي، قابلت نايف عزّام ومحمد الهندي ومعظم القادة في السلطة الفلسطينية".

قال لي حيدر إن مراجعه الإسرائيلية طلبت منه التركيز على بعض الشخصيات الأساسية المعنية بالأجنحة العسكرية داخل المنظمات الفلسطينية، وبصورة خاصة على الشيخ أحمد ياسين، قائد حماس، ونافذ عزّام، قائد الجهاد الإسلامي، وجمال أبو سمهدانة، قائد لجان المقاومة الشعبية. "إن المعلومات المتعلقة بما يفكرون به وبتوجهاهم العسكرية وبمخططاهم المستقبلية المرتبطة بالتغيرات السياسية الأخيرة، كانت جميعها محط اهتمام إسرائيلي كبير".

"قبل كل اجتماع، كان عليّ تحضير إجابتي على سؤالين أساسيين أو أكثر. وكانت هذه الأسئلة تتعلق بالطبع بالمجموعات الإسلامية وعلاقتها بجناحها السياسي، كما بذراعها العسكري، والعلاقة بين الحركة بحدّ ذاها والسلطة الفلسطينية. كانوا دائماً يتوقعون مني أن أتقدّم بشرح مسهب ومفصل عن جميع الحاضرين في الاجتماع، وبنقل مضمون الأحاديث الجانبية التي حصلت قبل الاجتماع وبعده. لم تكن تلك اللقاءات شبيهة بمؤتمرات صحافية، إذ أها لا تتمتع بهيكلية محددة، إفساحاً في المجال أمام حديث مفتوح"، كما شرح حيدر.

ويتابع واصفاً تحرّكه: "كنت ناشطاً للغاية في غزّة، تحديداً في منطقة رفح التي شكلت، أثناء الانتفاضة، نقطة ساخنة تخضع لحظر مشدّد. لكن، بفضل علاقاتي، تمكّنت من حضور اجتماعات خاصة وسريّة، ومن الحصول على تفاصيل محظورة،

دون الاضـــطرار للـــبحث والتقـــصّي. إذ لسوء حظهم، لم يكونوا متحفظين في مناقشاهم للشؤون الداخلية والعسكرية الدقيقة، بل كانوا يخوضون أمامي في هذه المواضـــيع دون أيـــة كلفة، لا بل حتى بحرية كاملة، ودون أن يعيروا وجودي أي انتباه".

تـــرافقت بداية إنتفاضة الأقصى في قطاع غزّة وتدفق كمّ هائل من المعلومات التي وفرها المخبرون للاستخبارات الإسرائيلية. كانت كلها تتعلق بمشاعر الغضب في صـــفوف الفلسطينيين، وعجزهم عن الدفاع عن الفصائل الفلسطينية المنضوية تحـــت لواء المقاومة. لقد كان ذلك وصفاً واقعياً للوضع القائم، فيما لم يكن أمام عـــدد كبير من الشبان أي خيار سوى المقاومة. تكثف نشاط حيدر وتوسع نطاقه حـــين تفاقمـــت انتفاضـــة الأقصى: "كنت أحاول تحديد الأماكن التي قد تشهد مواجهات داخل هذه الفصائل، وأن أنقل صورة واقعية عن الوضع الفلسطيني".

كانـــت التدريـــبات الـــتي تلقاهـــا هؤلاء العملاء كما أنظمة الاتصال التي استخدموها متنوعة ومرتكزة بشكل أساسي على شخصية العميل وطاقاته الفكرية: "كل ما كسبته خلال عملي معهم هو تعلمي كيفية استخدام الإنترنت. لقد تلقيت درســاً بهذا الخصوص في مركز في قطاع غزّة، وتابعته حتى برعت في هذا المجال. وكـــان محط اهتمام مراجعي الإسرائيلية، كيف يمكنني تسليمهم رسائل إلكترونية مشفرة دون أن يتم فضح مضمونها، حتى لو فاجأني أحدهم أثناء كتابتي إياها. في البداية، استخدمنا نظاماً هو عبارة عن قرص صغير مربوط مباشرة بمقر الشين بيت، دون الاضـــطرار للمرور عبر الخادم المحلي. لكن أخطائي التقنية كانت كثيرة، لذا صـــرت أضـــغط الملفات، وأستخدم كلمات السرّ للتمكن من النفاذ إلى الشبكة العامة".

عمليات اغتيال المتعاملين الدموية كالتي حصلت في غزّة لم تردع حيدر غانم عـــن مواصـــلة تعاونه مع الشين بيت، إذ يقول: "كنت في غزّة ذات يوم، عندما رأيت تجمعاً في إحدى الساحات. قيل لي إنه سيتم إعدام مخبر فلسطيني، مثلي أنا، يعمـــل لحساب الإسرائيليين، بسبب تورطه في اغتيال جمال عبد الرازق في رفح. بداعي الفضول، ذهبت لأشاهد عملية الإعدام".

علـــى مدى عشرات السنين الماضية، زاد عدد المخبرين في شبكة الاستخبارات الإســـرائيلية بموازاة نموّ حركة المقاومة الفلسطينية ضدّ الاحتلال الإسرائيلي. إن خوف الفلسطينيين من أن تعمد القوات العسكرية الإسرائيلية إلى اعتقالهم، أضعف مناعتهم في مـــواجهة الـــضغوط الإسرائيلية، فأصبحوا لقمة سائغة بالنسبة للإسرائيليين، وبالتالي ســـهلت عملية تجنيدهم بصفة عملاء وجواسيس. كذلك أقدمت إسرائيل، في بعض الأحـــيان، على توقيف أفراد فلسطينيين، بحجة ارتكابهم "جرماً قوميّاً"، وذلك بهدف استغلال وجودهم على الساحة السياسية الفلسطينية بعد إطلاق سراحهم: "في بدايات الانتفاضة الثانية، لم تنفذ عمليات اغتيال بحق شخصيات سياسية، بل اقتصر الأمر على مـــراقبة هـــؤلاء الأشخاص ورصد نشاطاتهم. بعد قرابة الشهر، ومع انطلاقة إنتفاضة الأقـــصى، بـــدأت أتعقـــب أحد المسلحين الفلسطينيين. وبعد عشرة أيام، في الثاني والعـــشرين من نوفمبر عام 2000، تمّت تصفيته". باغتيال المغدور جمال عبد الرازق، أحـــد أهـــم رموز حركة فتح، استهلت إسرائيل سلسلة استهدافاتها السياسية الموازية لموجة العنف الجديدة التي سببتها الانتفاضة الثانية. حينها، أدّى حيدر دوراً أساسياً.

لقد ذاع صيت عبد الرازق كمقاتل باسل. سنيّ عمره بلغت الثلاثين، عاشها محاربـــاً حتى الرمق الأخير، وأمضى منها قسطاً وافراً، ما بين عامي 1992 و1999، وهـــو لم يـــزل في العشرين من العمر، في سجن إسرائيلي، متهماً بمهاجمة الجنود الإســـرائيليين والمستوطنين في القسم الجنوبي من قطاع غزّة، ورميهم بقنابل يدوية. لقد قضى نحبه فيما كان متوجهاً بسيارته الهيونداي الكورية الصنع، من مدينة رفح الجنوبـــية إلى خـــان يونس، على بعد سبعة كيلومترات في الشمال الشرقي لقطاع غـــزّة. كـــان يـــسالك يومها الطريق الرئيسي، إلى الشرق من مستوطنة موراغ الإســـرائيلية، فـــيما يلحق به ثلاثة من رفاقه، مستقلين سيارة مرسيدس. كان عبد الرازق ينوي القيام بهذه الرحلة في اليوم السابق، لكن، لسخرية القدر، أرجأ رحلته لـــيوم واحد، لاعتقاده أن الجيش الإسرائيلي سيكون مستنفراً إلى أقصى الدرجات بسبب الهجوم الذي تعرّضت له مستوطنة سيديروت قبل يوم واحد.

وكمـــا أفاد حيدر في اعترافاته، فإنه بناء لمعلومات زوّدها بها، عمدت وحدة إسرائيلية خاصة بالتربص بعبد الرازق. ما كادت سيارته تصل إلى تخوم مدينة رفح،

بالقرب من مستوطنة موراغ، تتبعها سيارة المرسيدس، حتى اندسّت سيارة جيب إسرائيلية بينهما، ثم أمطر الجنود الإسرائيليون السيارتين بنيران بنادقهم الرشاشة، فأردوا جمال ورفاقه الثلاثة قتلى.

بعد اغتيال عبد الرازق، نال حيدر التنويه والترقية. وبما أنه، بذلك، كسب ثقة رؤسائه داخل الشين بيت، فقد خوّلوه بدوره، تجنيد مخبرين، يستدرجهم بواسطة رسائل إلكترونية: "لقد أصبحت محط ثقة عالية داخل الشين بيت، فبدأوا بتسليمي أموالاً لأوزعها على أناس لا أعرفهم. كان المال يرسل أيضاً عبرالنظام الإلكتروني PayPal إلى مجندين جدد وعملاء مدرجة أسماؤهم على لائحة القبض. وزاد راتبي أيضاً من 1500 شيكيل إلى ألفي شيكيل بالشهر الواحد، حتى بلغ الثلاثة آلاف شيكيل في نهاية فترة تعاملي معهم".

ويفصِّل حيدر كيفية إعداد الرسائل–الطعم: "كانت أجهزة الإستخبارات الإسرائيلية تعدّ تلك الرسائل الإكترونية. وكان من الضروري أن يتمتع من يكتبها بثقافة عامة شاملة، وتتوفر لديه معلومات دقيقة، إذ كانت تلك الرسائل تتضمن آيات قرآنية تمجّد مبدأ الشهادة، وتصريحات تزخر بالمعاني الوطنية والدينية، بهدف إثارة حماسة الشباب وتأليبهم، لا للإنضمام بالضرورة إلى الجهاد الإسلامي، بل للعمل مع مجموعات إسلامية. لقد طلب مني تصحيح الأخطاء اللغوية والإنشائية الواردة فيها، أي عملياً، إعادة صياغتها قبل إرسالها إلى مجندين محتملين. كما كانت تلك الرسائل الإكترونية مرفقة برقم هاتفي مخصص لتأكيد" التطوع". كان يتلقى المجندون أيضاً أسلحة وأموالاً، لمكافأتهم على تنفيذهم المهام الموكلة إليهم وفقاً للتعليمات التي تمّ تزويدهم بها. في المقابل، وجب عليهم الامتناع عن إعلام أي شخص بماهية تلك الرسائل الإلكترونية".

من المهام التي كان حيدر أيضاً موجلاً بها، رصد الشبان الذين يرتادون المساجد بشكل دوريّ، لتقدير مدى استعدادهم للانضمام إلى كتائب عزّ الدين القسّام أو الجهاد الإسلامي. بعدها، يقوم بتجنيدهم ضمن خلايا صغيرة لا يتعدى عديدها شخصان أو ثلاثة، ثم يزوّدهم بالمال والعتاد. من بين أساليب التمويه والغش التي اعتمدها أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية، تكتيك قضى بأمر هذه

الخلايا الفلسطينية "المزيّفة" بمهاجمة دوريات ومراكز تفتيش إسرائيلية في قطاع غزّة. لكـــن، لا تكـــاد هـــذه العناصر تقترب من الموقع المحدّد بغية مهاجمته، حتى تتمّ تصفيتها، ثمّ تدّعي القوات الإسرائيلية أنها اضطرّت لإطلاق النار باتجاهها. كثر هم المحللـــون الفلسطينيون الذين أدركوا حقيقة هذه المكائد، وأشاروا إلى أن إسرائيل، حكومة وجيشاً، استخدمت هذه التكتيكات بغية رفع معنويات جنودها. لقد بات جلـــيّاً أن هـــذه الهجمات المزيفة تتزامن وموجات القصف التي يتعرّض العديد من المـــدن في الـــداخل الإســـرائيلي بفعـــل مجموعات فلسطينية كحماس والجهاد الإسلامي.

إضـــافة للمعلومات التي تتلقاها بشأن عدد من النشطاء ومخططات منظماتهم، كانت إسرائيل مهتمة بالحصول على نوع آخر من المعطيات. لقد أرادت الاطلاع علـــى مجريات الأمور في قطاع غزّة. إرتاب حيدر عندما علم بأن ما يبعث به من معلوملت حول التحركات التي يشهدها قطاع غزّة يستخدم بشكل مجتزأ: "مثلاً، إن أعلمـــتهم بأن عدداً من الأشخاص قد دخل إلى قطاع غزّة من الضفة الغربية، قلما يهتمون بالأمر. أخيراً أدركت أنهم لا يبالون، لأن الإسرائيليين هم أنفسهم من أرسل هؤلاء الأشخاص إلى القطاع، بصفة مخبرين".

أبو خوصة

روى الصحافي الفلسطيني توفيق أبو خوصة حادثة وقعت في وقت متأخر من أولي ليالي عيد الأضحى عام 1992[7]. لقد أيقظته أصوات طلقات نارية قريبة من منـــزله في مدينة غزّة، فأسرع إلى النافذة ليرى الجيران محتشدين أمام منـــزله. فقد قتل رجال مقنعون شابين بعد إجبارهما على الخروج من سيارة بيجو 504 عمومية بيضاء اللون. وعلى حائط منـــزل توفيق، خُطت رسالة مقيتة: إنها هدية العيد من كتائب عزّ الدين القسّام إلى توفيق أبو خوصة".

صُـــدم توفـــيق بهـــذا المشهد، كما بالرسالة المشؤومة. كان قد شارك، قبل أســـبوعين، في مناقـــشة عامـــة في حيّ قريب، حضرها أيضاً الدكتور حيدر عبد الشافي، كبير المفاوضين الفلسطينيين إلى محادثات السلام في مدريد وواشنطن. ناشد

توفيق حينها وضع حدّ للاغتيالات التي أهرقت حياة أكثر من 450 مخبر في السنوات الأربع التي أعقبت انطلاقة الانتفاضة. إن قتل المخبرين لم يشكل ظاهرة جديدة بالنسبة للفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزّة، لكنه بات يهدّد العلاقات والروابط القبلية والأسرية، إذ كانت تنفذ عمليات القتل بحجة تطهير المخيم من جاسوس أو عميل، فيما السبب الحقيقي الكامن وراءها يتمثل بتسوية حسابات قديمة وبالانتقام.

أيضاً، بدت بعض عمليات القتل وكأن لا مبرّر لها. لقد عثر على جثة شاب أعمى في التاسعة والعشرين من العمر يدعى حسام مصطفى شبايك بعد يوم من اختطافه من محل لبيع إطارات الصور في حيّ الرمال في مدينة غزّة. وجّه أهله المحزونون والمصدومون نداءات عبر الصحف المحلية وتلك الصادرة في الضفة الغربية، مطالبين بمعرفة سبب قتل ابنهم الذي لا تنطبق عليه أية من المواصفات المعلنة التي قد تجعله عرضة للقتل. فكل من عرف مصطفى شبايك أشاد بطباعه الطيبة وشخصيته المحبّبة.

كما وقعت حادثة مماثلة في مخيّم "نور شمس" في ضاحية طولكرم في الضفة الغربية، إذ عثر على ياسر قشمور ووالده سعيد، جثتين هامدتين. لقد خطف ياسر من منزله، من أمام زوجته وأولاده وأهله. كان سبق له أن تلقى تهديدات تأمره بالاستقالة من منصبه كمدير لفرع منظمة الأونروا في مخيم اللاجئين، فاتصل بعدد من القادة الفلسطينيين داخل وخارج الأراضي المحتلة، مطالباً إياهم وضع حدٌّ لهذه التهديدات التي يتلقاها من مختلف التنظيمات. أحد هذه التهديدات المروّعة حمل توقيع "الشبح الأسود" والثاني توقيع "القيادة الموحدة للانتفاضة"، وتهديد ثالث فورده ممهوراً بتوقيع الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين. نفت التنظيمات الثلاثة إصدارها هكذا تهديدات[8]. لكن، في أواخر شهر آذار/مارس 1992، هاجم عشرة رجال مقنعين ومزوّدين بفؤوس والد ياسر وقتلوه على الفور. وبعد وقت قصير، لقي ياسر المصير نفسه. لقد وجد مقتولا بفأس أيضاً على مقربة من منزل عائلته. في معرض تقويمهم لظروف هذه التصفيات الوحشية، تساءل جيران الضحيتين عن سبب إخلاء موقع عسكري إسرائيلي، لا يبعد أكثر من ثمانين متراً من المنزل، في

الوقت الذي تمت فيه عملية القتل، فيما ترك شعاع من نور موجهاً باتجاه المنــزل. لقد كانوا على يقين بأن المهاجمين على صلة وثيقة بسلطات الاحتلال الإسرائيلي. بعـد ذلـك، أصدرت فتح بياناً أعلنت فيه انتماء ياسر إلى صفوفها، معتبرة إياه شهيداً. وأفادني ابراهيم غوشه، المتحدث باسم حماس وأحد قادتها في الأردن، بأنّ حمـاس لا تـنفذ حكـم الإعدام بحق المخبرين إلا بعد التأكد بدقة من علاقاتهم وجرائمهم، فلا ينـزل بهم العقاب الأخير إلا بعد تمحيص معمّق.

لقد وجهت اتهامات كثيرة إلى الاستخبارات الإسرائيلية، محمّلة إياها مسؤولية تنفـيذ هذه الجرائم وكثير غيرها بحق أناس أبرياء، بهدف تلطيخ صورة الانتفاضة وفصائلها العسكرية. قيل حينها إن إسرائيل تحاول خلق انطباع عام بأن الميليشيات الفلسطينية تعمد إلى قتل الفلسطينيين، الأبرياء منهم كما العملاء، على حدّ سواء.

حمدية

كـسب ولـيد راضي حمدية أموالا طائلة لقاء خرقه صفوف حركة حماس وتـسريبه معلومات لحساب إسرائيل. لكنه عاد فدفع الثمن مضاعفاً، بما أن حياته كانت مزدوجة، جزاء خيانته!

لقـد أعـدم حمديـة في غزّة بعد اعترافه بعمالته لدى الاستخبارات العامة الفلـسطينية، ولاحقاً أمام هيئة محكمة أمن الدولة في غزّة، بأنه زوّد الاستخبارات الإسـرائيلية بمعلـومات مكّنتها من اغتيال اثنين من قادة كتائب القسّام وكوادر أخرى في حماس كانت إسرائيل قد أدرجت أسماءهم على لائحتها السوداء. وذكر مـنهم ياسر النمروطي، قائد الجناح العسكري في حماس، الذي اغتيل عام 1992، وعمـاد عقـل الذي استشهد عام 1993، ومروان الزايغ وياسر الحسنات ومحمد قـنديل الذين قتلوا معاً، في حيّ الصبرا في غزّة، في الرابع والعشرين من أيار/مايو 1992.

كـان حمديـة يتمتع بصفة مسؤول جهاز الدعوة في حركة حماس. في بداية الثمانينـيات، أنهـى دروسه في الجامعة الإسلامية وانتمى إلى مجموعة أطلقت على نفـسها إسم المجمّع الإسلامي، الذي أنشأه وترأسه الشيخ أحمد ياسين. كان هذا

المجمع مركزاً لحركة الإخوان المسلمين في غزّة، وبمثابة سلف لحركة حماس. تعهد حمدية للشيخ ياسين بأنه "سيبقى وفياً للحركة الإسلامية" وأقسم بجملة سريّة يستخدمها الناشطون الإسلاميون للاتصال في ما بينهم، أريد منها أن تشكل جملة ترحيبية، هي "كيف حال الأقصى؟"، فيأتي الجواب: "الأقصى جريح"، في إشارة إلى المسجد الأقصى في القدس.

في العام 1986، تأججت الخلافات بين ناشطي حماس الناشئين وبقية المنظمات الفلسطينية بمن فيها فتح، فتورّط حمدية في عراك مع أسعد الصفطاوي، وهو أحد الناشطين في فتح في غزّة. نتيجة لذلك، داهمت الاستخبارات الإسرائيلية منزله صباح السادس من شهر تشرين الأول/أكتوبر 1987، فاعتقل واقتيد إلى سجن غزّة المركزي لإخضاعه للاستجواب. هناك، وضع أمام خيارين: إما التعذيب وإما العمالة، فأذعن للخيار الثاني. عندها زوّده ضابط استخبارات إسرائيلي يدعى "ميني" برقم هاتفه، وبعد أقلّ من أسبوع، أطلق سراحه[9].

بعد مضيّ أسبوعين، تلقى حمدية أمراً للقاء ميني أمام سجن أبو كبير في تل أبيب. عندما وصل ضابط الاستخبارات، أشار إلى حمدية باللحاق به إلى مبنى قريب. في شقة في الطابق الثاني، تواجد ضابط آخر يطلق على نفسه إسم "أبو حديب" باشر باستجواب حمدية مركزاً أسئلته حول قادة الحركة الإسلامية. وفقاً لما ورد في نص اعترافات حمدية، فإنه ذكر العديد من الأسماء، منها أسماء الشيخ أحمد ياسين وعبد العزيز الرنتيسي وخليل القوقا. واصل حمدية تزويد الاستخبارات الإسرائيلية بالمعلومات حتى تاريخ الإعلان عن تأسيس حركة حماس في كانون الأول/ديسمبر من العام 1987، إثر اندلاع الانتفاضة الأولى. لقد شارك حمدية في كثير من فعاليات الانتفاضة، فاعتقل في شهر آب/أغسطس 1988 وبقي محتجزاً طوال سبعة أشهر، رغم عمله لحساب الإسرائيليين. لكنه أوضح إن الغاية الإسرائيلية من اعتقاله هي خلق انطباع داخل حماس "بأنني واحداً منهم، إبعاداً للشبهات".

حدّد ضابط الاستخبارات ميني موعداً آخراً له في تل أبيب، لكن هذه المرة في فندق. أثناء هذا اللقاء، تعرّف حمدية إلى ضابط رفيع الرتبة اسمه "أبو صقر"،

فخـــاض معــــه في حديث طويل تناول الوضع في غزّة وواقع الحركة الإسلامية في القطاع. في ختام الاجتماع، أعطى أبو صقر حمدية مبلغ 150 ألف شيكيل، أي ما يعـــادل 30 ألــــف دولار أميركـــي، وطلـــب منه استخدام إسم "أبو جعفر" في الاتـــصالات التي سيجريها مع الاستخبارات الإسرائيلية. في مطلع شهر أيار/مايو 1989، فوجــــئ حمديــــة بتعرّض منــــزله لغارة جوية وتمّ اعتقاله مجدّداً، فيما أفاد ضــــابط الاستخبارات ميني إبو جعفر بأنه ألقي القبض على مجموعة كبيرة من قادة حمــــاس، وتمّ سجنهم في معتقل "أنصار 2" في غزّة. بعد عدّة أيام، استدعي حمدية إلى جلسة استجواب حضرها ميني وقيل له بأن كل أفراد الجهاز العسكري لحماس قـــد تم توقيفهم، والمطلوب منه تزويد ضابط الاستخبارات بمعلومات عن المعتقلين من حماس والجهاد الإسلامي، فمكث في معتقل "أنصار 2" طيلة أربعة أشهر.

بعد الإفراج عنه بفترة وجيزة، استدعي حمدية للقاء ميني على الطريق الرئيسي في مــــنطقة الشجاعية. وصل ميني على الموعد في سيارة من نوع بيجو 404، وهي الـــسيارة الأكثر شيوعاً في غزّة في الفترة التي سبقت قيام السلطة الفلسطينية. كان معــــه في الــــسيارة أشخاص آخرون قدّر حمدية أنهم ضباط استخبارات "متنكرون بلـــباس عــــربي". كما كانت السيارة مزيّنة بآيات قرآنية وبسجادة للصلاة، فيما طرحت في أسفلها، بنادق عوزي. جلس حمدية في المقعد الخلفي، قرب ميني الذي تنكـــر بشعر مستعار وبشارب مزيّف. وأدرك حمدية أن من يراهم "سيحسب أننا مجمـــوعة إسلاميين". ثم وصلوا إلى مستوطنة قريبة حيث قابلوا أبو صقر. سأل أبو صــــقر حمدية بنبرة شابها اللوم والإذلال: "لماذا لم تبلغ موقعاً قيادياً حتى الآن؟ ففي الجبهة الشعبية يصل العضو إلى مكانة متقدمة في غضون ستة أشهر؟!" على إثر هذا التوبـــيخ، عمـــد حمدية إلى استخدام علاقاته وبعض الوساطات، فترقى إلى مكانة المـــسؤول عن جناح الدعوة المكلف تسويق ونشر القضية. لقد أصبح هذا الموقع شـــاغراً عـــندما أوقـــف الإســـرائيليون مسؤول جهاز الدعوة السابق في منطقة الشجاعية، مفسحين في المجال أمام حمدية لتولي هذا الدور.

في العام *1991*، تقدّم حمدية من الــ "كابتن ميني" باقتراح غريب ظاهرياً، يقـــضي باعـــتقاله مـــرة ثانـــية، وذلـــك بهدف التغطية على علاقته المستمرة

بالاستخبارات الإسرائيلية. فتمّ توقيفه بالفعل مدة خمسة أشهر، أفصح خلالها عن أسماء كافة أعضاء جهاز الدعوة، تحديداً أولائك الذين كانوا يشاركون في الاستعراضات العسكرية التي كانت تنظم في شوارع غزّة. بعد ذلك، طلب من حمدية إبلاغ الاستخبارات الإسرائيلية بتحركات بعض الأشخاص المدرجة أسماؤهم على لائحة المطلوبين لدى إسرائيل، والذين كانوا يلجأون إلى منازل آمنة، تلافياً للاعتقال أو للاغتيال. تمكّن حمدية من الحصول على معلومات عن أحد الناشطين في كتائب القسام يدعى محمد قنديل. عندها، زوّدته الاستخبارات الإسرائيلية بقنبلة موقوتة وبعلبة من الديناميت كي يسلمها إلى قنديل في أقرب فرصة. حالما تبلغوا بأن قنديل تسلم هذه المعدات، فجّروا القنبلة التي قتلت قنديل واثنين من قادة كتائب القسّام، الجناح العسكري لحماس، هما ياسر الحسنات ومروان الزايغ. ويصف وليد حمدية دوره في اغتيال ياسر النمروطي، وفي ملاحقة عماد عقل ومجموعته، ورصدهم في منزلهم في رام لله، على الشكل الآتي: "تابعت تحركات ياسر بدقة. لقد اعتاد الحضور إلى منزلي. أعطاني مبلغ 5 آلاف دولار أميركي لشراء عتاد ولتمويل نشاطات المنظمة في منطقتي، فأبلغت مرجعي الإسرائيلي بأن النمروطي طلب مني تزويده ببندقية وقنابل موقوتة، فأعطاني الضابط الإسرائيلي إياها. بعدما غادر ياسر منزلي، لاحقته الاستخبارات الإسرائيلية حتى وصلوا إلى مكان بعيد عن منزلي، فتمت تصفيته في خان يونس في 17 تموز/يوليو 1992. ثم كافأتني الاستخبارات الإسرائيلية بمبالغ كبيرة من المال لقاء خدماتي".

بعد مرور أربعة أيام على قتل النمروطي، قرّرت الاستخبارات الإسرائيلية اعتقال حمدية مرة جديدة، فسجن مدّة أربعين يوماً. ويتابع حمدية اعترافه قائلا: "بعد خروجي من السجن، قال لي النقيب الإسرائيلي أبو أمجد: "لقد فوّت على نفسك فرصة". كان عزّ الدين الشيخ خليل الذي اغتيل لاحقاً على يد جهاز الموساد في دمشق، قد تسلم مسؤولية جهاز الدعوة بدلا منه. قرّرت الاستخبارات الإسرائيلية اعتقال حمدية حتى تتسنى له فرصة المطالبة باستعادة موقعه. فتمّ اعتقاله مجدّداً، وأبعد إلى منطقة مرج الزهور في جنوب لبنان مع أربعمئة قيادي من حركة

حماس. قال له الضابط، وهو يسلمه خمسة دنانير، إن هذا الإبعاد مؤقت. على ورقة الخمسة دنانير دوّن رقم هاتف وجب على حمدية استخدامه للاتصال به.

بعد عودته من لبنان إلى غزّة، تلقى حمدية تعليمات لملاحقة القيادي البارز في حماس، عماد عقل. كان حمدية على علم بتردّد عماد بشكل دوري على منزل نضال فرحات. لقد قال له مرجعه الإسرائيلي إن الجميع في إسرائيل، من أصغر إنسان وصولاً إلى رئيس الوزراء، يطالب برأس عماد عقل. وفي حضور عدد من ضباط الاستخبارات الإسرائيلية من أصحاب الرتب العالية، عُرضت عليه مكافأة قدرها 500 ألف دولار أميركي مقابل رأس عقل. قال حمدية: "أبلغته سلفاً أن عقل موجود في منطقة الشجاعية في منزل فرحات". فطلب منه شراء سروالين من نفس اللون، ثم أخذوا واحداً منهما ووضعوا في الثاني جهاز تنصت صغير، وطلبوا منه ارتداءه عندما يقوم بزيارة فرحات في منزله، حتى يتسنى لهم التنصت على الحديث.

زار حمدية عماد عقل خلال شهر رمضان، وروى كيف أقاما صلاة المغرب معاً: "كان عماد صائماً، فتناولنا طعام الإفطار على سطح المنزل[10]. فجأة، حاصر الجيش الإسرائيلي المنزل من كل الجهات. عندما حاول عماد إطلاق النار، أصابته قذيفة إسرائيلية. بقينا محاصرين طيلة ساعتين، ثم طلب الجيش الإسرائيلي من جميع الموجودين في المنزل الخروج منه. عندما خرجت، صاح الجنود الإسرائيليون: "نريد هذا!" وهم يشيرون إليّ. أخذوني بعيداً في سيارة وسألوني عمّا جرى داخل المنزل. قلت لهم إن عماد عقل قد مات". طلب الإسرائيليون من حمدية خلع السروال حتى يستعيدوا جهاز التنصت وأعطوه السروال الآخر، وتمت مكافأته بخمسة آلاف دولار.

عاش عماد عقل سنتين مطارداً، يلجأ، من حين إلى آخر، إلى منزل مريم فرحات في غزّة، إلى أن خالفه الحظ. فقد حقق الإسرائيليون ضربة قوية بالقضاء على قائد وملهم كتائب عزّ الدين القسّام، إذ شكلت مآثر عقل بالنسبة لمسلحي الجناح العسكري لحماس أمثلة يحتذى بها.

في شهر شباط/فبراير من العام 1994، بعد أسابيع قليلة من اغتيال عقل، حضر حمدية اجتماعاً مهماً مع الضباط الإسرائيليين، تعرّض خلاله للتأنيب: "أنت

مسؤول عن موت خمسة من قياديي الجناح العسكري لحماس اغتالهم جنودنا. لكن مضى وقت طويل لم تزوّدنا خلاله بأية معلومات". في وقت لاحق، ذهب حمدية إلى معبر بيت حانون لمقابلة ضابط إسرائيلي طلب منه عدم استخدام هاتفه، تحسباً من مراقبة الأمن الفلسطيني. هناك، تم تزويده بالسلاح، ليسلمه إلى قياديين مطاردين من كتائب القسّام، هما كمال خليل وعوض السلمي. "كان الإسرائيليون يلحّون للحصول على أية معلومات تتعلق بيحيى عيّاش المعروف بالمهندس" وفقاً لما أفاد به حمدية في اعترافاته. لكنه فشل في الوصول إليه، رغم أنه حاول الإيقاع بالسلمي، بوعده إياه تزويد عياش بالسلاح والمتفجرات التي يحصل عليها من الاستخبارات الإسرائيلية، وذلك بهدف كسب ثقة عياش.

وفي نهاية نص اعترافات حمدية، كلمات أخيرة: "اعتقلتني الاستخبارات الفلسطينية في غزّة قبل أن أصل إلى عيّاش".

أربعة عقود من الاحتلال وفرت للأجهزة الإسرائيلية بيئة مؤاتية لتجنيد عملاء فلسطينيين موكلين بمراقبة المقاومة المسلحة في الضفة الغربية وقطاع غزّة. لقد عمدت الاستخبارات الإسرائيلية إلى استدراج المحتاجين، بقطعها لهم الوعود الباهرة، كتوفير العمل وتأمين التعليم والطبابة لهم خارج الأراضي المحتلة، أو بإغرائهم بمبالغ مالية. كما كانت ترصد تحركات أشخاص أمثال وليد حمدية، القادرين على التقرب من المطلوبين المدرجة أسماؤهم على لائحها السوداء. لقد قدّر المسؤولون الأمنيون الفلسطينيون عدد العملاء الذين تمّ تجنيدهم بهذا الإسلوب، مع الأخذ بالاعتبار تفاوت أهمية أدوارهم، بقرابة خمسة وعشرين ألف شخصاً.



الشهداء

عاطفة الوالدة

محمد ورواد ونضال، جميعهم مقاتلون في كتائب القسّام، استشهدوا من أجل قضيّتهم. رشّحت حماس والدهم لأول انتخابات نيابية فلسطينيه، ففازت بمقعد في المجلس التشريعي الفلسطيني، وذلك بعدما أصبحت مريم فرحات، أو أم نضال، كما تسمّى، رمزاً بالنسبة لمناصري حماس في قطاع غزّة، وذاعت شهرها وشعبيتها لتأييدها المطلق قرارات أبنائها. إن أم نضال أرملة شرطي سابق، تبلغ السادسة والخمسين من العمر، لها أربع بنات متزوجات وستة أبناء. ثلاثة منهم قضوا في عمليات استشهادية، ورابع معتقل، واثنان كانا لا يزالان، حتى تاريخ لقائي بها، يشاركان في أعمال المقاومة المسلحة في قطاع غزّة. رغم مصابها الأليم، فهي لا تبدي ندماً على ما بذلته من تضحيات.

قابلت مريم فرحات في منزلها في 24 كانون الثاني/يناير 2006 عشية الانتخابات التشريعية الفلسطينية. قالت لي إن ابنها محمد قد ائتمنها على سرّ العملية الاستشهادية التي عقد العزم على تنفيذها قبل وقت طويل من تكليفه بها. وتصف أم نضال بـ "المناسبة الهامة جدّاً" يوم عاد ابنها محمد إلى المنزل حاملا مسدساً، في إشارة إلى انخراطه في الجناح العسكري لحماس، وبداية رحلته نحو الشهادة. أقرّت أنها قد شجعته، منذ ريعان شبابه، على استخدام الأسلحة عوضاً عن الحجارة، في مهاجمة الدوريات العسكرية التي تزرع طرقات حيّ الشجاعية، حيث يقيمون، ذهاباً وإياباً. لقد دخلت مقاومة إسرائيل في يوميات هذه العائلة، حتى صارت تشكل فصلاً حميماً من حياتها. وتتجلى هذه الممارسة واضحة على جدران المنزل، فمن أحدها تتدلى قطعة من السياج الشائك القائم حول المستوطنة اليهودية والذي انتزعها ابنها قبل ساعات من وفاته.

تتذكـــر أم نـــضال بفخرٍ مشوب ببعض الحسرة، مساء ذاك الخميس، في 7 آذار/مارس 2002، عندما دخل محمد، البالغ من العمر تسعة عشر عاماً، قاعة كلية للدراســات الدينــية والتدريب العسكري في غوش قطيف في مستوطنة أتزمونا. أسفرت العملية التي نفذها محمد عن قتل خمسة طلاب في الثامنة عشرة من عمرهم وجرح ثلاثة وعشرين آخرين. تحوّل منـــزل محمد عندئذ، إلى محجة لأعداد كبيرة من الرجال والنساء الذين أدرجوا أسماءهم على لائحة المستعدين للشهادة.

وتـــستعيد والدة محمد كلماته وأفعاله في آخر أيام حياته، كأنها مسجلة على شريط مصوّر في ذهنها تستخرج منه، متى أرادت، الأحاديث التي تبادلاها آنذاك. لقـــد بدأت أم نضال تبكي خسارة ابنها قبل ثلاثة أيام من تنفيذه العملية، فكانت تدخل إلى غرفته في الصباح الباكر لتتأمله في نومه. "كان وسيماً جداً. لقد اعتدت أن أفكـــر أنـــه يجـــب عليه الموت شهيداً ليعيد لله جزاءَ ما منحه إياه. كرمى لله، حـــذفت كل عواطفي الأمومية. فلو أذنت لدموعي بالتحكم بي، لما كنت سمحت لأي من أبنائي أن يختار درب الشهادة".

وتتذكـــر أم نـــضال أنها بكت عندما قرأ وصيته. حين رفع نظره إليها ورأى دموعها، راح يضحك وهدّدها بإلغاء مهمته. فقالت له: "أنا أمك! ليس من السهل علـــيّ أن أطلـــب منك الرحيل. إني أبكيك ليلاً ونهاراً. لا تسئ فهم دموعي. إنها دمـــوع أم ستزوّج ابنها لحوريات الجنة الجميلات. عليك إطاعة أوامرك ومواصلة قتالك إلى أن تلقى ربّك". وعندما حان الوقت، تبادلا كلمات الوداع، فقالت له: "صـــوّب جـــيّداً"، ثم غـــادر. لم يـــذرف دمعة. رحل مبتسماً. إنه أول أبنائها الاستشهاديين. لقد بدا متماسكاً وهادئاً.

تـــصف أم نضال الساعات ما بين مغادرته المنـــزل وسماعها نبأ وفاته، بأنها لحظات "لا تطاق". "بدا لي كأنني أتنفس نفسه هو". لقد قلقت من احتمال تعرّضه للتوقيف قبل أن "يتمجّد بالشهادة"، وشعرت براحة مطلقة عندما بلغها خبر نجاح مهمـــة ابنها. لقد سألتها كيف تمكنت من مساندة ابنها لينفذ عملاً سيودي بحياته وبحياة آخرين، فأجابتني: "كنت شريكته في الجهاد. هذا أمر طبيعي. ليس بالشيء المميّـــز كما يظن الناس". قد لا يفهم السواد الأعظم من الآباء والأمهات مثل هذا

التصميم، لكنني أعتقد أنه من المهم إبرازه وتوثيقه، لأنه يبيّن عمق التناقضات السايكولوجية، ومدى التجاذبات العاطفية التي تجعل من الصعب للغاية، فهم هذا الصراع النفسي الداخلي.

كان وسام، أحد أشقاء محمد الذين ما يزالون على قيد الحياة، جالساً إلى جانب والدته، يهزّ برأسه مؤيداً كلامها. قال لي إن أم نضال شجعته هو أيضاً على تنفيذ عملية استشهادية، إلا أن الأمر باء بالفشل. فقد ألقي القبض عليه العام 1993 وهو في طريقه لاستهداف مستوطنة "بير شيفا" أو "بئر السبع"، في صحراء النقب جنوب الخليل. لقد أطلق سراحه مؤخراً، بعد قضائه ما يزيد على عشر سنوات في سجن إسرائيلي.

ثم سألت أم نضال، بصفتها أماً لأربع بنات، إن كانت تؤيد تنفيذ النساء عمليات استشهادية، فأجابت: "إن الجهاد متاح أمام الجميع. وليس باستطاعة أحد أن يردع رجلاً أو امرأة عازمين على الجهاد. إن دعم امرأة لتنفذ عملية جهادية غير مشروط، فإن كانت عملية من هذا النوع تستلزم وجودة امرأة، سيكون المجال مفتوحاً أمام النساء للمشاركة فيها". لكنها شكت من أن الحصار الإسرائيلي المفروض على غزّة يشكّل عائقاً أمام مشاركة العديد من النساء الفلسطينيات في أعمال استشهادية، ثم أردفت قائلة: "لا يجب أن نغفل أداء النساء لأدوار داعمة ومؤثرة، منها مثلاً أن تلد أبناء مستعدين للموت في سبيل القضية".

أول امرأة استشهادية هي وفاء ادريس البالغة من العمر سبعة وعشرين عاماً، من سكان مخيم الأمعري للاجئين قرب رام الله. كانت وفاء تعمل أمينة سرّ لدى منظمة الهلال الأحمر الفلسطيني وقد انتسبت إلى كتائب الأقصى، الجناح العسكري لفتح، ونفذت عمليتها في شارع يافا في القدس، متسبّبة بقتل عجوز إسرائيلي في الواحدة والثمانين من العمر، وبجرح مئة آخرين[1]. بعد سنتين، تبنت حماس ريم رياشي كأول امرأة استشهادية تنتمي إلى صفوفها[2]. حتى ذلك الحين، ورغم التأكيدات الصادرة عن الحركة بأن الجهاد واجب على كل مسلم أكان رجلا أم امرأة، ساد اعتقاد بأن حماس لا توافق على إرسال نساء في هذا النوع من المهمات. لذا، عندما كشف عن اسمها، ظنّ كثيرون بأنها من كتائب الأقصى.

إن قصة ريم رياشي مضمخة بالعواطف. وتقول فرحات إنها أدمت قلوب كثيرين عندما علموا أن هذه الطالبة الجامعية، ابنة الاثنين والعشرين ربيعاً والعائلة الميسورة، أقدمت على تنفيذ عمليتها مخلفةً وراءها طفلين صغيرين: ابنها ضحى، البالغ من العمر ثلاث سنوات، وابنتها عبيدة، التي لم تتجاوز شهرها الثامن عشر. لقد نجحت ريم بخداع الجنود الموجلين مراقبة معبر إيريز على الحدود بين قطاع غزّة وإسرائيل، إذ أقنعتهم بتفتيشها شخصياً، عوض إخضاعها لفحص الماكينة الكاشفة للمعادن، بحجة وجود صفائح معدنية في جسمها قد تسبب بإطلاق صفارة إنذار الماكينة الفاحصة. وبينما وقفت تنتظر وصول جندية تقوم بتفتيشها، فجّرت قنبلة زنة كيلوغرامين عند نقطة العبور، حاصدة حياة جنديين ورجل شرطة حدود ورجل أمن مدني. قبل استشهادها، كانت ريم قد سجلت شريط فيديو تظهر فيه باللباس العسكري ومعصوبة الرأس بقماشة خضراء، دلالة على انتمائها لحركة حماس، كما كانت تحمل رشاشاً أوتوماتيكياً. لقد قالت مودّعةً إنها طالما حلمت، منذ كانت في الصف الثامن، أن "أشلاء جسدها ستتناثر وتمزّق الصهاينة إرباً إرباً، فيما هي تقرع باب الجنة، حاملة جماجم الصهاينة القتلى"[3].

لا تزال فرحات تذكر ردّة فعل نساء أخريات إزاء اختيار ريم لتنفيذ المهمة: "أتت إليّ مئات النساء وكل واحدة منهن تشتكي من وقوع الاختيار على ريم لا عليها. لقد ساورهن الغيرة، فجاءت الواحدة تلو الأخرى، وكلّ منهن تناشدني التوسط لها كي يقع الاختيار عليها بعد ريم".

سادت البلبلة في المجتمع الفلسطيني المحافظ، إذ طرحت علامة استفهام كبيرة: هل مسألة انتقاء النساء لتنفيذ عمليات عسكرية استشهادية توافق أحكام الشريعة الإسلامية؟ فبعدما تبنت كتائب الأقصى وفاء ادريس كأول امرأة استشهادية تخرج من صفوفها، سجل مؤسس حماس وقائدها الروحي الشيخ أحمد ياسين، في تصريح له، ما اعتبر تنديداً بهذه الخطوة. لقد شدّد ياسين على أن للمرأة دور محدّد، يتمثل بالعناية بأسرتها وبتربية أولادها، وذلك وفقاً لما يقتضيه فرض الجهاد. وأضاف: "أن تقوم النساء بهكذا هجمات داخل فلسطين المحتلة (في إشارة إلى الخط الأخضر

العائد للعام 1948) أمر معقد، لأنه يجب على الاستشهادي أن ينام بعيداً عن منزله لأيام وأسابيع عديدة قبل تنفيذه للمهمة. سيكون هذا الأمر صعباً على الفتيات". في ما بعد، أعلن ياسين أن كلامه لم ينقل على نحو دقيق، فأسيء فهم رأيه في النساء الاستشهاديات. ثم صدر عنه، إثر العملية الاستشهادية التي نفذتها ريم رياشي، ما كان بمثابة الموافقة على تنفيذ النساء هكذا عمليات: "للمرّة الأولى، استخدمت حماس مقاتلة فلسطينية لتنفيذ عملية ضدّ قوات الاحتلال. إنها استراتيجية جديدة لمقاومة العدو". وأضاف: "لقد سبق لنا وأكدنا أن النساء يمثلن إفادة تكتيكيّة".

وإن تأخرت حماس نسبياً في ما يتعلق باعتمادها نساء لينفذن عمليات استشهادية، إلا أن مقاتليها كانوا الروّاد، من بين عناصر المنظمات الفلسطينية، في اعتماد التنكر بأزياء نسائية لتنفيذ عملياتهم. قبيل منتصف الليل، يوم الجمعة الواقع فيه 1 حزيران/يونيو 2001، خارج ملهى "الدولفين" على ساحل تل أبيب، شقّ سعيد العطري طريقه عبر صف طويل من الشبان المنتظرين دورهم للدخول إلى الملهى، وهو متنكر في زيّ مغنية تحمل آلة غيتار محشوّة بالمتفجرات. يومها، قتل واحد وعشرون شخصاً وجرح ما يقارب مئة آخرين. وفي خطوة مماثلة، دخل عبد الباسط عودة غرفة الطعام في فندق بارك أوتيل على شاطئ مدينة نتانيا، وهو في كامل أناقة امرأة ترتدي سترة من الجلد البني وسروالا يتهادى فوق كعبين عاليين، وقد غطت ألوان التبرج وجهها، وتمايل شعرها الأسود الطويل تحت قبعتها. لم يثر شكله الأنثوي أية شكوك، فتمكن هذا الفلسطيني الآتي من طولكرم في الضفة الغربية، من تنفيذ مهمته على مرأى من الساهرين المذعورين، الذين كانوا ينوون الاستمتاع بعشاء فاخر لمناسبة عيد الفصح اليهودي. في مساء ذلك اليوم الواقع فيه 27 آذار/مارس 2002، لقي ثلاثون شخصاً حتفهم، وجرح ما يزيد على مئة آخرين.

في ذلك الحين، كانت أحلام عارف أحمد التميمي، الطالبة في جامعة بير زيت، والصحافية بدوام جزئي، البالغة الثالثة والعشرين من العمر، الإمرأة الوحيدة في صفوف كتائب القسّام. لقد أصدرت المحكمة العسكرية[4] بحقها

ستة عشر حكماً بالسجن المؤبد، أي ما يعادل 320 سنة من الاعتقال، لمساعدها عزّ الدين المصري على تنفيذه عملية استهدفت محل سبارو لبيع البيتزا، في شارع جورج في القدس، في 9 آب 2001. إن القنبلة المخبأة داخل آلة غيتار قتلت خمسة عشر إسرائيلياً. وفي معرض تفسيره لحيثيات الحكم الذي أصدره، أشار القاضي الإسرائيلي إلى إن أحلام لم تؤدِّ دوراً مهماً في الهجوم، إلا أنها قامت بجملة إجراءات مساعدة، وكانت تدرك تماماً خطورة ما تقوم به. عند تنفيذ العملية، ارتدت أحلام أزياء غربية عوضاً عن زيّها الإسلامي، تلافياً لجذب الانتباه إلى رفيقها الاستشهادي. وللغاية التمويهية عينها، تبادلا أطراف الحديث باللغة الانكليزية، وحمل التميمي آلة تصوير، حتى يخال الناظرون إليهما أنهما سائحان.

رغم الالتزام القوي الذي يبديه المتطوعون في كتائب عزّ الدين القسّام، إلا أنّ عدد العمليات الاستشهادية التي تبنتها حماس انخفض إلى مستواه الأدنى طيلة عام كامل، وذلك بسبب التبدّل الذي طرأ على المناخ السياسي في العام 2003. استراحة المحارب هذه لاحقت ترحيباً نسبياً، وجعلت البعض يعتقد بأن الحركة انصاعت أخيراً للضغوط، وبدأت تقلص حجم عملياتها العسكرية. لقد ربط المحللون الإسرائيليون هذا التبدل في أداء حماس العسكري بتوصل الولايات المتحدة الأميركية إلى تثبيت اتفاق لوقف إطلاق النار التزمت به مع حركة حماس إثر اجتماع عقد بين الشيخ أحمد ياسين والنائب الأميركي ستيف كوهين، العضو في لجنة الشؤون الخارجية في الكونغرس. إلا أن العملية التي نفذتها ريم رياشي جاءت بمثابة إعلان بأن جناح حماس العسكري لا يزال فاعلاً. فقد حملت مهمة ريم الاستشهادية بعداً أساسياً، إذ شكلت انتقاماً من الهجمات الإسرائيلية ضدّ الفلسطينيين، واستهدفت عمداً جنوداً إسرائيليين. في المقابل، خضعت الحكومة الإسرائيلية لضغوط شديدة تطالبها بانسحاب عسكري سريع من قطاع غزّة، وبإجلاء مستوطنيها الخمسة آلاف منها. أجبر عجز إسرائيل عن فرض سيطرتها على قطاع غزّة، أريل شارون على إصدار أوامره بالانسحاب في شهر آب/أغسطس 2005.

المهمة التي أجهضت

لعل ما حققته إسرائيل من اختراق لحماس أتى نتيجة عمل إستخباراتي دؤوب وإصرار متمادٍ لا مثيل له في العالم. إلا أن تفاني مقاتلي كتائب عزّ الدين القسّام في خدمـــة قضيتهم حال دون نجاح إسرائيل في الحدّ من ظاهرة الاستشهاديين المنتمين إلى حماس. فمن غير الممكن إهمال عنصر الاندفاع الذي ميّز هؤلاء الشباب في أيّ تقـــويم لفعالية أداء حماس العسكري. في العام 1997، نفذت عملية استشهادية لم يتبـــناها أيّ من الأجنحة العسكرية المعنية عادةً في هكذا عمليات، أكانت كتائب القسّام أم كتائب الأقصى أم الجناح العسكري للجهاد الإسلامي. لقد أثارت هذه العملـــية البلـــبلة، لأن مـــنفذها كان قد بدّل انتماءه، منتقلاً من صفوف الجهاد الإســـلامي إلى الجـــناح العسكري لحماس. أما السبب الذي حدا به لترك منظمة الجهـــاد الإســـلامي فكـــان بسيطاً للغاية: نظراً للعدد الكبير من المقاتلين الراغبين بالاستشهاد، المسجلة أسماؤهم قبله على لائحة الانتظار، صمّم الشاب على تقريب مـــوعد رحلته إلى الجنة!! فبانتقاله إلى صفوف حماس، ضمن إمكانية تحقيق أمنيته بالاستـــشهاد قبل سواه من رفاقه السابقين في الجهاد الإسلامي. وسرعان ما أصبح تـــبديل الصفوف بين منظمة وأخرى، نهجاً اعتمده المقاتلون التائقون إلى الشهادة، كمـــا أكد قائد الجهاد الإسلامي فتحي الشقاقي في مقابلة هاتفية أجريتها معه من مقـــرّه في دمشق قبل أشهر من اغتياله في مالطا، في العام 1995، على أيدي عملاء الموساد.

هـــذه الرغبة الجامحة في الاستشهاد وصفها لي سليم، أحد أعضاء كتائب عزّ الدين القسّام. لقد أصبح سليم رجلاً مكسور الخاطر والفؤاد لفشله في تحقيق هذه الأمنـــية. "ما من شيء يصيب المرء بالضيم الشديد والأسى العميق بقدر فشله في بلـــوغ الجنة بسبب خطأ تقني"[5]. في العام 1996، وقع الاختيار على سليم لينفذ عملـــية استشهادية داخل الأراضي المحتلة. إلا أنه لم يتمكن من أداء مهمته بسبب هفـــوة أمنية ارتكبتها خليته العسكرية. كان أفرادها قد فشلوا في تقدير تحرّكات جـــنود الاحـــتلال، ما أسفر عن بقاء سليم التائق إلى الشهادة، حيّاً، بل كأنه في مرحلة وسطية بين الأرض والجنة. فراح يصلي بأن يحظى بفرصة ثانية.

سليم شاب في العقد الثاني من العمر، ممتلئ الجسم.، رفض الإفصاح عن هويته الحقيقية، إلا أنه وافق أن يتكلم عن انتمائه إلى كتائب القسّام. قال لي وأنا أحاوره في منزله في مخيّم البريج: "إن الشهادة هي بمثابة حلم بالنسبة لي. إني أطلب من الله في كل صلاة أتلوها، أن يمنّ عليّ بهدية الشهادة وما يترتب عنها من مكافآت، لدرجة أن هذه الفكرة تراودني عن وعي وعن غير وعي في كل لحظة". ويتابع سليم قائلاً: "لقد أذعت أمنيتي في المسجد، على مسامع من أعتقد أن لديهم علاقات مع جناح حماس العسكري. وفيما كنت أسير في جنازة الشهيد يحيى عيّاش الذي اغتالته إسرائيل، والملقب بـ "المهندس"، اقترب مني شخص من الإخوان الذين يرتادون المسجد، وبدا لي واضحاً أنه عليم بأمري. أفصحت أمامه عن رغبتي بالشهادة، مؤكداً تصميمي على تحقيقها، لكن خيّل لي أنه لم يأخذني على محمل الجدّ. لكن بعد أسبوع، فاجأني رجل جالس إلى جانبي في المسجد بسؤالي عمّا إذا كنت لا أزال مصرّاً على الاستشهاد. لا بدّ أنه شعر بالشك الذي راودني، فذكّرني بأنه الرجل ذاته ألذي سبق لي أن التقيته في الجنازة. لم أتعرّف إليه لأن كوفية لفها حول رأسه حجبت عني جزءاً من وجهه. أجبته على الفور بالإيجاب، وكان من الصعب عليّ التعبير له عن مدى غبطتي لسماعي سؤاله. لقد كانت سعادتي لا توصف ولم أصدّق أنني سأصبح مقاتلاً في صفوف كتائب القسّام، واستشهادياً يمزّق العدوّ إرباً إرباً".

خضع سليم، مع مجندين آخرين من كتائب القسّام تمّ اختيارهما لتنفيذ المهمة نفسها، لتدريبات تمهيدية قاسية أشرفت عليها مجموعة من المجاهدين، وتهدف إلى مضاعفة قدرتهم النفسية والتزامهم الديني وقدرتهم على التحمل والكتمان. لقد شملت تلك التمارين الجسدية والعملية، تلقينهم تقنية استخدام الأحزمة الناسفة. كما تسلموا خرائط مفصلة للموقع المستهدف، ووضعت بتصرفهم وسائل نقل لاجتياز الحدود. على طول الحدود بين إسرائيل والأراضي المحتلة، يمتدّ حاجز من الأسلاك الشائكة مكهرب، وبعمق أربعة أمتار، موصول بمركز إنذار، يتعرض من يلامسه لخطر الموت.

يقول سليم: "تعجز الكلمات عن وصف سعادتي لدنوّ ساعة الصفر. كنت أختلس النظر إلى أقاربي وأهلي، متسائلاً ما إذا كان بإمكانهم تخمين سبب حماسي.

عند حلول اليوم المنشود، قبّلت يد والدتي وطلبت منها أن تفخر بي، ثم قلت لها إني ذاهـــب في مهمة مدّتها شهر، حتى لا ينتابها القلق بسرعة. غادرت مسرعاً مخافة أن يــذوي تصميمي، رغم أن ملذات الحياة لا تقارن بتلك التي تحث على الاستشهاد ولا يمكنها أبداً أن تقف حائلاً دون سعي الشهيد لتنفيذ إمنيته".

أمضى سليم ذاك المساء يستعدّ ورفيقيه المجاهدين لتنفيذ المهمة الموكلة إليهم. لقـــد صلوا وراجعوا الخرائط وأسهبوا في تلاوة القرآن. وقبل بزوغ الفجر، شقوا طريقهم عبر حقل قريب من الحدود، يفصل بين مخيم البريج للاجئين في قطاع غزّة والأراضي الفلسطينية المحتلة في العام 1948، في منطقة تعرف بـــ "جحر الديك". لقد أنشئ مخيّم البريج في العام 1949 في وسط القطاع، على مساحة 528 دنم من الأراضي[6] التي أقيمت عليها سابقاً قاعدة عسكرية بريطانية. سكن السواد الأعظم مـــن اللاجـــئين الفلـــسطينيين الـــبالغ عددهم الثلاثة عشر ألف نسمة، في الثكنة المهجـــورة، فـــيما أقام الباقون في خيم موقتة. في الخمسينيات، استبدلت منظمة الأونـــروا تلك الخيم بمنازل من الإسمنت، فبات هذا النوع من المباني يشكل السمة المميزة للمخيمات الفلسطينية[7].

مـــع اقتراب موعد استشهادهم، تلقى الرجال الثلاثة التعلميات الأخيرة من قائد الخلية العسكرية. كان سليم متأكداً بأن كل شيء سيسير على ما يرام، وبأن العملية ستنجح. إحدى أهم التعليمات أفادهم عن كيفية المناورة والخداع لتجنب أي خطـــر محـــتمل. فقد قيل لهم إنه في حال أطبق العدو عليهم، على أحدهم أن يـــذعن ظاهـــرياً لأوامر الاستسلام، فيما يلوذ الآخران بالفرار وهما يطلقان النار، بهدف جذب الانتباه نحوهما، فيما يعمد ثالثهم إلى الاقتراب قدر الإمكان من الجنود الإسرائيليين، ويفجّر قنبلته. عند حلول المساء، اقتربت المجموعة من حاجز الأسلاك الـــشائكة الحـــدودي، وكان سبق لها أن رصدت أفضل نقطة للعبور. لقد أمضى الرفاق الثلاثة ساعات وأيام في مراقبة الحركة اليومية داخل المستوطنات: بأية وتيرة تمـــرّ الـــدوريات الإســـرائيلية؟ أيـــن تقع النقطة الأقل تحصيناً على طول الحاجز الحـــدودي؟ ما هو الوقت المناسب الذي تتوفر فيه لهم فرصة اختراق الحاجز؟ لقد نجحت خليتهم العسكرية بقطع التيار الكهربائي عن حاجز الأسلاك الشائكة. كما

كانوا قد تزوّدوا، على سبيل الاحتياط، بمقاطع للأسلاك المطاطية وبسلالم ليجتازوا ذاك العائق. ولكن، رغم التخطيط البالغ الدقة، اعترضت القوات الإسرائيلية الاستشهاديين الثلاثة بعد ثوان قليلة من تقدّمهم، وأجهضت مهمتهم، دون التسبب بسقوط أيّ قتيل من الطرفين. عندها، أصيب سليم بالانهيار. لقد أقرّ بأنه استسلم للبكاء، وزاد من شعوره بالفشل الذريع، خبر نجاح أحد رفاقه في الضفة الغربية في مهمته، واستشهاده فيها. لدى عودته خائباً وخالي الوفاض إلى منزله، أدركت والدته سبب ألمه المبرّح، فأمسكت برأسه بين يديها، ونصحته بالصبر، قائلة له إنه سيحقق حلمه في المهمة المقبلة.

في العام 1998، أي بعد سنتين، وقع الاختيار مجدّداً على سليم لتنفيذ عملية أخرى. مرّة أخرى، وبسبب وجود عسكري إسرائيلي مكثف وغير متوقع، لم يتمكن من تجاوز حاجز الأسلاك الشائكة عند نقطة بيت حانون، شمال قطاع غزّة. سليم الذي أعدّ نفسه مرتين للاستشهاد، عاد إلى الحياة حاملاً حقيبته المثقلة بـ "وعد" ناسف لم يتسنَّ له أن يفجّره.

التعامل مع الانهيار

عدا بضعة أطفال يمرحون في الأزقة الضيقة المنسابة بين الأبنية المتراصة، وسط الغبار المتصاعد من الطرقات المرصوفة بالحجارة، خلا حيّ الأمل، في قطاع غزّة، من أيّة حركة. أرشدني الأولاد إلى منزل اسماعيل عاشور بريص البالغ من العمر اثنين وعشرين عاماً. كان منزل بريص يقع في مبنى مؤلف من ثلاث طبقات. وكما حال مجمل الأبنية المشيّدة من إسمنت، لم يكن بناؤه منجزاً، وقد علت آخر سطوحه قضبان من الحديد ترتقب استكمال طبقات إضافية، يوم تتحسن ظروف أصحاب الدار.

بحذر شديد، صعدت الدرج المتداعي المؤدّي إلى الطابق الأول، فيما صمّت آذاني ولولة أم تنتحب. عبر باب مفتوح على مصراعيه ومؤدٍّ إلى غرفة جلوس، رأيت شخصين من الجيران يرجوان الأم الثكلى أن تحافظ على رباطة جأشها، إلى حين يصلهم الخبر اليقين عن مصير ابنها. كانت نشرات الأخبار التلفزيونية

الصباحية قد أعلنت أن استشهادياً من خان يونس فجّر نفسه في رفيح يام. وكأنّ حدسـها قد أنبأها بمصير ابنها المحتوم، إذ أن إسماعيل كان يتصرّف على غير عادته في الأيام القليلة الماضية.

هـدوء غـريب كان يسود في ذلك اليوم الذي كان أول أيام شهر رمضان الكريم، الموافق في السادس من شهر تشرين الثاني/نوفمبر في العام 2002. في وقت متأخر من الليلة التي مضت، أفادت نشرات أخبار الإذاعات عن جرح ثلاثة أطفال فلـسطينيين برصـاص جـنود إسـرائيليين، في تبادل لإطلاق النار مع مقاتلين فلـسطينيين. لقـد كان الجنود الإسرائيليون متمركزين في عدد من أبراج المراقبة المحـيطة بمستوطنتي موراغ ورفيح يام القريبتين من مخيم رفح للاجئين الفلسطينيين، علـى الطرف الجنوبي - الغربي لقطاع غزّة، عند الحدود مع مصر. في صباح اليوم التالي، قرّرت تقصي الموضوع. فيما كنت أتابع تفاصيله عبر جهاز الراديو المتهالك في سـيارة سـائقي محمد، إنعطف محمد بحدّة شمالاً، وأوقف السيارة في حمى أبنية عالية محيطة بالمستوطنات. كان متخوّفاً من أن نصبح نحن أيضاً عرضة للاستهداف إذا مـا رصـدنا القناصـة الإسرائيليون وأصبحنا في مرمى نيران أسلحتهم. كان اللاجـئون يلازمون منازلهم، متجنبين التجول خارجها بعد المواجهات العنيفة التي شهدتها الليلة الماضية. سمعت وقع أقدام تسير في الممرّ الرملي، خارقةً جدار الصمت الذي لفّ المكان، فخرجت بحذر من السيارة، واقتربت من الرجل القادم، للإطلاع منه على أحداث الأمس. لم يكد يخبرني عن بعض جيرانه الذين أصيبوا في المعارك، حتى قاطعه محمد. لقد اتصل به صديق عبر الهاتف الخلوي وأبلغه عن وقوع هجوم استـشهادي، قـبل أقل من ساعتين، في مستوطنة رفيح يام القريبة. ففي ساعات الفجـر الأولى، تسلل شاب فلسطيني في بداية العقد الثاني من العمر إلى المستوطنة، وفجر نفسه قرب مركز تفتيش إسرائيلي.

محمـد، وهـو مـن سكان خان يونس، إتصل بجيرانه مستطلعاً هوية الشاب الاستـشهادي، فعلـم أنه من معارفه. توجهنا إلى مدينته الواقعة على بعد قرابة سبعة كيلومتـرات شمـال شـرقي رفح. كانت أشعة الشمس قد بدأت تلفح الطريق التي سـلكناها، والتي زنّرت جانبيها صفوف طويلة من الخيم الزراعية. كان موسم قطاف

الـــزيتون في أوجه والمزارعون منهمكون بالقطاف رغم فقدانهم عشرات الآلاف من الـــدنمات التي أحرقها أو نبشها الجيش الإسرائيلي منذ بداية انتفاضة الأقصى في شهر أيلـــول/ســـبتمبر من العام 2000. كان المزارعون وأفراد عائلاتهم يضربون الأشجار بالعصي لإسقاط حبات الزيتون الناضجة على شباك من الخيش، ثم يجمعون المحصول، ويضعونه في عربات تجرّها الحمير، تمهيداً لنقله إلى أقرب معصرة للزيت.

كانـــت مديـــنة خان يونس، المكتظة بربع مليون نسمة، تخضع لمراقبة برج متحـــرّك معلق في أعلى رافعة ضخمة. لقد عبقت في أجوائها رائحة المياه المبتذلة، نظراً لعدم توفر قنوات للصرف الصحي. قام محمد ببعض التحرّيات التي قادتنا إلى منـــــزل في حيّ صغير يقع غرب المدينة ويدعى حيّ الأمل. كان إسماعيل يعيش، مـــع زوجته وابنه الصغير ووالديه واثني عشر أخاً وأختاً، في ذاك البيت الواقع على بعد أقل من مئة وخمسين متراً من مستوطنة جاني طال التي سيّجتها أسلاك شائكة كانت يومها، تلمع تحت خيوط شمس الخريف.

عـــندما بلغنا أعلى الدرج، وجدنا زينب، والدة اسماعيل، غارقة في البكاء. لم تكـــن تحتوي الغرفة إلا على بعض المساند الموزعة على طول الجدران والمخصصة للجلوس، وعلى طاولة صغيرة لتقديم الشاي. لقد احتلت صدر المكان صورة كبيرة لشاب وسيم الملامح، تعلو وجهه ابتسامة رقيقة، خجولة وكأني بنظره يغمر والدته المحزونة. كانت كلمات زينب تتسلل من بين شفاها، بين زفرة وأخرى، لتصف لي مـــا أنبأها به حدسها في الأسابيع القليلة الماضية. إنها مشاعر دفينة لا ينبس بها إلا قلـــب الأم. لقد ساورها الشك بأن إسماعيل أو أبو معاذ، كما يحلو لها أن تدعوه، كـــان يخطط للمشاركة في مهمة استشهادية. على غير عادته، أخذ يفصح لها عن عمق حبّه لها، ويقضي معها مزيداً من الوقت، ويسألها الاهتمام بولده معاذ إن لحق به أذى ما. كانت زينب تحجب دموعها عن الأنظار حتى لا يشك أحد بمخاوفها، ولا حـــتى ندى، زوجة إسماعيل، التي كانت قد توجهت، صباح ذلك اليوم، إلى مستوصف المحلة، وهي لا تعلم بعد بمصير زوجها.

أخـــبرني حـــاتم، الأخ الأكبر لاسماعيل، بأن شقيقه طالما حلم بالاستشهاد. "كـــنت أمازحه قائلاً: "كن رجلاً واعمل. إنتبه لابنك وابعد عنك هذه الأفكار".

لكـــنه كـــان يكتفـــي بالردّ علي: "إن ابني موجود هنا ليحلّ مكاني عندما تحين ساعتي".

لم يكن قد بزغ بعد فجر أوّل أيام رمضان، عندما قال اسماعيل لأهل بيته بأنه ذاهب لأداء الصلاة في المسجد القريب قبل توجهه إلى عمله. عندها، أيقنت زينب بأن ابنها كان يعانقها للمرّة الأخيرة. ما كاد يغادر حتى بدأت بالصلاة وقد فقدت الأمـــل بأن تراه مجدّداً. خيّل إليها أنها تشاهد سراباً عندما رأته عائداً بعد برهة من الـــزمن. إلا أنه عاد فقط ليذكّر أمه، للمرّة الأخيرة، بأن تعنى بزوجته ندى وطفله معاذ الذي لم يتجاوز شهره الثامن عشر، وليدعو لها بالسعادة.

تـــركتُ زينب لدموعها ورثائها وفيما كنت أغادر الشقة المتواضعة، قابلت رجـــلاً عجـــوزاً في أواخر عقده السادس، يهم بصعود الدرج. ما إن سمع نحيب زوجته حتى استسلم للبكاء، فأمسك شابان قويّا البنية بكتفيه وآزراه للوصول إلى زوجـــته الثكلـــى. كانت صدمته بالغة فانهار بين يديهما وفقد وعيه. أدركت أن الـــشابين ينتمـــيان إلى الجـــناح العـــسكري لحماس، لمجرّد سماعي العبارات التي استخدماها في محاولتهما لإعادة الأب المفجوع إلى وعيه. لقد حاولا التخفيف عنه وتعـــزيته بالقول: "إن حلم كل أب أن يصبح ابنه شهيداً، وإن عليه أن يفخر بابنه الـــشهيد؛ لـــو أن ابـــنه لم يكـــن ملتزماً دينياً وشخصاً صالحاً، لما حظي بشرف الاستشهاد". وتابع أحدهما: "إن أهل الشهيد هم أول من يلحق به إلى الجنة. كان ابنك يصلي، ونحن في شهر رمضان، فصلاته مقبولة. أكنت تفضّل أن يقضي ولدك في حـــادث ســـيارة أو غـــريقاً أو ســـكراناً عـــوض أن يموت بطلاً لقتله جنوداً إســـرائيليين؟". تـــراجعت حدّة بكاء الوالد، وفي أقلّ من خمس عشرة دقيقة، بدأ يـــشكر الله لمنحه أصغر أولاده هذه الفرصة، لكنه ظلّ يشكو فراق ولده، ويسأل عن اليوم الذي سيلقاه في الجنة. بعد أشهر قليلة من استشهاد اسماعيل، مات والده محطم القلب ومكسور الخاطر.

ظهّـــر لي هـــذا المـــشهد المأساوي بعضاً من الجانب التنظيمي لحماس. فقد أدركـــت أن الشابين رفيقان لإسماعيل في صفوف كتائب القسّام، كانا على علم مسبق بالمهمة التي سينفذها، وبقيا متكتمين تماماً عليها، إلى أن أذيع خبر نجاحها. لم

يأتيا فقط لمؤازرة العائلة، بل لأداء واجب تقليدي تلتزم به حماس، هو واجب تعزيز العلاقات العامة للمنظمة. إنه لأمر إلزامي أن تظهر عائلة أي مقاتل في حماس على وسائل الإعلام فخورة بابنها الحبيب، لا حزينة أو غارقة في مأساتها، كما عليها أن تمجّد عقيدة حماس القتالية وتفاخر بالمصير المشرّف الذي سيلقاه ابنها في الحياة الآخرة.

على الطريق المحاذي للمستوطنة اليهودية، بدت الأجواء مثقلة بالتوتر. كان الأولاد يشيرون بأصابعهم إلى أبراج المراقبة الإسرائيلية التي تبقي باستمرار، عيناً ساهرة على أمن القواعد العسكرية ومدرجات هبوط المروحيات. خلف منزل اسماعيل مباشرة، لاحظت وجود خمسة رجال مقنعين يخطون شعارات على الحائط، فتوقفنا لالتقاط بعض الصور. عندما رأونا، طلبوا منا عدم تصوير وجوههم، بل التركيز على ما كتبوه. كانت كتاباتهم بمثابة بيان صادر عن كتائب عزّ الدين القسّام، وإعلان عن مسؤولية جناح حماس العسكري عن الهجوم على رفيح يام. لقد نصّ البيان الصادر من غزّة على الآتي:

"إن حركة المقاومة الإسلامية (حماس) وكتائب عزّ الدين القسّام تزفان إلى شعبنا الفلسطيني خبر استشهاد البطل إسماعيل عاشور بريص الذي نفذ عملية رفيح يام الاستشهادية في السادس من شهر تشرين الثاني/نوفمبر 2002. ليمنّ الله عليه بالسماح وعليكم بالعمر المديد".

من جهتها، أعلنت الإذاعة الإسرائيلية المتشدّدة أن نيسام أفراهام، الاحتياطي في صفوف جيش الدفاع الإسرائيلي من منطقة اللد، والبالغ من العمر ستة وثلاثين عاماً، قد قتل، وجرح خمسة جنود آخرين، ومدنيّ. أما الانتحاري، إسماعيل، فقد كان مرتدياً البذة الزرقاء المرقطة، الخاصة بالجناح العسكري لحركة حماس، ومسلحاً برشاش كلاشنيكوف وعشرة أمشاط من الذخيرة وقنابل محلية الصنع.

في وقت لاحق من ذلك اليوم، أعيدت رفات إسماعيل إلى عائلته ليتم دفنها. مئات الشبان الذين لم تتجاوز أعمارهم بدايات العقد الثاني حضروا المأتم، مزنرين جباههم بالعصبات الخضر، ورافعين الرايات السود التي حملت رسم خريطة فلسطين وشعار حماس. لقد ردّدوا الأناشيد الداعية للانتقام، والواعدة بمزيد من

الهجمات، والبعض منهم ندّد بمحادثات السلام مع إسرائيل، معتبراً إياها "غير نافعة ومضيعة للوقت"، بينما عمد آخرون إلى شحذ المشاعر والحث على تنفيذ المزيد من العمليات الاستشهادية، "لأن العدو لا يفهم إلا لغة القوة". كان بالإمكان التعرف إلى رفاق اسماعيل في كتائب القسّام وسط الجموع المحتشدة، من الشرائط التي عصبوا بها سواعدهم، وزيّنوها بالعبارة القرآنية: **﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾**[8].

أخـــبرني أحد أصدقاء اسماعيل أنه عمل كمزارع يحرث الأرض في مستوطنة رفـــيح يـــام، حـــيث يعيش قرابة ثلاثين عائلة يهودية غير متشدّدة، وهي إحدى المستوطنات القليلة التي يتم إخراج الأولاد منها يومياً، عبر نقطة التفتيش الحدودية، في طـــريقهم إلى المدرســـة، في مـــستوطنة عسقلان القريبة، الواقعة على الجانب الإســـرائيلي مـــن قطاع غزّة. إن إطلاع بريص على واقع حال المستوطنة، بفضل عمله هناك، سهّل عليه الاقتراب قدر الإمكان من هدفه في ذلك الصباح.

لقـــد اغـــتاظ مني رفاق اسماعيل لاستخدامي تعبير" إنتحاري". فوجّهوا إليّ كلمات التأنيب، قائلين لي بأن عليّ وصف العملية بــ "العمل الإستشهادي". في وقـــت متأخـــر من ذلك المساء، فيما بدأ الجيران بالتجمع، حاملين الطعام للعائلة المفجـــوعة، اقـــتحم الجـــيش الإســـرائيلي حيّ الأمل، معزّزاً بعشرات الدبابات والمـــدرّعات والجرافات وسيارات الجيب والمروحيات المزوّدة بالرشاشات. تجمّعت القـــوات العسكرية حول منـــزل إسماعيل، وأمرت أفراد عائلته بالمغادرة الفورية، دون الـــسماح لهـــم بأخـــذ شيء من ممتلكاتهم أو أوراقهم الثبوتية. حصل تبادل لإطـــلاق الـــنار بالأســـلحة الخفيفة مع العناصر المسلحة المحلية المنتمية إلى مختلف المـــنظمات الفلـــسطينية والتي حاولت ردع التقدم الإسرائيلي. لكن هذه العناصر عجزت عن التصدي للقرار الإسرائيلي المحتوم، بسبب الدعم الذي حاز عليه الجنود الإســـرائيليون مـــن القاعدة العسكرية الإسرائيلية الأساسية الواقعة على مقربة من مكـــان المواجهة. فشقت جرّافة كاتربيلر "د9" طريقها نحو المبنى الذي تمّ إخلاؤه، وباشـــرت بهدم منـــزل العائلة وممتلكات أخرى، محوّلة المباني إلى كومة من الردم والركام والحديد الملتوي. صار هذا المشهد المعمّم على نطاق كامل الأراضي المحتلة الصورة-الرمز للمأساة الفلسطينية. في المرحلة الممتدّة ما بين عامين 2000 و2004،

دمّر الجيش الإسرائيلي أكثر من 2500 منـــزل فلسطيني في قطاع غزّة المحتل، مخلفاً وراءه 1600 شخص مشرّداً ولاجئاً[9].

إن الدليل الحسيّ والمنظور على العجز الفلسطيني عن مواجهة هذه الهجمات متجـــسّد على مدّ النظر. فعلى بعد مبان، يقع منـــزل رافع سلامة. إنه شاب في منتـــصف العشرينيات من العمر، وعضو في الجناح العسكري لحماس. لقد نجا من العديـــد من الغارات الإسرائيلية التي استهدفت منـــزله لإلقاء القبض عليه، إلا أن أكثرها خطورة وقعت في ساعات الصباح الأولى من يوم الإثنين، قبل أسابيع قليلة من استشهاد اسماعيل. أكثر من أربعين دبابة إسرائيلية مدعومة بمروحيات الأباتشي المـــزوّدة بالرشاشـــات داهمـــت حيّ الأمل وخان يونس. كما مشطت الدبابات المـــنطقة، مطلقـــة نيرانهـــا عشوائياً على منازل المدنيين، وكأن لا هدف من وراء تحرّكها سوى نشر الذعر بين السكان، واقتحام منازلهم.

عـــندما اقتـــربت القوات الإسرائيلية من منـــزل رافع، قرابة منتصف الليل، هرعت والدته، رحيمة حسن سالمة، البالغة من العمر إثنين وخمسين عاماً، إلى غرفة ابنها المطلوب. لقد اعتادت هكذا مداهمات على منـــزلها، فأيقظت رافع، ودفعت بـــه إلى خـــارج المنـــزل من الباب الخلفي. بلغة عربية ركيكة، أمر الجنود رحيمة وأولادهـــا بمغـــادرة المنـــزل. تحدّت رحيمة الجنود بجسدها ومنعتهم من دخول منـــــزلها، قائلة لهم إن ابنها قد لاذ بالفرار قبل ساعات. عندها، شدّ الضابط آمر المجموعة زناد رشاشه الـــ "إم 16" الأوتوماتيكي، ودرز جسمها بالرصاص، تحت أنظار أولادها السبعة. فنـــزفت هناك حتى الموت.

تحسّست بطرف إصبعي الثقوب التي أحدثتها الرصاصات في حجارة الجدران المحيطة بباب المنـــزل حيث وقفت رحيمة متصدية للجنود الإسرائيليين. خيّل لي أن ذكرى المصير الذي لاقته رحيمة تسكن هذه الثقوب. ما إن قرعت الباب حتى فتح لي رافع، بعد أن استطلع هويتي من نافذة صغيرة جانبية. على بعد أقل من مئتي متر مـــن المنـــزل، تقع قاعدة عسكرية إسرائيلية. تعرّف رافع إلى مرافقي محمد الذي ســـبق له أن أقام في حيّ الأمل لبضعة سنوات خلت. بينما كان يرحب بنا، تبادر إلى ذهـــني ســـؤال: من أين أتته الشجاعة لينام في المنـــزل المثير للشبهات، والذي

قتلت فيه والدته منذ أسابيع قليلة؟ قدّم لنا رافع شراباً بارداً، ثم بدأ يخبرنا عن الليلة التي نجا فيها هو من التوقيف، فيما استشهدت فيها والدته. لقد وصف أمه بأنها كانت معلمته ومرشدته، وقال إنه مؤمن بالله، وبأن أحداً لا يموت قبل أوانه. ثمّ أكد لي بأنه لن يغفر أبداً للجيش الإسرائيلي منعه سيارة الإسعاف من نقل أمه إلى المستشفى، وقتله جاره عبد الفتاح السلوط الذي هرع إلى منزل رافع، مع جيران آخرين، استجابة لنداءات استغاثة إخوته وأخواته. "كان الجنود يطلقون النار على أي شيء يتحرّك"، كما قال رافع، "فقتل عبد الفتاح".

بعيد الساعة الرابعة والنصف فجراً، أي بعد مرور ساعات قليلة على مقتل والدة رافع، بدأت الدبابات الإسرائيلية انسحابها من حيّ الأمل. كما بعد كل توغل إسرائيلي، تجمّع مئات الأشخاص، مستطلعين سبب الغارة الليلية الأخيرة. في هذه الأثناء، كانت مروحية أباتشي تراقب تحركات أكثر من مئتي شاب احتشدوا أمام مسجد الكتيبة. بدأت الأباتشي تحلق على مستوى منخفض أكثر فأكثر، فوق رؤوس الشبان، ثم أطلقت صاروخاً وسط المحتشدين. تحوّل المكان إلى برك دم وتناثرت الأشلاء البشرية في باحة المسجد، كأن المكان استحال مسلخاً. فقد قتل خمسة عشر شاباً، وجرح ما يزيد على مئة وخمسين شخصاً. علا صراخ أقارب الضحايا، وهم يتوعّدون بالانتقام من آرييل شارون، فيما تعرّض المستشفى الذي استقبل المصابين إلى وابل من القصف العنيف. لم توفر نيران الجنود الإسرائيليين سيارات الإسعاف المتقاطرة إلى المكان لنقل الجرحى. فتواصل الهجوم، دون انقطاع، طيلة ثلاث ساعات. رغم الإدانة الدولية، لم يتورّع رئيس الوزراء الإسرائيلي آرييل شارون عن وصف هجمات خان يونس بـ "العملية الناجحة". وأضاف: "كانت هذه العملية معقدة. كانت عملية صعبة... سينفذ المزيد من هكذا عمليات في غزّة".

يخلف هؤلاء الإستشهاديون من حماس تأثيرات متفاوتة، لا بل متناقضة، في كنف عائلاتهم. هناك أمثال مريم فرحات الذين تخالجهم مشاعر متضاربة. لقد حثت فرحات ابنها محمد بإلحاح على تنفيذ مهمته، وشجعته على الانصياع لأوامر رؤسائه. لكن في الوقت عينه، فيما دنت ساعة استشهاد ابنها، صارت مريم تتسلل

إلى غـــرفته لتطـــبع في ذاكرتها صورته وهو نائم، قبل أن تعود أدراجها إلى غرفتها لتستـــسلم للبكاء. في المقابل، هناك ردّة فعل والد اسماعيل عاشور بريص، الذي لم يكن على علم مسبق بأن ابنه كان قد خطط لتفجير نفسه في مستوطنة قريبة. فيما شارف على الانهيار، هدّأ خاطره ناشطان من كتائب القسّام، مدرّبين على إسماع الأهـــل المفجـــوعين كلمات طيّبة تقنعهم بأن أبناءهم وبناتهم لم يموتوا سدىً، بل كسبوا مكانة في الجنة ومهّدوا الدرب لأهلهم ليلحقوا بهم. إلا أن الخيط الجامع بين المـــوقفين يتمـــثل بقناعة وتصميم مشتركين وراسخين بأحقية القتال الذي خاضه أولادهم في مواجهة العدو المشترك. كثرٌ من أبناء ذاك الجيل كانوا قد فقدوا الأمل بالعيش بكرامة، فيما كانت اتفاقيات السلام تتداعى الواحدة تلو الأخرى، وتفشل في تحقـــيق أي تـــبديل في الوضـــع القائم. إن سعي إسرائيل لتضييق الخناق على الفلسطينيين لم يسفر سوى عن جعل الشعب أكثر تصلباً وتطرّفاً. فالرغبة بالانتقام، ومـــا سبّبته من دوّامة عنف وموت ودم، وفرا أفضل الظروف لتنموّ حركة حماس بشكل مضطرد وتنجح في زيادة عديد المجندين في صفوفها.

سياسات الشيخ

الفــضل في تطـــور حماس السياسي وتحولها إلى مجموعة شبه متماسكة تتمتع بقدرة التأثير على السياسة الفلسطينية يعود، بشكل كبير، إلى قائدها المقعد، الشيخ احمـــد ياسين. كنت أعرفه جيداً، لأنني أجريت معه مقابلات عدّة في منـــزله، في حيّ جورة الشمس، في مدينة غزّة.

خـــلال زيارتي له في يوم بارد من أيام الشتاء، في شهر كانون الثاني/يناير من العـــام 1999، اســـترقت النظر إلى الأرض الإسمنتية والنوافذ المتصدّعة. مريم، إبنة ياســـين، قالـــت مـــرّة إنّ والدها رفض عروضاً كثيرة، بما فيها عرض من الرئيس الـــراحل ياســـر عـــرفات نفسه، لبناء منـــزل أفضل له، يأويه في أيامه الأخيرة. وأضـــافت أنه كان يؤمن دائماً أنه "من خلال العمل بجهد على الأرض، سيحظى بمنـــزل جميل في الدنيا الآخرة".

أحضر حارس شخصي، يتمتع ببنية رياضية وقامة طويلة، الشيخ ياسين على كرسيّه المتحرك، إلى داخل الغرفة، للقائي[1]. بعد لحظات قليلة من وصوله، دخلت إلى الغرفة خمس نساء تعلو وجوههن إمارات القلق، طلباً لمساعدته. سمعت إحداهن تشرح له همساً، أهن حضرن لأخذ المال. يبدو أن هذه الزيارة حدث منتظم، لأنه، وبعـــد الاستماع بصبر إلى مطالب النسوة، نادى عبد الحميد لكي يدوّن أسماءهن وعناويـــنهن، قـــبل أن نستئناف حديثنا. كان هذا مجرد مثال واحد على اهتمام الشيخ ياسين بالناس وبالتفاصيل، الأمر الذي جعله نافذاً إلى هذا الحدّ. بعد خروجه الأخير من أحد السجون الإسرائيلية، سافر إلى جنوب أفريقيا وإلى دول عربيّة عدّة بمـــا فـــيها السعودية، حيث خضع للعلاج الطبي الذي تفرضه عليه حالته المرضية المستعـــصية. ولدى عودته إلى غزّة، اكتشف أنّ سمعه قد تحسن بشكل كبير، وأنه أصـــبح قـــادراً على الاستماع إلى نشرات الاخبار، والمشاركة في الأحاديث مع زواره، مـــن دون أن يضطروا إلى رفع صوهم.أما في الماضي، فقد كان يعتمد على

اسماعيل هنيه، المسؤول عن مكتبه، لينقل إليه حاجات الناس ومخاوفهم. ولأن المشهد الذي رأيته قبل قليل أثار فضولي، سألت عن النسوة، فقيل لي إلهن أرامل الشهداء الذين سقطوا أثناء تنفيذ عمليّات تبنتها حماس او من المحتاجين لمساعدة ماديه. لم يكن ضمير الشيخ ياسين يؤنبه لقيام شبّان يافعين بهكذا عمليات، يلقون فيها حتفهم، بما أن الأمر يسفر عن قتل إسرائيليين. لقد كان واثقاً من أن هذه العمليات ستسرّع زوال إسرائيل عن الخريطة، خلال مدّة لا تتجاوز الثلاثة عقود من الزمن، كما كان يعتقد. ترتكز نبوءته هذه، حسب قوله، على سورة قرآنية تصف المرحلة التاريخية التي هرب فيها بنو إسرائيل من مصر، وقد نصحهم الرب بالذهاب إلى فلسطين. إلا أن الإسرائيليين خافوا من الانصياع للنصيحة الإلهية، فحذرهم موسى بهذه الكلمات:

﴿... وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ * يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾

﴿قَالُوا يَامُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾[2].

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾[3]

ويقول ياسين إن الجيل السابق "لم يكن مستعداً للقتال، أو ضلّ طريقه في الصحراء. لكن، سيحلّ مكانه جيل جديد مستعدّ لمواجهة التحدّي والفوز". وأضاف أن إنجاز التغييرات الاجتماعية والنفسية يتطلب أربعين عاماً". في العام 1948، تعرّض الشعب الفلسطيني للهزيمة، وخسر مساحات كبيرة من أرضه، ما دفعه إلى اللجوء إلى مخيّمات في الخارج. ولكن، بعد نحو أربعين عاماً، في العام 1987، بدأت مرحلة جديدة مع الانتفاضة. وأنا أعتقد أن هذا الجيل سيقود المعركة نحو التحرير. لقد مضى إثنا عشر عاماً منذ ذلك الوقت، ومن اليوم فصاعداً، لم يبق للإسرائيليين سوى ثمان وعشرين عاماً. قد لا أكون بارعاً في الحساب، لكنني أجيد تفسير الآيات القرآنية".

كان ياسين متردّداً في التوقيع على وقف لاطلاق النار يدوم من عشرة أعوام إلى عشرين عاماً، مقابل انسحاب إسرائيل من الضفة الغربية وغزّة والقدس الشرقية، حتى حدود الرابع من حزيران/يونيو العام 1967. أضف إلى ذلك، ضرورة أن يحظى الفلسطينيون بحرية تقرير مستقبلهم بأنفسهم.

لقد اعتاد ياسين أن يقول إنه إذا كان سيجلس إلى جانب شخص من منظمة التحرير الفلسطينية، فيجب أن يكون هذا الشخص ياسر عرفات. كان هذا كلامه قبل أن توقع منظمة التحرير اتفاقاً مع إسرائيل، ما أرغم ياسين على تغيير موقفه: "لقد حزنت كثيراً وغضبت. ومن المستحيل أن أفكر بأنني قد أجلس معه الآن، أو أن نبقى صفاً واحداً. آمل أن تتغيّر الأمور في المستقبل"[4].

طالب الصانع، وهو عضو فلسطيني في الكنيست الإسرائيلي، زار الشيخ ياسين في سجن كفار يونا، فأبلغه ياسين بأنه يعارض بشدّة الاتفاقات الموقعة مع إسرائيل، لأنها تتجاهل المسائل الأساسية: مستقبل القدس كعاصمة للدولة الفلسطينية؛ تفكيك المستوطنات؛ حقّ عودة الفلسطينيين إلى قراهم وبلداهم الأصلية، وترسيم الحدود. إضافة إلى ذلك، توقع ياسين أن يكون اقتصاد الأراضي المحتلة مرتبطاً بالاقتصاد الإسرائيلي، وأن يستغل الإسرائيليون ذلك للنفاذ إلى اقتصاد الدول العربية والإسلامية الاخرى. "أنا أؤمن بحلول مرحلية، لكن لا يوجد أي شيء في هذا الاتفاق يساهم في تحقيق الأهداف الأساسية للشعب الفلسطيني". هذا ما قاله الشيخ ياسين لزائره، مرفقاً بابتسامته الاعتيادية الساخرة. من جهته، أشار الصانع إلى أنه مسافر إلى تونس في الأيام المقبلة، وسأل الشيخ ياسين ما إذا كانت لديه رسالة يرغب في أن يبلغها إلى الرئيس المنفي عرفات، الذي أقام مقرّ منظمة التحرير الرئيسي في تونس. فجاءه جواب الشيخ ياسين المبطن بأن عليه أن يبلغ عرفات بالآتي: "إتق الله في شعبك وأرضك. العازب ليس شخصاً حرّاً بأن يتصرف كما يحلو له. أرض فلسطين هي وقف إسلامي[5] ولا يتمتع أي رئيس بسلطة التخلي عنها. إنها ملك للأجيال المقبلة".

عندما نجح بنيامين نتنياهو، زعيم اليمين في حزب الليكود، بالتغلب على خصمه الأقل عداوة نسبياً، شمعون بيريز، بفارق ضئيل لا يتعدى 1% من أصوات

الغالبية في الانتخابات الإسرائيلية في شهر أيار/مايو من العام 1996، اهمت حماس بأهـا ساهمت بشكل غير مباشر في فوزه. ففي ذلك الوقت، نفذ أفرادها سلسلة عمليات انتحارية داخل إسرائيل، عادت بالفائدة على المرشح الداعي إلى الحرب. لكن المتحدث باسم حماس نفى هذه الاتهامات قائلاً:

"عـندما نقـرر أن نهاجم، لا نأبه ما إذا كان بيريز أو نتنياهو في السلطة. ما يهمنا هو كيف ندافع عن أنفسنا، ونحقق أهداف شعبنا. إسرائيل قتلت يحيى عياش، قائـد جناحنا العسكري، وعليها أن تتحمل تبعات أفعالها. لقد انتقمنا من خلال قيامـنا بعملـيات استـشهادية. وبالنـسبة إلينا، حزب العمل أو حزب الليكود متشابهان. إنهما وجهان لعملة واحدة. "

في ما يتعلق بموضوع منافسه ياسر عرفات، كان الشيخ ياسين متحفظاً: "لي محادثات وديّة معه. إنه يعبّر عن آرائه وأنا أعبّر عن آرائي. هو يستغل أحياناً الحوار بينـنا من أجل غاياته الخاصة، للضغط على إسرائيل، وتحقيق المكاسب". وتوسع ياسـين في شـرح هذا التعليق قائلاً إنه لطالما شعر بأن السلطة الفلسطينية تستغل حـوارهما كذريعة لتحسين علاقتها مع حماس. وعندما عاد من رحلته إلى الخارج بعد إطلاق سراحه[6]، كان على رأس جدول اعماله عقد لقاء مع أبو عمار (ياسر عـرفات) بهدف التوصل إلى اتفاق بشأن الوضع القائم. "لكن المعاملة التي حظيت بهـا، يقول الشيخ ياسين، أوحت لي بأنهم أداروا لي ظهرهم، وأنهم ليسوا مهتمين بـأيّ شـكل مـن أشكال التعاون". ويتابع: "عندما تمّ التوقيع على اتفاق "واي بلانتيـشن" في واشنطن[7]، ألقي القبض على الصحافيين الذين كانوا يزورونني في منـزلي في غـزّة. كمـا أنّ السلطة الفلسطينية وضعتني قيد الإقامة الجبرية في منـزلي، بعـدما سارت شائعة مفادها أن أحد حراسي الشخصيين متورط في التخطـيط لعمليات عسكرية ضدّ إسرائيل[8]. وقد اعتقل الحارس من دون سبب، فـيما فـرّ حرّاسي الآخرين من المنـزل. حتى أنهم فتشوا بين ملابسي المعلقة في الخزانة. لكن، لم يكن هناك أيّ أساس للتهم الموجهة ضدّهم".

ما لم يقرّ به الشيخ ياسين كان السبب الحقيقي وراء وضعه قيد الإقامة الجبرية في منـزله في أيلول/سبتمبر من العام 1998. لقد أحبطت قوات الأمن الفلسطينية

محاولـــة أحد ناشطي القسّام، الجناح العسكري لحماس، استهداف عرفات بعملية استـــشهادية، أثـــناء إلقائه خطابه السنويّ في الأمم المتحدة في "نيويورك". خلال اســـتجوابه، اعترف المتهم بأن أحد مهندسي المهمة التي أحبطت هو أحد حراس الشيخ ياسين الشخصيين.

بعد تعثر العلاقة التي قامت بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل نتيجة توقيع اتفاقـــيات أوســـلو، كثرت التكهنات حول كيفية تعامل حماس مع الأمر، على ضوء معارضتها الصريحة للاتفاقيات. لقد كانت حماس جزءاً من تحالف يضمّ عشر فصائل فلسطينية اتخذت من دمشق مقرّاً لها. كانت هذه الفصائل تعارض أيّ اتفاق سلام مع إســـرائيل. إثر توقيع هذه الاتفاقيات، حثّ ياسين أتباعه على استخدام العنف إذا ما حاولـــت السلطة الفلسطينية السيطرة على المؤسسات الإسلامية والمساجد. وقد برّر دعوته هذه بالقول: "لقد اعترضنا على الحكم الذاتي بشكل متمدّن، لذا، لدينا الحق في أن نكون في المعارضة، وأن نكون مسؤولين عن مؤسساتنا الخاصة". وفي رسالة بعث بهـــا إليهم من السجن في تشرين الأول/أكتوبر من العام 1993، بعد وقت قصير على توقـــيع اتفاقـــيات أوســـلو[9]، حذر الشيخ ياسين أنصاره من أن يصبحوا مهمشين، وشجعهم على المشاركة في انتخابات العام 1996 المقرر إجراؤها من أجل إقامة الحكم الـــذاتي الفلـــسطيني. "إن كان المجلس التشريعي الفلسطيني المقترح يتمتع فعلاً بسلطة التشريع، يجب أن نتضامن مع إخواننا الإسلاميين على مستوى القاعدة، ويجب الا نمنح منافسينا إمكانية التفاوض بشأن مستقبلنا كفلسطينيين".

على الرغم من أن الشيخ ياسين كان يودّ أن تشارك حماس في تحالف أوسع، إلا أنـــه أســـاء الظن بالفصائل الأخرى، حتى بتلك التي، مثل حماس، تعترض على اتفاقـــيات أوسلو. فقد اعتبر أن "تلك الفصائل لا تتمتع بأيّ قاسم مشترك معنا، وســـوف تضع مصالحها الذاتية قبل كل شيء. إذا توصلت إلى اتفاق مع عرفات، فقـــد تنقلب حتى على حماس". وأضاف على نحوٍ دبلوماسي: "لكن يجب ان نبقى لبقين في التعامل معها"[10].

لقد حملت رسالة الشيخ ياسين بعداً تنفيذياً واقعياً، إذ بناءً على مضمونها، قرّر اسماعيل هنيه، الذي سيصبح لاحقاً رئيس وزراء السلطة الفلسطينية في العام 2006،

المـــشاركة في انـــتخابات العـــام 1996. إلا أن جهات أخرى داخل حماس اتهمته بالخيانة[11].

أثـــناء زيارتـــه إلى طهران، إحدى أهم المحطات في جولته الكبرى، سنحت لياسين فرصة التعرف إلى آية الله علي خامنئي ألذي خلف آية الله الخميني كمرشد أعلى للجمهورية الإيرانية الإسلامية. في السنة التي سبقت، كانت حركة طالبان قد أعـــدمت عشرة دبلوماسيين إيرانيين وصحافي، إثر مهاجمتها القنصلية الإيرانية في مزار الشريف، في أفغانستان، في شهر أيلول/سبتمبر من العام 1998. بعث الشيخ ياسين حينها برسالة إلى الرئيس الإيراني، مقدّماً فيها تعازيه. وناشد خامنئي طالبان وقف هذه الاغتيالات، حقناً لدماء المسلمين، وتجنباً لاستدراج إيران إلى معركة قد تـــؤدّي إلى ســـقوط نظامهـــا الإسلامي.عند ذكر طالبان، غضب الشيخ ياسين، ووصف فهمهم للإسلام بأنه "خاطئ تماماً ومضلل"، وتابع حانقاً: "كيف يجرؤون علـــى مـــنع النساء من المشاركة في حياتنا، بمنعهن من العمل أو التعليم؟ لا يمكن لأساليبهم إلا أن تضرّ بالدين الإسلامي". وفي حين نفى وجود أيّ صلة بين حماس ونظـــام طالبان، ردّ الشيخ ياسين على احتمال وجود رابط ما بين حماس والقاعدة بـــشكل مبهم بعض الشيء. "نحن ندعم أي حركة تدافع عن حقّ شعبها بالتمتع بالحكم الذاتي والاستقلال ونتعاطف معها، لكننا لسنا مستعدين للتحالف مع مثل هـــذه الحـــركات". ومستنداً إلى ما تنصّ عليه شرعة حماس، شدّد ياسين على أن ليـــست لـــديهم مصلحة في التخلي عن معركتهم مع إسرائيل من أجل القتال في الخارج، والتورط في النـــزاعات العربية أو الإسلامية أو حتى الدولية. "ليست لدينا النيّة بالتدخل في شؤون الدول الأخرى في العالم" قال ياسين جازماً.

ومـــستعيداً ذكريات محطته الأفريقية الجنوبية، زعم الشيخ ياسين بأن السلطة الفلسطينية قد استبقت الأمور، وسعت للحؤول دون كسب حماس موطىء قدم لها هناك، كما في الدول الاخرى التي زارها. كان استياؤه جليّاً، إلا أنه أضاف، في ما يـــشبه الادعاء الكاذب، "أن منظمته لم تسع أبداً للحصول على التقدير السياسي، لأن هـــذا الأمـــر قـــد يضعف صفة منظمة التحرير التمثيلية، كونها الممثل الرسمي للـــشعب الفلـــسطيني في كافة أنحاء العالم". رغم أن بعض الانظمة العربية أعطته

الانطباع بأنها تدعم آراءه وتؤيّدها، إلا أن ياسين شعر بأن مواقفها هذه مجرّد دفق كلامي تغذي به سياساتها الداخلية. لكن هذ العقبات لم تحل دون نجاحه في الحصول على الدعمين المادي والمعنوي من بعض الدول. "إثر زيارتي، باشرنا بالحوار مع مختلف الجهات، وسمح لنا البعض بفتح مكاتب، لكن بصفة غير رسمية، تفادياً للتدقيق الإعلامي".

كان ياسين ماكراً وبراغماتياً إذ لا تقف قناعاته الدينية عائقاً أمام تحقيق مصلحة ما. لقد شدّد دائماً على الحاجة إلى الاخلاص والتضامن والتفاعل مع المناخات السياسية المتنوعة، بغاية المحافظة على أواصر وطيدة بين أفراد حماس في الدول المختلفة.

"يجب أن يكون ولاؤنا لله وانبيائه واتباعه. لا لأحد سواهم. يجب على الفرد أو القائد في منظمتنا أن يأخذ في الاعتبار البيئة المعينة التي يعيش فيها، وينبغي على المرء أن يستخدم اللغة والأساليب المناسبة، بما يتوافق وواقع الحال. إذا أراد أحد ممثلي حماس في الأردن أن ينتقد سياسة الحكومة الأردنية، أتوقع منه أن تأتي ملاحظاته مخففة لأنه يعيش في الأردن. لكن إذا أراد الشخص نفسه أن ينتقد السلطة الفلسطينية في غزّة، أتوقع أن تكون لهجة بيانه لاذعة. من جهة أخرى، إذا كان هذا الشخص يقيم في المناطق التي تسيطر عليها السلطة الفلسطينية، فقد يؤدي كلامه إلى حرب أهلية". ويتابع ياسين في السياق عينه: "عندما كنت في سوريا، قال لي أحدهم مرّة: لقد أدليت ببيانات متناقضة. أنت تقول إنك ضدّ اتفاقيات أوسلو، لكنك مع ذلك، تتحدث عن "إخواننا في السلطة الفلسطينية" وعن "أخي أبو عمار (عرفات)". لكن جميعهم خونة، ويجب أن تقول ذلك". أجابه ياسين: "أنت تتكلم من الخارج. إن قلت مثل هذا الكلام في غزّة، ستندلع الحرب غداً. أتباع عرفات وفتح سيقاتلون أتباع حماس، ولست مستعداً للتورط في هذا الأمر".

عندما أتيت على ذكر جناح حماس العسكري في إحدى المقابلات التي أجريتها معه في غزّة في 18 كانون الثاني/يناير من العام 1999، حاول الشيخ ياسين ألتملص. كما أنه ابدى اشمئزازه عندما سألته عن أحد أفراد كتائب القسّام الذي سبق له أن قدّم استقالته من الجناح العسكري لحماس. هذا الناشط السابق كان قد

حدثني عن الفساد والدكتاتورية السائدين في داخل الحركة، وقال لي إن الاغتيالات نفـــذت في سياق الصراع على السلطة. فأجاب الشيخ ياسين بشيء من الغضب: "أخـــبرني من الذي غادر!" بعد بضعة أشهر على إطلاق الشيخ ياسين من سجن كفار يونا، زارته مجموعة من خمسة وعشرين ناشطاً من كتائب القسّام، بمن فيهم عبد الفتاح السطري ألذي أراد وضعه في صورة الخلاف داخل الجناح العسكري. أخـــبر الـــسطري ياسين أهم ما عادوا يتلقون المساعدة من القيادة السياسية، على الرغم من أن كثيرين من الأعضاء مهدّدون بالقتل أو بالاعتقال من قبل الإسرائيليين أو مـــن قـــبل الـــسلطة الفلسطينية. بدا الشيخ ياسين متفاجئاً، ووعد زواره بأنه ســـيتحقق من الأمر. لقد أكد لي أحد قادة حماس، الذي فضّل عدم الكشف عن اسمه، في أيلول/سبتمبر من العام 1998، بأن اللقاء قد حصل. كما أخبرني بأن عبد الفـــتاح السطري وكمال خليفة ومحمد السنوار وعاطف حمدان قد تركوا الجناح العسكري لحماس، لينضموا إلى الأجهزة الأمنية التابعة للسلطة الفلسطينية. عرضت هـــذه الأسمـــاء علـــى الشيخ ياسين، وكنت أعرف جيداً بأنه على علم بها، رغم خـــضوعه للاقامة الجبرية. فقد كانت للشيخ ياسين شبكة استخباراتية لا تضاهى. بطـــريقته اللبقة المعهودة، شرح لي بأن هذه المجموعة تحديداً من الجناح العسكري كانـــت ترزح تحت وطأة الكثير من الضغوط، وبأن قيادتها وبعض كبار المسؤولين فيها كانوا إمّا معتقلين أو هاربين. لذا، وبسبب غياب التعليمات الواضحة، وانعدام الاتصال بين مكاتب حماس في الخارج وقيادة حماس داخل قطاع غزّة، لم تكن هذه المجمـــوعة تحظى بأيّ دعم مادي، فوجدت نفسها عاجزة عن القتال، أو حتى عن العـــيش، فاضـــطر الـــبعض من أفرادها للانتقال إلى الخارج، حيث تعرّضوا أيضاً للـــضغوط، لأن كل دولة تتمتع بسياساتها الخاصة وقوانينها وحساسياتها المحلية التي يجب أخذها في الاعتبار. لقد أراد هؤلاء الشبان العمل بشكل مستقل، كما اعتادوا عندما كانوا لا يزالون في غزّة، الأمر الذي أدّى إلى مواجهات مع رفاقهم الناشطين في حمـــاس. وقال لي ياسين أيضاً: "لقد أعدّوا لي تقريراً كاملاً عن الوضع، لكن لا تـــوجد أية إشارة فيه إلى أيّة عمليات قتل". كان تقييمه للوضع يقضي بأن حماس تتعـــرض للكثير من الضغوط من مختلف أجهزة الاستخبارات الأجنبية، وقد يكون

بعض كبار الأعضاء في الحركة قد بعثوا برسائل تشير إلى ضرورة اغتيال بعض العناصر أو التخلص منها. لكنه أشار إلى أنّ المجموعة ككل ليست على علم بشيء من هذا القبيل، وأنها لن تقوم أبداً بعمل كهذا. ثم أردف قائلاً: "كيف يمكنني التوقيع على أمر بقتل مسلم لم يرتكب جريمة؟ هذا مستحيل. لن يفكر أحد منا بهذا الأمر، ما لم تكن هناك أدلة قاطعة على وجود إثم أو خطأ، وما لم يكن ذلك مقبولاً بحسب الشريعة الإسلامية".

إنقسام داخل حماس

التناحر الحزبي هو الوباء الذي طالما ألّم بحماس. أمّا متى، وإلى أي حدّ، يمكن القبول بالتسوية لتجاوزه، فهي مشكلة دائمة، مسببة أيضاً للخلاف بين الحركات الإسلامية.

لقد أصدر اسماعيل أبو شنب، وهو من الأفراد المؤسسين لحماس في غزّة، بياناً بعد مؤتمر القاهرة في كانون الثاني/يناير من العام 1995، للتأكيد على التوصل إلى اتفاق مع السلطة الفلسطينية وغيرها من الفصائل الفلسطينية الموجودة في دمشق، حول مسألة الهدنة مع إسرائيل. لقد كان أبو شنب في عداد وفد حماس إلى المؤتمر الذي أدرج على جدول مناقشاته، إتفاق السلام مع إسرائيل برعاية أميركية. اعتبر البعض في حماس هذا البيان مثيراً للجدل، لكن أبو شنب كان يملك المؤهلات اللازمة لإصداره.

ولد أبو شنب في العام 1948، يوم أصبحت فلسطين إسرائيل، في بلدة الجورة القريبة من عسقلان، ما يجعل منه أحد أصغر اللاجئين الذين وصلوا إلى مخيّم النصيرات في وسط غزّة. على الرغم من الصعوبات التي واجهته في بداية حياته، إلا أنه تخرّج من جامعة المنصورة، شمال القاهرة، وأثناء دراسته فيها، تأثر بإعادة إحياء حركة الإخوان المسلمين. بعد حصوله على شهادة الماجيستير في الهندسة المدنية من جامعة ولاية كولورادو الأميركية، عاد إلى غزّة في العام 1976، وشارك في تأسيس المجمع الإسلامي وقد حاز فيه على صفة نائب للشيخ ياسين.

اعتقل اسماعيل أبو شنب، مع الشيخ ياسين وغيره من قادة حماس، في أيار/مايو من العام 1989، لدوره في الانتفاضة الاولى. لقد وضع في الحجز

الانفـــرادي مـــدّة ســـبعة عشر شهراً، من أصل السنوات الثمانية التي أمضاها في السجن. إنه أب لأحد عشر ولداً، ويعتبر شخصاً معتدل التوجهات ومتحدثاً لبقاً. كـــان دائـــم الوساطة بين حماس والسلطة الفلسطينية كلما احتدمت الأمور بين الطـــرفين. قـــبل أشهر قليلة من وفاته، نقل عنه قوله: "لنكن صريحين. لا يمكن أن ندمر إسرائيل. الحل العمليّ هو بأن ننشئ دولة إلى جانب إسرائيل". لكن الانفراج الـــذي شهدته العلاقات بين حماس والسلطة الفلسطينية على هامش مؤتمر القاهرة، والـــذي ساهم أبو شنب في تحقيقه، انقطع بشكل مفاجىء عندما عمدت إسرائيل إلى تنفـــيذ إحـــدى اغتيالاتها النموذجية، فأغارت طوافة على سيارة أبو شنب، ما أدى إلى مقـــتله واثـــنين من مساعديه[12]. فيما كان أبو شنب دائم التأييد لوقف إطـــلاق النار مع إسرائيل شرط أن تنسحب الدولة العبرية إلى حدود ما قبل العام 1967. كـــان رفاقه في حماس من ذوي اللهجة الأعنف والأكثر حدّة، كالدكتور عبد العزيز الرنتيسي ومحمود الزهار، يفضلون الدعوة الشاملة إلى تدميرها، وإنشاء دولة إسلامية "من البحر إلى النهر" (أي من البحر الابيض المتوسط إلى نهر الأردن).

أثـــار وقف إطلاق النار غضب قادة حماس في الأردن وسوريا، فتبادل أولئك الذين يعيشون في الضفة الغربية، والذين يعيشون في الخارج، التهم بإحداث شرخ داخل الحركة. جاءت ردّة فعل الشيخ ياسين حذرة. "لم أكن مستعداً لمناقشة هذا الأمـــر عـــبر وسائل الاعلام أو على صفحات الصحف"[13]. وأضاف أن الحركة تسعى جاهدة إلى معالجة مشاكلها داخلياً، وبأن المسألة قد سويت. ثم شرح قائلاً: "مـــا حصل هو أن بعض اشقائنا في الخارج تصرفوا بشكل متهوّر، من دون معرفة الحقـــيقة الكامـــنة وراء ما يحصل هنا، في قطاع غزّة". بحسب الشيخ ياسين، لقد كانت قيادة حماس في الخارج، وتحديداً في الأردن وسوريا، على خلاف سابق مع أبـــو شنب، ما أسفر عن إصداره بيانه المتسرع بشأن وقف إطلاق النار. لقد اعتبر ياســـين أنه كان يجدر بأبو شنب أن يكون أقل انفعالاً، فلا يذيع شيئاً على العلن، نظراً للظروف السائدة آنذاك، أشار في السياق عينه إلى وجود تنسيق جيّد وتبادل وثـــيق للآراء، عادةً، بين أعضاء حماس في غزّة وإخوانهم في الخارج. لكنه اعترف بـــأن ضرورات التصرّف بحذر كانت غالباً ما تؤدي إلى تأخر الاتصالات، أو حتى

إلى عـــدم تلقـــيها أصلاً. ثم أضاف متسائلاً: "عندما نشأت تلك الظروف، كيف كان لي أن أوافق على قرارات لم أكن مطلعاً عليها؟ نحن حركة متماسكة، وليس مـــن المـــسموح لأي شـــخص في منظمتنا أن ينشئ قيادة منفصلة. إن هذا الأمر يتعارض مع الإسلام ومع مبادئنا. لقد قلت لهم إنه لو راودت هذه الفكرة البعض منهم، فمن الافضل لهم ان يغادروا صفوف الحركة". لقد تمثل هذا الموقف برسالة وجههـــا الشيخ ياسين إلى مجلس الشورى في الحركة، أثناء اعتقاله في سجن كفار يونا، بتاريخ 3 تشرين الأول/أكتوبر من العام 1993:

"بسم الله الرحمن الرحيم... أيها الاخوة الأعزاء، إن هذه الافكار التي أرسلها إلـــيكم يجب أن تخضع للدرس والتحليل من قبل مجلس الشورى في الحركة، بهدف اتخاذ قرارات جماعية في مواجهة التحديات التي تبرز أمام حركتنا المنتصرة، إن شاء الله. ينبغـــي أن تمـــتاز القرارات الداخلية كما الخارجية بالتجانس، لأن استمرارية عملـــنا رهن بالدعم الذي نحظى به في الداخل ومن الخارج. إن الداخل (أي غزّة والضفة الغربية) سيكون مسؤولاً عن تأمين المواجهة والتضحيات، وبناءً عليه، فهو في وضـــع يخوّله تقييم المعطيات وتأمين المعلومات الضرورية من أجل نشر الرسالة واســـتثمار جهودنا بشكل افضل. إنني أكرر: ليس مسموحاً لأي شخص أو لأية مجموعة اتخاذ قرار قد يؤثر على مستقبل الحركة، أو يهدّد مصيرها. يجب الانصياع لأي قرار تتخذه الغالبية، أياً يكن هذا القرار".

فتح في مواجهة حماس

مـــثلت القاهـــرة لـــسنوات طويلة الموقع المحايد الذي يوفر لمختلف الفصائل الفلـــسطينية إمكانـــية التلاقي. فمنذ العام 1995، اعتادت فتح وحماس على اللقاء فـــيها، للخـــروج بحلول سلمية لنـــزاعاتهما. لقد كانت حركة فتح، بزعامة ياسر عـــرفات، حريـــصة على تجنب المواجهة مع حماس، رغم هجماتها المتواصلة ضدّ إسرائيل.

كـــان وفـــد حماس يتألف من أربعة قياديين من غزّة، هم عبد الفتاح دخان ومحمد حسن شمعة وسعيد أبو مسامح والدكتور محمود الزهار. وكان الوفد الممثل

للـــضفة الغربية يضمّ جمال سليم والشيخ جميل حمامي والشيخ محمد النتشة والشيخ حـــسن يوسف. أما مجموعة حماس من خارج الأراضي المحتلة، فكانت تتألف من خالـــد مـــشعل وعماد العلمي ومحمد نـــزال وأسامة حمدان. أما وفد فتح، فكان يرأســـه ســـليم زعنون المعروف بـــ "أبو الأديب". عندما كرّر الفريقان نقاشاهما القديمة المتعلقة بهوية الجهة التي أطلقت إنتفاضة العام 1987، أنكر بعض ممثلي فتح علـــى حمـــاس أية مشاركة لها في هذه الانتفاضة. يومها، عمد دخان، الذي كان يرأس حماس في غزّة، إلى تهدئة الخواطر، قائلاً إن حماس وأشقاءها في فتح وفي باقي الفصائل الفلسطينية قد أدّوا جميعاً أدواراً معينة في ذلك التحرك الشعبي.

لكـــن التفجيرات الاستشهادية التي خططت لها حماس وأسفرت عن إنتخاب نتنياهو وانهيار عملية السلام التي بنت فتح مصداقيتها على أساسها، زعزعت هذه العلاقة. محمد دحلان، مستشار عرفات للشؤون الأمنية في غزّة حينذاك إتهم حماس باللعـــب، على نحو قذر، بمصير الشعب الفلسطيني، واشتكى قائلاً: "لقد عمدت حمـــاس إلى إفشال كل خطوة إيجابية كانت تحققها السلطة الفلسطينية على صعيد مفاوضات السلام مع إسرائيل". وتابع، منتقداً حماس: "عندما وافق رئيس الحكومة الإســـرائيلية الـــراحل اسحق رابين على وقف تمويل وبناء المستوطنات، سرعان ما نفـــذت حـــركة حماس مجموعة من الهجمات الإستشهادية. الوثائق التي ضبطناها بحـــوزة أتباع حماس تؤكد ذلك، وتكشف أيضاً أهم بذلوا كافة الجهود الرامية إلى تفـــشيل الحكومة التي تزعمها حزب العمل ورأسها شيمون بيريس"[14]. لقد اعتبر دحلان بأن حماس كانت تجبر الشعب الفلسطيني، وبشكل غير مسؤول، على دفع ثمـــن التـــزامتها الـــسياسية الخاصة إزاء دول أخرى في المنطقة، وفي مقدّمها إيران وسوريا.

دحـــلان الـــذي سبق وأن قاد حركة ناشطة داخل الجامعة الإسلامية وأطلق "جناح الشباب" التابع لفتح في غزّة، التقى الشيخ أحمد ياسين للمرّة الأولى عندما كـــان لا يزال المرشد الروحي للمجمع الإسلامي، ثم عمّقا علاقتهما عندما أطلق سراح الشيخ ياسين مقابل تسليم إسرائيل عميلي الموساد المتورطين في محاولة اغتيال خالد مشعل. "منذ ذلك الحين، قطعت كافة العلاقات مع ممثلي حماس" كما يذكر

دحلان. لقد كانوا، من جهة، يعقدون اجتماعات مطوّلة مع الدكتور الرنتيسي، ومن جهة أخرى، لقاءات خاصة مع اسماعيل هنية. يصف دحلان علاقته بالشيخ بالـ "وثيقة"، مضيفاً أنه معجب به، ويحترمه، ويعتبره "الأكثر عقلانية بين هؤلاء المنتمين إلى حماس".

إن إحدى المسائل التي كان الرجلان يناقشاها باستمرار وتتباين آراؤهما بشأنها، هي التوقيفات المنتظمة التي تنفذها عناصر السلطة الفلسطينية بحقّ ناشطي حماس المشكوك بتورطهم بهجمات ضدّ إسرائيل. بصفته المسؤول الأمني الأعلى في السلطة الفلسطينية، كان دحلان يتجاوب وطلبات الشيخ ياسين إطلاق سراح البعض منهم، "على أن يقنعني بالطبع بأنهم غير متورطين بشكل مباشر في عملية ما، أو في التخطيط لها، وبأنهم لا يعرّضون، بأي شكل من الأشكال، علاقتنا بإسرائيل للخطر".

لقد برزت جديّة هذا التواصل عندما أنشأ الشيخ ياسين مدرسة "إبن الأرقم". ما كادت المدرسة تباشر نشاطها حتى غُلقت الدروس فيها لأن القانون الإسرائيلي يمنع منح رخص تعليمية للأحزاب السياسية. ويشير دحلان في هذا السياق، إلى المساعي غير المعلنة التي بذلها مع الرئيس عرفات لمنح ياسين الرخصة. "لقد ناقشنا هذا الأمر بحضور اسماعيل هنية والدكتور اسماعيل أبو شنب، وأخيراً صدرت الرخصة".

ويصف دحلان المشاعر التي يكنها ياسين لعرفات بالـ "طيبة جدّاً"، وفي المقابل، كان عرفات يحترم الشيخ ياسين للغاية. لقد قال ببساطة: "كانت علاقتهم جيّدة". وفي أحد الاجتماعات التي عقدت في منزل دحلان، خاضوا في مناقشات معمّقة بعيداً عن مسامع الصحافيين، تناولت أهمية وقف حماس عملياتها العسكرية وعدم منحها إسرائيل أية ذريعة للمناورة ولتعليق انسحابها من الضفة الغربية[15]. وطالب عرفات أيضاً بوقف لإطلاق النار، إفساحاً في المجال أمام تنفيذ الانسحاب. كانت جولة المحادثات غير رسمية ولكن جديّة للغاية. حينها، قال الشيخ ياسين لعرفات بأن مسؤولية وضع حدّ للعمليات العسكرية تقع على عاتق دحلان، فأجابه عرفات: "إن الأمر سياسيّ، وأنا أفهم موقفه". بناءً على ذلك،

وافـــق الشيخ ياسين على وقف عمليات حماس الاستشهادية. لقد تمّ هذا، على ما يذكـــر دحـــلان، في ربيع العام 1998، عندما كان نتنياهو يتولى رئاسة الحكومة الإســـرائيلية. بعدها، سأل ياسين عمّا سيفعله دحلان في حال تواصلت العمليات العـــسكرية، فأجابـــه دحلان ممازحاً: "قد أعمد إلى توقيفك!" لقد سادت الجلسة أجواء الارتياح، و لم ينشأ أي جدل.

لقـــد تسنّت لي فرصة التعرف إلى عرفات عن كثب، يوم أجريت مقابلة معه لأول مرّة، في العام 1981، في مقرّه في حيّ الفاكهاني، في بيروت الغربية. كما أنني تابعـــت تحركاته في أسفاره، وغطيت أخبار الحروب التي خاضها. كان يساورني شـــعور عميق بأن القائد الفلسطيني المناور لم يرغب يوماً برؤية حماس تشارك في الانتخابات، أو حتى أن تحظى بدور سياسي فاعل. فكلما سنحت له الفرصة، كان يستغل حماس لتحقيق مآربه الشخصية.

في إحـــدى المـــرّات، دعـــا عرفات الشيخ ياسين لحضور اجتماع للمجلس المركزي، أي البرلمان الفلسطيني في المنفى، وهو بمثابة هيئة تقع في الهيكلية التنظيمية الفلسطينية، بين اللجنة التنفيذية والمجلس الوطني الفلسطيني. جاء زعيم حماس بمعيّة اسماعـــيل هنـــية. حينها، كان الناشطون في صفوف حماس ينتقدون زعيمهم على مـــشاركته في هـــذه المناقشات، إذ اعتبروا حضوره تلك الجلسات اعترافاً بمنظمة التحرير الفلسطينية ومؤسساها.

في 17 كانـــون الأول/ديسمبر 1992، أبعدت إسرائيل 415 عضواً من حماس ومن الجهاد الإسلامي إلى لبنان. إثر ذلك، زار وفد من حماس عرفات في مقرّه في تونس، سائلاً مساعدته في موضوع المبعدين. ضمّ الوفد بين أعضائه المتحدث باسم حماس، المهندس ابراهيم غوشه وخيري الآغا ومحمد صيام. طلب الوفد من عرفات أن يستخدم كافة علاقاته الديبلوماسية والسياسية لإثارة قضية المبعدين. خلال هذا الاجتماع، تحدث عرفات عبر الهاتف إلى الدكتور الرنتيسي، أحد كبار قادة حماس المبعدين. وأعقبت ذلك اللقاء زيارات لممثلي فتح في جنوب لبنان إلى مكان تواجد المـــبعدين. لقـــد شكّل هذا الاتصال بعرفات أول اعتراف من قبل حماس بالمكانة المرموقة والقيادية التي يتمتع بها زعيم منظمة التحرير الفلسطينية على صعيد الثورة

الفلـــسطينية. لطالما سعت حماس إلى تكريس نفسها في موقع موازٍ لمنظمة التحرير الفلسطينية ومتساوٍ معها، إلا أن هذه المناشدة التي رفعتها إلى عرفات جاءت إقراراً مـــن قـــبلها بأن منظمة التحرير الفلسطينية تمثل مركز القوة الفعلي، أقله في تلك المـــرحلة. وكانـــت حماس قد اعتمدت هيكلية مماثلة لتلك التي تميّزت بها منظمة التحريـــر الفلـــسطينية عندما أقام بعض قادتها في المنفى، فيما واصل آخرون قيادة المقاومة عملياً، ضدّ الإسرائيليين، داخل الأراضي المحتلة.

الشيخ في آخر سنواته

كان الشيخ ياسين يتمتع بسلطة روحية مطلقة في غزّة، لكن، فيما كان يتقدّم بـــه العمر وهو رهن الاحتجاز، كسبت شخصيات حماس الأصغر سناً والتي تتمتع بهالة شعبية، مكانة متقدمة. من سخرية الأمور أن خالد مشعل، الذي أصبح في ما بعد، رئيس المكتب السياسي لحماس، بمعنى آخر، قائدها، كان وراء إطلاق سراح الـــشيخ ياسين من السجن، لمجرّد بقائه حيّاً إثر فشل الموساد الإسرائيلي في اغتياله. صـــباح 25 أيلول/سبتمبر 1997، غادر رئيس المكتب السياسي لحماس في الأردن منـــــزله في حيّ الشميساني الواقع خلف حدائق الملك عبدالله في عمّان، متوجهاً، عـــبر طريق لا تتجاوز مسافتها نصف الكيلومتر، إلى مكتبه في الطابق الخامس من مبنى شامية، في شارع الحديقة، وسط المدينة. كان يرافق مشعل حارسه الشخصي وأولاده الـــثلاثة الـــذين كانوا في طريقهم إلى حلاق الشعر. أثارت انتباهه سيارة تحمل لوحة تسجيل سياحية. لقد كانت تلاحقهم منذ لحظة مغادرتهم المنـــزل. إلا أن حارســـه الشخـــصي، الـــدائم التنبه عادةً لأي شيء مريب، لم يبد قلقاً. قبيل بلـــوغهم المبنى حيث مكتب مشعل، دنت السيارة منهم، فيما اقترب سائق مشعل من مدخل مبنى شامية، وركن السيارة بمحاذاة صف من المحال التجارية.

مـــستعيداً فصول محنته، يذكر مشعل أنه تنبّه إلى وجود "رجلين بدت عليهما إمـــارات أجنبية غربية. لقد كانا يرتديان سروالين من الجينـــز، ويضعان نظارات شمـــسية، ويقفان على بعد حوالى مترين من السيارة، كأنهما ينتظران شخصاً ما". إنـــتاب مشعل شعور بعدم الارتياح. مرّة أخرى، نبّه حارسه الشخصي إلى الأمر.

عـــندها، وافقـــه حارسه الشخصي الرأي، وأشار إليه بضرورة أخذ جانب الحيطة والحذر. ويروي مشعل فصول الهجوم الذي تعرّض له، والذي يشبه أفلام الإثارة، وتبيّن لاحقاً أن جهاز الموساد يقف وراءه، قائلاً: "سرت في طريق دائري مؤدّ إلى المكـــتب، ومـــررت خلف السيارة تجنباً للرجلين. ما كدت أدخل إلى المبنى حتى شـــعرت برذاذ يصيب الجهة اليسرى من رأسي وأذنيّ، أطلقه شيء بحجم مسدس. بدأ جسمي يرتجف، وأدركت أنني تعرضت لمحاولة اغتيال، ولكن ليس من مسدس. كان الرجل الذي هاجمني يرتدي قفازات بيض ليحتمي من تأثير السمّ الذي تسرّب إلى جلـــدي. حاولت أن أقف فيما سعى حارسي الشخصي إلى منع المهاجم من إصابة رأسي، فنجح بإلقاء الرجل الآخر أرضاً، وبكسر نظاراته الشمسية". ويتابع رئـــيس المكـــتب السياسي لحماس في الأردن: "لم أعتقد يوماً أن الأردن يمكن أن يـــتحوّل إلى ســـاحة للاغتيالات، نظراً لعلاقته بإسرائيل. لذا كنت أتجوّل معتمداً إجراءات أمنية محدودة"(16).

هبّ العميل الثاني لنجدة زميله، وضرب حارس مشعل على رأسه بآلة حادّة، فأخذ الرجل ينـــزف دماً ويصرخ مستنجداً بشهود عيان. فرّ المهاجمان في السيارة المستأجرة التي كانت مركونة خارج مطعم "الثروة"، على بعد ثلاثمئة متر.

لقـــد صـــادف وصول أبو سيف، وهو سائق قائد آخر في حماس، إلى مبنى شـــامية، لتـــسليم مـــشعل رسالة، حين سمع المشادّة، ورأى عملاء الموساد وهم يغادرون المكان. بسرعة بديهة فائقة، أوعز أبو سيف إلى سائق أردني كان ماراً في شارع الحديقة، باقتفاء أثر المهاجمين. دون الإكثار من الأسئلة، وافق الرجل وباشر المطـــاردة، فيما لحق به أبو سيف بسيارته الخاصة. كان العميلان الإسرائيليان قد تـــركا ســـيارتهما على بعد مسافة قصيرة، مخلفين بداخلها كل ما استخدماه من أدوات في الهجوم، وتوجها إلى شارع المدينة المنوّرة، غير مدركين، على ما يبدو، أنهمـــا ملاحقـــان. تمكن أبو سيف والسائق الأردني من إلقاء القبض عليهما، ما تـــسبب بجلبة عارمة استدعت تدخل ضابط رفيع في جيش التحرير الفلسطيني في الأردن صـــادف مـــروره في المكـــان، فساهم الضابط في السيطرة على العميلين، واقتادوهما إلى مركز الشرطة في وادي السير حيث تمّ توقيفهما.

قبل خمسة أيام من الهجوم، كان الرجلان قد وصلا إلى عمّان مزوّدين بجوازات سفر كنديّة. وعمدا إلى الاندماج ضمن مجموعة من السيّاح أقامت في المدينة تمهيداً لزيارة المواقع الأثرية في عاصمة النبطيين، البتراء، وصحراء وادي الروم، والآثار الرومانية في جرش. كان ناطور المبنى حيث مكتب مشعل قد رصد "سائحين" قبل بضعة أيام من وقوع الهجوم، وظناً منه بأن تواجد أجانب في هذا المكان غير السياحي أمر غريب، أبلغ المسؤول عن إدارة شؤون المبنى بالأمر. لكن السلطات لم تبلغ بالأمر، "فأنتَ في الأردن" والمتعارف عليه أن ما من شيء سيء يحدث في المملكة الودودة. ويضيف مشعل شارحاً فصول ما بعد الحادث: "إثر مشاورات مع القيادة العامة للحركة، أبلغنا وكالة فرانس برس بالقصة، فتمت إذاعتها عبر راديو مونتي - كارلو في تمام الساعة الحادية عشرة من قبل الظهر. في البداية، أنكرت الحكومة الأردنية الحادث، واصفة إياه بالمشادة بين حارس خالد مشعل الشخصي وسائحين كنديين. بعدما اتصلنا بوزير الإعلام ليصحح قراءته للحادث، علمنا بأن رئيس مركز الموساد في الأردن اتصل بالقصر الملكي. لقد بدا وكأن رئيس الحكومة الإسرائيلية بنيامين نتنياهو طلب من مدير مركز الموساد "لفلفة" المهمة الفاشلة وتأمين سلامة عملائه.

أما حالة مشعل الصحية، فراحت تتدهور: "بعد مرور ساعتين على الحادث، بدأت أفقد توازني بسبب تأثير السمّ على جسمي. أصرّ سائقي على نقلي إلى المستشفى الإسلامي، ما تطلب بعض الترتيبات. أعضاء المكتب السياسي في حماس وقادة حركة الإخوان المسلمين في الأردن كما رئيس شرطة عمان، وصلوا جميعاً إلى المستشفى. لكن عندما بلغ خبر محاولة الموساد تسميمي القصر الملكي، أوعز الملك حسين إلى مستشاريه بنقلي إلى المستشفى العسكري في مدينة الملك حسين الطبية. عندها، كانت مستويات الأوكسيجين في جسمي قد انخفضت جداً. لقد أثار وضعي حيرة الفريق الطبي، وعلمت لاحقاً بأن الأوكسيجين كان سينقطع حتماً عن دماغي بفعل هذا السمّ".

جاءت ردّة الفعل الإسرائيلية الأولى نفياً قاطعاً لعلاقتها بما تعرّض له مشعل، فيما عمد العاهل الأردني الراحل الملك حسين إلى توصيفه بـ "ابننا"، وألمح إلى

الصحافيين في الأردن باحتمال إعدام عميلي الموساد. كان الموساد قد اختار تمويه عمليته على هذا النحو لتجنيب الحكومة الأردنية التي وقعت اتفاق سلام مع إسرائيل في العام 1994، أيّ إحراج.

حين وصل مشعل إلى مستشفى مدينة الملك حسين الطبية، كان يغط في سبات عميق، ثم فقد وعيه تماماً، منذ مساء يوم الخميس حتى صباح يوم السبت[17]. خلال هذين اليومين، أمسك الملك حسين بزمام الأمور، واتصل بالرئيس الأميركي في حينها، بيل كلينتون، مهدّداً بإقفال السفارة الإسرائيلية في الأردن، ثمّ أوفد شقيقه ووليّ عهده، الأمير حسن، إلى واشنطن، في الثامن والعشرين من شهر أيلول/سبتمبر، يرافقه رئيس الاستخبارات الأردنية سميح البطيخي، بهدف إقناع الرئيس كلينتون بضرورة التدخل لحلّ الأزمة الديبلوماسية المستجدّة. لقد طلب الملك حسين أيضاً أن يبعث نتنياهو بترياق مضاد للسمّ الذي تعرّض له مشعل. وفي خطوة إضافية لإذلال حكومة نتنياهو، أوقفت قوات الأمن الأردنية عملاء آخرين للموساد، وفرضت طوقاً حول على السفارة الإسرائيلية. أذعنت إسرائيل لكل هذا الضغط، فقبلت بعقد صفقة قضت بإطلاق سراح الشيخ أحمد ياسين وعدد من السجناء الفلسطينيين مقابل تسليم عملاء الموساد. وفقاً لمشعل: "جاء التأكيد بأنه سيتم إطلاق سراح الشيخ ياسين بينما كان الملك حسين في زيارتي في المستشفى حوالى الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل. خلال الدقائق الخمس التي أمضاها معي، شكرته على مساعدته لي وهو هنأني بنجاتي. ثم سألته عن الشائعات التي تناهت إلى مسامعي عن إطلاق سراح الشيخ ياسين، فطمأنني الملك حسين، مؤكداً لي صحتها. "

حوالى الساعة الثانية من صباح يوم الأربعاء الواقع فيه الأول من شهر تشرين الأول/أكتوبر، شاهد مشعل عبر نافذة غرفته في المستشفى، طوافة تهبط. لم يتمكّن من تحديد ما إذا كانت أردنية أم إسرائيلية، لكنه رأى بوضوح الشيخ ياسين وهو ينقل على كرسيّ متحرّك من الطوافة باتجاه أحد أجنحة المستشفى. ويتابع مشعل مستعيداً ذكرياته: "رغم أنني لم أكن أستطيع أن أمشي، إلا أنني أصريت على رؤية زعيمنا. في الساعة الثالثة صباحاً، تمّ أخذي إلى غرفته حيث صافحته وقبّلته. كنت

ألتقيه للمرّة الأولى على الإطلاق. لقد سبق للعديد من إخواني أن التقوا قادة كبار آخــرين في حماس كعبد العزيز الرنتيسي مثلاً، عندما تمّ إبعادهم إلى جنوب لبنان، لكن، في ذلك الحين، كان الشيخ ياسين معتقلاً في أحد السجون الإسرائيلية".

الملك حسين وولي عهده الأمير حسن وأمراء آخرون، إضافة لوزراء أردنيين وللــرئيس عرفات، جميعهم زاروا الشيخ ياسين وهو على فراشه في المستشفى. لقد بقــي طيلة أسبوع في ضيافة الأردن، إلى أن انتقل إلى غزّة على متن طوافة أردنية. وفي خطــوة موازية في توقيتها، أقلعت طوافة إسرائيلية من عمّان حاملة على متنها السائحان الكنديان المزعومان.

إلتقى مشعل الشيخ ياسين مرّة أخرى أثناء توقفه في السودان عام 1998. فور مغادرته السجن، قام الشيخ بجولته الكبرى على المملكة العربية السعودية والإمارات المتحدة والكويت وإيران واليمن وسوريا والسودان ومصر وجنوب أفريقيا، قبل أن يقفــل عائــداً إلى غزّة. عندما التقاه مشعل، كان ياسين قد تلقى علاجاً ناجحاً لالــتهاب مــزمن في أذنه في المملكة العربية السعودية، كما تسنت له فرصة أداء مناسك الحج، وهي فريضة يتوق كل مسلم إلى تأديتها قبل وفاته[18].

تمّ تــرحيل مشعل من الأردن عام 1999. فقد كان في رحلة إلى طهران في شهر آب/أغسطس من ذلك العام الذي قرّر فيه الأردن إقفال مكاتب حماس. لقد إدّعــى مــشعل بــأن لا مبرر لهذا الحظر، واتصل بالعديد من الحكومات العربية لإبلاغهــا بــأن "لا نية لدى حماس بالتدخل في شؤون أي بلد عربي". ومن بين الشخصيات التي اتصل بها، الشيخ حمد بن جاسم، وزير الخارجية القطري، لإبلاغه بما يحصل وللطلب منه التدخل، ولكن دون جدوى. بعد ثلاثة أسابيع، عاد مشعل إلى الأردن حــيث تمّ توقــيفه فور وصوله، ونقله، مع ابراهيم غوشه، إلى سجن أردني.

خــلال عمليات الاغتيال التي نفذها إسرائيل بحق ناشطين فلسطينيين أعقبت أســابيع وشهوراً طويلة، جمعت الاستخبارات الإسرائيلية كمّاً هائلاً من المعلومات المــتعلقة بالضحايا المستهدفة: مواقع المنازل الآمنة التي يستخدمونها، الطرقات التي يــسلكونها لــدى انتقالهم من مكان إلى آخر، عاداتهم اليومية، وإلى ما هنالك من

معطيات. لقد تمّت تصفية مئات الناشطين في الضفة الغربية وغزّة بواسطة أدوات متفجرة زرعت داخل هواتف خلوية، أو على جوانب الطرقات، أو أطلقت بواسطة مروحيات أو طائرات عسكرية من طراز "إف 16". لقد اغتيل كلٌّ من ياسين والرنتيسي على هذا النحو من الهجمات التي تتميّز باستخدام التقنيات المتطورة في تنفيذها. على غرار الرنتيسي، فقد رفض الشيخ ياسين إتخاذ أي من الإجراءات الأمنية الأساسية ضماناً لسلامته. وكما هو معلوم من الجميع في غزّة، فإن الشيخ ياسين يحضر بشكل منتظم صلاة الفجر[19] في مسجد لا يبعد أكثر من مئة متر عن منزله في حيّ صبرا في غزّة. صباح يوم الإثنين الواقع فيه 22 آذار/مارس 2004، ألقت مروحية ثلاثة صواريخ موجّهة بالكاميرا، أدّت إلى مقتل الشيخ وهو على كرسيه المتحرك. كما قضى في العملية صهره، زوج ابنته خديجة، وحارسه الشخصي، خميس مصطفى. وجد كرسي ياسين ملقىً أرضاً، محطماً ومضرّجاً بالدماء، فيما نقل الزعيم الروحي المصاب إلى مستشفى دار الشفاء في غزّة على وجه السرعة، لكنه وصله ميتاً. وفقاً لمصادر أمنية إسرائيلية، فإن رئيس الوزراء الإسرائيلي آرييل شارون كان قد أصدر بنفسه الأوامر باغتيال ياسين، وراقب الهجوم الذي شنته المروحية على الشيخ المقعد. لقد وضع استهداف الشيخ ياسين في خانة ردّ الفعل الانتقامي على عملية إستشهادية نفذها، قبل أسبوعين[20]، نبيل مسعود ومحمود سالم، وهما صديقا دراسة مراهقان من مخيم جباليا للاجئين في غزّة. كانت تلك عملية استشهادية مزدوجة ضدّ مرفأ أشدود الخاضع لحراسة مشدّدة جنوب إسرائيل، وأسفرت عن مقتل عشرة إسرائيليين، وأعلنت حماس مسؤوليتها عنها. تقول مريم، ابنة ياسين، وهي تسترجع كلمات والدها حين بلغه خبر التفجير: "إنها الطريقة الوحيدة لتحرير فلسطين. للأسف، دون هرق للدماء، لا يمكننا تحقيق شيء".

قبل حوالى ثلاث ساعات من اغتيال الشيخ ياسين، كان ابنه محمد قد لفت نظره إلى أنه تمّ رصد طائرة استطلاع تحلق في الأجواء. فجاءه ردّ والده: "إننا نسعى إلى الشهادة لله. نحن ملك له وإليه نعود"[21]. وفيما كان الشيخ ياسين يهم بمغادرة المسجد بعد صلاة الفجر، أنذره واحد آخر من أبنائه، واسمه عبد الغني،

بقـــوله: "أبي، إن طائـــرة اغتـــيال تحلق في السماء". فأتاه جواب الشيخ على نحوٍ فلسفي: "يا ولدي، أنا في انتظاره".

الرنتيسي...البداية والنهاية

لم يصب اغتيال الشيخ احمد ياسين، على فداحته، قوة القيادة الداخلية لحماس بضرر بالغ. فقد تم استبدال الزعيم الروحي للحركة بالدكتور عبد العزيز الرنتيسي، الـــذي ولـــد في 23 تشرين الثاني/نوفمبر من العام 1947 في بلدة يبنا الواقعة بين عسقلان ويافا، في منطقة تخضع اليوم للسيطرة الإسرائيلية. بعد أحداث العام 1948 ، عـــاد الرنتيـــسي واستقر مع عائلته في مخيم خان يونس للاجئين في غزّة. وكما تجـــري العادة بالنسبة إلى الصبية الصغار في العائلات الفقيرة، بدأ الرنتيسي العمل مـــنذ التاسعة من العمر بعد ساعات الدراسة، للمساعدة على إعالة عائلته الكبيرة المـــؤلفة مـــن أحد عشر شقيقاً وشقيقة. وقد وصف ظروف حياته في تلك الفترة قائلاً: "كنا فقراء جداً، وما كنا نحصل عليه من الاونروا لم يكن كافياً لإطعامنا". تـــوفي الـــوالد عندما كان الرنتيسي في الرابعة عشرة من العمر، وكان لا يزال في الـــصفوف الثانوية. في ذلك الوقت، لم يكن يملك حذاء، فاشترى زوجاً مستعملاً بالمـــال الذي كان قد ادخره من عمله. وعندما اضطر شقيقه البكر فواز للسفر إلى المملكـــة العـــربية السعودية بحثاً عن العمل، طلبت الوالدة من عبد العزيز ان يقدم حذاءه إلى فواز لكي ينتعله أثناء إجرائه مقابلة التوظيف. مع انتهاء مرحلة الدراسة الـــثانوية في العام 1965، حصل الرنتيسي على منحة من الاونروا لمتابعة دروسه في الإسكندرية في مصر، فنال شهادة في الطب، وتخرج بامتياز، وعاد إلى غزّة في العام 1972 طبيباً مخوّلاً ممارسة مهامه. كان يجتاز الكيلومترات سيراً على الأقدام، حاملاً حقيبـــته الطبية، لمعالجة البدو الفقراء الذين يعيشون على الحدود مع غزّة، ويرفض تقاضي أيّ أجر، الأمر الذي جعله ذائع الصيت بين تلك القبائل. عاد الرنتيسي إلى الإســـكندرية لتحـــصيل شهادة الدكتوراه في طب الأطفال، وفي العام 1976، بدأ العمـــل في مستشفى ناصر في خان يونس. في الوقت نفسه، كان يعمل مع الشيخ ياسين على إنشاء المجمع الإسلامي ويساعده في الأعمال الخيرية التي يقوم بها.

بدأت أولى مواجهاته مع الإسرائيليين في العام 1981، عندما وضع قيد الاقامة الجبرية بتهمتين: الاولى لتمنعه عن دفع الضرائب للقوة المحتلة، والثانية، لتنظيمه تظاهرة للأطباء في غزّة، ودعوته إلى إضراب عام. رداً على امتناعه عن دفع الضرائب، صادرت إسرائيل موجودات عيادته. وعلى الرغم من محاولاته للتفاوض مع الإسرائيليين بهذا الشأن، باعوا كل أدويته ومعداته الطبية. لحسن حظه، قام الحاج صادق الموزاني وهو ابن أحد فاعلي الخير الأثرياء، بشراء محتويات العيادة، وأعادها إلى الرنتيسي. لكنه مُنع، في نهاية الأمر، من مزاولة عمله الطبي في العام 1986، بسبب نشاطه السياسي وتحركه في أوساط العاملين في المجال الطبي. إثر ذلك، انتقل الرنتيسي إلى إلقاء المحاضرات في الجامعة الإسلامية، وانخرط فعلياً في الحركة الإسلامية.

عندما وقع حادث "المقطورة" في العام 1987[22]، كان الرنتيسي أحد القادة الستة في جماعة "الاخوان المسلمين" في غزّة، وقد ساهم بشكل أساسي في القرار الذي اتخذته الحركة لجهة تنظيم انتفاضة مدنية. إلى جانب الشيخ ياسين، كان الرنتيسي من الآباء المؤسسين لحركة حماس، واصبح المتحدث المفضل باسمها عبر شبكات التلفزة العالمية وفي الصحافة الاجنبية، بفعل مهاراته اللغوية ومقتطفاته الكلامية البليغة ووصفه المنطقي لسياسات حماس. إن هذا الرجل، الحازم في كلامه، والذي تمتع بمصداقية شعبية كبيرة، كان نقيض الشيخ ياسين، المعسول اللسان والمولع بالتأمل والتفكير. وبالتالي، كان الرنتيسي هو من يحشد المناصرين والمؤيدين لحماس بعد أية انتكاسة تصاب بها، محافظاً بذلك على زخم الحركة.

لقد تعرفت إلى هذا الطبيب السابق عبر الهاتف من لندن في العام 1989، ومنذ ذلك الوقت، ربطتني به صلة عميقة وإن عن بعد. على الرغم من آرائه المتطرفة، كنت أجده صريحاً وهادئاً، لا سيما عندما تبتعد المناقشة عن السياسة. بعد الاتصالات الهاتفية الكثيرة التي تبادلتها معه، لم اعد مضطراً للتعريف عن نفسي، لأنه صار يتعرف فوراً على صوتي. بما أنه كان يشكل هدفاً أساسياً بالنسبة للاستخبارات الإسرائيلية، كان الرنتيسي يستخدم خطاً ارضياً لاسلكياً آمناً، وصار معتاداً على التكتم والسرية. لقد كان حذراً في التعريف عن نفسه عبر الهاتف،

وكذلك في الافصاح عن هوية الذين يتحدث اليهم. لقد كان على خلاف دائم مع السلطة الفلسطينية بسبب رفضه المعلن أية اتفاقيات سلام مع إسرائيل، وبسبب التدابير التي اتخذتها السلطة ضدّ المنتمين إلى حماس. لكن، على الرغم من هذه العلاقة المتوترة، لقد ناشدهم ألا يهرقوا أية دماء فلسطينية، والا يتورطوا في مواجهة داخلية مهما كانت الظروف. بعد حلوله مكان الشيخ ياسين، أعرب الرنتيسي في بيانه الأول، بصفته قائداً لحماس، عن استعداده لمدّ اليد للجميع من أجل العمل معاً في سبيل مصالح القضية الفلسطينية.

كان الرنتيسي أول قائد لحماس تعتقله إسرائيل بعد بدء الانتفاضة. فقد سجن في 15 كانون الثاني/يناير من العام 1988 مدة واحد وعشرين يوماً، لاشتباكه بالأيدي مع الجنود الإسرائيليين الذين حاولوا دخول غرفة نومه. بعد أقل من شهرين، في الرابع من آذار/مارس، اعتقل مجدداً، وبقي في السجن، هذه المرة، مدة عامين ونصف العام، بتهمة إطلاق حركة حماس، ووضع البيان الأول للمنظمة الذي وقعه الشيخ ياسين. لكن الرنتيسي رفض الاعتراف بأي من التهمتين. وأثناء تنفيذه هذا الحكم، حُرم من النوم طيلة ستة أيام، وأرغم على البقاء في غرفة مبردة مدة أربع وعشرين ساعة. في مرحلة ما في العام 1990، وجد نفسه في الزنزانة نفسها مع الشيخ ياسين. اطلق سراحه في الرابع من أيلول/سبتمبر من العام 1990، لكن بعد مئة يوم، أعادت السلطات الإسرائيلية احتجازه مدة عام كامل، قبل ترحيله إلى مرج الزهور في الجنوب اللبناني في 17 كانون الأول/ديسمبر من العام 1992.

خلال فترة إقامته في المنفى، تم اختياره كناطق باسم المبعدين إلى لبنان وكان عددهم كبيراً. وبحسب الرنتيسي، فإن هذا التجمع لنخبة رجال حماس، وإن كان مفروضاً بالقوة، قد أثبت بأنه مفيد استراتيجياً للحركة، إذ وفر فرصة سانحة لقيادة الحركة لتنسيق أساليب عملها. كانت هذه المرة الاولى التي يلتقي فيها أعضاء حماس خارج قطاع غزّة، وقد استطاعوا إقامة اتصالات مع المنظمات والحركات العربية والإسلامية وحتى الدولية. بعد وقت قصير من عودة المبعدين إلى غزّة، حكمت محكمة عسكرية في إسرائيل على الرنتيسي بالعودة إلى السجن، حيث بقي

حتى منتصف العام 1997. وفي شهر نيسان/أبريل من العام 1998، إثر اغتيال "المهندس" يحيى عيّاش، اعتقلت السلطة الفلسطينية الرنتيسي لشجبه علناً اتفاقيات أوسلو. وقضى الشرط الأساسي لإطلاق سراحه بأن يمتنع عن الادلاء بالمزيد من البيانات "الافترائية" ضد السلطة الفلسطينية واتفاقيات السلام التي تعقدها.

زرت غزّة للمرة الأولى في العام 1998. لم تكن السلطات الإسرائيلية قد سمحت لي بالقيام بذلك من قبل، على الرغم من كوني صحافياً معتمداً، متذرّعة بوضعي كلاجئ فلسطيني. كان الرنتيسي لا يزال في سجن السلطة الفلسطينية في ذلك الوقت، وكنت متشوقاً لمقابلة زعيم حماس وجهاً لوجه، إثر أحاديثنا الكثيرة عبر الهاتف. طلبت من وزير العدل حينذاك فريح أبو مدين بأن يمنحني إذناً لزيارة الرنتيسي، وهو إذن لم يكن يعطى وقتئذ سوى إلى أفراد عائلته الأقربين. لقد أبلغ غازي الجبالي، قائد الشرطة الفلسطينية في غزّة، فريح بأن الإذن يجب أن يطلب من عرفات. كان من المفترض أن أجري مقابلة صحافية مع الزعيم الفلسطيني في مكتبه الذي يقع بمحاذاة الشاطىء في غزّة، فقررت أن أثير المسألة معه بنفسي عندما شارفت مقابلتنا على نهايتها. كان عرفات مهتماً بالإطلاع على كيفية معرفتي بالرنتيسي، بما أنه لم يسبق لي أن حضرت إلى غزّة من قبل. فشرحت له بأننا طورنا صلة جيّدة بيننا عبر الهاتف، على مدى سنوات عدّة، وأنه سيكون من المؤسف بالنسبة لي، أن أغادر غزّة من دون أن أقابله. وافق عرفات على طلبي واتخذت التدابير اللازمة لكي أذهب إلى السرايا، مقرّ قيادة الشرطة الفلسطينية في غزّة. لقد كان هذا المبنى في السابق مقرّ قيادة إسرائيلياً تمّ تسليمه إلى السلطة الفلسطينية عندما تشكلت بعد اتفاقيات أوسلو. لقد رافقني وزير العدل للقاء الجبالي، الذي بادر فوراً إلى سؤالي عن سبب توقي لمقابلة الرنتيسي. ثم أمر احد كبار ضباطه بأن يرافقني إلى زنزانة الرنتيسي التي كانت تقع فوق مكتبه مباشرة. عندما فتحوا باب الزنزانة، ظهرت أمامي غرفة كبيرة تحتوي على سرير عسكري مرتب. كان الرنتيسي يجلس على كرسي أمام طاولة صغيرة، ويقرأ القرآن. ألقيت عليه التحية قائلاً: "السلام عليكم". تصافحنا، وفيما كان الضابط يراقبنا عبر الباب، سألته: "هل عرفت هذا الصوت؟" مرّت بضع ثوان قبل أن يبتسم ويجيب: "هل أنت

زكـــي؟" أومــأت برأسي إيجاباً، وقلت له إنه لم يكن بوسعي مغادرة غزّة قبل أن ألتقيه شخصياً. عندئذ عانقني. أقفل الضابط الباب وانتظر خارجاً، فيما تحدثت مع الـسجين المتمرّس مدة خمس عشرة دقيقة، أبلغته في خلالها عن أملي في أن يعود ويجتمع بزوجته واولاده بأسرع وقت ممكن.

بعـد نحـو عـام، قمت برحلة ثانية إلى غزّة، وقررت أن أزور "أبو محمد" (الرنتيـسي) مجـدّداً. كانت تلك إحدى المرات القليلة التي لم يتواجد فيها داخل السجن. دعيت إلى منـزله بعد ظهر أحد الأيام، وكنت أتوقع أن أجد تدابير أمنية مـشدّدة، لكن شيئاً من هذا لم يكن ظاهراً. لقد اقتصرت الإجراءات التي يتخذها على بقائه بعيداً عن منـزله مدة أسبوع، وعلى تنكره بملابس مختلفة. لكن هذا لم يكـن كافـياً بالنسبة إلى شخص في مركزه ومنصبه، خصوصاً بعد حلوله مكان الشيخ ياسين الذي سقط شهيداً. لدى استقباله لي، استفسرت منه عن سبب غياب التدابير الأمنية المشددة المطلوب توفرها، بما أن اسمه مدرج على لائحة المطلوبين من قبل الشين بيت. فأجابني: "ما من أحد يموت قبل أوانه". وكانت هذه جملة متداولة ومستخدمة للغاية من قبل أعضاء الحركة.

لقد ترعرع منافس الرنتيسي السياسي، محمد دحلان، في مخيم اللاجئين نفسه الـذي نشأ فيه الرنتيسي في غزّة. كانت عائلتاهما مقربتين وتتبادلان الزيارات. قبل أسـبوعين من اغتيال الرنتيسي، التقيت دحلان الذي اخبرني عن اليوم الذي طلب فـيه منه عرفات ان يعتقل قائد حماس. أبلغ محمد رئيسه بأنه لا يستطيع القيام بأمر مماثل، فأجابه عرفات: "لماذا؟ هل تخشى حماس؟" فأجابه دحلان: "طبعاً لا، لكنني أخشى أمي التي تعشق الشيخ عبد العزيز الرنتيسي".

أثـناء وجوده في باريس، أبلغت الاستخبارات الفرنسية دحلان بأن إسرائيل على وشك اغتيال الرنتيسي. فصارت أولويته، لدى عودته إلى غزّة، تحذير الدكتور الرنتيـسي بوجوب أخذ جانب الحيطة والحذر. جرى التدبير للقاء بينهما في اليوم التالي، وقد اختارا الاجتماع في منـزل الراحل اسماعيل أبو شنب، على اعتبار أن أحداً لن يشتبه باحتمال أن يذهب الرنتيسي إلى هناك. لقد فوجئ محمد لدى رؤيته الوجـوه المألـوفة لحراس الرنتيسي الشخصيين والذين لا زالوا يقودون سياراهم

المعـــروفة جيداً. حذر دحلان الرنتيسي بأنه إذا أراد البقاء على قيد الحياة، فيجب عليه أن يقوم ببعض التغييرات في فريقه الأمني، لأن رجاله معروفون لدى السكان المحليين والإعلام، والاهم، لدى الاستخبارات الإسرائيلية. كذلك دعاه إلى الحدّ من الظهـــور على شاشات التلفزيون، والامتناع عن الإدلاء بالتصاريح بشكل منتظم. لكـــن الرنتيسي لم يأبه بتحذيرات دحلان. وبعد اقل من اسبوعين على سماعي بهذا اللقاء، طالعني خبر تعرّض الرنتيسي للاغتيال في شارع الجلاء، شمال غزّة صباح يوم السبت 17 نيسان/أبريل من العام 2004، فحزنت للغاية. لقد توفي الرنتيسي متأثراً بجـــراحه، في مستـــشفى الـــشفاء في غـــزّة، بعدما أصيبت سيارته إصابة مباشرة بـــصاروخين أطلقتهما طوافة إسرائيلية. كما توفي اثنان من حراسه على الفور[23]. عندما استشهد الرنتيسي، كان دحلان موجوداً في لندن، حيث كان يأخذ دروساً مكثفة في اللغة الانكليزية في أحد معاهد تعليم اللغات. لقد دعته محطة "العربية" إلى الظهـــور في احـــد برامجها، سمعته، خلال المقابلة، يعزّي والدة الرنتيسي وأشقاءه وشقيقاته، متوجهاً إلى كل واحد منهم بإسمه.

إن تأثـــر دحـــلان عكـــس العلاقة العميقة التي كانت تجمع هذين الخصمين السياسيين. ولا شك أن الأمل بمستقبل فلسطيني ما، يرتكز على المحافظة على هذا الـــنوع من العلاقات الشخصية. بحسب دحلان، لقد دام لقاؤه الأخير بالرنتيسي ســـاعتين مـــن الوقت، وقد حضره اسماعيل هنية وسعيد صيام من حماس، وسمير مـــشهراوي من كبار قادة فتح في غزّة. لقد حفلت الدقائق العشرين الأولى بكلام شخـــصي جداً بين دحلان والرنتيسي. فقد سأل الرنتيسي عن والدة دحلان، التي دعاها بأم حسن، وفي المقابل سأل دحلان عن اشقاء الرنتيسي الذين ترعرع معهم. عقـــد هـــذا اللقـــاء بناء على طلب من عرفات، على أمل التوصل إلى تفاهم بين الفصيلين المتنافسين. ومن بين المسائل المتعددة التي تمّت مناقشتها، آلية التوصل إلى وقـــف لإطـــلاق النار مع إسرائيل، وإمكان مشاركة حماس في العملية السياسية. الموضـــوع الآخـــر الـــذي تطرق اليه الرنتيسي هو كيفية ادراج مختلف الفصائل الفلسطينية في منظمة واحدة. وفوجئ دحلان بسماع الرنتيسي يقترح فكرة انشاء جـــيش وطني تساهم فيه كل الفصائل الفلسطينية شرط الا يكون هذا الجيش تابعاً

لأيـــة منظمة محددة. فيما تقدّم الرنتيسي بهذه الفكرة، اتصل دحلان بعرفات الذي كان محاصراً في رام الله وأعطى الهاتف للرنتيسي.

لا يزال محمد دحلان يذكر الأيام الغابرة، عندما كان يتولى قيادة جهاز الأمن الوقائـــي، والمـــرات العديـــدة التي ابلغ فيها كبار قادة حماس بالمخططات المعدّة لاغتـــيالهم. مـــن بين هؤلاء القادة، ورد اسم إبراهيم المقادمة. فقال دحلان: "لقد زودنـــا المقادمـــة بالوثائق، وحتى بشريط مصور يتضمن اعترافات عميل فلسطيني يحـــدّد الـــتواريخ والأمـــاكن التي ينبغي عليه تفاديها، لكنه لم يأبه بالتحذيرات، واصـــبح ضـــحية اخـــرى علـــى لائحـــة سياســـة الاغتيالات الإسرائيلية".



علاقات حماس الدولية

على غرار معظم الجهات الفاعلة غير الحكومية، كانت قدرة حماس على الاستمرار والتطور تعتمد على أفعال الدول الاخرى، التي اعتبرت، في مراحل عدة، الحركة الإسلامية مصدر إزعاج أو عدواً أو عبئاً أو جهة يمكن للاستفادة منها.

من سخرية الامور أن سياسة الترحيل التي اعتمدها إسرائيل هي أول ما دفع بحماس إلى تعزيز قاعدها خارج الأراضي المحتلة. مع بداية العام 1990، كانت إسرائيل قد أدركت بأن الحركة الإسلامية، التي سمحت لها بأن تنمو وتزدهر، أصبحت فجأة تشكل خطراً حقيقياً. من دون أن تطلب الاذن من الحكومة اللبنانية، قامت في 29 كانون الأول/ديسمبر من العام 1999، بترحيل أربعة من ناشطي حماس من غزّة إلى جنوب لبنان. إستقرت المجموعة على أطراف صيدا في المية وميّة، وهو مخيم صغير للاجئين الفلسطينيين متاخم لأكبر مخيّمات الاونروا، عين الحلوة، وهو واحد من بين ستة عشر مخيماً للاجئين، أقيموا لإيواء الفلسطينيين الذين هربوا إلى لبنان إثر حرب العام 1948[1]. يتذكر السكان كيف أن المبعدين الاربعة كانوا يديرون عمل الحركة الإسلامية في المخيم. في المخيمات المنتشرة في مختلف أنحاء لبنان، كان اللاجئون يعيشون في ظروف قاسية، غالبيتهم تحت خط الفقر. وقد استغلت الحركة هذا الوضع، فألقى قادها المحاضرات التوجيهية، وحاولوا إعطاء اللاجئين وعداً بتغيير حياقم. سرعان ما انضم إلى المبعدين الاربعة 415 ناشطاً آخراً، نفتهم إسرائيل ايضاً إلى جنوب لبنان. لقد إستقطبت رسالة حماس منظمتين سنيّتين لبنانيتين هما الجماعة الإسلامية والاحباش. وبعد بضعة سنوات، أسندت إلى اثنين من المبعدين مناصب رفيعة داخل الحركة، توليا فيها مهام إدارة علاقات حماس الخارجية. فقد عُيّن عماد العلمي ممثلاً لحركة حماس في طهران، واصبح مصطفى القنوعة، رئيساً للمكتب السياسي لحركة حماس في بيروت. عملت الحركة بجهد لحشد دعم الفلسطينيين في لبنان، في وقت بدأ يتراجع

فـــيه التأييد الجماعي الذي حظيت به الفصائل الفلسطينية الأخرى، بسبب الحرب الاهلية اللبنانية والاقتتال الداخلي بين تلك الفصائل.

جـــذبت الحركة الإسلاميين الفلسطينيين في مختلف أنحاء مخيمات اللاجئين في البلاد، ما شكل منافسة لحركة فتح. كان أفراد الفصائل الاخرى اقل حماساً، لكن مـــا حـــثهم على دعم حماس هو الراتب الذي كان أفرادها يتقاضونه. فضلاً عن النـــشاطات الـــسياسية التي كانت تحصل في المخيمات، كانت حماس والمجموعات الإســـلامية الاخرى تتنافس على استقطاب شعبية واسعة النطاق، من خلال تطوير البرامج الاجتماعية التي تشمل رعاية الايتام والارامل، وادارة المدارس ودور الرعاية وبـــناء المـــساجد واعطـــاء النساء دروساً حرفية لتعليمهن المهارات والصناعات المنـــزلية. في السابق، كانت منظمة التحرير الفلسطينية تحظى بالاعجاب لانفاقها بسخاء على تلك المشاريع الاجتماعية، لكن إثر حرب الخليج الاولى، وبعد اجتياح العـــراق للكويت[2]، قامت دول الخليج بمعاقبة منظمة التحرير على دعمها للعراق وحرمتها من التمويل الذي اعتادت ان تحظى به منذ الستينيات من القرن المنصرم. وبدأت المنظمات الخيرية في منطقة الخليج تجيّر دعمها المالي وتأييدها لحماس.

قبل الانتفاضة الفلسطينية في العام 1987، لم يكن جدول الاعمال العسكري جـــزءاً مـــن استراتيجية الاخوان المسلمين. لكن عندما اندفعت حماس إلى ساحة المـــواجهة، اضـــطر فرع جماعة الاخوان المسلمين في الأردن، الذي كان مسؤولاً بشكل عام عن الفرع الفلسطيني في الضفة الغربية، للتفكير بالطموحات العسكرية لهـــذه الحـــركة الـــتي تأسست حديثاً، وما اذا كان ذلك يتعارض مع النشاطات الاجتماعية والثقافية التي كانت حركة الاخوان المسلمين تدافع عنها.

مـــع اكتساب حماس المزيد من الدعم خلال سنوات الانتفاضة الاولى، قامت باضافة قسم الشؤون الخارجية على بنيتها السياسية. في ذلك الوقت، شعرت قيادتها بأنهـــا قوية بما يكفي لكي تستقل عن حركة الاخوان المسلمين وتصبح كياناً قائماً بذاتـــه. عندما أقامت حماس مكتباً سياسياً لها في الأردن، كانت أقنية الاتصال مع الحكومة المضيفة تمرّ من خلال أجهزتها الامنية. فيما كان الشيخ ياسين في السجن، نقلـــت القيادة إلى الدكتور موسى أبو مرزوق الذي منعته إسرائيل من العودة إلى

غـــزّة في العام 1989، فاستقر في الأردن. على المستوى السياسي، كانت العلاقات جيدة نسبياً مع الأردن، خصوصاً بعد غزو القوات العراقية للكويت، ما أرغم قادة حماس في الكويت على الانتقال إلى العاصمة الأردنية عمّان. ظن الكثيرون في ذلك الـــوقت، بأن الحكومة الأردنية ستستخدم حماس كآداة تفاوض في أي نـــزاع قد يندلع مع منظمة التحرير الفلسطينية.

لكـــن الدولـــة المـــضيفة بدأت تنقلب على حماس عندما أغفلت عن إبلاغ الحكـــومة الأردنـــية بنيّتها التخطيط لعمليات عسكرية انطلاقاً من عمّان، تمهيداً لتنفـــيذها في الأراضي المحتلة. كذلك، لم تعرف قيادة الاخوان المسلمين في الأردن أي شـــيء عـــن نيات حماس. في العام 1991، تظاهرت حركة الاخوان المسلمين وقـــيادة حماس بالاستغراب والمفاجأة عندما ابلغها مسؤول أمني رفيع المستوى في الأردن بـــأن حكومـــته داهمت أربعة مخابئ كبرى للاسلحة في العاصمة الأردنية، تحـــوي رشاشـــات ثقيلة ومدافع. لقد قدرت قيمة الاسلحة المصادرة بنحو مليون ديـــنار اردني أو 1.5 ملـــيون دولار أميركـــي. واعتقل تسعة ناشطين من حماس وســـجنوا لمـــدة تسعة أشهر، إلى أن أطلق العاهل الأردني سراحهم بموجب عفو ملكي.

كانـــت هـــذه بداية نهاية سياسة التسامح التي اعتمدتها الحكومة الأردنية مع حماس. فقد تشددت في مواقفها ضدّ الحركة، وبدأت تراقب نشاطاتها عن كثب. ثم شـــرع كـــل من الحكومة الأردنية والجناح العسكري لحماس يبحث عن آلية لادارة علاقـــتهما. في العام 1993، عقد لقاء في مكتب رئيس الوزراء الأردني زيد بن شاكر، حضره قادة حماس، الدكتور أبو مرزوق وإبراهيم غوشه، ومحمد نـــزال وعمـــاد علمـــي وغيرهـــم. تـــلا هـــذا الاجتماع لقاء آخر جرى في مقر قيادة الاستخبارات العامة، من أجل تحديد طبيعة العلاقة وإبلاغ الحركة بما هو مسموح لها القيام به وما هو ممنوع عليها. فقد أبلغت حماس بكل وضوح بأنه يحق لها فقط ممارســـة النـــشاطات الاعلامية والسياسية التي لا تعرّض المصالح الأردنية للأذى. بالـــتالي، كانـــت النـــشاطات العسكرية ممنوعة. وأصبحت أجهزة الاستخبارات الأردنـــية تراقب حماس بارتياب وشك، خوفاً من ان تتحول إلى منظمة عسكرية

تهـــدد الامن الأردني الداخلي. فصارت تعتقل قياداتها كلما شعرت بأن هناك سبباً يدعـــو للقلق. وقد ازدادت تيقظاً بعدما وضعت يدها على اسطوانة مدمجة تحتوي معلومات مفصلة عن نشاط المنظمة في الضفة الغربية وغزّة، في تشرين الثاني/نوفمبر من العام 1995، ما أدى إلى مزيد من الاعتقالات.

كمـــا فعلـــت فتح في أواخر الستينيات، بدأت حماس، في بداية السبيعنيات، تعلـــن مسؤوليتها عن هجمات تنفذها داخل إسرائيل. فقامت الحكومة الأردنية، بحكـــم اتفاق السلام الذي وقعته مع إسرائيل في العام 1994، بترحيل الدكتور أبو مـــرزوق وعماد علمي. اعتقل أبو مرزوق لاحقاً في الولايات المتحدة وألصقت به تهـــم غير مثبتة بممارسة الإرهاب. على الرغم من علاقة الأردن المتوترة مع حماس، لعـــب الملـــك حسين دوراً في اطلاق سراح أبو مرزوق، وفي العام 1997، أعطى الاذن إلى الولايات المتحدة بترحيله مجدداً إلى الأردن.

علـــى الرغم من هذه المواقف، ومن بينها تلويح الملك الأردني الراحل حسين بإعـــدام عميلي الموساد اللذين حاولا اغتيال خالد مشعل، ازداد التوتر بين حماس والحكومة الأردنية، أقله لأن الحركة باتت تهدد التوازن القائم بين الحكومة وحركة الاخـــوان المسلمين الأردنية. لقد اشتكت جماعة الاخوان المسلمين إلى المرشد العام للحركة في مصر، مصطفى مشهور، بشأن تصرفات مشعل والقرارات التي يتخذها في الأردن، مـــن دون استشارتها. اعتقلت الاستخبارات الأردنية عدداً من أعضاء حمـــاس، المعـــروفين بمجموعة "الرصيفة"، في الجزء الاول من العام 1999، ما أثار انـــزعاج قيادة الاخوان المسلمين. تضاعف هذا التباعد، في منتصف العام 1999، عـــندما اعـــتقلت الاستخبارات الأردنية اثنين من حراس مشعل الشخصيين لعدم حيازتهما رخصاً لاسلحتهما.

في 29 آب/أغـــسطس من العام 1999، أصدرت الحكومة الأردنية بياناً تشير فيه إلى اقفال مكتب حماس في عمان، ومنع نشاطاتها، كما اصدرت مذكرة اعتقال بحق رئيس مكتبها السياسي خالد مشعل ورفاقه[3]. بعد ثلاثة أسابيع، حشد الفرع الأردني لحركة الإخوان المسلمين أعضاءه وحلفاءه في مختلف الاحزاب والاتحادات الـــسياسية لشنّ حملة ضد قرار الحكومة الأردنية. إلا أن ثلاثة من قادة حماس، بمن

فيهم مشعل، الذين كانوا في زيارة إلى طهران، أذعنوا لقرار الحظر، وقرروا السفر إلى دمــشق مــن أجل التفكير بالوضع المستجد وتفادي أية مواجهة مع السلطات الأردنــية. بهذا القرار، بلغت العلاقة بين حماس والأردن دركاً عميقاً ما كان يمكن تــصوره يــوم تدخل الملك حسين لانقاذ حياة مشعل قبل عامين. في تلك الفترة الذهبية السعيدة من هذه العلاقة، كان أبو مرزوق قادراً على الاتصال بالملك على خطــه الهاتفي الشخصي. لكن زمن التعاون والتفاهم المشترك بين حماس والأردن انتهى إلى الأبد. بعد ذلك، سادت الفوضى على مستوى القيادة الخارجية لحماس، الأمــر الــذي أدّى إلى إمساك قاعدة حماس في غزّة بالسلطة وسيطرتها على قرار الحركة السياسي.

في أوائل التسعينيات، بنت حماس صداقة مع قطر، عندما كان الشيخ حمد بن خليفة آل الثاني لا يزال ولياً للعهد، ثم تعززت تلك العلاقة عندما أصبح الشيخ حمد أمــيراً للبلاد في العام 1995[4]. كان مشعل قد ادّعى بأن الأردن يبحث عن عذر لانهاء وجود حماس في البلاد، مستغلا الشائعات التي تفيد عن العثور على الاسلحة وغيرها من الامور، وأعلن بأن لا صحة لأيّ من هذه الاتهامات. وافق الأردن على إطلاق سراح مشعل وغوشه شرط أن يغادرا البلاد. فتمّت مرافقتهما من السجن، في الأول من شهر تشرين الثاني/نوفمبر من العام 1999، ونقلا إلى مطار ماركا في عمــان، حيث استقلا طائرة خاصة، معصوبي الأعين وأيدهما مكبّلة وراء ظهريهما. كان محمد عبدالله المحمود من وزارة الشؤون الخارجية القطرية على متن الطائرة، مكلفاً بنقل ناشطي حماس إلى العاصمة القطرية، الدوحة. ويذكر مشعل: "بقينا في قطر مدة عامين، حاولنا خلالها معالجة مشكلتنا مع الأردن، لكننا لم ننجح في ذلك".

عندما قام الشيخ حمد بن جاسم آل الثاني، وزير الخارجية القطري، بزيارة إلى الأردن قــبل ترحيل مشعل إلى الدوحة، عقد لقاء خاصاً مع الملك حسين بحضور رئــيس الوزراء الأردني، عبد الرؤوف الروابدة. أثار وزير الخارجية القطري مسألة سجناء قيادة حماس في الأردن، وطلب إذن الملك لكي يتم ترحيلهم إلى قطر. على سبيل المزاح، يقال إن الملك حسين علق بما يلي: "لم تحتاج اليهم؟"، فكان جواب الــشيخ حمد بن جاسم بأن حماس ستوفر للدولة القطرية غطاء مقبولاً، بما أن قطر

تنوي إقامة علاقات دبلوماسية مع إسرائيل: "باستقبالنا حماس ضيفة علينا، فإن هذا سيبقينا على علاقة جيدة بغيرنا من الحكومات العربية الاخرى".

كانـــت قطـــر تمـــارس لعبة ثلاثية الأبعاد. فهي حكومة عربية لديها أوثق العلاقـــات مع واشنطن، وتستضيف مقر قيادة القوات الأميركية في منطقة الخليج. أضف إلى ذلك، أنها استقبلت قادة معظم الحركات الفلسطينية الإسلامية المتطرفة. وثالثاً، من خلال قناة الجزيرة الفضائية، كانت تقدم بشكل علني مجالاً للمسؤولين الإسرائيليين لإبداء آرائهم.

لكـــن مـــشعل أنكـــر قيام الحكومة القطرية بأية جهود للتوسط بين حماس وإســـرائيل. وقـــال: "سياســـتنا معروفة جيداً، وليست لدينا أية نية في أي وقت، بالاتصال بالجيش الصهيوني".

إثر هذه التطورات، أصبح غوشه ومشعل ومحمد نـــزال يتنقلون بين الدوحة ومكتب حماس في دمشق. وبحلول العام 2001، صار مشعل يقضي معظم وقته في العاصـــمة السورية. مع اندلاع انتفاضة الاقصى في العام 2000، تدهورت العلاقة بـــين حمـــاس ومـــنظمة التحرير الفلسطينية، ووصف مشعل علاقته بعرفات بأنها "ســـاخنة جداً"، قائلاً بأنه لا داعي لمفاوضات عبر طرف ثالث. ولكن في محاولة للالـــتفاف على هذا الموقف الرافض، أضاف: "لقد التقيت الاخ عرفات في أحد المؤتمرات الإسلامية في الدوحة، وبقيت معه على اتصال عبر الهاتف".

علـــى الرغم من محاولة تمويه خلافاتهم العميقة والعلنية، إلا أن عرفات كان يدرك جيداً بأن حماس لا تعتزم الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية، وأن ما يحصل فعلياً هو انها تحاول أن ترسم طريقها الخاص لبلوغ السلطة.

العلاقة بإيران

أهـــم علاقات حماس اليوم هي تلك التي تقيمها مع سوريا وإيران. والعلاقة المثيرة للاهتمام هي تلك التي تقيمها بطهران، التي لطالما خصّت المجموعات الشيعية بدعمها، فيما حماس هي حركة مسلمة سنيّة. غير أن الارتباط بإيران أمر واقع طال أمده وأصبح متجذراً، وقد كنت شاهداً على بدايات نشأته.

كلمـــا أعـــود إلى لبنان، تنهال عليّ ذكريات طفولتي، يحملها إليّ أريج زهر الليمون والبرتقال الهارب من البساتين المنتشرة على طول الشاطئ. كان عطر زهر أشـــجار الليمون الحامض الحادّ ينساب فوق مخيّمنا يحمله إلينا نسيم البحر، مختلطاً بعـــبق الـــروائح التي تسببها الكثافة السكانية. لقد وفّر مخيم برج الشمالي للاجئين مستلزمات الإقامة بحدّها الأدنى لألفين وخمسمئة عائلة ومن بينها عائلتي التي هجّر أفـــرادها مـــن شمال فلسطين في العام 1948. في مطلع السبعينيات، كنت مراهقاً، تقتـــصر بالنـــسبة إليه معاني الحرية على لذة الاستمتاع بلعبة كرة القدم. كنا ثمانية أخوة وأخوات نعيش جميعاً في منـــزل صغير أمنته لنا منظمة الأونروا، ونروّح عن أنفسنا باللعب على أرض صخرية على طرف المخيّم، على بعد بضعة كيلومترات قليلة من الأعمدة الرومانية في مدينة صور على الشاطئ اللبناني الجنوبي المطل على البحـــر الأبيض المتوسط. كان جميع أولاد المخيم يلعبون حفاة الأقدام حفاظاً منهم علـــى زوج الأحذية الوحيد، الذي عادة ما يقتنيه كل واحد منهم، وبالتالي الثمين للغايـــة. كـــان عديـــد فريقنا لكرة القدم يزداد بشكل منتظم إذ ينضمّ إليه تباعاً إيرانيون فرّوا من بلادهم لمعارضتهم نظام الشاه المنحاز للغرب، فحلّوا ضيوفاً على لبنان وانضووا تحت جناح حركة فتح. كان هؤلاء المراهقون مجرد جزء من مجموعة أكـــبر مـــن الثوار الإيرانيين الشباب المعارضين للحكم الإمبريالي والذين تواجدوا آنذاك في لبنان. كنت أعرف بعضاً منهم، وهما مصطفى ورفيق وبني صدر. أتذكر أنهـــم كانـــوا أشخاصاً هادئي الطباع، يجلسون خارج شقتهم المستأجرة في طابق أرضـــي مـــن أحد الأبنية، بعد مغيب الشمس، يحتسون الشاي ويناقشون شؤوناً سياسية، فيما هواء المساء العليل يلفح جباههم.

بعـــد سقوط آخر شاه في إيران، محمد رضا بهلوي، وصل إلى مطار طهران الـــدولي، الإمـــام روح الله موسوي خميني، عائداً من منفاه في فرنسا، مظفراً. لقد حظي باستقبال الأبطال، إذ حضرت للقائه أعداد هائلة من المناصرين قدّروا بستة ملايـــين. لقـــد نـــصّب الخميني نفسه مرشداً أعلى للجمهورية الإسلامية الإيرانية الجديـــدة العهـــد[5]. عاد هواة كرة القدم الثلاثة أيضاً إلى بلادهم، و لم يمض وقت طـــويل حـــتى تصدّروا، بدورهم، عناوين الصحف. في ظل القيادة الدينية لآية الله

الخميني العظمى، انتخب أبو الحسن بني صدر رئيساً، وأصبح مصطفى محمد نجار وزيراً للدفاع، وعيّن محسن رفيق دوست قائداً للحرس الثوري. لقد أنشئ الباسداران، كما هو معروف في إيران، لحماية نظام الثورة ومساعدة رجال الدين الحاكمين في تفعيل تطبيق الشرائع والقيم الإسلامية.

قبل خمس سنوات[6]، نظم رجل دين إيراني نافذ تجمعاً في مدينتي صور، لم يُشهد له مثيلاً على الأرجح منذ أيام حكم الرومان. جاء ذلك عقب تجمع حاشد مماثل أقيم في بعلبك[7]، فوفد أكثر من مئة ألف شيعي مسلح من كافة أنحاء البقاع وجنوب لبنان وضاحية بيروت الجنوبية، دعماً لحركة سياسية جديدة أطلقت عليها تسمية أفواج المقاومة اللبنانية وعرفت لاحقاً بـ "أمل" كاختصار لتلك التسمية. قال الإمام موسى الصدر وهو رجل دين ذات شعبية كبيرة في المنطقة، بأن إطلاق هذه الحركة كان ضرورياً لأن الإعتداءات الإسرائيلية قد بلغت حدّها الأقصى، والسلطات اللبنانية فشلت في تأدية واجبها بحماية المواطنين. لقد شعر بأنه مجبر على تنظيم صفوف الشيعة ضمن فصيل مسلح، لحماية القرى اللبنانية الجنوبية التي كانت تتعرّض للقصف بشكل متواصل خلال المواجهات بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية. فالمنظمة كانت تطلق هجماتها من قواعدها العسكرية في الجنوب. كان لبنان آنذاك على شفير حرب أهلية والفئات الطائفية الأخرى - المسيحيون والدروز والسنة - كان سبق لها أن نظمت صفوفها سياسياً وشكلت ميليشيات فاعلة. أما الإقطاعيون الأثرياء فقد غادروا المنطقة عندما حوّلتها المجموعات الفلسطينية المسلحة إلى معقل حصين لها بعدما طردها الملك حسين من الأردن في العام 1971. كان هؤلاء المقاتلون أو الفدائيون كما كان يحلو لهم التعريف عن أنفسهم، قد اشتبكوا مع جيش الملك حسين في محاولة لقلب نظام الحكم الملكي في الأردن. إذاك، أعلن العاهل الأردني الأحكام العرفية، وفرض الجيش الأردني سيطرته على الأرض، وأجبر الفدائيون على المغادرة. فتوجّهوا عبر سوريا إلى المنطقة الحدودية في جنوب لبنان، متخذين منها قاعدة انطلاق لعملياتهم ضدّ المستوطنات المنتشرة على طول حدود إسرائيل الشمالية.

لسنوات طويلة نشأت خلالها في مخيم برج الشمالي، كان يعتبر زعيم فتح ورئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات بطلاً. أذكر سماعي المسؤولين الكبار في فتح يحثون أتباعهم، بناءً لتعليمات صادرة عن عرفات، على تزويد ميليشيا "أمل" الحديثة العهد والهادفة إلى إحياء الدور الشيعي، بالسلاح الذي يتوفر لديهم. كسب التحالف بين حركتي فتح وأمل تأييداً شعبياً عارماً. وقد عمد الإمام الصدر، في مناسبة التجمع الحاشد الذي دعا إليه في صور، إلى إصدار فتوى دعا فيها إلى وقف أي نوع من أنواع المساعدة للإسرائيليين في حربهم ضدّ الفلسطينيين. فذاع قوله الشهير: "إن التعامل مع إسرائيل حرام – وضدّ إرادة الله".

باشرت الميليشيا الشيعية التي اتخذت لنفسها تسمية "أفواج المقاومة اللبنانية" – "أمل"، التي فيها بعداً تفاؤلياً جلياً، بالمشاركة في العديد من المعارك الدامية ضدّ مجموعات المقاتلين المسيحيين والدروز والفلسطينيين وحتى الشيعة المنضوين في صفوف حزب الله، طوال سنوات الحرب الخمسة عشرة في لبنان[8]. أسفر دخول هذه الحركة على خط الأحداث عن تحوّلات دراماتيكية في مسار الأمور في منطقة خاضعة تقليدياً لسيطرة عائلات شيعية كبرى، محافظة وثرية، تدين بالولاء لشاه إيران وتثمن القيم الغربية والتوجهات اليمينية، كآل الأسعد وآل الخليل وآل عسيران وآل صفي الدين التي كانت تمتلك مساحات واسعة من الأراضي الزراعية. رغم أن مجمل القياديين في الحركة الفلسطينية كانوا من الطائفة السنيّة، إلا أن أعداداً كبيرة من الشيعة انضمت إلى صفوفها، وقاد اثنين من فصائلها الأساسية مسيحيان هما جورج حبش، قائد الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، ونايف حواتمة على رأس الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين.

لم يقتصر الوجود الإيراني في لبنان في ذلك الحين على الثوار المناهضين لحكم الشاه. فقد كان الحزب الشيوعي الإيراني "توده" وسواه من الحركات العلمانية أمثال "مجاهدي خلق"، من الحاضرين على الساحة اللبنانية. لقد انضموا إلى الفصائل الفلسطينية اليسارية الناشطة في لبنان في السبعينيات، وأصبحت الشخصيات السياسية الإيرانية وجوهاً مألوفة بالنسبة لي عندما بدأت العمل الصحافي في عدد من المطبوعات الفلسطينية واللبنانية. كان ممثلوهم يزورون

مكاتب الصحف في بيروت، بشكل منتظم، لتسليم بيانات صحافية يعلنون فيها معارضتهم لنظام الشاه في طهران.

دون تلقيهم أيّة دعوة لزيارها، توجه عرفات والثمانية وخمسين مسؤولاً في منظمة التحرير الفلسطينية إلى طهران في 18 شباط/فبراير من العام 1979، بعد أيام قليلة على انتصار الثورة الإسلامية. كان من المقرّر أن يعقد عرفات في موسكو اجتماعات عمل إلى موائد غداء، تعقبها محادثات إلى طاولة الفطور في واشنطن، في مساعٍ قمدف إلى كسب ودّ أية حكومة، بغضّ النظر عن توجهاها السياسية، إن كانت ستؤثر إيجاباً على مسار الأزمة في الأراضي الفلسطينية. في تلك المرحلة المبكرة من إحيائهم المسيرة الإسلامية، تفاجأ الثوار الإيرانيون بهذه الزيارة غير المقرّرة لشخصية أجنبية رفيعة المستوى. إلا أن عدداً كبيراً من المسؤولين الرسميين الإيرانيين كان في استقبال عرفات في المطار، وقد وفروا للزائر الكبير أفضل ظروف الإقامة في أرقى عنوان في العاصمة الإيرانية، في النادي الحكومي السابق في شارع "فرشته" شمال طهران[9].

إحدى الأحجيات الإيرانية تطرح السؤال الآتي: "متى كانت المرّة الأولى التي ابتسم فيها آية الله الخميني؟" فيأتي الجواب: "المرة الأولى والوحيدة التي ابتسم فيها آية الله الخميني حين جلس إلى جانب السيد عرفات في طهران في العام 1979"[10]. لقد رحّب الزعيمان أحدهما بالآخر وتصافحا وتعانقا. حينها، تمّ التقاط صورة نادرة لآية الله الخميني، ذاك الرجل الطويل ذات اللحية البيضاء، في ثوبه وعمامته السوداوين، وهو منحنٍ نحو عرفات الذي علت وجهه إمارات التعب وزيّنت هامته كوفية مرتبة بدقة. لقد تجمّدت على وجه الخميني المتجهم عادة، ابتسامة ملتبسة على غرار تلك التي تعلو ثغر الموناليزا[11]، والتي استعصت على التفسيرات والتحليلات. لمناسبة هذا اللقاء الوديّ، أعلن الخميني أن الثورة الإسلامية "ماضية قدماً حتى تحرير القدس"[12]. بعد ساعات من وصوله، دعي عرفات إلى اجتماع مع آية الله الخميني دام ساعتين. فوجئ عرفات للغاية بحدّة انتقاد الخميني للسياسة التي تنتهجها منظمة التحرير الفلسطينية، وبالمحاضرة التي طالعه بها "حول ضرورة التخلي عن توجهاته اليسارية والقومية وترسيخ القضية الفلسطينية على جذور إسلامية"[13].

قــام عرفات، يرافقه نجل الخميني، أحمد، بجولة على المدن الإيرانية الكبرى، حــيث لقي استقبالا حاشداً. كان مئات الآلاف من المحتشدين في ساحة الثورة في طهران، كما في مدينة قمّ المقدسة، يصغون إلى خطاباته، الأمر الذي شكّل بالنسبة للزعيم الفلسطيني، تجربة نفسية نوعية. لقد مثلت الثورة الإيرانية شرارة أمل أمكن لعرفات استخدامها لإلهام شعبه. فقد ظهّرت هذه الثورة نقاط القوة التي تتمتع بها الجموع المحرومة عندما تستنهض طاقاتها وتقف موحدةً في مواجهة الأنظمة الجبّارة. صــارت إيــران، بالنــسبة لمنظمة التحرير الفلسطينية، مثالاً يحتذى به، وقد كان الإعجــاب متبادلاً. لطالما كانت القدس رمزاً للثوار الإيرانيين، كما أعلن الخميني تكــريس آخــر يوم جمعة من شهر رمضان "يوم القدس"، وهو مخصص لينفذ فيه العمــال والموظفــون الحكوميون مسيرات احتجاجية مناهضة "للدولة الصهيونية المتعطــشة للدماء"[14]. بعد مرور ربع قرن من الزمن، لا يزال الاحتفال بهذا اليوم قائمــاً ويــشهد تجمعــات ومسيرات حافلة بشعائر العداء لإسرائيل وبسيل من الخطابــات المــندّدة بها، ليس فقط في إيران، ولكن في كل بلد تسجل فيه الطائفة شيعية حضوراً عددياً لافتاً.

في خطــوة لا بدّ أنها أمتعت الزعيمين، سلم الخميني عرفات مفاتيح ما كان ســفارة إسرائيلية في طهران، ليصبح مقرّاً للبعثة الديبلوماسية الفلسطينية. تمّ تعيين كبير المستشارين السياسيين لعرفات، والعضو في اللجنة لمركزية لفتح، هاني الحسن، سفيراً فلسطينياً في طهران، تكريساً للتحالف الوثيق الذي قام بين الجهتين. ووفرت الحكومة الإيرانية الجديدة دعماً مالياً سخياً للمجموعات المعادية لإسرائيل، وصار التلفــزيون الإيــراني الرسمــي يصف عمليات التفجير الانتحارية بــ "العمليات الاستــشهادية"[15]. لــوحات إعلانــية تــرفع شعارات صاخبة من نوع "العدالة لفلسطين!" انتشرت في مختلف أرجاء البلاد، وكل مدينة إيرانية كبرى أطلقت إسم "فلسطين" على بعض من ساحاتها العامة وطرقاتها وشوارعها.

صــار عرفات، بنظر العالم، مقرّباً للغاية من الإيرانيين، إلى حد أنه، في شهر تــشرين الــثاني/نوفمبر من العام 1979، عندما احتلال الطلاب المناصرون للثورة السفارة الأميركية وأخذوا من بداخلها رهائن، طلب من عرفات، عبر عميل تابع

لوكالة الاستخبارات المركزية (سي آي إيه) في بيروت، أن يتوسّط مع الخميني لحلّ الأزمـــة المستجدّة. ذهلت الحكومة الإيرانية لدى تلقيها خبر وصول وفد فلسطيني برئاســة سعد صايل، وهو عضو في اللجنة المركزية وقائد العمليات العسكرية في فـــتح، إلى طهران، للقيام بالوساطة المطلوبة. فشل التحرّك، فتأثرت علاقة عرفات بإيران سلباً، و لم تعرف بعد ذلك سبيلاً إلى التحسن.

بعـــد ســـنوات عدّة، وتحديداً في العام 1994، جدّدت علاقتي بمحسن رفيق دوســـت، أحد أصدقائي الإيرانيين القدامى من فريق كرة القدم، فالتقيته في مكتبه الفخـــم في طهـــران. كان قد انتقل من قيادة الحرس الثوري ليتولى رئاسة مؤسسة فاعلـــة يقدر رأسمالها بمئات بلايين الدولارات، تحمل تسمية "بونيادي موستة زعة فـــان زا جانـــبازان" (مؤســـسة المضطهدين وقدامى الحرب)، وتتكفل بإدارة ربع الموازنة الإيرانية. هذه المؤسسة التي توصف بأنها "دولة ضمن الدولة" هي من أغنى المـــنظمات في العالم، إذ تسيطر على أكثر من ستمئة مجمع صناعي أساسي وبعض من أضخم الشركات والمؤسسات والفنادق والمعامل في البلاد وأكثرها ربحاً، كان قـــد تخلى عنها أصحابها قبل "فرارهم من البلاد إبان انتصار الثورة الإيرانية المظفرة واســـتقروا في أرض الكفار"[16]. وفرت الممتلكات العائدة لشاه إيران، والتي تمت مـــصادرتها، للمؤســـسة الجديـــدة إمكانيات استثمارية ضخمة. فهي تمتلك اليوم شركات طيران وشحن بحري، وتعقد صفقات في مجالات النفط والأسلحة، وتدير حـــركة استيراد وتصدير. والأهم من ذلك، أنها، على ما تقوله "الصحافة الإيرانية الحـــرّة"، "تفـــسح المجال أمام تمويل إيران لعدد من المنظمات الإسلامية على غرار حزب الله اللبناني والجهاد الإسلامي الفلسطيني"[17].

آخر مرة التقى فيها دوست عرفات في بيروت كانت في العام 1982. حينها رافـــق دوســـت مجلس الشورى الإيراني (البرلمان) علي أكبر هاشمي رفسنجاني في زيارته إلى لبنان، بصفته قائداً للحرس الثوري[18]. رغم الإعجاب الذي كان يكنّه دوست لعرفات منذ زمن طويل، إلا أنه سرعان ما خاب أمله بقائد منظمة التحرير الفلـــسطينية. فتأييد عرفات للعراق في بداية الحرب الإيرانية-العراقية عام 1980، ومحاولاته السلمية للانفتاح تجاه إسرائيل، كانت بمثابة عوامل خلفت لدى دوست

شعوراً بالخيبة. وقد عبّر لعرفات عن ذلك وإن بشكل مبهم. في خطاب ألقاه أثناء انعقـــاد مؤتمـــر فتح عام 1981، والذي لاقى فيه دوست استقبالاً حاراً، توجه إلى الحاضـــرين بالقـــول: "لقـــد تعلمت الثورة الإيرانية الكثير من الثورة الفلسطينية، وبفضل إيماننا بالله، تمكنا من دحر سطوة الشاه الإمبريالي". ثم زجر بعرفات قائلاً: "أن تحمـــل غـــصن الزيتون يعني بداية سقوطك، لأنه لا يمكن تحرير فلسطين إلا بواسطة برميل البارود".

عندما زار عرفات إيران مجدّداً في 28 شباط/فبراير من العام 1981، حلّ مكان الابتـــسامة اللمّاحة التي علت شفاه آية الله الخميني، جموع عدائية احتشدت أمام فـــندق هيلـــتون احتجاجاً على التخلف الفلسطيني عن دعم إيران في حربها ضدّ العراق والتي كانت قد بدأت في 22 أيلول/سبتمبر من العام 1980. كانت إيران قد تـــوقعت أن تحظـــى بـــدعم أصدقائها في منظمة التحرير الفلسطينية، بما أنها هي "المستضعفة" في هذا الصراع. بدلاً من ذلك، أدت منظمة التحرير الفلسطينية دور الوســـيط إلى جانب مجموعة دول عدم الانحياز ومنظمة المؤتمر الإسلامي[19] اللتين قامتا بمحاولات عدّة لفضّ الخلاف سلمياً بين إيران والعراق.

بعد وقت قصير، أثناء القمة العربية التي انعقدت في شهر تشرين الثاني/نوفمبر من العام 1981 في مدينة فاس في المغرب، أكد عرفات التزامه خوض مسيرة السلام مع إسرائيل. أن تتحدث بالسلام مع عدوّك وأن تكون صديق "الشيطان الأعظم"، كمـــا يحلـــو للثوار الإيرانيين توصيف الولايات المتحدة الأميركية، هما بمثابة الكفر بمـــبادئ الخميني الثورية. زد على ذلك، إقامة عرفات علاقات ديبلوماسية مع نظام الرئيس محمد نجيب في أفغانستان، الذي أقل ما يقال فيه إنه لم يكن يحمل إيران في قلبه. فتكرّس خلاف عرفات مع إيران.

ظـــنّ صـــلاح زواوي، ممثل منظمة التحرير الفلسطينية في إيران، أن مرحلة إذلال إيـــران لـــمنظمة التحرير الفلسطينية قد بلغت حدّها، عندما استعرت نيران الانتفاضـــة الفلسطينية عام 1987. لقد تعمّد المتحدثون الإيرانيون ووسائل الإعلام الإيـــرانية التقليل من دور منظمة التحرير الفلسطينية، فيما ضخموا حجم مساهمة حماس والجهاد الإسلامي في إذكاء نار الانتفاضة[20]. يومها، نفى زواوي أن يكون

ممـــثلو حماس والجهاد الإسلامي في طهران قد حاولوا الهيمنة على منظمة التحرير الفلـــسطينية أو تهميشها، رغم أنهم كانوا يسيّرون أعمالهم دون التنسيق مع البعثة الديبلوماســـية الفلـــسطينية، ويقومـــون باتصالاتهم وتحرّكاتهم داخل أروقة النظام الإيـــراني بـــشكل مستقل. فيما شارفت الثمانينيات على نهايتها، كانت الحكومة الإيـــرانية قـــد نالـــت، طيلة عقد من الزمن، قسطها الوافر من من خيبات الأمل بعرفات وبمنظمة التحرير الفلسطينية، واكتفت عند هذا الحدّ.

لقـــد حُـــسمت العلاقـــة بالضربة القاضية: يوم أحد في أواخر شهر تشرين الـــثاني/نوفمبر من العام 1994، إقتحم طلاب ومتظاهرون من الحرس الثوري مقرّ الـــسفارة الفلسطينية، منددين بمنظمة التحرير. دام الحصار ست ساعات، احتجز أثـــناءه السفير وموظفو السفارة كرهائن، فيما دمّر المتظاهرون الأثاث ومزّقوا علم منظمة التحرير الفلسطينية. كما اعتبروا أن المبنى "مقرّ عام للجواسيس والمخبرين"، وطالـــبوا باســـتبدال الطاقم التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية بمسؤولين من الجهاد الإســـلامي ومن حماس. بعث زواوي ببيان إلى وكالة الجمهورية الإسلامية الرسمية للإعـــلام "إرنا" كما إلى الصحف الإيرانية، منددّاً بالاعتداء الذي خططت له قوى موالية للحكومة، على حدّ قوله. تمّ تجاهل بيانه ولم يحظ حصار السفارة بأية تغطية إعلامـــية. في الـــوقت نفسه تقريباً، نشرت الصحافة الإيرانية عناصر جديدة عن المـــواجهات بـــين الـــشرطة الفلسطينية ومناصري حماس في غزّة، منتقدةً السلطة الفلـــسطينية والشرطة التابعة لها، في خطوة تعاطف علني مع حماس. أدرك السفير المحاصـــر حقـــيقة الأمر ولم تعد تساوره أية ظنون بالنسبة للموقف الإيراني بعدما لحقـــت أضـــرار جسيمة بسفارته وأخذت الحكومة الإيرانية تبعث برسائل الدعم لحمـــاس. لقد قرّرت القيادة الإيرانية أخيراً أن تضع حدّاً لعلاقتها المتهالكة بمنظمة التحرير الفلسطينية، وأن تفتح صفحة جديدة من العلاقات المتينة مع أصدقائها في حماس والجهاد الإسلامي.

في بداية التسعينيات، قال لي ابراهيم غوشه، المتحدث باسم حماس في الأردن، إن علاقة حماس بإيران بدأت بعد وقت قصير من اجتياح العراق للكويت في الثاني مـــن شهر آب/أغسطس من العام 1990[21]. حينها، كانت حماس عضواً مشاركاً

في وفد يمثل الحركات والمنظمات الإسلامية في عدد من الدول العربية والإسلامية. في شـهر تـشرين الأول/أكتوبر من العام 1991، تلقى غوشه دعوة للمشاركة في مؤتمـر أقيم في طهران دعماً للانتفاضة. قال غوشه: "لقد عقدنا اجتماعات على أعلـى المستويات. ووافقت إيران على أن تفتح حماس مكتباً لها في طهران. فعيّن عمـاد العلمـي الـذي أبعده الإسرائيليون عن الأراضي الفلسطينية، ممثلاً لنا في العاصـمة الإيرانية". وشدّد على أن علاقة منظمته بطهران لم تكن أفضل أو أسوأ من سواها من العلاقات الخارجية التي أقامتها حماس. "صحيح أن للجهاد الإسلامي مكاتـب في طهـران، لكن تواجده هذا ليس مختلفاً عن حضور حماس وحركات أخـرى في دول عديدة في مختلف أنحاء العالم، بما فيها الولايات المتحدة وبريطانيا" كما قال. كما نفى الادعاءات بأن حماس كانت تتلقى دعماً مالياً كبيراً من إيران.

ويتذكـر غوشه بأنه خلال العام 1992 تلقى والدكتور موسى أبو مرزوق، المـسؤول عن المكتب السياسي لحماس في دمشق[22]، المزيد من الدعوات للذهاب إلى طهران، فعقدوا اجتماعات مع القيادة الإيرانية خصصت لمناقشة طبيعة المساعدة المالـية المطلـوبة لـدعم القضية الفلسطينية، وتمّ الاتفاق على توحيد الجهود ضدّ مبادرات السلام القائمة بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل. في هذا السياق، أشـار غوشه إلى تقرير صحافي نشر أثناء زيارته، يدّعي أنه تفقد مخيمات تدريب للحـرس الثوري الإيراني، وأضاف: "لم يحدث ذلك أبداً. لقد تمّ التداول بقصص كثيرة ملفقة بشأن التعاون الذي كان قائماً بين حماس وإيران". ثم اتهم عرفات بأنه افـتعل "حملة بروباغندا" للربط بين حماس والجهاد الإسلامي من جهة، وإيران من جهة أخرى، ولتحميل هذه الجهات الثلاثة مسؤولية فشل اتفاقيات أوسلو للسلام.

لقد اعترف أسامة حمدان، ممثل حماس في إيران في العام 1994، بأن العلاقات الوثـيقة بـين طهـران وحماس جاءت على حساب الارتباط السابق بين طهران ومنظمة التحرير الفلسطينية. لكنه أضاف: "لا يوجد أي دليل أو برهان على دعم مـالي وفرته إيران لحماس وللجهاد الإسلامي وسواهما من الفصائل الفلسطينية التي أقامـت علاقات بإيران. إن هذه مجرّد شائعات وتكهنات"[23]. وفقاً لحمدان، فإن الميـزانية الـتي خصصتها إيران عام 1991 لدعم الانتفاضة الفلسطينية، خصصت

لتمويل حملات سياسية تهدف إلى توعية الجمهور الإيراني حيال القضية الفلسطينية. وأشـــار بالاسم إلى مؤسسة الشهداء على أنها المنظمة المسؤولة عن مساعدة ودعم حـــوالى أربعمائـــة عائلة من عائلات الشهداء والمعتقلين الفلسطينيين. لقد أنشئت "مؤسسة الشهيد" في إيران في العام 1980، خلال الحرب الإيرانية-العراقية، بهدف توفير الدعم المالي لعائلات القتلى والمفقودين والأسرى. فهي واحدة من "الوسائل التي تعتمدها إيران لتصدير الثورة"، وبالتالي، فإن لها فروع في كافة انحاء العالم. بناء عليه، اعتبر حمدان أن أية عمليات تحويل مالية غير قانونية من الخارج باتجاه الضفة الغـــربية وغـــزّة ما كانت لتحصل بسبب "إجراءات التضييق الخانقة التي اعتمدها الإسرائيليون".

لقد سخر غلام أنصاري، وهو ديبلوماسي إيراني رفيع المستوى في لندن تحدثت معـــه آنذاك، من الاتهامات الموجهة إلى إيران والقائلة بأن بلاده كانت تموّل "منظمات إرهابية" وفقاً للتعبير المستخدم من قبل جهات غربية. وقال: "إن كان لديهم دليل عن دعمنا هذا، ما عليهم سوى إبرازه". رغم كل مقولات النفي والاحتجاج الصادرة عن أنصاري وغيره، فقد بات واضحاً للعيان أن الأعداد الكبيرة من شحنات الأسلحة التي اعترضـــتها البحرية الإسرائيلية في البحر الأبيض المتوسط أو تمّ احتجازها في الأردن أو بلغت وجهتها، تتميّز بأمر واحد مشترك: إن مصدرها جميعها هو إيران.

سوريا

ترقـــى العلاقة الوثيقة الجامعة بين حماس وسوريا إلى بداية التسعينيات، عندما كانـــت الانتفاضـــة الأولى لا تزال في مرحلة نشوئها وتحوّلها إلى صراع عسكري شـــامل. بالتنسيق مع إيران، عارض الطرفان تفرّد عرفات في عقد إتفاقيات السلام في أوســـلو ومدريـــد، الأمر الذي عمّق أواصر علاقتهما. عدا أن لقاءات عرفات الكـــثيرة بالـــرئيس السوري حافظ الأسد كانت، في أفضل الأحوال، فاترة. ففي شكل عام، كان كل واحد منهما ينظر إلى الآخر بشيء من الريبة، وكان عرفات مقتـــنعاً بـــأن سوريا تريد أن تحظى بالكلمة الفصل والأخيرة في أي حلّ للقضية الفلسطينية. لا زلت أتذكر يوم حضرت للمرّة الأولى وأنا صحافي شاب، اجتماعاً

للمجلس الوطني الفلسطيني انعقد في جامعة دمشق عام 1979. كانت تلك من المرات النادرة جدّاً، إن لم تكن الوحيدة، التي حضر فيها الرئيس حافظ الأسد اجتماعاً للمجلس الفلسطيني في المنفى. في خطابه، أشار الأسد إلى فلسطين على أنها "القسم الجنوبي من سوريا". عرفات الذي ألقى الكلمة الختامية لأعمال المؤتمر، ردّ عليه بشيء من المزاح، مطلقاً على سوريا تسمية "القسم الشمالي من فلسطين".

إثر الاجتياح الإسرائيلي للبنان في العام 1982، أخرج عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية من البلاد، بعدما توفرت لهم ضمانات بتأمين سلامتهم. عوض أن يقع اختياره بشكل بديهي على دمشق كمقرّ ينتقل إليه، لما من حضور فلسطيني لافت فيها، اختار عرفات التوجه إلى تونس، حيث يمكنه، بحسب اعتقاده، أن يحافظ على استقلاليته، الأمر الذي أثار امتعاض الرئيس السوري. عندما قام عرفات لاحقاً بزيارة سوريا، آتياً من تونس، تمّ إبلاغه بأنه شخص غير مرغوب به، وطلب منه مغادرة سوريا. لم يكن عرفات معتاداً أن يتعرّض لصفعات ديبلوماسية. رافقه إلى المطار ضابط استخبارات سوري ذو رتبة متواضعة، للتأكد من مغادرته البلاد على وجه السرعة. قبل بضعة أشهر، كانت علامات التوتر بين عرفات والأسد قد بدأت بالظهور، إذ بادرت سوريا إلى إبداء تعاطفها حيال البعض من منافسي عرفات داخل فتح، وبالتحديد تجاه أبو موسى أبو صالح والقادري، وهما من المسؤولين الكبار ذوي المراتب العليا داخل المنظمة[24]. فبعد اضطرارهم لمغادرة لبنان مجبرين، اتخذوا مقرّاً مستقلاً لهم في دمشق بدلاً من اللحاق بعرفات إلى تونس. عمد عرفات بدوره إلى إقامة موطئ قدم ثان له في طرابلس شمال لبنان، عائداً إليها بحراً من تونس، ومتحدّياً إسرائيل بشكل علنيّ وسافر. في ذلك الوقت، أي في شهر كانون الأول/ديسمبر من العام 1983، رافقتُ عرفات في رحلة من طرابلس إلى دمشق، بهدف كتابة مقال لمجلتي "الحوادث". كان عرفات قد دعا إلى عقد اجتماع طارئ للمجلس الثوري في فتح، في محاولة لإقناع الأعضاء المنشقين بالعودة إلى صفوف الحركة والحفاظ على وحدتها. كان ذاك الاجتماع صاخباً. ولما شارفت تلك الجلسة المتوترة على نهايتها، أشار إليّ حراس عرفات الشخصيين بالصعود إلى سيارتهم، بما أن الرئيس كان على وشك المغادرة.

أسرع عرفات خطواته باتجاه سيارته وقد علت وجهه علامات الغضب لفشله في مهمـــته. غادر الموكب بسرعة فائقة، سالكاً الطريق السريع المنشأ حديثاً، عائداً عـــبر مدينتي طرطوس وحمص السوريتين، إلى طرابلس. في منتصف الطريق تقريباً، انحـــرفت سيارة عرفات، وهي الثانية في الموكب، عن مسارها، وسارت في طريق فرعيّ، ما اضطرّ مجموعة سيارات المرسيدس والمركبات الرباعية الدفع على اللحاق بهـــا. خـــرج الرئيس الفلسطيني الغاضب من سيارته الشيفروليه الأميركية الصنع والمصفحة، وجلس في حقل قمح وذرة حيث بقي لدقائق عدّة مستغرقاً في التفكير. حالما استعاد الموكب تشكيلته الجماعية حتى خرج عرفات من عزلته الفكرية، معلناً أنـــه يتوجب علينا عدم سلوك المسار المقرّر بل طريقاً بديلاً لا تنتشر عليه حواجز التفتـــيش ويمـــرّ عبر منطقة تكثر فيها التلال والكهوف تدعى جرود الهرمل، قبل الانحدار باتجاه ساحل طرابلس. كان الطريق أشبه بقعر نهر نضبت مياهه، إذ شقينا طـــريقنا عـــبر مساحة شاسعة من الحصى والحجارة. أصابت حجرة جهاز إطلاق الـــدخان في ســـيارة عرفات، فارتفع حاجز من الغبار الأسود الكثيف أخّر مسيرة المـــوكب إلى أن انقـــشع تماماً. كان الزعيم الفلسطيني دائم الاستعداد لمواجهة أية محاولـــة لاغتياله، وتغييره المفاجئ لمسار الموكب دليل كافٍ على ما كان يجول في خاطـــره ويـــشغل باله. بعد هذه الرحلة الفاشلة إلى دمشق، تحوّلت علاقة عرفات بـــسوريا في اتجاهات جديدة، وأصبحت المواجهات الحادّة بين الفصائل الفلسطينية الموالـــية لسوريا ومقاتلي عرفات تتلاحق بوتيرة تصاعدية. في صيف العام 1983، أجـــبر عرفات على مغادرة طرابلس، فسافر بحراً عبر قناة السويس، وبحماية سفن فرنسية، إلى الحديدة في اليمن.

في هذه الأثناء، صارت أواصر العلاقات السياسية بين إيران وسوريا وحماس والجهـــاد الإسلامي تشتدّ إثر كل هجوم استشهادي تتبناه هذه المجموعات، أو بعد كـــل عملـــية عسكرية تعلن مسؤوليتها عنها. افتتحت حماس مكتباً إعلامياً لها في دمشق. وسرعان ما انتقل أعضاء المكتب السياسي في الحركة إلى العاصمة السورية حـــيث استأنفوا نشاطهم في إطار "تحالف الفصائل الفلسطينية العشر"[25]، وأخذوا يعقـــدون الاجـــتماعات دوريّاً لتنسيق نشاطاتهم وللتوصل إلى تفاهم حول كيفية

مواجهة الولايات المتحدة الأميركية وإسرائيل والسلطة الفلسطينية. وصارت علاقة حماس بسوريا تزداد صلابة كلما ازداد حجم التأييد لحماس في الضفة الغربية وغزّة.

لم تكن كل الفصائل الفلسطينية المتواجدة في سوريا تحظى بدعم مماثل كذاك الذي حازت عليه حماس. لقد أدركت سوريا أنه يمكنها الاعتماد على حماس، فأعلنت تأييدها لها على الملأ بصفتها حركة مقاومة شرعية ضدّ الاحتلال الإسرائيلي. وأشار حزب البعث في مؤتمره الذي عقده عام 1996 إلى التحالف القائم بينه، بصفته حزباً قومياً، وبينهم بصفتهم إسلاميين، قاصداً بذلك حماس.

انتهت العلاقات التي أقامتها سوريا في السابق مع جهات إسلامية كمنظمة الإخوان المسلمين مثلاً، بحمام دم. لقد بدأت المواجهة بهجوم نفذته منظمة الإخوان على معهد المدفعية في حلب، شمال سوريا، أسفر عن مقتل ثلاثة وثمانين جندياً علوياً[26]. برزت هذه الحركة السياسية الإسلامية السنّية برزت كقوة فاعلة داخل سوريا في أواخر الستينيات. فيما أخذ تأثيرها يزداد أكثر فأكثر خلال السبعينيات، صارت تشكل تهديداً لنظام البعث العلماني القائم في دمشق، فسعى هذا النظام إلى تقويضها. لقد سادت حالة حرب دائمة بين الجيش السوري والإخوان المسلمين، وحاول هؤلاء اغتيال الرئيس حافظ الأسد أثناء حفل استقبال رسمي أقيم على شرف رئيس دولة مالي في شهر حزيران/يونيو من العام 1980. بعد ساعات قليلة، انتقم الجيش السوري بقتله ما يقارب ألف عضو من أعضاء منظمة الإخوان المسلمين كانوا قد اعتقلوا في تدمر في الصحراء السورية. في الشهر التالي، أصدر النظام البعثي قانوناً يعاقب بالموت كل شخص ينتمي إلى منظمة الإخوان المسلمين.

في شهر شباط/فبراير 1982، نفذت منظمة الإخوان المسلمين عصياناً ضخماً في مدينة حماه، أحبطه الجيش السوري بقصفه المدينة لأسابيع عديدة، مخلفاً عدداً هائلاً من الضحايا من رجال ونساء وأطفال، تراوح ما بين عشرة آلاف وخمسة وعشرين ألف قتيل، ما جعل من تلك الفترة الأكثر دموية طوال مدّة تلك المواجهة الفئوية[27]. لقد كرّست هذه المجزرة هزيمة منظمة الإخوان المسلمين والمجموعات الإسلامية عموماً في سوريا ودحرها حتى مطلع الألفية الجديدة حين نجح الرئيس

بـــشار الأسد في إقناع والده بالعفو عن عدد كبير من أعضاء المنظمة المعتقلين في السجون السورية وبإطلاق سراحهم.

بغــض النظر عن العلاقة المعقدة تاريخياً بين فرع المنظمة السوري والحكومة السورية، فقد دعيت فروع في دول أخرى كمصر والأردن للمشاركة في مؤتمر في دمــشق، خــصص لمناقشة مواقفها من الاحتلال الإسرائيلي للضفة الغربية وقطاع غــزّة. بعــض قــادة هذه الفروع أمثال إسحق الفرحان، مرشد منظمة الإخوان المــسلمين في الأردن وعــدد آخر من ممثلي أحزاب عربية وإسلامية التقوا الرئيس السوري على هامش انعقاد المؤتمر القومي-الإسلامي العربي في دمشق. خليل عبد المجـيد، قائد إحدى الفصائل الفلسطينية في دمشق قال لي إن الفرحان ألقى خطاباً أشاد فيه بسوريا لوقوفها ضدّ إسرائيل.

رغم التعاون القائم بين حماس وحزب الله، فإن لحماس مطلق الحرية في إدارة اســتراتيجيتها المستقلة داخل الأراضي المحتلة. ولا شك أن مقاومتهما للاحتلال قد أرســت أسس علاقتهما السياسية، إلا أن هذه العلاقة قد تعمقت بفعل ارتباطهما بكـــلّ من سوريا وإيران. لقد أملت إسرائيل بخلق شرخ بين السنة والشيعة، لكنها فشلت في تقويم قوة الرابط القائم بين الحليفين في مواجهة عدوهما المشترك. خلال الحـــرب الأخيرة التي دارت على أرض لبنان بين إسرائيل وحزب الله والتي بدأت فـــصولها في صيف العام 2006، وجهت دول عربية كثيرة من بينها مصر والمملكة العربية السعودية والأردن، إنتقادات حادّة لحزب الله لافتعاله المواجهة مع إسرائيل بإعطائه إياها الذريعة لتدمير بنية لبنان التحتية. لكن، وفقاً لمسؤولين في حماس، حاز أيــضاً حــزب الله على الدعم: لقد ادّعى القيّمون على حزب الله بأهم نجحوا في كــسب تأيــيد الحركات الإسلامية السنيّة في العالم العربي، فقامت التظاهرات في شــوارع القاهــرة والأردن وشمـــال إفريقيا. بالتالي، بدا وكأن محاولات إسرائيل لتهميش حزب الله قد فشلت إذ اصدر رجال دين سنة في العا لم العربي فتاوىً تؤيد حزب الله في حربه ضدّ إسرائيل. فقد نشر مرشد منظمة الإخوان المسلمين في مصر محمد مهدي عاكف بياناً يسجّل فيه استعداد حركته إرسال عشرة آلاف مجاهد إلى لبـــنان إن فـــتحت الحكومة المصرية أبوابها للجهاد[28]. ويؤكد عاكف في بيانه أن

"الملايـــين مـــن أنصار منظمة الإخوان المسلمين، بالإضافة إلى آخرين من خارج المـــنظمة، ســـيكونون على أهبة الاستعداد للمشاركة في الجهاد دعماً لحزب الله وللمقاومة الإسلامية في لبنان".

طوال عقدين من الزمن، انتقدت للولايات المتحدة الأميركية وإسرائيل سوريا لإيـــواها ما وصفتاه بـــ "المنظمات الإرهابية"، وهذا الموضوع قد أثير مع الحكومة الـــسورية خـــلال كل زيارة كان يقوم بها مسؤول أو وزير أميركي إلى دمشق. ولطالمـــا أكـــدت سوريا أن مختلف القادة أمثال خالد مشعل من حماس ورمضان عـــبدالله شـــلح مـــن الجهـــاد الإسلامي وأحمد جبريل من الجبهة الشعبية لتحرير فلـــسطين-القيادة العامة، موجودون في العاصمة السورية لدواع إعلامية وسياسية، لا بهدف التخطيط لعمليات عسكرية. بعد كل عملية تفجير استشهادية تستهدف مواطـــنين إســـرائيليين، تقوم إسرائيل فوراً باتهام سوريا بدعم تنفيذ العملية، على خلفـــية وجود خالد مشعل في دمشق. لقد أصبح مشعل رئيس المكتب السياسي لحمـــاس وبالتالي، بحكم الأمر الواقع، قائد الحركة إثر اغتيال كلٍّ من الشيخ أحمد ياسين وخلفه الدكتور عبد العزيز الرنتيسي.

كـــان القائـــد السابق لحماس في دمشق، عزّ الدين الشيخ خليل، قد سجن مرّات عدّة ما بين العامين 1987 و1992. كما كان أحد القادة الأربعمئة وخمسة عـــشر من حماس ومن الجهاد الإسلامي الذين أبعدهم إسرائيل إلى جنوب لبنان في العام 1992. لقد وصفت الإذاعة الإسرائيلية هذا المقاتل المولود في غزّة بأنه الذراع اليمنى ليحيى عياش، والذي اغتالته إسرائيل قبل تسع سنوات. كان خليل يلقب بـــ "رأس الأفعى"[29] بسبب قدرته الهائلة على التملص والتخفي، وقد قرّر ألا يعود إلى غـــزّة بل اتخذ من دمشق موطئ قدم له، فيما كثف أسفاره باتجاه العديد من المدن العربية والإسلامية كالخرطوم وعدن وصنعاء وطهران، وفي بعض الأحيان، القاهرة. اغتـــيل هذا القائد وهو في الثانية والأربعين من عمره في حيّ ذات غالبية فلسطينية مـــن منطقة الظاهرة جنوب دمشق. الساعة الحادية عشرة من قبل الظهر بتوقيت العاصـــمة السورية، يوم الأحد الواقع فيه 26 أيلول/سبتمبر 2004، نسفت سيارته بواســـطة مـــواد متفجرة زرعت في داخلها، فيما كان يجيب على هاتفه الخلوي.

وجهت أصابع الاتهام إلى جهاز الاستخبارات الإسرائيلية الموساد لتدبيره عملية الاغتيال. وقعت عملية الاغتيال هذه بعد سنة تقريباً من قصف إسرائيل لقاعدة عسكرية فلسطينية شمال غرب دمشق، في ما شكّل أول هجوم تنفذه إسرائيل على أرض سورية منذ حرب رمضان (يوم كيبور) عام 1973. كان رئيس الوزراء الإسرائيلي آرييل شارون يخوض نوعاً جديداً من الحروب ضدّ من حمّلهم مسؤولية العمليات الاستشهادية، وذلك بإيعازه إلى الموساد تنفيذ حملة اغتيالات في عدد من العواصم التي يعتقد أنها تأوي خلايا لحماس وللجهاد الإسلامي.

شكل اغتيال خليل إحراجاً لأجهزة الاستخبارات وللحكومة في سوريا. فما كان من الرئيس بشار الأسد، وبضغط من الولايات المتحدة الأميركية ومن المجتمع الدولي، إلا أن أعلن إقفال مراكز قيادة حماس والجهاد الإسلامي، وطرد قادتهم وقطع انظمة التخابر الهاتفية العائدة لهم. في المقابل، نفى جدعون عزرا، وزير الشؤون الأمنية في الحكومة الإسرائيلية، مسؤولية إسرائيل في تنفيذ عملية الاغتيال، لكنه أضاف إنه سعيد بهذا الخبر. من جهة أخرى، وصف التلفزيون الإسرائيلي أسلوب الاغتيالات بالتكتيك الجديد في محاربة الفصائل الفلسطينية[30]، فيما أدانت كتائب عزّ الدين القسّام، الجناح العسكري لحماس، اغتيال الخليل الذي وصفته بأنه "أحد مؤسسي كتائب القسّام"، وتوعّدت بنقل المعركة إلى الخارج[31]. لكن ممثل حماس في بيروت أسامة حمدان نفى حصول أي تغيير في استراتيجية الحركة التي تحصر عملياتها العسكرية داخل نطاق الأراضي المحتلة وإسرائيل فقط لا غير.

إتهمت حماس "دولة عربية لم تسمّها" بمساعدة إسرائيل على تنفيذ عملية الاغتيال[32]، إذ أشارت إلى مقال تصدّر الصفحة الأولى في إحدى الصحف، يدّعي أن جهاز استخبارات في "دولة عربية لم يفصح عنها" مرّر ملفاً عن حماس إلى إسرائيل، تلبية لطلب رسمي وجهه إليها قبل ثلاثة أيام من العملية، رئيس جهاز الموساد مئير دوغان[33]. شنّ القائلون بنظرية المؤامرة هجوماً كلامياً على هذ المصدر المستتر. واعتقد البعض أن الدولة المعنية هي الأردن. كما يفيد المقال المذكور بأن الملف تضمن معلومات مفصلة عن الناشطين والقادة في حماس وأمكنة تواجدهم في "طهران ودمشق وبيروت والخرطوم وصنعاء وبعض دول الخليج". لقد طلب جهاز الموساد مساعدة

تلــك الدولة العربية إثر استهداف حافلتين بتفجيرين متزامنين في بئر السبع، أسفرا عن مقــتل ستة عشر إسرائيلياً[34]. إقمت إسرائيل قيادة حماس في الخارج بإصدار الأوامر لتنفــيذ هــذين الهجومين، وذكرت تحديداً خالد مشعل الموجود في دمشق، مهدّدةً باغتــياله في العاصــمة السورية. بعد مرور بضعة أيام على خطف الجندي الإسرائيلي جلعــاد شاليط في عملية مشتركة للفصائل الفلسطينية، بمن فيها الجناح العسكري في حمــاس[35]، حلقــت أربــع طائرات حربية إسرائيلية على علوّ منخفض فوق القصر الصيفي للرئيس بشار الأسد في مدينة اللاذقية الواقعة على الساحل السوري المطل على البحــر الأبــيض المتوسط. لقد شكّل تحليق تلك الطائرات جزءاً من عملية إسرائيلية شــاملة تهدف إلى الضغط على السوريين ليطردوا رئيس المكتب السياسي لحماس في دمــشق خالد مشعل[36]. وفقاً لإسرائيل، فإن مشعل كان يجري اتصالاته بالمسؤولين الميدانــيين عن تنفيذ العمليات من العاصمة السورية، وقد نسّق عملية خطف الجندي الإسرائيلي. لقد صرّح وزير العدل حاييم رامون بأن مشعل "كان هدفاً للاعتقال، وإنه بالتأكــيد في مرمــى نيراننا. إنه الشخص المنسق للأعمال الإرهابية، بل الآمر الفعلي لتنفيذها"[37]. وزاد عليه وزير الداخلية والرئيس السابق لجهاز الشين بيت، آفي ديختر، بالقول إن السبب الوحيد وراء عدم وجود مشعل في السجن "هو أن إسرائيل، كونها دولة واعية، فرضت على نفسها بعض القيود".

مــا لم يكــشفه ديختر هو أنه قبل سنتين، حاولت إسرائيل اغتيال مشعل في دمــشق. إلا أن الاســتخبارات الــسورية أفشلت محاولة الاغتيال بتوقيفها أربعة أشخاص عرب، من بينهم امرأة، وجميعهم مواطنون سوريون. محمد النــزال، وهو أحد قادة حماس، أكد خبر هذه التوقيفات التي نفذت تقريباً في الوقت نفسه الذي اغتــيل فــيه عزّ الدين الشيخ خليل. لم يتضح ما إذا كان هؤلاء الموقوفون الأربعة مــتورطين في مقــتله ولكن، وفقاً لمصادر في دمشق، فإن الاستخبارات السورية اكتــشفت أنه تمّ تجنيد أفراد المجموعة في "دولة عربية مجاورة". ناشد نــزال جميع الــدول العربية بأن تتخذ الإجراءات اللازمة للحؤول دون مواصلة الموساد تنفيذ عملــيات اغتيال بحق قادة حماس في هذه الدول، مشيراً إلى أن هكذا اغتيالات لا يمكن أن تتم بدون مساعدة لوجستية يتلقاها الموساد من جهات محلية.

التمويل

صـــدر أول اعتـــراف علني يؤكد بأن إيران بسطت نفوذها المالي إلى الضفة الغـــربية وغزّة، عندما تلقيت اتصالاً هاتفياً من دمشق في بداية العام 1994. كان الـــشخص الذي يكلمني عبر الهاتف، قائد الجهاد الإسلامي في فلسطين الذي اتخذ من دمشق مقرّاً له، الدكتور فتحي الشقاقي. لقد كان متشوقاً لإعطائي معلومات مفـــصلة عـــن نوع الدعم الذي توفره إيران لمختلف الفصائل الفلسطينية في ذلك الوقت، ولتصحيح الشائعات التي تدعي بأن طهران كانت تخصص لحركته ما يزيد على 20 مليون دولار أميركي، اشترط عليّ عدم نسب الكلام إليه، وأن أقول بأن معلوماتي مستقاة من مسؤول فلسطيني فقط، أخبرني بأن إيران حددت ميزانية تبلغ قيمـــتها ثلاثـــة ملايين دولار لدعم عائلات الشهداء الفلسطينيين وعدة مئات من المعـــتقلين المحتجـــزين في السجون الإسرائيلية، إضافة إلى تمويل عدد من المشاريع الاجتماعـــية والمؤســـسات في الأراضي الفلسطينية المحتلة. بعد بضع سنوات، قتل الشقاقي في مالطا، وهو في طريق عودته من رحلة إلى ليبيا.

قبل أن تصبح إيران طرفاً فاعلاً في النـــزاع العربي-الإسرائيلي، كانت حماس تعـــتمد، ولا تزال، بشكل كبير، على جمع التبرعات من الاثرياء العرب، خصوصاً مـــن منطقة الخليج، الذين يموّلون المنظمة من خلال أموال الزكاة. ألزكاة هي أحد أركان الإسلام الخمسة، وهي تقضي بضرورة الاهتمام بالفقراء والارامل واليتامى، وتمثل ضريبة إلزامية يدفعها المسلمون في كل انحاء العالم، كنسبة ضئيلة من دخلهم. عـــبر الـــتاريخ، ومنذ بدايات الإسلام، لطالما دفعت الزكاة والصدقات، لكن، إثر الغزو السوفياتي لافغانستان، اكتسبت منظمات الزكاة الخيرية أهمية أكبر، وكثرت أعـــدادها في مـــدن مـــثل بيشاور، على طول الحدود الباكستانية مع أفغانستان، لمـــساعدة اللاجـــئين الافغان الذين عبروا الحدود هرباً من المعارك. منذ أمد ليس ببعـــيد، وفي أعقاب موجة المدّ البحري، التسونامي، التي تسببت بمقتل الآلاف في دول عـــدّة في منطقة المحيط الهندي، في 26 كانون الأول/ديسمبر من العام 2004، والهزة الأرضية التي ضربت منطقة كشمير في باكستان في تشرين الأول/أكتوبر من العـــام 2005، ســـاهمت هـــذه المؤسسات الخيرية بتوفير الإغاثة بشكل فاعل. في

التسعينيات، بدأت الولايات المتحدة تضغط بقوة على تلك المنظمات الخيرية، داعية حكـــومات الـــدول إلى اتخاذ الإجراءات اللازمة كي لا يحصل على المساعدة إلا الفقـــراء فعـــلا، محذرة من خطر أن تقوم هذه المنظمات بتمويل نشاطات إرهابية للقاعدة، وحزب الله وحماس والجهاد الإسلامي.

استفادت حماس مباشرة من الموقف العدائي الذي برهنت عنه بعض الحكومات العـــربية حيال عرفات ومنظمة فتح، لدعمه اجتياح العراق للكويت في آب/أغسطس مـــن العام 1990. لقد قدّم السعوديون والكويتيون الأثرياء المال لحماس، وأكدوا لها دعمهم علناً عبر وسائل الاعلام. ولم يخفوا أمر إرسالهم المال إلى حماس بأساليب ذكية وحاذقـــة، كإنـــشاء المؤسسات الاجتماعية الخيرية من دور حضانة ومنشآت تعليمية مرتبطة بالمساجد ألآخذة أعدادها بالتزايد في الأراضي الفلسطينية.

وعلـــى مدى عشرين عاماً، ما بين حرب الايام الستة في العام 1967، وبروز حمـــاس علـــى الـــساحة الدولية، زاد عدد المآذن التي تزين سماء غزّة بنسبة ثلاث أضـــعاف، مرتفعة من 200 إلى 600 مئذنة. وخلال الفترة الزمنية نفسها، ارتفع في الـــضفة الغربية عدد المساجد من 400 إلى 750 مسجداً[38]. لقد بنى الشيخ احمد ياسين شبكة قوية من المؤسسات الخيرية الاجتماعية حول المساجد خلال فترة توليه رئاســـة المجمـــع الإسلامي وشراكته مع جماعة الاخوان المسلمين. وليس سرّاً أن إسرائيل شجعت الإسلاميين - وفي طليعتهم حركة الاخوان المسلمين، ثم شقيقتها الـــصغرى حمـــاس - على الازدهار، لكي تزعزع استقرار فتح. وكان عبور المال المرسل من الإسلاميين الاثرياء في المملكة العربية السعودية وغيرها من دول الخليج إلى مساجد الإسلاميين داخل الأراضي المحتلة مسموحاً، لا تواجهه أية عراقيل.

عندما أدرجت وزارة الخارجية الأميركية حماس على لائحة الإرهاب في 24 كانون الثاني/يناير من العام 1995، استخدمت واشنطن اقنيتها الدبلوماسية لتطلب مـــن دول الخليج اتخاذ اجراءات حاسمة وإنـــزال العقوبة بحق أي شخص في الدول النفطية الثرية يهب مالاً إلى الحركة. وأصدر الرئيس بيل كلينتون أمراً تنفيذياً حمل الـــرقم 12947، يعتـــبر بموجـــبه جمع أو نقل الأموال إلى المجموعات الإرهابية أو المنظمات التي تشكل واجهة لها بمثابة جنحة.

اعتقل في الولايات المتحدة اثنان من أعضاء حماس في 19 آب/أغسطس من العام 2004 بتهمة مشاركتهما المزعومة في مؤامرة ابتزاز تعود إلى خمس عشرة سنة خلت. فقد اتهم محمد حامد خليل صلاح من شيكاغو، وعبد الحليم حسن عبد الرازق الاشقر من واشنطن العاصمة، بتمويل نشاطات الإرهابيين بشكل غير مشروع. إضافة إلى ذلك، صدرت مذكرة اعتقال بحق موسى محمد أبو مرزوق وهو أيضاً عضو في حماس، ومواطن أميركي سابق يعيش في دمشق، وُصف بأنه هارب من العدالة. كانت هذه المرة الاولى التي تظهر فيها حماس على أنها منظمة ذات "بعد إجرامي"، أما التهم التي ألصقت بها فتضمنت ما يلي:

التآمر لارتكاب جرائم متعمدة، التآمر بهدف القتل، الخطف، تشويه أو جرح أشخاص في دول اجنبية، تبييض الأموال، عرقلة سير العدالة، توفير الدعم المادي أوالموارد المالية إلى منظمات إرهابية أجنبية محددة، خطف رهائن، تزوير أو استخدام وثائق سفر بشكل مزيّف، تنظيم صفقات مالية والسفر بهدف ابتزاز الأموال[39].

قيل إن الاشقر فتح حسابات مصرفية عدة في ميسيسيبي، واستخدمها لمعاوضة أموال حماس. كما زعم أن أبو مرزوق فتح حسابات مصرفية عدة في الولايات المتحدة وشارك في عدد آخر منها، تلقت إيداعات وفيرة من الخارج، ثم نقل الأموال إلى حسابات محلية أخرى قبل أن يتم نقل الأموال إلى حسابات أو دفعها لأفراد في الخارج لكي تستفيد منها نشاطات حماس. كما قيل إن صلاح سافر إلى مختلف أنحاء الولايات المتحدة وتنقل بين لندن وإسرائيل والضفة الغربية وغزّة باسم حماس، والتقى قادتها وأفرادها، وجند أفراداً جدداً ودربهم في الولايات المتحدة. كما اتهم أبو مرزوق والاشقر، ورجل يدعى اسماعيل سليم البراص وغيرهم من "المشتركين في المؤامرة" الذين لم تكشف أسماؤهم، بأنهم استخدموا حسابات مصرفية مختلفة في مصارف في كليفلاند وميلووكي ونيويورك ولويزيانا وميسيسيبي وفرجينيا منذ العام 1989 وحتى كانون الثاني/يناير من العام 1993، ونقلوا أموالاً تتراوح بين عشرات الآلاف ومئات الآلاف من الدولارات في بعض الأحيان، إلى الولايات المتحدة من مصادر مختلفة في الخارج، من بينها المملكة

العـــربية السعودية، قبل نقل الأموال أخيراً إلى خارج البلاد، وتحديداً إلى إسرائيل وسويسرا.

بعد اعتقالهم، قال المدعي العام الأميركي جون آشكوكوفت: "قرارنا بما يتعلق بالـــتمويل الإرهـــابي واضـــح. ســـنطارد الذين يوفرون المال للأعمال الإرهابية، وســـنلاحق تلك المصادر، وسنحرص على أن يمثل الإرهابيون وممولوهم على حدٍّ سواء، أمام العدالة في الولايات المتحدة".

لطالمـــا كانت مطاردة ممولي ما دعي بـــ "المال الإرهابي الملطخ بالدم"، تعني إيذاء المؤسسات الخيرية العادية ذات الاهداف الانسانية الحقة. فعندما وقعت موجة مـــن العملـــيات الانـــتحارية الـــتي نفذها حماس في القدس وتل أبيب ما بين 25 شباط/فبراير و4 آذار/مارس من العام 1996 وأوقعت نحو 59 قتيلاً، اجتمع السفير الإســـرائيلي في لندن موشيه رافيف، بوزير الخارجية البريطاني مالكوم ريفكيند في مكـــتب الـــوزارة في شارع الملك تشارلز في لندن. وادعى رافيف بأنه يملك أدلة واضـــحة علـــى أن مـــنظمة خيرية مركزها بريطانيا، تدعم حماس وتموّل حملتها الإرهابـــية. الاتهامـــات، التي كانت مشابهة لتلك التي نشرت في صحيفة "دايلي اكسبرس" في اليوم التالي، زعمت أن خلايا تعمل انطلاقاً من المملكة المتحدة تموّل حملات التفجير في إسرائيل.

قـــدّم الـــسفير الإســـرائيلي إلى ريفكيند وثائق موقعة قيل إن المنظمة الخيرية الموجودة في لندن، "انتربال"، قد بعثت بها إلى رئيس منظمة خيرية يديرها الدكتور ســـليمان أغـــبارية، رئـــيس بلدية أم الفحم، كبرى مدن الجليل. تعليقاً على هذه الوثيقة، أخبرني أحد المسؤولين في وزارة الخارجية البريطانية ما يلي: "ما من شيء في المعلـــومات الـــتي زوّدتنا بها قنواتنا الدبلوماسية يحتوي على ما يكفي من أدلة لمطاردة أو اعتقال أي من أفراد حماس أو مؤيديها".

رغـــم ذلـــك، دعـــا مجلس ممثلي اليهود البريطانيين الحكومة إلى إقفال كل المنظمات البريطانية التي لها أية علاقات بحماس، واستهدف منشورتين مقرّهما لندن هما "فلسطين المسلمة" التي تنشر بالعربية، وصحيفة "فلسطين تايمز" الصادرة باللغة الانكليـــزية. لكـــن منظمة "انتربال"، وهو الاسم المختصر لـــ "صندوق الاغاثة

والتنمـــية الفلسطيني"، هي التي تعرّضت لأكبر وابل من الانتقاد. فقد نشر مجلس ممثلي اليهود البريطانيين تقريراً عبر موقعه على شبكة الانترنت في أيلول/سبتمبر من العـــام 2003، يصف فيه المنظمة المذكورة بأنها "منظمة إرهابية". هذا الاتهام دفع بالمـــنظمة إلى تقـــديم دعوى بالتشهير والمطالبة باعتذار "عن هذا الافتراء"[40]. ولم تكتف "انتربال" بالمشاورات التي جرت بين الناشطين في صفوفها، بمن فيهم يوسف إســـلام، مغني السبعينيات ونجم الموسيقى الشعبية العالمي المحبوب، والمغني المعروف سابقاً بـــ "كات ستيفنـــز"، وبشير عزام.

على الرغم من وصف "انتربال" بأنها منظمة حسنة الإدارة وملتزمة، اضطرت لجـــنة المـــنظمات الخيريـــة البريطانية إلى تجميد حسابات المنظمة المصرفية في 26 آب/أغسطس من العام 2003، وإلى إجراء تحقيق دقيق لما صنفته الولايات المتحدة "مـــنظمة إرهابـــية شاملة ذات طابع محدّد"[41]. لدى كشف النقاب عن الفضيحة المزعومة، تحدّث إليّ رئيس "انتربال"، عبد الرحمن ضياء، وأخبرني أن إحدى النتائج الايجابـــية لهـــذه المسألة هي أن "انتربال" "أصبحت أشهر منظمة خيرية مسلمة في بريطانيا، وهذا الأمر انعكس على حجم الهبات الواردة إلينا".

لم تجـــد لجنة المنظمات الخيرية البريطانية أية أدلة حاسمة على ارتباط "انتربال" بالإرهاب رغم أن التحقيق بالأمر استغرق خمسة أسابيع. في 24 أيلول/سبتمبر من العام 2005، برّأت اللجنة البريطانية المنظمة. وبنتيجة تسوية خارج المحكمة، أصدر مجلـــس ممثلي اليهود البريطانيين بياناً قال فيه: "نود أن نوضح بأنه لم يكن يجدر بنا أن نـــصف "انتـــربال" بالمـــنظمة الإرهابية بهذا الشكل، ونحن نأسف للاضطراب والازعاج الذي تسبب به اتهامنا هذا"[42]. كما التزم المجلس رسمياً عدم نشر الادعاء مجـــدداً في المـــستقبل. كما اضطرت صحيفة "جيروزاليم بوست" الإسرائيلية التي نـــشرت مقـــالاً بعنوان "مقاضاة مصرف بريطاني في الولايات المتحدة بتهمة دعم حماس"[43]، للاعتذار من "انتربال". وقد صدر هذا الاعتذار بعد ستة أشهر[44].

أحزن قرار الإدارة الأميركية تجميد حسابات "مؤسسة الارض المقدسة" أفراد عائلة أحمد ابو الخير كثيراً. فالمنظمة الخيرية كانت توفر للعائلة المؤلفة من أحد عشر فرداً مبلغاً صغيراً من المال، لكنه هام بالنسبة إليهم. كان المبلغ يتراوح ما بين 55 و

85 دولاراً أميركـــياً شهرياً. احمد، 49 عاماً، أصيب بالشلل في حادث. عندما سمع بأمر تجميد الأموال، طلب من زوجته الذهاب إلى لجنة الزكاة في نابلس للتأكد من صـــحة الشائعات. لكنها لم تحصل على جواب مرض. عائلة أبو الخير هي واحدة مـــن بين المئات من العائلات الفلسطينية في نابلس التي تتلقى مساعدة منتظمة من "مؤســـسة الارض المقدسة" العاملة انطلاقاً من الولايات المتحدة. وقد أشار رئيس لجـــنة الـــزكاة في نابلس، الدكتور عبد الرحيم الحنبلي إلى أن "المؤسسة الأميركية تعتني بالكثير من العائلات الفقيرة واليتامى والمعوقين الفلسطينيين والطلاب الذين لا تملـــك عائلاتهم الامكانات لتعليمهم". وأضاف الحنبلي أن هذه المساعدة لم تخدم حماس مباشرة، بل خدمت المبادىء الإسلامية التي كانت تحاول حماس وغيرها من الحركات الإسلامية المحافظة عليها. وتعليقاً على تجميد الأموال، قال الرئيس جورج دبلـــيو بوش: "تستخدم حماس أموال "مؤسسة الارض المقدسة" لدعم المدارس التي تخـــدم أهـــداف حمـــاس وتشجع الاولاد على أن يصبحوا انتحاريين، كما تجند الانتحاريين من خلال تأمين الدعم للعائلات"[45].

لقـــد انكرت حماس أية صلة مباشرة لها مع "مؤسسة الارض المقدسة"، كما أصرّ قادتها على نفي تلقيهم أي دعم مالي من الحكومات العربية والإسلامية. على عكس سلفها، السلطة الفلسطينية، فإن حماس تتمتع بسمعة جيدة لشفافيتها المالية، وهي تعترف باعتمادها بشكل كبير على الهبات من الأفراد أو المؤسسات في دول الخليج أو من الفلسطينيين والعرب في الشتات. على الرغم من إنكار حماس، إدعت الـــولايات المتحدة وإسرائيل مراراً وتكراراً، أن الهبات التي تتلقاها حماس ترسل إلى جـــناحها العـــسكري. لكـــن محمد اناتي، مدير "مؤسسة الارض المقدسة" الذي استجوبته السلطات الإسرائيلية، انكر هذه الاتهامات، فيما لم تكشف إسرائيل أية وثائـــق تدعم مزاعمها. أما بالنسبة إلى أبو الخير، الذي يقبع في منـــزله الفقير في نابلس، فقد أعلن أن الولايات المتحدة هي أسوأ دولة في العالم. فهي تدعم شارون وتحـــارب الفلـــسطينيين. وقالـــت لي زوجـــته: "نحن فقراء. لا علاقة لنا بحماس وسياساتها. لجنة الزكاة كانت تعطينا بعض المال لكي لا نموت جوعاً. لكنها الآن قطعت عنا المساعدة".

تعرضت المملكة العربية السعودية وغيرها من دول الخليج لانتقادات كثيرة من إسرائيل وأميركا بسبب نظام الزكاة الذي تعتمده بحسب الشريعة الإسلامية، والذي يسمح للمسلمين بوهب المال إلى المنظمات الخيرية الإسلامية العاملة في العديد من المناطق المضطربة في العالم، من أفغانستان إلى الضفة الغربية وغزّة. وقد أصدر الأمير الوليد بن طلال بياناً صحافياً في نيسان/أبريل من العام 2002، إثر محادثات مع الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات، اعترف فيه بوهب مبلغ 100 مليون ريال سعودي، أي ما يعادل 26.5 مليون دولار أميركي، نصفه نقداً، لمساعدة الفلسطينيين على إعادة إعمار بنيتهم التحتية التي دمرها الجيش الإسرائيلي. النصف الآخر من الهبة ورد على شكل ملابس ووسائل نقل للمؤسسات الفلسطينية[46]. لطالما نفت الحكومة السعودية تشجيع الفلسطينيين على تنفيذ العمليات الانتحارية ضد إسرائيل أو إرسال الأموال إلى عائلات الفلسطينيين الذين شاركوا في تنفيذ المهمات الانتحارية. إن الحكومة السعودية في إعلامها الرسمي تستخدم كلمة "شهيد" لوصف الفلسطينيين ضحايا النزاع مع إسرائيل، لكنها تنفي أية مزاعم عن تقديم المملكة المال لعائلات الانتحاريين، واصفة إياها بأنها مضللة ومحاولة لتحويل الانتباه عن الجرائم التي ترتكبها إسرائيل بحق الفلسطينيين.

كما نشرت صحيفة أميركية، نقلاً عن وكالة أنباء سعودية[47]، مقالة ورد فيها أن وزير الداخلية السعودي الأمير نايف بن عبد العزيز قد أجاز اقتطاع مبلغ 5300 دولار أميركي لكل عائلة من الميزانية السعودية لدعم أكثر من مئة عائلة فلسطينية شاركت في الانتفاضة. وتابعت الصحيفة بأن المملكة العربية السعودية انضمت إلى الرئيس العراقي صدام حسين في توفير الدعم المادي لعائلات الانتحاريين الفلسطينيين. لطالما كانت الحكومة العراقية تشجع الهجمات الانتحارية ضد إسرائيل، وتعطي كل عائلة انتحاري مبلغ 25 ألف دولار أميركي. أما عائلات الفلسطينيين الذين كانوا يقتلون في المواجهات اليومية مع إسرائيل فكانت تحصل كل واحدة منها على مبلغ 10 آلاف دولار[48]. لقد كان العراق يوزع الأموال من خلال جبهة التحرير العربية في غزّة والضفة الغربية، وهي منظمة محلية على علاقة بحزب البعث العراقي، وكانت بين المؤسسين لمنظمة التحرير الفلسطينية.

أورد تقرير أعدّته الإدارة الإسرائيلية في قطاع غزّة في حزيران/يونيو من العام 2003 أسماء ثلاث جمعيات كبرى في غزّة، تتلقى عشرات الملايين من الدولارات سنوياً من الخارج، هي: جمعية الاصلاح الإسلامي، والجماعة الإسلامية، والمجمع الإسلامي الذي انشأه الشيخ احمد ياسين. وادعى التقرير أن مليون دولار من هذه الأموال يسلم شهرياً إلى العائلات المحتاجة، وأن كميات هائلة من المال تأتي من إيران ومن العرب الإسرائيليين الذين يقدمون الهبات السخية[49]. بحسب الشيخ احمد الكرد، رئيس جمعية الاصلاح في غزّة، فإن منظمته تقدّم المال بمعدل دفعة واحدة، وفقاً لظروف كل عائلة: 5300 دولار تعطى للعائلة التي قُتل معيلها أو أصيب إصابات مزمنة تمنعه من العمل؛ 1300 دولار تعطى للجرحى، و2650 دولاراً للعائلات الذي تهدم منزلها أو تضرر. وعائلات السجناء تتلقى 2600 دولار. لتفسير هذا الأمر بشكل أفضل، وبحسب تقويم الأمم المتحدة، فإن أكثر من نصف الشعب الفلسطيني يعيش تحت خط الفقر، بالتالي، فإنهم يعيشون بأقل من دولارين في اليوم.

زياد ابو عمرو، وهو عضو مستقل في المجلس التشريعي الفلسطيني أبلغ منظمة "هيومان رايتس واتش" بأنه، بصفته رئيساً للجنة السياسية في المجلس التشريعي الفلسطيني، اجرى عملية تدقيق في حسابات أكبر مؤسسة خيرية مرتبطة بحماس في غزّة، وهي جمعية الاصلاح، التي أقفل عرفات مكاتبها في كانون الأول/ديسمبر من العام 2001. "صحيح أن جمعية الاصلاح تحظى بكميات كبيرة من المال... لم نجد أثراً لأي مخالفة". وعندما ابلغ عرفات بأنه لم يجد أي شيء مشبوه في ممارسات الجمعية، أتاه الجواب التالي: "لا بد أن نشاطات حماس العسكرية تحظى بتمويل من دول أجنبية مثل إيران". لقد كان عرفات مقتنعاً بأن حماس كانت تستغل الدعم المالي الذي تتلقاه من أجل برامجها الاجتماعية، لتمويل جدول اعمالها السياسي وطموحاتها العسكرية.

أحد قادة حماس، ابراهيم اليازوري، قال إن الحركة تطمح إلى تحرير كل فلسطين من الاحتلال الإسرائيلي. "هذا هو همنا الأساسي، لكن الترتيبات الاجتماعية أساسية لتحقيق هذه الغاية". إن الوثائق التي استولى عليها الجيش

الإسـرائيلي مـن مكاتب السلطة الفلسطينية في نيسان/أبريل وأيار/مايو من العام 2001 أظهـرت اسـتلام مبالغ من المال من لجنة سعودية يرأسها الأمير نايف عبد العزيـز واستخدامها لدعم انتفاضة الاقصى. لقد أرسل المال إلى إحدى مؤسسات الـزكاة في طولكـرم في الضفة الغربية. وبحسب الوثائق، تم توزيع المال على أربع عـشرة مؤسسة خيرية محلية، لمعظمها صلات بالمشاريع الاجتماعية التابعة لحماس والتي توزع المال أو الطعام على المحتاجين. لقد أخبرني الطبيب النفسي والناشط في الـدفاع عن حقوق الانسان، الدكتور إياد السراج، أنه يدين العمليات الانتحارية بـشدة، لكـنه يدعم العائلات المعوزة: "لا أستطيع أن أدع الاطفال يتألمون لأن والدهم ينفذ عمليات من هذا النوع. سأبذل كل ما في وسعي وما بقدرتي المهنية، لأوفر لهؤلاء الاولاد بعض الامل والكرامة".

لقـد أصـبح إضـعاف حماس من أبرز أولويات واشنطن. عندما زار وزير الخارجـية الأميركي كولن باول دمشق لمناقشة مسألة "الملاذ الإرهابي" مع الرئيس بـشار الاسد في نيسان/أبريل من العام 2003، خرج إثر الاجتماع الذي استغرق ثـلاث سـاعات بـتعهد من الرئيس السوري بإقفال كل مكاتب حماس ولجم اتـصالاتها. بعد ثلاثة أشهر، أعلن باول في مؤتمر صحافي بأن حماس" تقوم بأعمال خيرية تعود بالفائدة على الفلسطينيين وأنه بالإمكان إصلاحها. لكن لسوء الحظ، فإن اعمال الخير تتأثر سلباً بممارسات الجناح العسكري الذي يقتل الابرياء ويقضي على آمال الشعب الفلسطيني بإقامة دولة خاصة به"[50].

المشهد من الجناح الغربي

"لا تـوجد خطـة، لا توجد مكيدة". هذا ما شدّد عليه الناطق باسم وزارة الخارجـية الأميركية[51]، في محاولة لصرف النظر عن تقرير نشرته إحدى الصحف الأميركية، يفيد بأن اميركا وإسرائيل تخططان لعزل حكومة حماس الجديدة وزعزعة اسـتقرارها وحـتى ألاطاحة بها، وذلك بحرمان السلطة الفلسطينية من المال[52]. وكـررت وزارة الخارجية الأميركية موقف اللجنة الرباعية القائل بأن على حماس الاعتـراف بحـق إسرائيل في الوجود، ونبذ العنف، والموافقة على الاتفاقيات التي

عقـــدت ســـابقاً والتي توصّل إليها الفلسطينيون مع إسرائيل. كما أكدت بشكل حاســـم: "نحـــن لا نجري محادثات مع الإسرائيليين مختلفة عن تلك التي نجريها مع الآخرين، بما في ذلك اللجنة الرباعية".

إن كـــان هناك من مكيدة أم لا، ففي الساعة الرابعة من بعد الظهر بتوقيت غرينيتش، في 29 آذار/مارس من العام 2006، قطعت الولايات المتحدة أية صلات دبلوماســـية ومالية مع حكومة حماس، التي أدّت أخيراً اليمين الدستورية. وفي حين أبقت الولايات المتحدة الاتصالات مسموحة وقائمة مع الافراد غير التابعين لحماس في الـــبرلمان الفلـــسطيني، ومع مكتب الرئيس محمود عباس، فقد بعثت برسالة عبر البريد الإلكتروني إلى كل دبلوماسي ومتعهد أميركي، تأمرهم فيها بوقف أي تعاون مـــع الـــوزراء المعيّنين من قبل حماس في الحكومة. كان من تصفهم أميركا بالثوار مدرجين منذ سنوات طويلة على لائحة "المنظمات الإرهابية الاجنبية" التي وضعتها وزارة الخارجية الأميركية، وبالتالي، يخضعون لأحكام القانون الأميركي الذي يمنع الحكـــومة من توفير المساعدة المباشرة إلى المنظمات المذكورة. وشملت اللائحة التي وضـــعت في تـــشرين الأول/أكتوبـــر من العام 2005 القاعدة، الطريق المنير، نمور التاميل، حزب الله وعدة فصائل فلسطينية عدّة بمن فيها حماس، طبعاً. اعتبر القرار الـــذي اتخذته الولايات المتحدة في العالم العربي والإسلامي على أنه مثال آخر على تحيّـــز واشـــنطن لصالح إسرائيل. فقد كانت الحكومة الأميركية تفضل أن تشيح بنظرها بدلاً من إدانة إسرائيل على الاعمال الشنيعة التي ترتكبها ضد العالم العربي، وقد فشلت أيضاً في إرغام تل ابيب على الالتزام بقرارات الأمم المتحدة التي تدعو إســـرائيل إلى الانـــسحاب من الأراضي العربية المحتلة كما تم تحديدها في أعقاب حرب العام 1967.

مـــن حـــسن حظ أول حكومة منتخبة لحماس، أنها كانت تزخر بعلماء في الاقتصاد ومهندسين ومخططين مدربين في أميركا، وقادرين على التعاطي مع القيود المالـــية التي فرضت على حكومتهم. ففي حكومة مؤلفة من أربعة وعشرين وزيراً، سبعة من بينهم حاصلون على شهاداتهم الجامعية والدكتوراه من الولايات المتحدة، بمـــن فيهم وزير المال عمر عبد الرزاق الذي حاز على بكالوريوس في الرياضيات

والاقتصاد وعلوم الكمبيوتر من كلية "كو" في آيوا، أتبعها بدكتوراه في علم الاقتصاد من جامعة ولاية آيوا. مستعيداً ذكرياته الدراسية، يوم كان شريكه في الغرفة يهودياً، قال عبد الرزاق متنهداً: "كانت تلك أفضل أربع سنوات في حياتي على الاطلاق"[53].

لقد أصبح عبد الرزاق استاذاً في علم الاقتصاد في جامعة نابلس.

من بين الوزراء الآخرين، عبد الرحمن زيدان وزير الاشغال، الحائز على بكالوريوس في الهندسة المدنية من جامعة الاباما؛ سمير أبو عايشة، وزير التخطيط، الذي درس الهندسة المدنية ايضاً في جامة ولاية بنسلفانيا؛ عزيز دويك، رئيس البرلمان الفلسطيني، الحائز على ماجستير في الجغرافيا من جامعة ولاية نيويورك في "بينغهامبتون" ودكتوراه في العلم الاقليمي من جامعة بنسلفانيا؛ وصفي قبها، وزير شؤون الأسرى الذي يحمل بكالوريوس في العلوم في الهندسة المدنية من جامعة ديترويت؛ ناصر الشاعر، نائب رئيس الحكومة ووزير التعليم كان استاذاً محاضراً في معهد الدراسات الأميركية في جامعة نيويورك، حيث درس التاريخ الأميركي؛ موسى أبو مرزوق، نائب رئيس المكتب السياسي لحماس والذي اتخذ من دمشق مقراً له، والذي يحمل ايضاً ماجستير في العلوم الصناعية من جامعة ولاية كولورادو، ودرس ايضاً الهندسة في جامعة لويزيانا للتكنولوجيا. ولد أبو مرزوق في العام 1951 في مخيم رفح للاجئين في غزّة، وتابع دروساً في الهندسة في مصر، قبل السفر إلى الولايات المتحدة في العام 1974 لاكمال دراساته. وقد عاش بين العامين 1981 و1982 في مدينة "فولز تشيرش" في فيرجينيا، وفي ذلك الوقت، انتخب رئيساً لمكتب حماس السياسي.

قبل نحو ثلاث سنوات من فوز حماس الساحق بالحكم، فجر انتحاري قنبلة زنة خمسة كيلوغرامات مليئة بكريات معدنية، على متن الباص رقم 2 التابع لشركة "إيغد"، فيما كان يمر في منطقة "النبي صموئيل" في القدس، ما أدى إلى مصرع ثلاثة وعشرين شخصاً وجرح أكثر من مئة وثلاثين آخرين. كان عدد كبير من الركاب عائداً من الصلاة عند الجدار الغربي. بعد ثلاثة أيام، في 22 آب/أغسطس من العام 2003، أعلن الرئيس جورج بوش أن الخزينة الأميركية أدرجت ستة من

كـــبار قـــادة حمـــاس وخمسة مؤسسات خيرية تابعة لحماس على اللائحة الشاملة للإرهابـــيين. الافـــراد الستة الذين تم تصنيفهم كإرهابيين هم الشيخ أحمد ياسين وعمـــاد خالد العلمي، عضو المكتب السياسي لحماس في دمشق، وأسامه حمدان، ممـــثل حماس في لبنان، وخالد مشعل، رئيس المكتب السياسي لحماس في دمشق، وعـــبد العزيـــز الرنتيسي، أحد قادة حماس في غزّة، مرتبط مباشرة بالشيخ ياسين وموسى أبو مرزوق، نائب رئيس المكتب السياسي في دمشق.

اعـــتقل أبـــو مرزوق في نيويورك في 25 تموز/يوليو من العام 1995 واحتجز بمـــوجب تهمـــة غير محددة مدة اثنين وعشرين شهراً بدون محاكمة. والاتهام غير الرسمـــي الذي وجّه إليه قضى بأنه "إرهابي". بعد انقضاء عشرة أيام على اعتقاله، تقـــدمت حكـــومة حزب العمل برئاسة شمعون بيريز بطلب إلى الولايات المتحدة لتسليم أبو مرزوق إلى إسرائيل. لقد كان احتجازه الغامض لفترة ممدّدة يهدف إلى إعطاء إسرائيل الوقت الكافي لتقديم الوثائق القانونية الداعمة لطلب التسليم. لكن الإســـرائيليين فشلوا في إبراز أو مسوّغ يبرّر ويعزّز طلبهم، وبالتالي، عندما انتخب بنـــيامين نتنياهو رئيساً لإسرائيل في أيار/مايو من العام 1996، لم يبد إصراراً على إنفـــاذ طلـــب ســـلفه. في بعض الاحيان، كان سجانو أبو مرزوق يسمحون له بالـــتحدث إلى الـــصحافة، لكـــن سرعان ما ساورهم القلق إزاء تصريحاته النارية المناهـــضة لإسرائيل وأسلوبه الهجومي في الكلام. ومما يذكره أبو مرزوق: "طلبوا مني الاعتراف بتورطي مع حماس كشرط لاطلاق سراحي"[54]. ويقول أبو مرزوق إنـــه طـــوال فترة احتجازه، لم يستجوبه ابداً محقق. وفي رسالة وجهتها إلى المدعية العامة جانيت رينو، عبرت وزيرة الخارجية الأميركية مادلين اولبرايت عن قلقها من أن يؤدي وجود أبو مرزوق لفترة طويلة في الولايات المتحدة، "إلى تقويض أهداف سياسة الولايات المتحدة الخارجية في الشرق الاوسط وفي الحرب على الإرهاب". لقد أدرك المسؤولون الأميركيون أن تهمة الإرهاب قد تسبب مشكلة بالنسبة اليهم إذاً، ونظـــراً لغـــياب الأدلة الكافية، اضطروا إلى الافراج عن أبو مرزوق. في 25 نيـــسان/أبـــريل من العام 1997، وقع أبو مرزوق اتفاقاً مع الإدارة الأميركية يحدد شروط اطلاق سراحه: أن يغادر نهائياً الأراضي الأميركية، وأن يمتنع عن اتخاذ أي

إجــراء قانــوني ضد الحكومة الأميركية خلال سعيه للحصول على تعويض عن احتجازه، وأن يكف عن الإدلاء بالتصريحات الصحافية. مع ذلك، كان لا بد أولاً أن تجــد الــولايات المتحدة دولة مقبولة من الجانبين ترضى باستقبال أبو مرزوق. وكان الخيار البديهي إما مصر أو الأردن. بحسب أبو مرزوق، فقد قام وفد من الــ "إف.بي.آي" (مكــتب المــباحث الفدرالــية) بــزيارة إلى الدولتين قبيل إطلاقه، وطالــبهما بمنعه من القيام بأية نشاطات سياسية، كما أصرّ الوفد على أن يمتنع أبو مــرزوق عن ارتكاب اعمال العنف بحق إسرائيل. لكن الحكومتين رفضتا الطلب الأميركي[55]. لكن الملك الأردني حسين وافق على استقبال المتهم ثم أطلق سراحه في 5 أيار/مايو من العام 1997.

لم تــضع الــولايات المتحدة حركة حماس في دائرة مراقبتها إلى حين انطلاق سلــسلة التفجيرات الانتحارية في إسرائيل ألتي أتت بنتنياهو، وهو رئيس الحكومة الإســرائيلي الأصغر سناً في تاريخ إسرائيل، إلى السلطة في العام 1996. حتى ذلك الــوقت، لم يكن أي من المسؤولين الأميركيين أو وزراء الخارجية أو حتى الرئيس الأميركي بيل كلينتون قد ألمح إلى أن مسألة حماس تشكل مصدر قلق كبير بالنسبة اليهم.

فــيما كــان الــرئيس كلينتون يحاول التوصل إلى سلام بين الإسرائيليين والفلــسطينيين، كانت المباحث الفدرالية (إف. بي. آي.) ترسل المال سرّاً إلى أعضاء مشتبه بهم ينتمون إلى حماس، وذلك في إطار عملية مزيّفة وسريّة، لمعرفة مــا إذا كــان المال سيستخدم لتمويل الهجمات الإرهابية. هذه العملية الخاصة بمكافحــة الإرهاب التي تولتها المباحث الفدرالية ما بين العامين 1997 و1998 أدارتهــا مــن مكتــبها في فينــيكس في أريــزونا، بالتنسيق مع الاستخبارات الإســرائيلية. وبحسب مسؤولين من المباحث الفدرالية، فإن هذه العملية كانت تــتم بمــوافقة المدعية العامة جانيت رينو[56]. فخلال العملية، تمّ إرسال آلاف الــدولارات الأميركية إلى أشخاص يشتبه بتأييدهم لحماس، وعملت المباحث علــى "تعقــب مسار هذا المال". كان هذا اعترافاً نادراً بإجراء عملية سرية لم تنجم عنها أية ملاحقات قضائية.

علـــى المستوى الرسمي، ليس لأميركا أي اتصال مع المنظمات المدرجة على لائحـــة الإرهاب. وقد نفى أحد كبار المستشارين في السياسة الأميركية الشائعات التي تحدثت عن علاقة سرية أقامتها وكالة الاستخبارات المركزية مع حماس بالقول: "بالكـــاد تتحدث الاستخبارات المركزية مع فتح! وإن لإسرائيل سلطة الفيتو على مـــن تلتقيهم الاستخبارات المركزية في الضفة الغربية وغزّة. هذه هي طبيعة العلاقة القائمة بين الولايات المتحدة وإسرائيل". وقد ميّز هذا المستشار بين أن تجري حماس اتـــصالات مع الأميركيين، وأن تجري حماس اتصالات مع الحكومة الأميركية. وقد قـــال مـــارتن بورتون، وهو ضابط سابق في الاستخبارات المركزية، وغراهام و. فوللـــر، النائب السابق لرئيس مجلس الاستخبارات الوطني في وكالة الاستخبارات المركـــزية، وفـــريد هـــوف، المديـــر السابق لشؤون الموظفين للجنة ميتشيل، إن الأميركـــيين الـــذين أجروا محادثات مع حماس. لكنهم لم يكونوا يخرقون القانون، لأنهـــم مـــسؤولون حكوميون سابقون. بل إن الغاية من هذه الاجتماعات، "التي تـــدخل في إطـــار القانـــون"، كانـــت في الاساس وضع عملية لجمع المعلومات الاســـتخبارية، قيد التنفيذ. وقد عقد اجتماعان مماثلان في 21-22 آذار/مارس وفي 23-24 تموز/يوليو من العام 2005 في بيروت، نظمها آليستير كروك، أحد الضباط السابقين في الاستخبارات البريطانية. من خلال الاستماع إلى ما كان لدى حماس لتقوله وإقامة علاقة معها، كان بوسعهم إبلاغ صانعي القرار في واشنطن، بما تفكر بـــه حماس، والأهم، بما تخطط له. وتابع المستشار السياسي قائلاً: "كانت محادثاتنا مفـــصلة للغايـــة. لقـــد تحدثـــنا عن رأي حماس بالمقاومة ودفاعها عن العمليات الانـــتحارية وعن موقفها السياسي، وفي أية ظروف قد يقبلون بالتعامل والتفاوض مع إسرائيل، وما رأيهم بفتح، وعمّا يعتزمون القيام به إذا ما بلغوا السلطة".

لقـــد شكل انتصار حماس صدمة قوية هزّت في العمق إدارة الرئيس جورج دبلـــيو بـــوش، في الوقت الذي كانت تؤيد الحرب على الإرهاب وتسعى لتعزيز الديموقراطية في الشرق الاوسط. وفي خطاب هام في حديقة البيت الابيض في العام 2002، أعلـــن بـــوش عـــن مجموعة من الشروط التي ينبغي على الفلسطينيين أن يحققـــوها مـــن أجل أن يستحقوا الدعم الأميركي لاقامة دولتهم. ومن بين تلك

الموجبات الأساسية، "أن يعمد الفلسطينيون إلى انتخاب قادة جدد لا يهابون الإرهاب"[57]. بعد أربع سنوات، لم تكن هذه الكلمات قد حققت أي وقع يذكر. فقد التزم الفلسطينيون بخيارهم غير القابل للتفاوض، وأرغموا الإدارة الآميركية على تبني موقف متوازن: القبول بأنهم مارسوا خيارهم الديموقراطي في ما اعتبروه اقتراع احتجاج ضد قيادتهم السابقة التي لطخها الفساد وسوء الإدارة. وعندما سئل جورج بوش، خلال مؤتمر صحافي في البيت الابيض، ما إذا كانت تلك الطموحات قد ماتت، بذل جهده لكي يبدو متفائلاً، إذ قال: "السلام لا يموت أبداً، لأن الناس يريدون السلام. أفضل أمل للسلام في الشرق الاوسط هو إقامة ديموقراطيتين تعيشان جنباً إلى جنب". واضاف بوش: "لا أرى كيف يمكن أن يكون المرء شريكاً في السلام، وهو ينادي بدمار دولة أخرى في إطار برنامجه السياسي. وأنا اعرف انكم لا تستطيعون ان تكونوا شركاء في السلام، ان كان لحركتكم جناح عسكري"[58].

تدّعي الولايات المتحدة أنها أنفقت أكثر من 1.7 مليار دولار في الضفة الغربية وغزّة منذ العام 1993 لمحاربة الفقر وتحسين البنية التحتية وتعزيز الإدارة الفاعلة. دنيس روس، الموفد السابق إلى الشرق الاوسط في عهد الرئيس كلينتون، قال إنه ليس من المحتمل أن تغير واشنطن موقفها من حماس. "إن السبيل الوحيد لتروا هذه الإدارة تبذل المزيد من الجهد لتحافظ على دورها، هو أن تقوم جبهة مشتركة مع المجتمع الدولي للاصرار على مجموعة من المعايير التي ينبغي على حماس أن تلتزم بها إن أرادت أن تبني علاقات أو أن تتلقى المساعدات المادية من الخارج". وأضاف روس: "لم تكن حماس تتوقع الفوز في الانتخابات. كانت تأمل بالاستيلاء على السلطة الفلسطينية في المستقبل. والآن سيكون عليها التعامل مع نتائج فوزها"[59].

تماماً كما تؤمن شرم الشيخ أرضية محايدة تفسح في المجال أمام تقويم النزاع الفلسطيني-الإسرائيلي، كذلك تلعب الدوحة، عاصمة دولة قطر، دور العاصمة المضيفة للمنتدى السنوي العالمي العربي الإسلامي. "إن استقرار وازدهار العالم الإسلامي يجب أن يمثل أهمية قصوى بالنسبة إلى المجتمع الدولي، لأن هذا العالم يمثل 27% من المجموع العام للسكان في العالم". هذا ما أعلنه الشيخ حمد بن خليفة آل

ثـاني في 10 نيسان/أبريل من العام 2005 في افتتاح المؤتمر لعام 2005، الذي ضمّ شخـصيات هامة في عالم الأعمال والسياسة والاعلام والمجال الأكاديمي والمجتمع المـدني، من الدول والاقطار كافة. لقد كان الهدف من هذا المنتدى إطلاق الحوار والحدّ من التباين بين الغرب والعالم الإسلامي.

أعطـى السفير الأميركي السابق إلى إسرائيل مارتن إنديك، العضو البارز في فرع دراسات السياسة الخارجية في مؤسسة بروكينغز والخبير في النـزاع العربي-الإسرائيلي، مثلين مختلفين عن الإسلام المعتدل كما أبرزه المنتدى. أحد المثلين كان عـن القاضـي حسين أحمد، أمير الجماعة الإسلامية، الفرع الباكستاني للاخوان المسلمين. احمد، الذي يعتبر أحد القادة السنة المعتدلين في باكستان، قال في المؤتمر: "الحـوار ممكن مع أشخاص من كل الديانات بمن فيهم المسيحيين واليهود". لكن الشيخ يوسف القرضاوي، الذي يُعتبر العالِم السني المعاصر الأشد تأثيراً، والمعروف بالفتاوى التي يصدرها في مسائل عدّة تتعلق بالسياسة والنساء والهموم الاجتماعية، تـولى إعادة "تصويب" الحديث. رغم أنه شخص تقدمي، أدان اعتداءات الحادي عـشر مـن أيلـول/سـبتمبر ويعتقد كثيرون بأنه يمثل الخيار البديل عن الإسلام المتطـرف، إلا أنـه بـدا ملتزماً بموقف أكثر تشدداً إذ قال: "يمكننا التحدث إلى المسيحيين لكن لا يمكننا التحدث إلى اليهود. إنهم يحتلون فلسطين، وقبل أن يعودوا عـن احـتلال فلـسطين، لا يمكن أن يكون هناك حوار معهم". القرضاوي دعا الـولايات المتحدة إلى الاختيار بين الإسلام المتطرف والإسلام المتحرر. وإذ وضع نفـسه في خانـة الإسلام المتحرر قال: "نحن نمثله مع الاخوان المسلمين في العالم أجمع".

يعـتقد الكثيرون من المفكرين العرب الذين كانت لهم علاقات مع الادارات الأميركية المتعاقبة، أن واشنطن تفضل التعامل مع حماس بدلاً من فتح أو غيرها من الفصائل القومية، شرط أن توافق حماس بأن تصبح جزءاً من العملية السياسية. إن الإدارة الأميركـية حريصة على تشجيع بروز حركة سنية إسلامية تؤيدها وتكون علـى علاقـة جـيدة معها، كما هي الحال مع الحركات السنية الأساسية ومنها بالـتحديد الاخوان المسلمين في الأردن والعراق ومصر، من أجل مواجهة العناصر

الإســـلامية المتطـــرفة في الطائفـــتين الـــسنية والـــشيعية مثل حزب الله والقاعدة والمجموعات المؤيدة لهما.

لقـــد تـــولى مارتن إنديك مهام سفير الولايات المتحدة إلى إسرائيل من العام 1995 حتى العام 1997، ثم مجدداً من العام 2000 إلى العام 2001. قبل ذلك، كان مستـــشار الرئيس كلينتون لشؤون الشرق الاوسط في مجلس الامن القومي وكان مـــسؤولاً عـــن مراسم توقيع اتفاقيات أوسلو. وقال مستعيداً لحظة لفتت حماس انتباهه، إنه في بداية عهد إدارة الرئيس كلينتون، في العام 1993 تقريباً، ذهب أحد الدبلوماســـيين في السفارة الأميركية في تل ابيب والمسؤول عن قطاع غزّة، للقاء أحـــد مـــسؤولي حماس في غزّة. "تلقيت اتصالاً من نائب مستشار الامن القومي ساندي بيرغر سألني فيه: ماذا يجري؟ لمَ أوفدنا شخصاً للقاء أحد مسؤولي حماس؟" كنت في البيت الابيض في ذلك الوقت فأجبته قائلاً: "لا اعرف شيئاً عن الموضوع. لكـــن نتيجة لذلك الاجتماع، اتخذ قرار في بداية عهد إدارة الرئيس كلينتون بعدم السماح بأي اتصالات سياسية مع حماس"[60].

الجاسوس الذي دخل في مرمى النار

وفقـــاً لأليـــستر كروك، المستشار السابق لممثل السياسة الخارجية في الاتحاد الأوروبي خافـــيير ســـولانا لـــشؤون الـــشرق الأوسط، يرتكز تعاطي الغرب مع المـــنظمات الإسلامية على توجهات ثلاثة. "يمكننا قصفهم، يمكننا تجاهلم أو يمكننا التحدث معهم. حتى الآن، من الواضح أن الخيار الأول لم ينجح ومن غير الممكن أن ينجح، فيما الخيار الثاني لا يتعدى كونه مجرد دفاع عن الكسل الفكري"[61].

يفـــضل كروك الخيار الثالث. فعلى مدى أكثر من خمس سنوات، لعب دور الوســـيط بـــين مجموعات فلسطينية كحماس، موفراً لبريطانيا، الممتنعة رسمياً عن التعاطـــي مع الجهات المدرجة على "لائحة الإرهاب"، وسيلتها الوحيدة للاتصال بهـــذه المـــنظمة. كبير الجواسيس السابق الذي عمل لحساب جهاز الاستخبارات البريطانية "إم أي 6" أدّى طوال ثلاثة عقود دور الوسيط لصالح بريطانيا، وتعرّف خلالها إلى مختلف الميليشيات في باكستان وأفغانستان وناميبيا وشمال إيرلندا، إلى أن

وجـــد نفسه يحتسي الشاي مع نعناع مع أعضاء في حماس بصفته ممثلاً عن الاتحاد الأوروبي.

يشبّه كروك الولايات المتحدة بالشاحنة: "من الممكن تحريكها ولكن، بسبب حجمهـــا الـــضخم، ســـيتطلب أمر تحريكها وقتاً. هذا التشبيه يمكن تطبيقه على السياسة الخارجية، إذ لا يمكننا توقع تغيير ما بين ليلة وضحاها". لقد وصف كروك بأنـــه "شجاع إلى درجة الجنون" بسبب عدم استخدامه السيارات المصفحة العائدة لـــوكالة الاستخبارات المركزية (سي آي إيه)، مفضلاً التنقل في سيارات أجرة بين الضفة الغربية وقطاع غزّة. لقد لعب كروك أيضاً دوراً أساسياً في التوصل إلى وقف لإطلاق النار وافقت عليه حماس عام 2002. فقد أمل بأن يضع وقف إطلاق النار هـــذا حـــدّاً لموجة عمليات التفجير الاستشهادية. إلا أن هذا الاتفاق سقط حين اغـــتالت إسرائيل صلاح شحادة، القائد العسكري لحماس، في غارة جوية شنتها على منـــزله.

رغـــم شـــبكة الاتصالات الدقيقة التي أقامها كروك بين الجيش الإسرائيلي وجهـــاز الاستخبارات التابع لحماس، كان كثيرون من الإسرائيليين والفلسطينيين يـــشككون بصدقيته. من بين الذين ارتابوا من كروك، مسؤولون أمنيون كبار في السلطة الفلسطينية، إذ شعروا بأن كروك وضع حماس في دائرة الضوء وجذب إليها بالتالي الكثير من الانتباه. وفقاً لمصادر في حماس، لقد افترض الشيخ ياسين أن كل ما يقوله للمسؤول الأوروبي سيتم تمريره فوراً إلى الحكومة الإسرائيلية، وبناءً عليه، زوّد المفـــاوض المكلف شؤون الشرق الأوسط عمداً بمعلومات خاطئة. ياسين نبّه كـــبار مستـــشاريه، ومـــنهم بالتحديد من كانت له أية علاقة بالجناح العسكري لحماس، أن يحترسوا لدى تحدثهم إلى أليستير كروك كما بعث بتحذيرات مماثلة إلى قادة حماس في الضفة الغربية.

لقد حضر كلٌّ من الشيخ ياسين والدكتور الرنتيسي والدكتور الزهّار اجتماع حمـــاس، ودوّن محمد النجار محضر الجلسة. وعقدت اجتماعات موازية في الخارج. كـــان كروك معنياً جدّاً بالترتيب لوقف إطلاق النار الذي تمّ التفاوض بشأنه بين حماس والسلطة الفلسطينية، وأُعلن من مصر في 29 حزيران/يونيو 2003. لقد شدّد

كروك على أهمية تفهم وجهات نظر حماس، قائلاً إن "الاتحاد الأوروبي يؤيد اتباع سياسة تخفف من حدّة التوتر والاحتقان، وتحدّ من موجة العنف".

كان كروك حريصاً على إبقاء الاجتماعات سريّة، لمنع إسرائيل والولايات المتحدة من "الاستفادة من هكذا معلومات". لكنه افترض أن إسرائيل كانت على علم بهذه اللقاءات، "لأنهم يراقبون كل من يتصل بالشيخ ياسين أو يزوره في منزله، وتلك الاجتماعات عقدت هناك". بطبيعة الحال، ذاع هذا "السرّ" بعدما استولى الجيش الإسرائيلي من مجمع الأمن الوقائي التابع للسلطة الفلسطينية في غزّة في شهر تشرين الثاني/نوفمبر من العام 2002، على ملفات تحوي كتابات باللغة العربية مدوّنة على دفتر يعلو صفحاته شعار السلطة الفلسطينية، وتفيد عن هذه الاجتماعات السرية. كشفت هذه المخطوطات أن كروك هنأ حركة حماس على برامج المساعدات الاجتماعية التي تنفذها وعلى كونها عنصراً سياسياً مهماً في المعادلة القائمة، معتبراً "أن المشكلة الأساسية هي الاحتلال الإسرائيلي". وأضاف أنه من الضروري إرساء خطوات عملية لبناء الثقة بين الطرفين والتخفيف من حدّة العنف المتبادل بينهما. كما أكد كروك للشيخ ياسين ولكبار المسؤولين في حماس بأن الأوروبيين يعارضون، دون أي تحفظ، عملية إقامة المستوطنات الفلسطينية". بالطبع، وافق ياسين على أن الاحتلال الإسرائيلي هو أصل المشكلة، وهو يشمل، وفقاً لتعريفه، أراضي العام 1948، ولا يقتصر فقط على الأراضي المحتلة عام 1967، ما يعني ضرورة تحرير كامل أرض فلسطين وليس فقط "الأراضي المحتلة" ما بعد العام 1967. لقد أبلغ الشيخ ياسين كروك بأنه غير راضٍ عن قرار الاتحاد الأوروبي إدراج حماس على لائحته للمنظمات الإرهابية، وطلب منه أن يؤكد الأوروبيون دعمهم له وأن يقاوموا السياسة الأميركية. فجاءه جواب كروك: "إننا لا نعتبر الجناح السياسي لحماس منظمة إرهابية".

في شهر أيلول/سبتمبر من العام التالي، أمر وزير الخارجية البريطانية جاك سترو عميل جهاز الاستخبارات البريطانية "إم أي 6" بمغادرة القدس بداعي الخوف على سلامته. أما السبب الأقرب إلى الحقيقة هو أن سترو تعرّض للكثير

من الضغوط الإسرائيلية، إذ شعرت إسرائيل بأن المفاوض البريطاني أصبح مقرّباً للغاية من حماس، الأمر الذي أزعجها للغاية. لكن، الرجل المكلف إرساء حوار ممهـد للسلام واصـل، دون تـردّد أو تهـيّب، العمل على تنسيق عدد من الاجتماعات غير العادية التي عقدت في آذار/مارس وتموز/يوليو 2005 في فندق "ألـبيرغو" الأنيق في بيروت، كما في مكان آخر في العاصمة اللبنانية لم يفصح عنه. هذه الاجتماعات التي عقدت على مدى يومين ونظمها كروك والدكتور بيفـرلي ميلتون-إدواردز المتخصص في الشؤون الشرق أوسطية والإسلامية في جامعـة "كوينـز" في بلفاسـت، حضرها عدد من المتخصصين في مواضيع الصراعات الشاملة وأعضاء من حماس وحزب الله ومنظمة الإخوان المسلمين في لبـنان والجماعـة الإسـلامية في باكستان. وإضافة إلى ممثلين عن التنظيمات الإسلامية السياسية، شارك في هذا اللقاء النخبوي سفير بريطاني سابق في سوريا وقائـد أفغـاني سـابق للشرطة في كابول مارس مهامه أثناء الحرب الأفغانية ومفاوض رئيسي خاض المناقشات الممهدة لتوقيع اتفاق الجمعة العظيمة، ورئيس سابق لجهاز الأمن القومي في البيت الأبيض، وموفد مستقل من المملكة العربية الـسعودية، ورئـيس مجلـس المحاربين القدامى في فييتنام التابع لـ "مؤسسة أميركـا"، ومنتج منفذ سابق للبرنامج الإخباري "ستون دقيقة" الذي انضم إلى موفدين آخرين من "منتدى الصراعات". تشارك حماس فروعاً أخرى في منظمة الإخـوان المسلمين إيديولوجيتها، وفي المقابل، أقامت واشنطن ولندن علاقات وثـيقة مع فروع المنظمة في مصر والأردن والعراق وحتى سوريا. بالتالي، فإن الـبعض يعتبر بأن شطب اسم حماس عن هذه اللائحة مجرد مسألة وقت، بما أن كل الدلائل تشير إلى حصول تغيير في موقف الحركة تجاه إسرائيل. في نهاية شهر حزيـران/يونـيو 2006، أعلن رئيس الوزراء اسماعيل هنية استعداد حماس، من حـيث المـبدأ، لتوقـيع وثيقة وضعها معتقلون فلسطينيون من كافة الفصائل، يؤكدون فيها اعترافهم بوجود إسرائيل.

اعتراف حماس هذا بالدولة اليهودية هو بالتحديد ما طالب به المجتمع الدولي إثـر النجاح الذي حققته الحركة في الانتخابات الفلسطينية، لكن يبدو أن غصن

الزيتون الذي رفعته حماس لم يلقَ اهتماماً أو أسيء فهمه. لقد أشار رئيس الوزراء البريطاني طوني بلير إلى هذا الأمر بعد أقل من شهر على الإعلان الذي صدر عن هنية. متحدثاً إلى جمع من الصحافيين أثناء مؤتمره الصحافي الشهري في داونينغ ستريت، في شهر آب/أغسطس 2006، وصف بلير وضع حماس بالـ "الأحجية" التي يجب حلّها، وتابع قائلاً "إننا نعترف بالتفويض الذي ناله أشخاص منتخبون ديمقراطياً"، لكنه أضاف بأن "المفاوضات لا يمكن أن تحرز تقدّماً إلا في حال ارتكزت على أساس اعتراف هؤلاء الأشخاص بأن إسرائيل لها الحق أيضاً بالوجود.

صنع في طهران

في صباح 6 أيار/مايو من العام 2001، كان البحر الابيض المتوسط متقلباً للغاية، فأخذت أمواجه العاتية تتلاعب بمركب سانتوريني. إنه مركب صيد يبلغ طوله 25 متراً، كان يتقصى أخباره في كل من قبرص وسوريا ولبنان، خفر السواحل، بسبب ورود تقارير عن تعرّض مركب في المياه الدولية لمأزق. في الواقع، كان مركب سانتوريني يتزود بالوقود بعد معاناته من نقص حاد بمخزونه الأساسي. لقد كان أيضاً يتمّ تحميله بالاسلحة الموجود على متن قوارب زودياك، القابلة للنفخ، والتي كانت قد رافقت المركب حتى بلوغه عرض البحر. كان الإسرائيليون اعترضوا الاتصالات اللاسلكية بين قبطان المركب وخفر السواحل في البحر الابيض المتوسط، فأرسلوا طائرة تابعة للبحرية الإسرائيلية لاستطلاع الوضع، فوردهم معلومات تفيد بأن المركب يتصرف بطريقة مشبوهة غير معهودة بالنسبة إلى مركب صيد. وعلى ما قاله قائد البحرية الإسرائيلية، الاميرال يديديا يعاري، في مكتبه في معسكر رابين، مقرّ قيادة القوات الإسرائيلية، "لقد كان مركب صيد، لكنه لم يكن يقوم بالصيد"(62). كان المركب على بعد نحو 150 كيلومتراً غربي صور، فانتظر الإسرائيليون أن يتوجه نحو الساحل الإسرائيلي، ليرسلوا سفينتين حربيتين قاذفتين للصواريخ، انضم اليهما مركبان هجوميان تابعان للاسطول الثالث عشر. فيما كان المركب

لا يــزال في المياه الإقليمية، صعدت وحدة الكومندو البحرية إلى متنه، فلم تلقَ أيــة مقاومــة من قبل الطاقم. وجد أفراد الوحدة تسعة وثلاثين برميلاً ممتلئين بالسلاح كان من المفترض أن يتم إنــزالهم في المياه قبالة ساحل غزّة، في موقع محــدد مسبقاً[63]. كانت الشحنة تتضمن صواريخ كاتيوشا من عيار 107 ملم يــبلغ مداها 8.5 كيلومتراً، وأربعة صواريخ "ستريلا 2" مضادة للطائرات يبلغ مــداها 4 كيلومتــرات، وعشرين قاذفة صواريخ (آر بي جي)، وقنابل مضادة للــدبابات، ومدفعي هاون من عيار 60 ميليمتراً وثمانية وتسعين قذيفة هاون، وســبعين لغماً، وثلاثين رشاش كلاشنيكوف، ونحو ثلاثة عشر ألف مشط من الذخيرة من عيار 7.62[64].

في معرض استجوابه، أبلغ أحد أفراد طاقم المركب سانتوريني، وهو لبناني يدعــى ديب محمد رشيد عويضة، الإسرائيليين بأن خمسة وعشرين عنصراً من حزب الله كانوا متورطين في عملية التهريب. بعضهم تولى حماية الشاطىء، فيما شارك الآخرون في تحميل الاسلحة. عويضة كان قد ساهم بايجاد مركب ملائم للعملية، فعثر على مركب صيد يحمل اسم عبد الهادي في مرفأ أرواد في سوريا. تمت صفقة شراء المركب في مطعم شاهين في طرطوس، في شمال سوريا، وتولى طــاقم بحــارة ســوري نقله من طرطوس إلى مرفأ طرابلس في لبنان. هناك تمّ تــسجيل المــركب علــى أنــه لبناني، وأعيد عبد الهادي إلى المياه حاملا اسم سانتوريني[65].

سرعان ما اشتبهت الاستخبارات الإسرائيلية بتورط جهاد جبريل، الموجود في لبــنان – وهو إبن أحمد جبريل، أمين عام الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين – القــيادة العامة، ومقرّه دمشق – في هذه العملية. بحسب فضل شرورو، عضو المكــتب الــسياسي للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين – القيادة العامة ومسؤول الاعلام فيها، فقد تمكنت شحنات سابقة أن تشق طريقها إلى غزّة وإلى شاطىء سيناء في مصر. لم يكن متأكداً من التواريخ المحددة لهذه العمليات، لكنه قال إنه مــنذ تشرين الثاني/نوفمبر من العام 2000، وصلت ثلاث شحنات من الاسلحة بوتيرة تتراوح ما بين خمسة عشر يوماً وشهر. وقد تمّ تسليم الشحنات بواسطة

مركب سانتوريني ومركب آخر يحمل اسم كاليبسو 2. شرورو عزا فشل هذه المهمـــة إلى الطقس السيء والبحر الهائج، اللذين تسبّبا ببروز صعوبات أعاقت تحميل مركب سانتوريني بالأسلحة، الأمر الذي أدى إلى إثارة الشكوك. خلال مؤتمـــر صـــحافي عقده في دمشق بعد بضعة ايام، أعلن احمد جبريل بكل فخر واعتـــزاز، بأن الاسلحة تخص منظمته، وتفاخر بوصول ثلاث شحنات ناجحة من الاسلحة إلى ساحل غزّة. وقال جبريل بنبرة تحدي: "لم تكن هذه أول شحنة ولـــن تكون الاخيرة. ما نفعله هو في الواقع أمر شرعي، ولدى الجبهة الشعبية لتحريـــر فلسطين – القيادة العامة كلّ الحق في تسليح الشعب الفلسطيني ألذي يموت على أيدي العدو الإسرائيلي"(66). واعترف قادة آخرون في الجبهة الشعبية لتحريـــر فلسطين – القيادة العامة بصراحة بأنه نظراً لعدم تمتع منظمتهم بوجود لها في الضفة الغربية وغزّة، فقد اقاموا علاقات مع حماس من أجل دعم الصراع المـــسلح في المـــنطقة. وفقاً لشرورو، فإن أول لقاء على مستوى رفيع بين قادة حماس والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين – القيادة العامة حصل في لبنان، مباشرة بعـــد قيام إسرائيل بإبعاد المئات من ناشطي حماس وقادتها إلى مرج الزهور في جـــنوب لبنان في كانون الأول/ديسمبر من العام 1992. لقد أخبرني شرورو أن الاجتماعات حصلت بين قادة حماس الذين أبعدوا إلى لبنان، وبين احمد جبريل، وقد أسفرت محادثاتهم عن إنشاء لجنة لتنسيق نشاطات الطرفين في الضفة الغربية وغـــزّة. حـــضر الاجـــتماع طلال ناجي، الامين العام المساعد للجبهة الشعبية لتحريـــر فلـــسطين – القـــيادة العامة، وفضل شرورو، والدكتور عبد العزيز الرنتيسي، الذي اغتاله الإسرائيليون بعد ذلك، وغيره من كبار قادة حماس. لقد تم تعيين شرورو ليرأس الجانب التابع للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين – القيادة العامـــة في اللجنة، على أن يمثل حماس عماد العلمي، المعروف بـــ "المهندس". وتـــصف الاســـتخبارات الإســـرائيلية العلمي بأنه الرجل المسؤول عن تنسيق نشاطات الجناح العسكري لحماس.

لقد بلغت نشاطات الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين – القيادة العامة ذروتها في الفتـــرة الممتدة ما بين السبعينيات والثمانينيات، فكانت المنظمة الاولى التي

تنفذ هجمات بأسلوب انتحاري. في إحدى هذه العمليات، قاد أحد أفراد الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين - القيادة العامة طائرة شراعية إلى داخل قاعدة إسرائيلية قرب كريات شمونة، متسبباً بمصرع ستة ضباط وجنود في 28 تشرين الثاني/نوفمبر من العام 1987.

لقد ساور القلق كبار قادة الجيش الإسرائيلي بسبب حجم الجهود التي يبذلها الفلسطينيون لتسليح أنفسهم، فواصلوا مراقبة كل المتورطين في تجارة الاسلحة عن كثب. على رأس قائمتهم ورد اسم جهاد جبريل الذي كان، كما غيره من قادة فتح، يجول على اسواق السلاح في العالم، ويبتاع الاسلحة التي يتم تسليمها إلى أقرب نقطة من الأراضي الفلسطينية. شكلت إيران المصدر الأساسي للتسلح، لذا بقيت فتح وغيرها من المنظمات الفلسطينية على اتصال دائم مع حزب الله. على الرغم من ان فتح قررت مجاراة عملية السلام، فإن عدم التوصل إلى أي تقدّم أرغم عرفات وقادته على الاستعداد للأسوأ، لا سيما بعدما دمرت إسرائيل بنيته التحتية العسكرية التي كان يفترض أن تحظى بالحماية بحكم اتفاقية السلام.

ظهر يوم الاثنين في 21 أيار/مايو من العام 2002، هز منطقة مار الياس التجارية، غرب بيروت، انفجار هائل دمّر بالكامل سيارة بيجو بيضاء اللون، كانت متوقفة على طرف الشارع. لقد ذكرت أجهزة الامن اللبنانية أن العبوة تحتوي على مواد شديدة التفجير، زنة كيلوغرامين من مادة الـ "تي.إن.تي"، زرعت تحت مقعد السائق، وتمّ تفجيرها بواسطة جهاز تحكم عن بعد. بعد أن انقشع الدخان الناجم عن الانفجار، عُرف أن القتيل هو جهاد جبريل. خلال طفولته، أمضى جهاد جبريل معظم وقته برفقة والده متنقلا بين المخيمات العسكرية في لبنان وسوريا. وكانت قد ذاعت سمعة والده لكثرة المكائد والخطط التي ابتدعها لاستهداف العدو. نجا جهاد من محاولات اغتيال عدة إلى أن قتل اخيراً في التفجير بمنطقة مار الياس.

إتهم قادة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين - القيادة العامة إسرائيل بقتل جهاد، وهي تهمة نفاها وزير الدفاع الإسرائيلي بنيامين بن اليعازر بقوة. أما احمد جبريل

فقـــال أمـــام الصحافيين، في مقر قيادته في دمشق: "هذه المرة، تمكن الموساد من اغتـــيال ابني بعد أن فشل بذلك أربع مرات من قبل". وأبلغ جبريل قناة "الجزيرة" القطرية بأن ابنه كان يشرف على تدريب وتسليح حماس، وهو أمر لم يكن وارداً مـــنذ بضعة سنوات بالنسبة إلى حركة متشددة مثل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين - القيادة العامة.

كان جبريل الاب يعتقد أن قاتل ابنه هو حسين خطاب، وهو فلسطيني في الاربعـــين من عمره، من مخيم عين الحلوة في لبنان، كان يعمل متخفياً لحساب الاســـتخبارات الإســـرائيلية. وفقـــاً لفضل شرورو، فقد قال احمد جبريل بأن الإســـرائيليين اعـــتقلوا خطـــاب في بداية الثامنينيات وإن الموساد جنده للعمل لـــصالحه في الفترة التي أمضاها في السجن، ثم أفرج عنه في 25 نيسان/أبريل من العـــام 1985 في إطار صفقة لتبادل السجناء مع إسرائيل. حينها أفرج ايضاً عن الـــشيخ احمد ياسين، إذ قامت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين - القيادة العامة، بمـــبادلة ثلاثـــة جـــنود إسرائيليين معتقلين بـــ 1150 سجيناً فلسطينياً ولبنانياً محتجزين في السجون الإسرائيلية. وقد لعب الصليب الاحمر الدولي دور الوساطة في عملية التبادل.

تشكل الاسلحة المحظورة التي تدخل الأراضي الفلسطينية عبر البرّ أو البحر أو الجو من الأردن ومصر ولبنان وايضاً من إيران، خرقاً فاضحاً لاتفاق غزّة - أريحا الـــذي عقـــد في العام 1994[67]. كانت إسرائيل قد رصدت دخول كميات من الأســـلحة إلى الأراضي الفلسطينية في سيارات مسجلة باسم مسؤولين فلسطينيين يتمـــتعون بحصانة ما يحول دون خضوع هذه السيارات للتفتيش.لقد ألقي الضوء على مسألة تهريب الاسلحة عبر الطرقات البرية إثر اعتقال سائق شاحنة أردني اسمه عـــبد الباسط سليمان، عند جسر الشيخ حسين قرب بيت شان في 1 آذار/مارس مـــن العام 2001 أثناء محاولته إدخال الاسلحة سراً من الأردن. لقد عثر مسؤولو الجمارك الإسرائيليين على أربعة بنادق كلاشنيكوف ورشاشين من نوع "أم-16" ورشاشـــاً صغيراً من نوع بيريتا عيار 9 ملم و20 مسدساً مخبأين في مطفأة الحرائق ومضخة الهواء.

في حادث آخر، في 25 حزيران/يونيو من العام 2002، اعترضت القوات الإسرائيلية، عند نقطة التفتيش "كارني" بين إسرائيل وقطاع غزّة، شحنة من الاسلحة المهربة مخبأة في شاحنة تحمل لوحة تسجيل إسرائيلية. السائق، وهو عربي من سكان القدس الشرقية، حاول عبثاً إخفاء رشاش "أم-16" ومسدس وكمية متنوعة من الذخائر. وفي تشرين الأول/أكتوبر من العام نفسه، أوقفت الشرطة الإسرائيلية شاحنة كانت في طريقها إلى غزّة وتحتوي على آلاف الرصاصات المخبأة في جدار مزدوج. علي أبو الراغب، رئيس الوزراء الأردني، وتعليقاً على مصادرة خمسة وعشرين قاذفة صواريخ هاون كان يحاول رجل لبناني قدم من سوريا إدخالها سراً إلى الأردن في طريقه إلى الضفة الغربية، قال: "في الأردن، شهدنا حالات عدّة تمّ فيها تهريب الاسلحة أو الذخائر... إلى الفصائل المختلفة عبر الأردن أو إلى الأردن، وهذا ليس بجديد... نحن نتعامل مع هذه المسائل تقريباً بشكل شهري، والامر مرتبط على حجمها. وقد تكون الشحنة الاخيرة هي الاكبر حتى الآن مقارنة بالشحنات السابقة"[68].



الارتباط بالقاعدة

بعـــيد غروب الشمس، يوم 24 نيسان/أبريل 2006، وقعت بشكل متزامن، ثلاثة انفجارات دمّرت مطعم "آل كابون" والمركز التجاري "الغزالة" وجسر مشاة خشبي يرتاده، عند حلول المساء، المتنـــزهون في منتجع "دهب" البحري في سيناء. انهمـــرت قطـــع الـــركام والأثاث وشظايا الزجاج القاتلة على السياح المرعوبين الجالـــسين لتناول العشاء أو المتجولين بين محال بيع التذكارات في أسواق "دهب". كانـــت تلك نهاية ذاك اليوم الهادئ الذي أمضوه في الغطس بين الصخور المرجانية التي يزدان بها خليج العقبة واستحال مساؤه عنفاً وإرهاباً ورعباً.

كانـــت "دهـــب"، وهي اللفظة العامية لكلمة "ذهب"، قد تحولت من قرية بدويـــة هادئة، يقتصر فيها النشاط على صيد الأسماك، إلى موقع رائع يحلم بالتوجه إلـــيه الغطاســـون والمـــسافرون الشباب. تسعة عشر شخصاً قتلوا في تلك الليلة، معظمهـــم مـــن المصريين. وقدّر عدد السياح الجرحى بحوالى التسعين شخصاً من مخـــتلف الجنسيات[1]. لقد كانوا يستمتعون بعطلة مزدوجة إذ صادف يومها عيد شـــم النسيم التقليدي الذي يشهد احتفالات عارمة تحيي حلول أول أيام الربيع، وعيد الفصح القبطي[2].

يـــؤمّن قطـــاع السياحة لمصر أكبر نسبة من مدخولها من العملات الأجنبية، وبالتالي فهو يشكل هدفاً محتوماً لأية منظمة تقصد إلحاق الضرر الجسيم بالاقتصاد المـــصري وإيقـــاع العدد الأكبر من الضحايا. لقد أصبح افتعال انفجارات متزامنة واستهداف السياح العلامة المميزة المميتة للشبكة الإسلامية المتطرفة الدولية المعروفة بـــ "القاعدة"، فكانت المنتجعات السياحية في بالي وكينيا وتركيا عرضة للعواقب المدمـــرة الـــناتجة عن عمل هذه المنظمة. بدورها، حملت هجمات "دهب" بصمة القاعـــدة. إن أوجـــه الشبه بين تفجيرات "دهب" وتلك التي وقعت في منتجعات

أخرى قريبة في "سيناء" – تفجيرات طابا في شهر تشرين الأول/أكتوبر 2004 التي أوقعـــت أربعة وثلاثين قتيلاً وتفجيرات شرم الشيخ في تموز/يوليو 2005 ألتي قضى فـــيها ثمانية وثمانين شخصاً– أجبرت أجهزة الاستخبارات المصرية المنهمكة بحماية صناعة سياحية متقلبة، على إلقاء اللوم على مجموعات البدو الإرهابية المحلية، دون أن تبلغ حدّ الاعتراف بدور مباشر للقاعدة.

بـــدو سيناء هم تقليدياً من رعاة المواشي، وهو أسلوب حياة قوّضته الحكومة المـــصرية باســـتغلالها، منذ منتصف الثمانينيات، وعلى نحو مؤذ، الشواطئ المزدانة بأشـــجار النخيل، إذ أفسحت المجال أمام بناء المنتجعات المدرّة للأرباح على أرض الـــبدو، دون مـــنح هـــذه الجماعة بدلاً مالياً يذكر. فالفنادق تفضل الاعتماد على موظفيها عوض استخدام مهارات البدو التقليدية. كما تستهلك كميات هائلة من المـــياه الـــتي تتزوّد بها من المخزون المحلي وتستكمل حاجتها تحلية المياه المالحة. فلا تتوفر للبدو إلا كميات محدودة للغاية للشرب أو لريّ أراضيهم، الأمر الذي يجبرهم علـــى مغادرة المناطق الساحلية واللجوء إلى الجبال في القسم الجنوبي من سيناء[3]. بعـــضهم يحـــصّل لقمة عيشه بسوق الإبل والجمال لأغراض السياحة كعيّنة عن أســـلوب حـــياة البدو. لكن المناطق الجبلية توفر لهم غطاءً مناسباً لنوع آخر من الـــتجارة المربحة. فتهريب المخدرات والسلاح عبر الحدود مع رفح أغوى الكثيرين منهم، ما جعلهم يزوّدون تجار السوق السوداء في قطاع غزّة، غير الخاضع لسيطرة القوانين، بما يحتاجون إليه من سلع مهرّبة.

وجّهـــت أصـــابع الاتهام إلى جماعة "التوحيد والجهاد"، بصفتها منظمة تابعة للقاعدة، فأصبحت المشتبه به الأول في عمليات التفجير. لقد شكّل خالد مساعد هذا التنظيم في العام 2000، بالتعاون مع أفراد من قبيلة السواركة المشهورة بتاريخها الطـــويل في مقاومـــة الاحتلال الإسرائيلي لسيناء بين عامي 1967 و1973. وزير الداخلـــية المصري صرّح بأن قوّات الأمن ركّزت بحثها في مرحلة أولى حول جبل المغـــارة في شمـــالي ســـيناء، وهي منطقة تشكل برأي الأجهزة الأمنية ملجأ للبدو المنبوذين أمثال سليم الشنوب الملقب بـــ "شيطان الجبل"، صاحب السجل الحافل بـــصفقات السلاح وتهريب المخدرات والناس[4]. إثر معركة بالبنادق دامت بضع

ســاعات، وقتل فيها ستة من الإرهابيين المشتبه بهم وضابط شرطة، تمكنت أخيراً فرق مكافحة الإرهاب المصرية من محاصرة عدد من البدو اختبأوا في كهوف جبل حــلال في الــصحراء[5]. في أعقاب ذلك، ألقي القبض على محمد شحاتة في 29 نيــسان/أبــريل 2006، فاعترف بأنه قاد ثلاثة انتحاريين إلى دهب بعدما اختبأوا داخــل سيارات الفان العائدة له والمخصصة لبيع الخضار. اقتيد أيضاً إلى التحقيق شــخص آخر هو ابراهيم السواركي، الذي ورد اسم أخيه عطاالله من بين منفذي الــتفجيرات. أفاد السواركي القوى الأمنية ببعض المعلومات، مقترحاً على أفرادها تركيــز بحــثها على بعد مئة كيلومتر غرب دهب، وسط الكهوف التي تزخر بها منطقة جنوب سيناء الجبلية الوعرة، حيث تقطن قبيلة جباليا البدوية[6].

أثناء تمشيط المنطقة الجبلية، تكشفت أدلة إضافية تؤكد علاقة التوحيد والجهاد بالقاعــدة. فقد تم العثور على أقراص مدمّجة مسجلة عليها خطابات وتصريحات لــثالوث القاعــدة الذائع الصيت أي أسامة بن لادن ونائبه أيمن الظواهري وقائد التنظــيم في العراق أبو مصعب الزرقاوي[7]. تبث مختلف القنوات الفضائية ومواقع الإنتــرنت بــصورة دورية هذه البيانات الإلكترونية بما تتضمنه من دعوات مألوفة مــوجهة إلى المــسلمين، تحثهم على دعم القاعدة و"مقاومة الحرب التي تشنّ ضدّ الإســلام". لقــد كرّر بن لادن هذه التعابير في شريط مصوّر بثته قناة "الجزيرة" التلفــزيونية يوم الأحد الواقع فيه 23 نيسان/أبريل 2006، أي قبل يوم واحد من وقوع تفجيرات دهب القاتلة.

لم يكــن غبار هذه التفجيرات قد تبدّد بعد من سماء دهب عندما استهدفت عملــيات انــتحارية إضافية عناصر القوات المتعددة الجنسيات والمراقبين الدوليين المتمركزين في صحراء سيناء والمكلفين مساندة حرس الحدود المصريين في مهامهم على الحدود المشتركة بين مصر وغزّة والبالغ طولها إثني عشر كيلومتراً[8]. أول قاتل محتمل ركض أمام سيارة عسكرية كانت تغادر مطار الغورة. وبعد خمس وثلاثين دقــيقة، فجّر الانتحاري الثاني قنبلته وهو يتوجه بدراجته نحو سيارة تابعة للشرطة المــصرية بالقــرب من مدينة العريش. اقتصر القتلى في هذه العملية الفاشلة على الانــتحاريين أنفسهم. طابق هذا الهجوم المعايير التي باتت معهودة بعد تفجيرات

طابـــا وشرم الشيخ، والتي جعلت من عناصر القوات المتعددة الجنسيات والمراقبين الدوليين أهدافاً في مرمى الانتحاريين. أحد الانتحاريين الذين فشلوا بتنفيذ عمليتهم كـــان اسمـــه عـــيد سلامة الطراوي. تعرّفت إليه زوجته سلوى فيما انكر أشقاؤه تعرفهم إليه.

لقد أفادت الشرطة المصرية بأن الطراوي، المتحدر من مدينة العريش الساحلية في شمـــال شرق سيناء، كان قائد التوحيد والجهاد ومهندس تفجيرات طابا وشرم الشيخ[9]. لقد كان اسمه مدرجاً على لائحة المطلوبين من قبل الشرطة منذ أكثر من ثمانـــية عـــشر شهراً، بعدما حددت الشرطة رابطاً بينه وبين السيارة المسروقة التي انفجرت في فندق هيلتون في طابا. كان دور الطراوي أن يختار الانتحاريين ويحضّر المـــواد الناسفة المخصصة لعمليات التفجير. هكذا مواد كالـــ "تي إن تي" يتم إما تهـــريبها أو اســـتخراجها من المناجم القديمة أو من الأسلحة العسكرية المتروكة في الصحراء بعد حرب الأيام الستة في عام 1967، وبعد المعارك في الصحراء المصرية في الحربين العالميتين. في ظل الفوضى التي سببتها التفجيرات، فرّ الطراوي مع أفراد آخـــرين في المجموعة الإرهابية إلى منطقة صحراوية محيطة ببلدة رفح البدوية الواقعة علـــى الحدود مع قطاع غزّة[10]. مكثوا هناك لبعض الوقت قبل أن يقفلوا عائدين إلى العـــريش للانضمام إلى أميرهم خالد مساعد. عيّن الطراوي مرّة جديدة منسقاً رئيـــسياً لعمليتهم المقبلة التي ستستهدف منتجع شرم الشيخ. ناصر خميس الملاحي المشتبه بأنه القائد المنسق لهجمات دهب الثلاث، وقائد تنظيم التوحيد والجهاد، قتل بعد ثلاث أسابيع في تبادل لإطلاق النار مع الشرطة المصرية في حقل زيتون جنوب العـــريش، بعـــدما تمّ الإبـــلاغ عنه. واستعادت الشرطة المصرية عدداً من البنادق الأوتوماتيكية والقنابل اليدوية، وأوقفت شريكاً له يدعى محمد عبدالله أبوجرير[11].

رغـــم إحجـــام قوات الأمن المصرية عن تأكيد أية علاقة مباشرة تجمع بين الانـــتحاريين والقاعدة، أصدر وزير الداخلية بياناً يقرّ فيه بأن القاعدة قد صدّرت أســـاليبها وإيديولوجياتها التي تبناها أفراد إرهابيون منتشرون في مختلف بلدان العالم بمـــا فيها دول القرن الإفريقي[12] واليمن ومالي وإندونيسيا. وأضاف بأن المجموعة المحلـــية المتطرفة المسؤولة عن الهجمات التي شهدتها منطقة سيناء، قد طبقت على

الأرجح، أسلوب القاعدة في العمل، بناء لتصريحات لبن لادن والظواهري مسجلة على أشرطة مصوّرة، فوثقت بالتالي علاقتها بالشبكة الإرهابية.

عـــدم الارتياح الذي أبدته الديبلوماسية المصرية إزاء حماس يعود إلى الحماية والأمان اللذين وفرهما حماس لبعض المتورطين في هذه الموجة من عمليات التفجير الانتحارية التي استهدفت ما بين عامي 2004 و2006 منتجعات سيناء. وعبّر رئيس جهاز الاستخبارات المصرية الجنرال عمر سليمان لوزير الداخلية، العضو في حماس، ســعيد صيام عن إنـــزعاج مصر، في مستهل زيارته إلى القاهرة بعد أسابيع. عقد اللقاء في 27 أيار/مايو 2006 في مكتب سليمان الخاص في مجمع ضخم من الأبنية يشبه مدينة مصغرة. أقيم مقرّ جهاز الاستخبارات المصري في هذا الموقع في منطقة القبّة شرق القاهرة منذ الخمسينيات، عندما أنشئت شبكة أنفاق تحت الأرض تربط المجمـــع بالقـــصر الرئاسي في القبة. واجه سليمان صيام بوثائق مفصلة عن المؤامرة الكامـــنة وراء هجمات سيناء. بين الأدلة وردت اعترافات ثلاثة أعضاء من حماس اعتقلتهم قوات الأمن المصرية. قال سليمان لصيام: "من جهة، أنتم تطلبون منا أن نساعدكم، بينما من جهة أخرى، أنتم تتدخلون في شؤوننا الداخلية".

كان سليمان مزوّداً بملف حافل بالأدلة التي لا يرقى إليها الشك، يفصل بدقة كيفـــية تـــورط أعـــضاء حماس، معدّداً أسماءهم ومحدّداً تحركاتهم. أصيب صيام بالارتـــباك والخجـــل. لقد أكدت مصر أنه في أعقاب تفجيرات دهب الثلاثة، تم توقـــيف ثلاثـــة أعضاء من حماس اعترفوا بارتباطاتهم بالتنظيم الإسلامي المتطرف المعـــروف بـــ "التوحيد والجهاد". وذكر سليمان يسري محارب بالاسم، على أنه أحـــد الأشـــخاص وراء تلك الهجمات. كان يسري قد دخل إلى قطاع غزّة عبر شـــبكة الأنفـــاق تحت الأرض، بمساعدة أفراد من حماس، من بينهم مجيد الديري، وتلقـــى تدريبات على استخدام المتفجرات والأسلحة. أعلنت قوات الأمن المصرية أن يـــسري وأخـــويه منير وأيمن محارب، جميعهم على علاقة مباشرة بالإسلاميين المتطرفين الفلسطينيين. قتلت قوات الأمن المصرية منير في الأول من أيار/مايو 2006 ، وصـــدر بـــيان عن وزير الداخلية المصري يفيد بأن "قائد المجموعة نصر خميس الملاحي أرسل بعضاً من معاونيه إلى فلسطين لتلقي تدريبات على المتفجرات، منهم

أحمـــد محمد الكريمي ومحمد عبد العزيز نافع وعطاالله القرم وهم منفذو العمليات الانتحارية في منتجع دهب".

أدخل الملاحي، قائد "التوحيد والجهاد"، خبير المتفجرات المتمرّس والمنتمي إلى حماس تامر النصيرات خلسةً إلى مصر. كانت للنصيرات اتصالات بيسري محارب، أحد الإخوة الثلاثة المتورطين في الإعداد للهجمات والعاملين على تنفيذ المزيد منها داخـــل مـــصر. الفلسطيني أبو سليمان الذي يزور مصر بشكل دائم، زوّد يسري بألـــف دولار أميركي وهاتف خلوي بداخله بطاقة SIM تعمل على شبكة تخابر إســـرائيلية. كان سبق لأخيه منير أن استخدم بطاقة SIM هذه نفسها وحصل من أبو سليمان أيضاً على مبلغ 500 دولار أميركي.

يلعـــب بدو سيناء دوراً مؤثراً وأساسياً على صعيد عمليات التهريب المتبادلة مـــع الفلـــسطينيين في قطاع غزّة، عبر شبكة الأنفاق تحت الأرض. بدأت شبكة الأنفاق هذه، التي تمتدّ من منطقة رفح في غزّة عبر الحدود إلى داخل مصر، تنشأ في العـــام 1982، بعـــد انسحاب إسرائيل من سيناء بوقت قليل، وبالتزامن مع توقيع اتفاقيات كامب ديفيد[13]. غالبية مستخدمي الأنفاق من الفلسطينيين الذين ينقلون البـــضائع من جهة إلى أخرى، كانت من الشبان التي لا تتجاوز أعمارهم العشرين عاماً. بالنسبة للبعض منهم، كان الأمر مجرد عمل يتقاضون أجراً لقاءه، فيما اعتبر آخرون أنه بمثابة امتحان ممهد لالتحاقهم بالمقاومة. شارك مهربون مصريون نظراء لهـــم فلـــسطينيون في هـــذه التجارة غير القانونية عبر الحدود. واستخدم المقاتلون الفلـــسطينيون المـــواد المهربة بهذه الطريقة، وتحديداً مادة أمونيوم النيترات، لانتاج متفجرات بأنفسهم، وسرعان ما صاروا خبراء في هذا المجال.

في الأســـاس، تمّ استخدام هذه الأنفاق لتهريب الذهب والمخدرات والسماد والـــسجائر عبر الحدود المشتركة، بعيداً عن مراقبة الجيش الإسرائيلي. ومن المعلوم أيـــضاً أن مواد غير تقليدية كانت تعبر في هذه الممرّات الضيقة تحت الأرض، منها مـــثلا طائـــر الـــنعامة وحيّة البايتون وسواها من الحيوانات التي توضع في حديقة الحيوانات الصغيرة في رفح والتي تشكل أحد الأماكن الترفيهية القليلة للآطفال[14]. لكن هذه الحديقة لم تعد موجودة. لقد دمّرتها الجرافات الإسرائيلية في العام 2004.

عـــدد كبير من الحيوانات سُحق داخل أقفاصه، فيما القليل المحظوظ منها تمكّن من الهـــرب. أحد أصحاب الحديقة الخاصة، محمد أحمد جمعة، إتهم الإسرائيليين بسرقة بـــبغاواته الأفريقية الثمينة[15]. متحدّث باسم الجيش الإسرائيلي نفى مسألة تدمير حديقـــة الحيوانات قائلاً: "كانت مجرّد حديقة صغيرة للحيوانات الأليفة قريبة من مدرسة، والحيوانات هربت بطريقة أو بأخرى. لم نتعرّض لها بالأذى"[16]. قال لي أحـــد أفـــراد عائلة أبو الريش في رفح إن بعض الحيوانات التي نجت من الجرافات الإسرائيلية تمّ تهريبها مجدّداً عبر الأنفاق الضيقة والخانقة إلى مصر. ربما كانت تلك نهاية سعيدة بالنسبة لجميع القردة والتماسيح والنمور والأفاعي التي أبلغ السيد جمعة عن فقدانها[17].

فـــيما ارتفعت حدّة المواجهات خلال الانتفاضة الفلسطينية الثانية وأخضعت طـــرق التهريب البحرية عبر البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر لمراقبة مشدّدة، صارت غالبية السلع التي تمرّ بالاتجاهين عبر شبكة الأنفاق الآخذة بالتمدّد، تقتصر علـــى السلاح. أمّا الدافع الذي كان يحرّك المهربين، فلم تكن أهداف سياسية أو وطنية، بل اقتصادية. وجاء الردّ الإسرائيلي في السوق السوداء الخاصة ببيع السلاح ليرفـــع الأســـعار أكثر فأكثر. كان بيع رشاشات الكلاشنيكوف والرصاص يؤمن مداخـــيل وفيرة لبدو سيناء الذين كانوا يتزوّدون بها من مصادر في مصر والأردن والـــيمن وأيـــضاً، منذ فترة قريبة، من دارفور حيث توضع على صناديق الذخيرة علامـــات تـــشير إلى أن مصدر البضاعة هو السودان. من الممكن أن يباع رشاش كلاشنيكوف من طراز "أيه كي 47" عشرات أضعاف سعره بمجرّد نقله في رحلة قـــصيرة عـــبر الأنفاق، إذ يضاف لدى وصول الرشاش إلى السوق السوداء، صفر وحيد إلى سعره المحدّد أصلاً بمئتي دولار أميركي[18]. الرصاص أيضاً مربح جدّاً، إذ نـــسبة الأربـــاح قد تصل إلى سبعة دولارات في الرصاصة الواحدة. إذاً، بالنسبة للـــتجار، فإن العنف مدرّ للربح ومحرّك للأموال. حتى أن الأنفاق بحدّ ذاتها زادت قيمـــتها عـــن العقـــارات العادية، وأصبح أصحاب الأرض الأثرياء المعروفين بـــ "رؤوس الأفاعـــي" يؤجـــرونها لزبائنهم أمثال حماس وفتح وغيرها من المجموعات العسكرية، لقاء عشرة آلاف دولار لليلة الواحدة[19].

عندما وصلت إلى الجانب الفلسطيني من رفح، كانت مهمتي تقضي بالعثور على شخص يعرّفني إلى عالم مستخدمي الأنفاق السريّ. قادني هذا السعي إلى عائلة الشاعر، فأفرادها معروفون بأنهم روّاد شق الأنفاق. لقد طوّروا أساليب بنائها، إذ جمعوا كمّاً هائلاً من المعلومات في علم الجيولوجيا، لا سيما تلك التي تتعلق بطبيعة الطبقات الصخرية والرملية القاسية والهشة، فأصبحوا بالتالي مقاولين أغنياء متخصصين في بناء الأنفاق. لكن، حتى خبرة هذه العائلة لم تقف حائلاً دون الحادث الذي ألمّ بها قبل أقلّ من عام. يوم الجمعة الواقع فيه 2 تشرين الثاني/نوفمبر 2001، قتل ثلاثة شبان من العائلة داخل أحد الأنفاق الذي كانوا يعملون على إنشائه عندما تسرت مياه أحد الأنابيب المهترئة عبر جدران النفق الرملية، مسببة بانهيار الأساسات على الشبان الثلاثة. هرعت دورية إسرائيلية إلى المنطقة ومشطت النفق بحثاً عن أسلحة مهرّبة، فيما استعادت العائلة المفجوعة جثث محمد صلاح الشاعر (24 عاماً) ومحمد عبدالله الشاعر (21 عاماً) وأخيه سليمان (20 عاماً) لدفنها.

يصف كريم الشاعر[20]، المتخصص في بناء الأنفاق وذو الخبرة التي ترقى إلى سنوات كثيرة، تلك المَطارد البشرية على أنها "مجرّد أوكسيجين نقي بالنسبة للفلسطينيين القاطنين في قطاع غزّة. فهم في غياب هذه الأنفاق سيكونون معتقلين داخل سجن". لقد شرح لي كيف أنهم عدّلوا في تصاميمهم ليتمكنوا من استبدال تلك التي تطمرها الجرافات الإسرائيلية بنماذج أقل كلفة يصفها بأنها "أنفاق جاهزة للتسليم السريع". لقد حدّد سعر هذا النوع من الأنفاق ما بين 15 و20 الف دولار أميركي، يمكن بناؤه في وقت قياسي وتستعاد كلفة إنشائه في ليلة تهريب ناجحة وحيدة. لكن النموذج المفضل لديه هو المزوّد بالكهرباء وبنظام اتصالات وبمصاعد، وتصل كلفة بنائه إلى حدود مئتي ألف دولار أميركي.

لقد رفه كريم عني بأخباري عن عرائس يسلكن هذا الطريق تحت الأرض من مصر إلى غزّة ليعقدن قرانهن، ويرافقهن قطيع من الخراف المغلوب على أمرها المخصصة لمائدة العرس. عائلات كثيرة انفصل أفرادها بعضهم عن بعض إثر الانسحاب الإسرائيلي من سيناء، عندما تمت إعادة ترسيم الحدود، فقسّمت مدينة

رفح إلى جزء فلسطيني وآخر مصري[21]. يبلغ ثمن خروف واحد في الجانب المصري 34 دولاراً أميركياً فيما يصل في غزّة إلى 250 أو 300 دولاراً أميركياً. يستخدم الفلسطينيون هذه الأنفاق أيضاً في بحثهم عن علاج طبي، إذ منعهم الإسرائيليون من السفر. كما يسلكها من يريد تجنب التعرض للتوقيف أمثال سامي أبو مشهداني المدرج اسمه على لائحة أهم عشرين مطلوباً من قبل الإسرائيليين. عندما التقيت سامي في القاهرة عام 2001، قال لي كم كان يائساً لإجراء عملية جراحية في قلبه في مستشفى متخصص في القاهرة، وكيف مرّ عبر الأنفاق لعبور الحدود وللوصول إلى مصر. ويتابع سامي روايته ضاحكاً، إذ عندما حاولت زوجته اللحاق به عبر الطريق التقليدي، من خلال مركز تفتيش إسرائيلي عند معبر رفح، رفض الجنود الإسرائيليون السماح لها بالمرور وقالوا لها: "لماذا لا تعودين ادراجك وتسلكي النفق ذاته الذي سلكه زوجك؟"

وفر وجود هذه الأنفاق للقوات الإسرائيلية ذريعة لتكثف برنامج الهدم الذي تنفذه الجرافات التابعة لها. ما بين 29 أيلول/سبتمبر 2000 والأول من كانون الثاني/يناير 2004، اكتشف الجيش الإسرائيلي ودمّر أربعة وتسعين نفقاً في منطقة رفح[22]. في الوقت عينه، تم تدمير 4500 منزلاً فلسطينياً[23]. كل منزل كان يشتبه الجيش الإسرائيلي في أنه يخفي مدخل أو كوّة نفق كان عرضة للهدم. لقد أصبحت الانفجارات الاعتباطية حدثاً ليلياً يؤمل من ورائه انهيار جُحر للمهربين. كما تسبب القصف المتواصل الذي كانت تقوم به دبابات المركافا الضخمة مستهدفة أساسات الأنفاق الرملية، بالعديد من الانهيارات، ما أجبر مهندسي الأنفاق على إعادة درس خرائطهم وزيادة نسبة الحفر ليصل إلى عمق ما بين عشرين وخمسة وعشرين متراً. إن الموت في هذه الأنفاق هو واحد من الأخطار العديدة التي تواجه كل شخص يسلكها، وهو يعتبر في الثقافة الجماعية السائدة في غزّة بمثابة الشهادة، بما أن حافري الأنفاق الذين قضوا أثناء عملهم كانوا يؤدون واجباً تجاه القضية الفلسطينية.

كدت أن أصبح أنا أيضاً في عداد ضحايا الأنفاق، رغم أنني حينها لم أكن بعد على علم بوجود ما يسمّى "ثقافة الأنفاق". كنت أزور منطقة صلاح الدين

القريبة من مجمع "و" في مخيم رفح للاجئين صباح 11 تشرين الثاني/نوفمبر 2002. وكان الجيش الإسرائيلي يسيّر دوريات في الطريق غير المعبد البالغ طوله 12.5 كيلومتر والذي يشكل منطقة عازلة معروفة باسم ممرّ فيلادلفيا. يفصل هذا الممرّ بين مصر وقطاع غزّة، ويمرّ ثلثه بمحاذاة رفح. لقد أقامت إسرائيل هذه المساحة الرملية الضيقة التي لا يزيد عرضها على مئة متر للحدّ من حركة تبادل المخدرات والأسلحة والناس القائمة فوق الأرض بين مصر وقطاع غزّة. في ذاك الصباح، وصلت القوات الإسرائيلية، ترافقها أربع دبابات وثلاث جرافات، وأمرت سكان منزلين بإخلائهما في مدة زمنية تكاد لا تكفيهم لأخذ مقتنياهم. غادرت المكان الذي تجمّع فيه الصحافيون المحليون وفريق عمل شبكة CNN وأهالي منطقة صلاح الدين لمشاهدة الجرافة الإسرائيلية الذي بدأ صوت محركها يرتفع بشكل مطرد، فيما راحت تتقدم وتتراجع وتتقدم من جديد، وهي ترتعد بفعل الضغط، إذ راحت تدكّ المنازل المشيّدة باسمنت مسلح، على بعد 150 متراً من مركز عسكري مصري. فيما مشيت باتجاه الجرافة المتراجعة والعائلات المهجرة هرب مرتعبةً، محاولة النجاة ببعض متاعها، قذف بي انفجار ضخم أرضاً. كان المصوّر الذي يرافقني يصوّر مشهد الجرافة على بعد بضعة أمتار، فالتقط بواسطة عدسة كاميرا الفيديو غيمة ضخمة من الدخان والغبار والرمل إنبعث إثر الانفجار المفاجئ. كدت ألا أنجو من الموت لولا السترة الواقية من الرصاص والخوذة اللتين سبق لي أن استعرهما، لحسن الحظ، من فريق CNN. كما لم يلحق بمصوّري أيّ أذى. كان الجيش الإسرائيلي قد زرع متفجرات في نفق يمرّ تحت اقدامنا، لكنه لم ينذرنا ولم يزوّدنا بأية معلومات بخصوص العملية المنوي تنفيذها رغم أن الجنود الإسرائيليين كانوا على علم بوجود الصحافيين. فيما كنت أزيل الرمل والغبار عن جسمي الذي لم يصبه أذى يذكر، رحت أفكر بتهوّر الجنود الإسرائيليين الذي تسبّب بمقتل العديد من السكان المحليين، ومن العمال الأجانب والمتطوعين والصحافيين. أذكر أنني شكرت الله على نجاتنا وعلى المحيط الرملي الذي كنا متواجدين فيه. فلو كنا بين الصخور والحجارة لكنا بالتأكيد أصبنا بجروح إن لم نقتل.

بعد أحداث مماثلة، سرعان ما يباشر مهندسو الأنفاق بإصلاح الأضرار. فهم يستندون إلى خط مدخل النفق السابق كمرشد لهم في أعمالهم، ويبنون مدخلاً جديداً موازياً للمدخل الأصلي بهدف بلوغ القسم غير المتضرّر من النفق. لقد كان الجيش الإسرائيلي قادراً على تدمير أفواه الأنفاق لا قلوبها.

معبر رفح هو بوابة ما يسميه الفلسطينيون "سجنهم في الهواء الطلق" أي قطاع غزّة. عندما عبرتُ نقطة التفتيش في رفح آتياً من مصر في 18 كانون الثاني/يناير 2006، بدا لي واضحاً أن المسؤولين المصريين والفلسطينيين يغضون الطرف عن تطبيق أي نوع من أنواع المراقبة الفعلية للحدود. عرض أحدهم على امرأة طاعنة في السن كانت في مصر للتسوق أن يساعدها على عبور الحدود. فقد كانت ترزح تحت حمل علب كثيرة موضبة فيها أدوات منزلية غير متوفرة أو باهظة الثمن في غزّة. عادةً، لم تكن النساء الكبيرات في السن يخضعن للتفتيش بداعي الاحترام، كما كان معروفاً أن كثيرات منهن يجلبن معهن عدداً من علب السجائر الرخيصة لأقاربهن من الرجال مخبأة في طيّات جلابياهن الواسعات. هذا التساهل الذي يمارسه البلدان العربيان الجاران، مصر والأردن، حدا بإسرائيل أن تشتكي من تحول الحدود إلى مدخل، أشبه بالباب الدوّار، للإرهابيين.

منذ ما يعود إلى شهر كانون الأول/ديسمبر 2002، ورئيس الوزراء الإسرائيلي آريل شارون يعلن بأن أفراداً من القاعدة ينشطون في قطاع غزّة، ويتوعّد بأن إسرائيل ستتخذ "كافة الخطوات لحماية نفسها من أي اعتداء". وقال: "إننا نعرف بأنهم موجودون هناك. إننا نعرف أنهم موجودون في لبنان ويعملون بشكل وثيق مع حزب الله. إننا نعلم أنهم موجودون في المنطقة"[24]. ردّاً على تصريحات شارون في ذلك اليوم، قال ياسر عرفات أمام جمع من المراسلين في مقرّه في رام الله في الضفة الغربية: "إنها كذبة كبيرة، كبيرة، كبيرة، كبيرة، لتغطية اعتداءات شارون وجرائمه بحق شعبنا".

عندما قابلته على انفراد حول مائدة العشاء، شرح لي عرفات بأن "أسامة بن لادن أضرّ بالقضية الفلسطينية أكثر من أي شخص آخر...لولا اعتداءات 11 أيلول/سبتمبر الإرهابية على الولايات المتحدة، لكان الفلسطينيون أقرب من أي

وقت مضى في تاريخهم الحديث، من تحقيق حلمهم بدولة فلسطينية مستقلة". وتابع كلامــه وهو يشكك بصدقية بن لادن، ومشدّداً على أن "ما من تصريح وحيد أو مــن هجوم حصل ضدّ القوات المحتلة في الضفة الغربية وغزّة. بدلاً عن ذلك، فقد أنفق ثروته على إلحاق الضرر بسمعة العرب والمسلمين في كافة أنحاء العالم بجعلهم مرتبطين بالإرهاب والحقد".

تزامن تصريح شارون الذي اتهم فيه خلايا القاعدة بالتواجد في غزّة مع خبر صحافي جاء ليعزّز طرحه[25]. لقد أوردت صحيفة يومية إسرائيلية خبراً عن عملية للقاعدة لمهاجمة فريق كرة القدم الإسرائيلي الوطني خلال مباراة الذهاب في مالطا. كانــت المباراة قد حصلت قبل شهرين، في 12 تشرين الأول/أكتوبر 2002. لقد أوقفــت قوات مكافحة الإرهاب الإيطالية رجلاً تونسياً اسمه حمادي بوهية مشتبه بارتباطه بالقاعدة ومقيم في إيطاليا، إضافة لأربعة أشخاص آخرين. وفقاً للصحيفة الإســرائيلية، فإن الشرطة الإيطالية، بناء على معلومات زوّدتها بها القوات الأمنية الإســرائيلية، اعترضــت مكالمــة بين أعضاء محتملين في خلية إرهابية، يقول فيها أحــدهم، على حدّ ما تم نقله: "كل شيء حاضر للمباراة. الملعب جاهز، وعلينا باللعــب. سنفوز، سنفوز دائماً". وكالة رويترز للأنباء أفادت بأن قوات الشرطة الإيطالية نفت أي علم بالمكيدة المزعومة[26].

بــذور هذا الخبر زرعها منذ عام 2001 عملاء تابعون لجهاز الأمن الداخلي الإســرائيلي، الشين بيت، عندما تزوّدوا بهويات عربية مزوّرة وادّعوا بأنهم يعملون لصالح القاعدة، وكانوا سيبدأون بالاتصال بفلسطينيين لتجنيد متطوعين من بينهم لينــضموا إلى خلايا وهمية للقاعدة ستنشأ في غزّة. يصف "ابراهيم" من غزّة نفسه بأنه "مجنّد هام". لقد استجاب لإعلان اختيرت كلماته بعناية ورد في مجلة صدرت في القدس في تشرين الأول/أكتوبر 2001، وكما كان مطلوباً، فقد أرسل صورته ورقــم هاتفــه الخلوي. إتصل به رجل يستخدم اسم "يوسف" ويلقب بــ "أبي عــثمان". قــال يوسف للفلسطيني بأنه يذكره بابنه الذي قتل، وبعث إليه بألفي دولار أميركــي، طالباً منه بإلحاح بأن يصبح أكثر تيقظاً وأن يواصل تأدية واجباته الدينية. تحدث ابراهيم، وهو مقنع، في مؤتمر صحافي نظمته وكالة الأمن الوقائي في

10 كانون الأول/ديسمبر 2002، بعدما تم الكشف عن المكيدة، فوصف كيف أنه بعد خمسة أشهر من محادثتهم الأولى، قال له العربي المزيف: "أنت مؤهل جداً للعمل معنا في شركة أسامة بن لادن وفي مجموعة القاعدة" وادعى أنه سبق له وأنشأ خلية للقاعدة داخل إسرائيل. عندئذ، أبلغ ابراهيم أجهزة الأمن الفلسطينية بما حصل، فباشرت بمراقبة حركة الاتصالات. عندما بدأ العميل الإسرائيلي يطالب بمعلومات أكثر دقة تتعلق بأشخاص محدّدين في غزّة، معروفين بانتمائهم لحماس، وضعت أجهزة الأمن الفلسطينية حدّاً لعلاقة ابراهيم ويوسف، قائلة إن الأمر أصبح في غاية الخطورة[27].

عميل إسرائيلي آخر يستخدم أيضاً اسم "يوسف"، اتصل بالمواطن الفلسطيني "ب. ب". من رقم هاتف أردني 0096277670253، راجياً إياه أن يتابع تأدية فروضه الدينية، وأن يستأجر منزلاً، ويبتاع آلة فاكس. ثم قام "يوسف" بتحويل أموال إلى "ب. ب". وأرسل له بطاقات للهاتف الخلوي تعمل على شبكة "أورانج"، مقابل معلومات عن فلسطينيين محتمل تجنيدهم في صفوف القاعدة، كما عن كيفية تهريب الأسلحة من إسرائيل إلى قطاع غزّة. وأعطي "ب.ب". رقماً إسرائيلياً 055971295 لمكالمة "يوسف".

عميل آخر تابع للشين بيت يستعمل لقب "أبو عمر" إتصل بالفلسطيني "ر.م". عبر رقم أردني 00961386807‪5‬. إدّعى العميل بأنه عضو سابق في حماس لكنه يعمل حالياً بقيادة الشيخ أسامة بن لادن، وأنه يريد دعم الانتفاضة والمساهمة في الحفاظ على زخمها. ثم أرسل أبو عمر مبلغ ألف دولار أميركي إلى "ر. م". ليشتري جهاز كمبيوتر وآلة فاكس. وطلب من "ر. م". أن يرشح ويجند فلسطينيين يرغبون بالاستشهاد. بعض الاتصالات بين الرجلين تمّت عبر شبكة الإنترنت. وقد استعمل العميل الإسرائيلي أرقاماً هاتفية مختلفة للاتصال بـ "ر. م"..

تودّد "أبو شعيب" إلى الفلسطيني "أ. م". وقدّم له عدّة مبالغ مالية، سلّمه إياها أولاً في أماكن محدّدة ثم بتحويله الأموال إلى حسابٍ في أحد المصارف الفلسطينية. تلقى "أ. م". حوالى 7500 دولاراً أميركياً.

تخـــوّف عمـــيل الـــشين بيت من أن يعرف جهاز الأمن الوقائي الفلسطيني بعلاقـــتهم ونـــبّه "أ. م". إلى ضرورة أن يخبئ آلة الفاكس التي كان يستخدمها في اتـــصالاهم، نـــبهه إلى أنه في حال تمّ توقيفه، فليقل بأن المتصل به هو من المملكة العربية السعودية.

أبـــو عمر الذي كان يدّعي الاتصال من لبنان، هاتف فلسطينيين آخرين هما "أ. س". و"ه. س". وقال لهما بأهما سيسافران إلى تركيا تحت غطاء رحلة عمل، وذلـــك للتدرب على أسلحة متطورة. كما قال لهما إنه سيتم إرسال المال اللازم على شكل تحويل مصرفي من القدس الشرقية باسم خالد جابر وبقيمة 200 ديناراً أردنياً، وتحويل مصرفي آخر بقيمة 340 ديناراً باسم عماد يونس من بلدة أم الفحم العـــربية الـــواقعة داخل الخط الأخضر في منطقة الجليل. الاتصال الثاني لأبو عمر بالرجلين تمّ في 25 حزيران/يونيو 2002، وقد أجراه عبر شبكة الإنترنت، مستخدماً العنوان الإلكتروني Omar3500@unicum.dc. في هذا الاتصال، أعلم الفلسطينيين بأنـــه يعمل في خدمة أسامة بن لادن، وأهما نفذا "عملية كبيرة ضدّ العدو". لقد وردت في هـــذا الاتـــصال إشـــارة إلى ناقلـــة النفط "كول"[28] مفادها: "بعدما دمرناها... سيطوّق أعداؤنا المنظمة ولكن، بالتأكيد، أننا سنهزمهم جميعاً"[29].

بهذه الطريقة، طوّع جهاز الشين بيت سبعة مجندين محتملين على الأقل لصالح القاعدة. إلا أنه بطبيعة الحال، أوقفهم جهاز الأمن الوقائي. وفقاً لأقوال أبو شباك، فإن سبعة من بين هؤلاء الموقوفين قدّموا معلومات مفيدة تتعلق بالمتصلين بهم وأطلق ســـراحهم، أمـــا الأربعـــة الباقين من المجندين المحتملين لصالح القاعدة، بمن فيهم "ابراهيم"، فبقوا في عهدة جهاز الأمن الوقائي.

قـــدّم قائـــد جهـــاز الأمن الوقائي الفلسطيني رشيد أبو شباك أدلة مادية إلى الـــولايات المتحدة الأميركية وبريطانيا وفرنسا تثبت بأن الشين بيت، بالتعاون مع أجهـــزة استخبارات إسرائيلية أخرى، كان متورطاً في عملية تجنيد "دمى" لخلايا القاعـــدة داخل الأراضي الفلسطينية على مدى أكثر من سنة[30]. في سياق مقابلة أجـــريتها مع أبو شباك في غزّة في 18 شباط/فبراير 2006، وأخرى مكمّلة للأولى عـــبر الهاتف من لندن، قال لي أبوشباك إن الدول الغربية أبدت اهتماماً بالغاً بهذه

المعلـــومات، "لكنها لم تستطع أن تعد بأي شيء أو أن تتخذ أي إجراء، بما أنه لا يمكـــنها أن تقـــف ضد إسرائيل رغم علمها اليقين بأن القصة كاملة هي من صنع إســـرائيلي. لكنـــنا أبقيـــناهذه الـــدول، طوال مدة الأشهر الستة التي استغرقتها التحقيقات، على اطلاع تام بمجرياتها حتى تمكنا من كشف الحقيقة كاملة".

اتهم أبو شباك إسرائيل بأنها" تقوم بألاعيب وسخة" بنية تقويض الثقة بالسلطة الفلسطينية وإثارة المشكلات بين الولايات المتحدة الأميركية والفلسطينيين. لم تكن ذكرى اعتداءات 11 أيلول/سبتمبر 2001 الإرهابية قد خفتت حدّتها بعد، وكانت الأجـــواء العامة مخيفة، حين أعلن المجتمع الدولي حربه الجماعية ضدّ القاعدة. وفقاً لأبـــو شـــباك، فإن الاستراتيجية التي اعتزمت إسرائيل التزامها تمثلت بالوقوف في الـــصف الأول للمـــواجهة، إلى جانب الولايات المتحدة الأميركية في "حربها على الإرهاب"، لقاء حصولها على ضوء أخضر لتنفيذ سياساتها الخاصة ضدّ الإرهاب. ويتابع أبو شباك تحليله قائلاً:

"إن إسرائيل تحاول تبرير اعتداءاتها وحملاتها العسكرية التي تنفذها قواتها باستغلال أحداث 11 أيلول/سبتمبر تحقيقاً لمصالحها... لقد شكل التجنيد لصالح خلايا القاعدة المـــزيّفة ذات النشاط المزعوم داخل غزّة محاولة لـــ "أفغنة" الأراضي الفلسطينية، الأمر الـــذي كان سيستخدم ذريعةً لشنّ حرب واسعة النطاق ضدّ الشعب الفلسطيني بعد دمغه بتهمة ممارسة الإرهاب. لكن إذا ما استمر الوضع على حاله من فقر ومأساة وألم وبطالة، فإننا عندئذ، نكون قد أنتجنا البيئة الفضلى لنمو الحركات المتطرفة"(31).

لقـــد أرســـلت وثـــيقة إلى السفارات الإسرائيلية كافة تتضمن دليلاً يفصل للديبلوماسيين نقطة بنقطة، كيفية جمع الدعم لإسرائيل في موازاة العمل على قلب الـــتعاطف الغربي إزاء الوضع الفلسطيني، وذلك عبر استخدام كل فرصة إعلامية للربط بين القاعدة والقيادة الفلسطينية. من الواضح من مضمون الوثيقة أنه من غير المهـــم مـــا إذا كـــان هـــناك من وجود فعلي لهكذا علاقة. لقد قضت النصيحة الديبلوماسية بأن يتم استخدام هذه الكلمات المزعجة على أنها استراتيجية تهدف، لا إلى تـــزويد الإســـرائيليين بالمعلومات، بل إلى إبقاء سيطرة إسرائيل على حرب الاتصالات مع الفلسطينيين.

لإسرائيل تاريخ طويل ومخزٍ في مجال الإرهاب المزيّف، ولعل أشهر تجاربها قضية "لافون" التي حملت تسمية مشفرة هي "عملية سوزانا". لقد زرع الإسرائيليون القنابل في أماكن عدة يستخدمها الأميركيون والبريطانيون في مصر، واتهمت منظمة الإخوان المسلمين بالتورط بهذه العملية، بهدف خلق انطباع بأن الإرهابيين العرب يخوضون حملة لضرب المصالح الأجنبية في البلاد. لقد عارضت إسرائيل بشدّة الانسحاب البريطاني المزمع من عملية إدارة قناة السويس، معتبرة بأن الوجود البريطاني له فعل ضبط طموحات الرئيس عبد الناصر العسكرية[32]. كانت حسابات إسرائيل تقضي بأن بريطانيا ستكون مجبرة على الإبقاء على تحكمها بالقناة البحرية الحيوية في حال إثارة الخوف داخل المجتمع الديبلوماسي والمالي الأجنبي.

أيضاً أثناء حرب الأيام الستة في شهر حزيران/يونيو 1967، هاجمت إسرائيل السفينة USS Liberty العائدة للاستخبارات الأميركية التي كانت ترابط في المياه الدولية قبالة شبه جزيرة سيناء. إدّعى الإسرائيليون بأهم اعتقدوا بأن السفينة مصرية، رغم العلم المميز بنجومه الكبيرة وخطوطه العريضة الذي كان يرفرف على السفينة، وسواه من العلامات الأميركية الواضحة للعيان. قتل أربعة وثلاثون جندياً أميركياً في الخدمة وجرح أكثر من مئة وسبعين. اتهمت إسرائيل بمحاولة تدمير سفينة الجاسوسية الأميركية بهدف منعها من رصد اتصالات إسرائيلية تفيد عن هجوم مخطط له على هضبة الجولان لانتزاعها من سوريا، قبل التزامها وقفاً لإطلاق النار دعت منظمة الأمم المتحدة إلى تطبيقه[33].

كما حصلت مكيدة أخرى عندما بدأت الولايات الأميركية تتلقى معلومات استخباراتية مفادها بأن ليبيا مسؤولة عن تفجير وقع عام 1986 في ملهى ليلي في برلين يرتاده الجنود الأميركيون. فأمر الرئيس رونالد ريغان بقصف مدينتي طرابلس وبنغازي الليبيتين، واستهداف مكتب ومنزل العقيد معمر القذافي بالذات. قتل أربعون شخصاً بمن فيهم ابنة الرئيس الليبي بالتبني وهي مجرد طفلة. كشف لاحقاً بأن جهاز الموساد قد وضع جهازاً للتنصت على الاتصالات يبلغ طوله ستة أقدام ويعرف بـ "تروجان" على سطح مبنى مؤلف من خمسة طبقات في العاصمة

الليبية، يتلقى ما يبثه فرع المعلومات المزيفة التابع للموساد ويبثهم على موجات الاتصالات التي يستخدمها النظام الليبي. "بدأ الموساد ببث رسائل عبر جهاز "تروجان" ظهرت وكأنها سلسلة طويلة من الأوامر الصادرة عن إرهابيين وموجّهة إلى مختلف السفارات الليبية حول العالم"[34]. رصد الأميركيون هذا البث واعتبروه دليلاً على أن ليبيا هي داعم فاعل للإرهاب. ولكن، فيما كان برنامج الخدع الإسرائيلية يأخذ مجراه، وبغير علم الإسرائيليين، كان تنظيم القاعدة الحقيقي يعمل، بعيداً عن أية رقابة، على إنشاء شبكة فعلية في الأراضي الفلسطينية المحتلة.

في سياق رصدها المنتظم للاتصالات الهاتفية، تنبّهت الشرطة الإسرائيلية إلى أحاديث أثارت شكوكها، كانت تجري عبر شبكة الهاتف الخلوي بين فلسطينيين اثنين في التاسعة عشرة من العمر من مخيم بلاطة للاجئين قرب نابلس، فبدأت بمراقبة هذه الاتصالات. الشابان عزام أبو العدس وبلال حفنة كانا قد اجتمعا إلى منسقين لعمليات القاعدة في الأردن وأقاما معهم اتصالات إلكترونية سرية. لقد فتح لهما حساب مصرفي تلقيا عبره من القاعدة مبلغاً بالدينار الأردني يوازي 4240 دولاراً أميركياً لتمويل عملية انتحارية مزدوجة. أولى تلك العمليتين كانت ستستهدف محلاً لبيع البيتزا في حي "التلة الفرنسية" في القدس. وفيما يتفقد الناس المحل بعد تعرّضه للتفجير، تنفجر سيارة مفخخة وسط الحشد الذي سيتجمع حتماً في الشارع المحاذي. كانت تلك المرّة الأولى التي تتمكن فيها إسرائيل من تحديد علاقة فعلية بين فلسطينيين من الضفة الغربية وتنظيم القاعدة، بعدما اتهمت محكمة عسكرية هذين الشابين بجرم تلقي أموال غير شرعية.

أورد القرار الاتهامي بالتفصيل كيف تعرّف الشابان إلى منسقين لعمليات القاعدة. لقد زارا الأردن ثلاث مرات على الأقل، إما سوياً أو كلّ على حدى، للقاء الشخصين اللذين يزودانهما بالتوجيهات وهما عبدالله وأبو طلحة. عقدت اللقاءات في إربد، شمال الأردن، ابتداءً من شهر أيار/مايو 2005. وفي الشهر التالي، تلقى الشابان تعليمات حول كيفية تجنب الرصد وتجنيد أفراد بالسرّ لصالح خلايا التنظيم، من دون أن يعرف المجند من هو سواه أيضاً عضو في الخلية، كما عن كيفية التصرف في حال إلقاء القبض عليهما. عندما عاد الرجلان إلى نابلس، عقدا

اجـــتماعات إمّـــا في مدافن المخيم أو في منـــزليهما، وبدآ باستدراج آخرين إلى مجموعـــتهما بهـــدف التخطيط لعملية التفجير المزدوجة. إتصلا بصانع للقنابل من طولكـــرم. وافق صانع القنابل على تحضير قنبلة ووضعها داخل سيارة مسروقة من إســـرائيل وتهـــريبها إلى الأردن. كان سيتلقى أجراً لا يزيد على 10 آلاف دولار أميركـــي. في شهر أيلول/سبتمبر من العام نفسه، سافر أبو عدس إلى إربد والتقى مجدّداً بمنسّق عمليات القاعدة، عبدالله، الذي أعطاه 2800 دولاراً أميركياً إضافيين للتخطـــيط للعملـــية، وقـــال لـــه إن الـــتفجيرات يجب أن تنفذ في 30 تشرين الأول/أكتوبـــر الذي يصادف اليوم السابع والعشرين من شهر رمضان. دفع مبلغ أخـــير لأبو عدس بقيمة 1400 دولار أميركي. عضو آخر في الخلية ويدعى ماهر سماره تلقى مبلغ 7 آلاف دولار أميركي من امرأة تدعى "نعم" من الإمارات العربية المـــتحدة اتصلت به عبر شبكة الإنترنت[35]. رصد الإسرائيليون الاتصال وأفشلوا العملـــية. أوقفـــت القوى الأمنية الإسرائيلية الشابين أثناء عبورهما جسر "اللنبي" التاريخي بين الأردن والضفة الغربية في كانون الأول/ديسمبر 2005[36].

بعـــد أشهر على كشف النقاب عن نشاطات القاعدة في الضفة الغربية، بدأ جهاز الشين بيت بالتحرّي عن "فيلق الجهاد"، المشتبه بشراكته مع القاعدة في غزّة. في موازاة إعلانه عن وجود مجموعات مرتبطة بالقاعدة في سيناء، أبدى مدير الشين بـــيت يوفال ديسكين قلقه من احتمال تسللهم عبر الحدود مع غزّة. لم يقتصر هذا الإقـــرار بمـــدى فعالـــية القاعـــدة في غزّة على المصادر الإسرائيلية. فقد أفصح الفلـــسطينيون أيضاً عن بروز وحدات للقاعدة داخل أراضيهم، خلقت حالة من الذعر.

لقـــد صرّحت القوى الأمنية التابعة للسلطة الفلسطينية لصحيفة "جيروزاليم بوســـت" بأن مجموعة تابعة للقاعدة تطلق على نفسها اسم "جند الله" قد باشرت نشاطها في غزّة. ويعتقد بأن منظمة "جند الله" التي تنشط بشكل أساسي في جنوب غـــزّة، قـــد نشأت أصلاً في وزيرستان، وهي منطقة في باكستان ذات طابع قبلي وجبلي ولا تخضع لسلطة القانون، وترد تقارير كثيرة عن وجود بن لادن فيها. في الأســـاس، انضم إلى "جند الله" في غزّة عدد من أعضاء حماس والجهاد الإسلامي،

ممـــن خـــاب أملهم بهاتين الحركتين لاعتبارهم بأنهما أصبحتا معتدلتين للغاية. في أيـــار/مايو 2005، نفذت هذه المنظمة أولى عملياتها ضدّ جنود إسرائيليين في رفح. وحـــذر مـــتحدث باسمهـــا هو عبدالله خطاب، من تعرّض الولايات المتحدة ذاتها لهجمات في المستقبل. وأضاف: "قريباً سيشهد الجميع على عمليات (ضدّ الولايات المتحدة) ستفرح المسلمين"[37].

الدكتور محمود الزهار في مقابلة صحافية أجراها في أيلول/سبتمبر 2005 أقر بـــأن القاعدة تنشط في غزّة. وأشار المتحدث باسم حماس إلى أنه، إضافة إلى هذا الـــتواجد على الأرض، ثمة اتصالات هاتفية أيضاً بين غزّة ومراكز تابعة للقاعدة في بلدان أخرى. كذلك أفصح رئيس السلطة الفلسطينية محمود عباس عن بعض مخاوفه في مقابلـــة أجرتها معه صحيفة الحياة في لندن في 2 آذار/مارس 2006، واعترف في ســـياقها بـــأن هـــناك أدلة على وجود للقاعدة في الضفة الغربية وغزّة، وبأن هذا "التسرب" "قد يهدد المنطقة برمتها بالخراب". كان ذلك قبل شهر من فوز حماس في الانـــتخابات العامة الفلسطينية. ومن دون أن يكشف عن تفاصيل محدّدة، قال عـــباس، المعروف بـــ "أبو مازن"، بأن المنظمة الإرهابية تحاول إقامة قواعد لها في الأراضـــي الفلسطينية. بعثت كلماته هذه الرعدة في نفوس الكثيرين داخل إسرائيل وخارجهـــا، وأثـــارت المخاوف من دنوّ تلك العناصر المتطرفة من تل أبيب ومن مخـــتلف المستوطنات الإسرائيلية. وما زاد من وقع أقوال أبو مازن مضمون رسالة مصورة للرجل الثاني في القاعدة أيمن الظواهري، مدتها ثلاثة وعشرين دقيقة، بثتها محطـــة الجزيرة التلفزيونية في 3 آذار/مارس 2006، ينتقد فيها حركة حماس لقبولها الجلـــوس جنباً إلى جنب مع أعضاء السلطة الفلسطينية الذين اتهمهم بأنهم "باعوا فلسطين" بعقدهم إتفاقيات أوسلو ومدريد للسلام، وبتوقيعهم صفقات مع إسرائيل مخالفة لتعاليم الإسلام، على حدّ قوله.

وأضاف الظواهري: "ما من أحد له الحق، أكان فلسطينياً أم لا، بالتخلي عن حبة تراب من أرض فلسطين التي هي أرض مسلمة احتلها الكفار. من واجب كل مـــسلم أن يعمـــل على استعادتها". وواصل تنديده بالسلطة الفلسطينية قائلاً: "إن العلمانـــيين في الـــسلطة الفلـــسطينية باعوا فلسطين لقاء فتات". وطالب حماس

بالانضمام إلى النضال المسلح ورفض كل الدعوات للاعتراف باتفاقيات السلام مع إسـرائيل. كما حذرها من التورط في ما وصفه بـ "اللعبة الأميركية"، من خلال التوصل إلى تسوية سياسية وتشريع وجود إسرائيل.

كشفت حدّة انتقادات الظواهري لمشاركة حماس على الملأ الخلافات القائمة بين الإسلاميين المنقسمين بين أمثال منظمة الإخوان المسلمين وحماس الذين يسعون إلى "الأسلمة من أسفل إلى أعلى، من خلال تأييدهم التكتيكي للمسار الديمقراطي" وأولئك الذين، كما القاعدة، يرفضون النظام الديمقراطي الغربي برمّته، مستخدمين العـنف لتحقيق تغيير جذري من أعلى إلى أسفل". صحيح أن حماس سارعت إلى تمييـز نفـسها عـن توصيف الظواهري للإسلام، و لم تعلق حتى على تصنيفه لها كحـركة إسلامية فلسطينية. فطالما شدّد قادة حماس على أن نضالهم "لن يتجاوز أبـداً حـدود أرضهم أو يطال غير محتليها"، خلافاً لما يعلنه قادة القاعدة الذين لا يترددون عن تنفيذ هجماقم في العواصم الغربية والإسلامية تحقيقاً لأهدافهم.

بـدّل الظواهـري رأيه، وبدا في تصريحه الثاني أكثر مهادنة تجاه الحكومة الإسـلامية الأجـد في العـالم، لتعرضها لضغوط من الغرب بسبب طموحاقا الـسياسية، ولرفضها المستمر الاعتراف بإسرائيل وعدم قبولها باتفاقيات السلام المعقودة.

فاجأ التوقيت الذي أصدر فيه كبير معاوني بن لادن تصريحاته قيادة حماس. إذ أن هذا التأنيب طالع حماس فيما كانت تبدأ مسيرقا على المستوى الدولي في 3 آذار/مـارس 2006، بزيارة لثلاثة أيام إلى موسكو، تلبية لدعوة من الرئيس فلاديمـير بـوتين. حتى أن هذه الزيارة حازت على مباركة الإدارة الأميركية، أكدها تصريح صدر عن البيت الأبيض تضمّن تأييداً للمبادرة الروسية. لكن ما خفـف مـن بعـد هذه الإشادة، التهديد المبطن الموجه إلى قيادة حماس الذي يدعوها إلى تجاوز القيود والشروط التي تتمسك بها، وإلى ضرورة الانفتاح على المجتمع الدولي إن هي أرادت تحقيق طموحاقا الأوسع. زعيم القاعدة بنفسه قفز إلى الـواجهة، مـؤكداً بذلك قدرته على متابعة آخر التطورات والأحداث في العالم إينما وجد وفي أي كهف كان يعيش.

بـوجه علـته الابتسامة والارتياح، ظهر بن لادن، بلحيته التي غزاها الشيب وبعمامته البيضاء، في شريط مصور بثته الجزيرة في 23 نيسان/أبريل 2006، ليبعث بإحـدى رسائله التي باتت مألوفة. رغم كون حكومة حماس حديثة العهد، إلا أن بـن لادن لم يـشر إليها إلا بصورة عرضية، منتقداً بشكل لاذع ما اعتبره مؤامرة أميركـية - صهيونية. فقد اعتبر أن قرار الحكومات الغربية بوقف المساعدات إلى الفلـسطينيين وفـرض مزيد من العقوبات على حكومة حماس يثبت بأن الغرب يخوض "حرباً صليبية" على الإسلام. إن تعبير "صليبي" غالباً ما يستخدمه بن لادن وسـواه من قادة القاعدة في إشارة إلى المسيحيين. وأضاف بن لادن: إني أقول إن هـذه الحـرب هي مسؤولية مشتركة تتقاسمها الشعوب وحكوماتها. وفيما هذه الحـرب مستمرة، تجدد هذه الشعوب تأييدها لحكامها وساستها وتواصل إرسال أبـنائها إلى بلداننا ليقاتلوننا". جاء ردّ رئيس حكومة حماس اسماعيل هنية سريعاً، ليـنأى بحماس بعيداً عن تصريحات بن لادن. فقد ندّد من غزّة، بـ "الحصار غير العادل المفروض على الشعب الفلسطيني، ما يدفع بالأفرقاء والأفراد إلى التعبير عن تضامنهم".

في خـتام زيارتـه لموسكو، علق رئيس المكتب الساسي لحماس المنفي خالد مـشعل، والذي اتخذ من دمشق مقرّاً له، بالقول إن حركته لا تحتاج إلى إرشادات مـن القاعدة: "لحماس رؤيتها الخاصة للأمور وهي طالما عملت على تحقيق مصالح الشعب الفلسطيني"[38].

مـن جهته أيضاً، ميّز سامي أبو زهري، المتحدث باسم حماس في غزّة، بين حركته والقاعدة، مؤكداً بأن حماس "مختلفة جداً عقائدياً عن بن لادن والقاعدة"[39]. لقـد توسـعت دائرة إدراك خطورة وجود القاعدة في فلسطين وبدأت معالم هذا الوعـي تظهر إلى العلن في كانون الثاني/يناير 2006، إثر انتصار حماس الكاسح في الانـتخابات التـشريعية. إذ بدأت تنتشر في الضفة الغربية وغزّة أشرطة مصورة وأقـراص مدمجة وعرائض تحمل توقيعاً مزعوماً للقاعدة. إحدى العرائض ادعت أن أبـو مـصعب الـزرقاوي، زعـيم القاعدة في العراق "سيظهر قريباً في الأراضي الفلسطينية، وسينظم الجهاد المحلي والشامل انطلاقاً من هذه المنطقة". ويتابع البيان:

"هـــل بيننا الآن شخص مثل صلاح الدين، أو مثل الشيخ أسامة بن لادن، أو مثل أبو مصعب الزرقاوي؟ الجواب هو نعم. لقد صنعنا هذا الرجل، وهو سيظهر بعون الله قـــريباً جـــدّاً في أرض فلـــسطين". ومما ورد أيضاً في البيان: "سنحارب كافة الـــسياسيين الفاســـدين وغير المؤمنين. ستكون حرباً عظيمة لتطهير أرض الإسلام وفلـــسطين". كما يشير النص إلى التنظيم باسمه الكامل، أي "التوحيد والجهاد في سوريا الكبرى[40] وفي أرض الكنانة (أي مصر)"، ويعد بـــ "قطع اعناق الكافرين من منظمة فتح"، ويذكر بالاسم مسؤولين كبار في فتح مثل نبيل عمرو وأبو علي شاهين ومحمد دحلان وياسر عبد ربه وسمير مشهراوي. إن التنظيم المتطرف الجديد يمجّد "شيخنا أبو مصعب الزرقاوي" ويعلن مباشرة نشاطاته في فلسطين "للحؤول دون حـــصول حـــرب أهلية فلسطينية"[41]. أبو مصعب الزرقاوي الذي وضعت القـــوات الأمريكيه حداً لحياته في العراق في وقت لاحق لم يحقق نبوؤة المتعاطفين معه في قطاع غزة.

ارتفـــاع معـــدّل هـــذه الممارسات في غزّة، أثار موجة عارمة من المخاوف والتوتـــر. فقد قامت خلايا صغيرة مؤلفة من حوالى عشرة أعضاء موالين للقاعدة بجمـــع التـــبرعات والقـــيام بتدريبات. وتمّ إحباط هجوم خططت له إحدى هذه المجموعات قبل تمكنها من استهداف عدد من المراكز الحساسة في غزّة مثل مكاتب السلطة الفلسطينية، والقادة الفلسطينيين وأعضاء في منظمة فتح.

الانـــضمام إلى حـــركات جهادية شمولية مثل القاعدة ليس تقليداً جديداً في الأوساط الفلسطينية. من الأسماء الفلسطينية الرائدة في هذا المجال اسم الشيخ عبدالله عـــزّام، الـــذي أصبح في ما بعد المرشد الروحي لبن لادن. ولد عزّام في جنين في الضفة الغربية عام 1941. كان عالم دين مرموقاً ومجاهداً ومساهماً أساسياً في تطوير الـــنهج الإسلامي الراديكالي المعاصر، لا سيما في ما يتعلق بتشكيل القاعدة. حاز عزّام على درجة الدكتوراه في الفقه الإسلامي من جامعة الأزهر الذائعة الصيت في القاهـــرة، حـــيث جمعته صداقة مع سيّد قطب، عالم الدين المصري البارز، ورجل الدين الضرير الشيخ عمر عبدالرحمن الذي أدين لمحاولته تفجير مركز التجارة العالمي في العـــام 1993، وأيمن الظواهري. أصبح عزّام عضواً في منظمة الإخوان المسلمين

حـــتى قـــبل أن يـــبلغ السن القانونية. عندما اجتاح الروس أفغانستان في كانون الأول/ديـــسمبر 1979، أصـــدر عـــزّام فتوى قضت بأن الصراعين في أفغانستان وفلسطين هما "جهاد شرعي"، وبأن "قتل الكفار" في هذين البلدين هو واجب كل مسلم.

بعدما أنهى مهمة التدريس وإلقاء المحاضرات في جامعة الملك عبد العزيز في جـــدّة، سافر عزّام إلى باكستان وأنشأ مضافة في بيشاور، العاصمة الباكستانية القديمـــة للـــولاية الحدودية الواقعة في الشمال الغربي من البلاد، والتي منها تعبر رياح "خيبر باس" عبر الوديان السحيقة والجبال الشاهقة باتجاه مناطق القبائل في أفغانستان. أصبحت هذه المضافة، التي حملت اسم "بيت الأنصار" وكانت بمثابة مكتب خدمات للمجاهدين، قبلة العرب الذاهبين للجهاد في أفغانستان. فهناك يحصلون على الإرشادات ويخضعون للتدريب العسكري المطلوب. بدأت علاقة الشيخ عبدالله عزّام بأسامة بن لادن في مطلع الثمانينيات فيما كان الأول مقيماً في أحـــد منازل بن لادن في المملكة العربية السعودية. في العام 1985، زار بن لادن باكـــستان وانخرط كثيراً في القضية الأفغانية. في أيار/مايو 2006، خلال محادثـــة هاتفية مع عبدالله عزاز، صهر الشيخ النافذ، علمت بأن عزّام أقام، في الثمانينيات، حفل غداء على شرف بن لادن في بيشاور، أثناء زيارة قام بها بن لادن إلى هـــناك ودامـــت ثلاثـــة أيام. توثقت علاقة الرجلين على خلفية هذه القـــضية المشتركة. بعد مرور سنوات، انعكست مبادئ وإيديولوجية عزّام على خطـــاب بـــن لادن المعـــتمد في رسائله المصورة والتي صارت تبث عالمياً منذ أحداث 11 أيلول/سبتمبر.

وفي هذه القصة لغز محيّر لا يزال غير مكشوف. فقد قتل الشيخ عبدالله عزّام، الـــذي سبق له وكتب دستور حماس، في بيشاور، مع اثنين من أبنائه في 24 تشرين الـــثاني/نوفمبر 1989. فقد انفجرت ثلاث قنابل مزروعة على جانب الطريق فيما كانت سيارتهم تمرّ في المكان في طريقها المعتاد إلى المسجد. لم يعلن أحد مسؤوليته عـــن هذا الاغتيال، وهو واحد من عدد كبير آخر من الاغتيالات التي استهدفت قادة حماس.

رغم موته المبكر، خلف عزّام وراءه تعاليم منحته، بعد وفاته، شرف تبوؤ مكانة القائد الروحي لجميع العرب والمسلمين الذين شعروا بأنهم ملزمون بسلوك نهجه في ميادين المعارك في أفغانستان. لقد اطلع المقاتلون الذين توجهوا إلى أفغانستان وباكستان، وكانوا من أصل فلسطيني أو أردني، على كتابات عزّام. وكانوا يبحثون فيها عن مسوِّغ يبرّر صعوبة خوض الجهاد في فلسطين بسبب المراقبة الحثيثة للحدود، خلافاً لواقع الحدود الباكستانية الفالتة التي يمكن عبورها بسهولة فائقة باتجاه أفغانستان والبوسنة والشيشان، وفي الماضي القريب، إلى العراق. عمر محمد عثمان الملقب بـ "أبو قتادة"، الذي يعتبر منذ سنوات قليلة الذراع التنفيذية لبن لادن في أوروبا، وأبو محمد المقدسي، وهو مرشد الزرقاوي الروحي وقائده، وأبو أنس الشامي، هم الفلسطينيون الأكثر شهرة في الدوائر الجهادية العالمية. إنهم معروفون باسم "الفلسطينيون الأفغان".

ولد الشامي في مخيم للاجئين الفلسطينيين في الأردن. إنه عالم دين ضليع بالفقه الإسلامي، ما جعل الزرقاوي يفيد من إلمام الشامي الفقهي في بحثه عن فتاوى شرعية تحلل عمليات خطف وقتل الرهائن. قتل الشامي في العراق بصاروخ أصاب سيارته أثناء "ضربة مركّزة ناجحة" استهدفت مناصرين للزرقاوي[42].

في رسالة بعث بها إلى الزرقاوي في آب/أغسطس 2004 من سجن قفقفة في الأردن[43]، تمنى فيها على المقدسي زعيم القاعدة في العراق أن يوسّع نطاق عملياته لتشمل "غرب النهر"، في إشارة إلى الضفة الغربية وغزّة. كثيرون من أنصاره فسّروا هذا الطلب على أن المقدسي غير سعيد لرؤية "تلميذه" الزرقاوي يركّز نشاطاته الإرهابية في العراق فقط. لقد سجن الرجلان في زنزانة واحدة أثناء اعتقالهما في منتصف التسعينيات. يومها، تأثر الزرقاوي بالمرشد الروحي السلفي[44]، الذي عرّفه إلى أكثر أشكال الإسلام السياسي راديكالية. عند إطلاق سراحهما، التزم الرجلان بمجموعة سلفية جهادية خططت لمهاجمة سياح أميركيين في العاصمة الأردنية، عمّان، في أواخر العام 1998. لقد أعيق تنفيذ العملية وأعيد الرجلان إلى السجن[45] ليعاد فيطلق سراحهما بعد أقل من سنة إثر إصدار الملك الأردني عبدالله عفواً عاماً. إثر ذلك، توجّه الزرقاوي إلى أفغانستان ومنها إلى العراق حيث باشر

بتنفيذ حملته الإرهابية، ناشراً الرعب بواسطة السيارات المفخخة والهجمات الانتحارية وعمليات الخطف. وسرعان ما سُجن المقدسي مجدّداً.

وفرت المخيمات الفلسطينية في الأردن ولبنان وغزّة بيئة مؤاتية لزيادة أعداد المنضوين تحت لواء القاعدة، نظراً للوضع الاقتصادي المأساوي الذي يعاني منه عدد كبير منهم. بشيء من التشجيع، انفجر يأسهم غضباً جامحاً بسبب عدم التوصل إلى حلّ عادل لخلافهم المزمن والمستفحل مع إسرائيل. لم تبلغ القاعدة بعد مرحلة الحصول على تأييد شعبي واسع النطاق يفسح المجال أمامها لتعيين "أمير" مسؤول عن فلسطين، على مثال ما فعله بن لادن في العراق وسوريا ولبنان. لكن، على الرغم من ذلك، فالعديد من أتباعه في الأردن اعتبر أن الرسالة التي بعث بها أبو محمد المقدسي من سجنه في بداية عام 2006، إلى أمير القاعدة الراحل في العراق الزرقاوي[46]، يجب تفسيرها على أنها إشارة على اقتراب موعد تنفيذهم لعملياتهم القاتلة على مسرح الضفة الغربية وغزّة.

نتيجة لبيانات التنديد والوعيد الصادرة عن تنظيم "الجهاد والتوحيد" والموزعة في غزّة، ولعمليات التفجير التي استهدفت المنتجعات السياحية المصرية في سيناء، حذر كثيرون من العاملين في أجهزة الاستخبارات في الشرق الأوسط من أن الوضع القائم يستدرج السؤال التالي: متى ستتكرس العلاقة الخطرة بين التنظيمات الجهادية في غزّة ونظرائها في سيناء بهدف ضرب العمق الإسرائيلي؟ وليس السؤال: هل ستصبح هذة العلاقة أمراً واقعاً؟ عدد كبير من الناشطين الفلسطينيين المرتبطين بجناح حماس العسكري يتمتع بعلاقات وثيقة مع رفاق لهم من البدو في الجهة الأخرى من الحدود، في صحراء سيناء، وكانوا يستعدون لمواجهة أمر وقف إطلاق النار الذي أصدرته حكومتهم بعد العملية الانتخابية.

لسنوات عديدة، استغلت القاعدة القضية الفلسطينية، مستخدمة إياها كأداة لتجنيد المقاتلين في صفوفها، وذلك بإبرازها تعاطفها مع ما يعانون منه من ظلم ومعايير مزدوجة ورفض القوى العظمى في العالم تطبيق قرارات الأمم المتحدة التي تنص على انسحاب إسرائيل من الأراضي المحتلة. لقد وظفت القاعدة هذه المسألة الحساسة والمثيرة للعواطف، لتبرير اعتداءاتها ضد "الكفار" الأجانب ولتحويل

الانتباه عن أن معظم ضحايا تنظيم بن لادن كانوا من العرب والمسلمين في المملكة العـــربية السعودية والمغرب ومصر واليمن والعراق وتونس وباكستان وأندونيسيا. تظاهـــرت الجموع المتعاطفة بصخب وغضب في شوارع العواصم الغربية للتنديد بالجـــرائم التي تستهدف الفلسطينيين، لكن، لا بدّ وأن أعدادها قد تضاءلت بفعل وجود القاعدة غير المرحب به في غزّة والضفة الغربية.

مطالب كلّ من غالبية الشعب الفلسطيني والمجموعات الأكثر تطرفاً كحماس بـــسيطة للغايـــة: استعادة أراضيهم وقيام دولتهم الخاصة. في المقابل، فإن للقاعدة مـــصالح أكثر ضبابية منها إعادة إحياء الخلافة[47] وهو أمر غير محتمل، وإلغاء كل المـــصالح الغـــربية من كامل أراضي المسلمين وانفجار شامل لصراع الحضارات. بالتالي، ومن الناحية النظرية، من الصعب أن يتآلف الفلسطينيون والقاعدة ليكونوا حلفـــاء متقاربين. لكن بفعل التوتر السائد في الشرق الأوسط والذي لا تظهر أي مؤشـــرات علـــى تهدئـــته، تبقى قدرة القاعدة على تجنيد الفئة الأكثر حرماناً من الفلـــسطينيين كبيرة جداً، كما هي الحال بالنسبة لثلاثة أعضاء من حماس أوقفتهم أجهـــزة الأمـــن المـــصرية في أعقاب سلسلة الهجمات الانتحارية التي استهدفت المنـــتجعات في ســـيناء في الـــسنوات القليلة الماضية. ومن الأرجح أن أي تحالف مـــستقبلي بين الناشطين الفلسطينيين والقاعدة سيلحق الضرر بالشعب الفلسطيني لأنـــه سيـــصبغه بطابع العنف العشوائي والحقد الذي اعتاد العالم الربط بينه وبين القاعدة.

مستقبل حماس

أيـــا تكن المعايير، فقد كانت تلك زنـــزانة صغيرة. خلف أربع فرشات من الاســـفنج القـــذرة والكريهة الرائحة والمتراصة في صف واحد، إرتفع جدار بعلو نـــصف متـــر، غير كاف لاخفاء الثقب المحفورة عشوائياً ليشكل حماماً للسجناء. كانـــت الزنـــزانة ايضاً تحتوي على مصباح خافت النور، حزين، يكاد لا يكون أقوى من بريق شمعة. شاءت سخرية القدر، أن يسجن المهندس وصفي قبّها، وزير شـــؤون الأســـرى الفلسطينيين، شهراً كاملاً في هذا المكان الكئيب. في زنـــزانة مـــشابهة، اعـــتقل أيضاً خمسة وزراء آخرين منتخبين ديموقراطياً، بعد أقل من ستة أشـــهر مـــن توليهم مناصبهم[1]، فكانوا يقضون الوقت وهم يقذفون قطعة نقدية لاختيار من منهم سيحظى بشيء من العزلة على إحدى الفرشات في الخارج. لقد تمّ احـــتجاز هذه الشخصيات المرموقة إثر خطف العريف الإسرائيلي جلعاد شاليط على الحدود الإسرائيلية مع غزّة[2]. طيلة شهرين، اعتقلت إسرائيل نحو عشرة وزراء واثـــني عـــشر نائباً وعدداً من رؤساء البلديات، إضافة إلى مجموعة كبيرة من كبار المـــسؤولين في حمـــاس في الـــضفة الغربية. عزيز الدويك، رئيس المجلس التشريعي الفلـــسطيني، وناصـــر الشاعر، نائب رئيس الوزراء الفلسطيني، كانا من بين من المحتجزين الرفيعي المستوى. على خلفية تواري معظم وزرائها عن الأنظار خوفاً من التعـــرض للاغتيال، واعتقال عدد موازٍ في السجون الإسرائيلية، انتشرت دعابة في أوســـاط الناخـــبين الفلسطينيين مفادها بأن حماس قد ابتدعت هذه الصيغة الماكرة لتوفر لأعضائها جواً آمناً يمكنهم من مناقشة شؤونهم البرلمانية.

لقد عرض وصفي بعد اطلاق سراحه للمعاملة التي حظي بها ورفاقه السجناء في الزنـــــزانة، من الناحيتين الجسدية والنفسية. فمنذ لحظة إجبارهم على مغادرة مـــنازلهم في مدينة رام الله، أوثقت أيديهم وأرجلهم، واقتيدوا، معصوبي العيون إلى مقـــرّ عـــسكري في مستوطنة بيت إيل القريبة من مدينة رام الله في الضفة الغربية.

وبعـــد أن أمضوا خمس ساعات جالسين على الارض، مقيّدين ومعصوبي العيون، نقلــوا إلى ســجن عوفــر حيث احتجزوا في عدد من الزنـــزانات الصغيرة مدة أســبوعين، قــبل أن يتم توزيعهم على مختلف السجون الإسرائيلية. خضع وصفي للاســتجواب، فركزت الأسئلة الموجّهة إليه على عضويته في حماس وعلى مسألة المــال الــذي تم نقله إلى منظمات خيرية في مدينة جنين في الضفة الغربية. كذلك ســئل عـــن تصريحات تحريضية قيل له إنه أدلى بها. فذكّر مستجوبه بأنه وزير في حكــومة مستقلة وأنه يجدر بإسرائيل "أن تعامله باحترام"، مطالباً بأن يتوجه إليه ضابط الاستخبارات بلقبه الرسمي بدلاً عن اسمه، وهذا الامر، بحسب وصفي، "كان يــثير جنون الضابط الإسرائيلي"[3]. حاول المدعي العام إرغامه على التوقيع على نـــص إدانة ذكرت فيه ثلاث جرائم مزعومة: إنتساب إلى "منظمة إرهابية" وتسلم مهـــام في "المـــنظمة الإرهابـــية المذكورة" بصفة وزير، وتقديم خدمات "منظمة إرهابـــية". بعـــد أحد عشر يوماً من التحقيقات، قرر القاضي العسكري أن يطلق سراحه، بعد أن فشل في العثور على أي أساس للاتهامات.

لقـــد اتخـــذ قـــرار سجن أعضاء حكومة حماس والقضاء على البنية التحتية للحـــركة خلال اجتماع للحكومة الإسرائيلية ترأسه رئيس الوزراء ايهود أولمرت ووزير الدفاع عمير بيريتس[4]. وفي 6 تموز/يوليو من العام 2006، بدأت سلسلة من عملـــيات القصف الجوي، استمرت اياماً، واستهدفت مكاتب رئيس الحكومة في رام الله وغـــزّة ونابلس، ومكاتب وزارتي الداخلية والشؤون الخارجية في غزّة. في إطار العملية نفسها، دمرت القنابل المكاتب الخالية العائدة لرئيس الوزراء في غزّة[5]. بعد بضعة ساعات، قام اسماعيل هنية بجولة ليلية لتفقد المباني المدمرة. عند حوالى الساعة 3.30 فجراً، فيما كان يستعد للانضمام إلى موكبه الامني، تنبه حراسه إلى هديـــر الطائرات الإسرائيلية المقاتلة المحلقة في السماء. فأشار هنية إلى السائقين في فـــرقة الحماية التي ترافقه للانطلاق من دونه. وبرفقة اثنين من حراسه الشخصيين، توجه إلى منـــزل الرئيس محمود عباس، الذي يبعد نحو 400 متر. ابو مازن، الذي أيقظه حراسه الشخصيون، استقبل رئيس الوزراء الفلسطيني مرتدياً الجلابية، وقدم له الملجأ، إلى أن شعر هنية بأمكانية المغادرة بأمان. على الرغم من العداء المفترض

بين القائدين، كان أبو مازن دائماً يحمي هنية. ففي الاسابيع التي تلت تعيينه، اتصل هنـــية مرّات عدة بأبو مازن ليخبره بأن الطائرات الإسرائيلية تتعقبه، وبالتالي، كان ابو مازن يرسل موكبه الرئاسي ليؤمن له الحماية اللازمة.

لقـــد شـــكل اعتقال وزراء حكومة حماس وافراد البرلمان سابقة في التاريخ الفلـــسطيني-الإسرائيلي الحديث. كما أحدث فراغاً سياسياً وفوضى متزايدة، في الوقت الذي كانت تحاول فيه القيادة الفلسطينية التوصل إلى تسوية والمضي قدماً. إلا أن الجانـــب الإسرائيلي لم يقدّم أية تنازلات. حاولت الحكومة الإسرائيلية فتح حوار مع وزراء ونواب حماس المعتقلين. وبحسب قبّها، كان القيّمون على السجن "يحضرون إلى زنـــزاناتنا ليخبرونا بأن هناك باحثين إسرائيليين يرغبون في مقابلتنا، لكـــن كـــان مـــن الواضـــح من خلال طريقة استجوابهم، بأنهم كانوا موظفين حكوميين". لقد أقام المسؤولون الإسرائيليون رفيعو المستوى الذين رفضوا الافصاح عـــن اسمـــائهم، محادثـــات مطولة مع أفراد الحكومة الفلسطينية المعتقلين، بهدف اســـتطلاع آراء حمـــاس حـــول مسائل مختلفة وتحديد نقاط ضعفها. لكن أياً من السجناء لم يكن متحمساً لعقد أية صفقة مع ممثلي تلك الحكومة التي تحتجزهم في ظروف مهينة.

في ذلك الوقت، كان اسماعيل هنية مجرّد رئيس وزراء هارب. فبالكاد ما كان يـــنام، إذ كـــان ينتقل خلسة، وعلى الدوام، من مخبأ إلى آخر، فيما بقي منـــزله المؤلـــف من طابقين في مخيم الشاطىء مهجوراً. وزير الخارجية محمود الزهار الذي سبق أن نجا من محاولة إسرائيلية لاغتياله، كان ايضاً دائم الانتقال بين ملجأ وآخر. فقد اختلفت الأمور بالنسبة إليه عما كانت عليه قبل بضعة أشهر عندما جال، ليس في العالم العربي فحسب، بل في عواصم الدول الكبرى، بصفته دبلوماسياً دولياً.

في مـــوازاة هذا الوضع، توصلت مختلف الفصائل السياسية إلى إجماع حول تشكيل حكومة تحالف. في هذه الظروف الاستثنائية، لم يكن هنية أو الزهار، على الـــرغم من كونهما من القادة الأساسيين للحكومة الفلسطينية، يتمتعان بالسيطرة الفعلية على الجناح العسكري الذي خطف الجندي الإسرائيلي. فمن كان يتحكم بزمام الامور هو خالد مشعل، رئيس المكتب السياسي لحماس الموجود في دمشق.

كان قد استولى بهدوء على السلطة داخل حماس إثر اغتيال كلٍّ من الزعيم الروحي لحماس الشيخ احمد ياسين وخلفه، لوقت قصير، عبد العزيز الرنتيسي. ورغم ما تمثله ألقاب هنية والزهار من مكانة وأهمية، إلا أن مشعل هو من كان يتولى إدارة الامور بشكل فعلي. لقد كانت كتائب القسام تخضع مباشرة لسلطته، وأي تحرك سياسي كان رهناً بموافقته وبتأييد الجناح العسكري، بصرف النظر عن دور السياسيين المنتخبين لتولي الحكم، وعن أداء المجلس التشريعي ومواقف محمود عباس. هذا الوضع كان مخيباً جداً للآمال بالنسبة لرئيس السلطة الفلسطينية الذي حاول القيام بوساطة مع قادة حماس، ولكن دون جدوى، إذ كلما بلغت المحادثات مرحلة دقيقة، كان قادة حماس يكررون الجملة التالية: "الله يدبّر، الله معنا"، ثم يتصلون بمشعل، ويبلغونه بما آلت إليه الأمور، تاركين له كامل الحرية في اتخاذ القرار.

كانت قيادة حماس مقتنعة بأنه من المستحيل على حزب واحد أن يدير الازمة السياسية القائمة بمفرده، وأن وحدها حكومة التحالف، قادرة على دفع الامور إلى الامام. ولكن حتى في هذه الحالة، سيكون رئيس الحكومة ممثلاً لحركة حماس بما أنها تتمتع بالغالبية البرلمانية. وبحسب حماس، فإن مثل هذه الحكومة ستتشكل على أساس وثيقة الأسرى للمصالحة الوطنية، التي منحت السلطة الفلسطينية كامل الصلاحية للتفاوض باسم شعبها. تتألف هذه الوثيقة من ثمانية عشر بنداً، ووقع عليها أعضاء تحالف الأسرى الفلسطينيين في 26 أيار/مايو من العام 2006. تطالب هذه الوثيقة بإقامة دولة فلسطينية مستقلة في الضفة الغربية وقطاع غزّة والقدس الشرقية، وبحق عودة كل اللاجئين إلى موطنهم الاصلي. الموقعون على الوثيقة هم أمين سر فتح في الضفة الغربية مروان البرغوثي، وزعيم حماس عبد الخالق النتشة، ونائب الامين العام للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين – القيادة العامة عبد الرحيم ملوح، ومصطفى بدارنه من الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين والشيخ بسام السعدي من الجهاد الإسلامي. لقد وضعت الوثيقة الاطار العام لضمّ الفصائل العسكرية المختلفة تحت مظلة واحدة. كما أتت بشكل حذر على ذكر حق إسرائيل في الوجود، وهو الموضوع الاكثر حساسية بين بنودها. سبق لمنظمة

التحرير الفلسطينية أن قبلت بهذه النقطة، وبالتالي، وجدت حماس أن الموافقة عليها أيضاً في الوقت الراهن، أمر ملائم سياسياً[6].

أما أبو مازن فقد اعتبر أن هذه الوثيقة لم تمنح الفلسطينيين الحد الأدنى المطلوب الذي يفسح أمامهم مجال التحرّك على المستوى الدولي والتفاوض مع الإسرائيليين. لكنه رأى في موافقة حماس على الوثيقة خطوة أولى في اتجاه جعل مجمل المواقف السياسية أكثر اعتدالاً، ما سيسمح لممثلي الفلسطينيين بالعودة إلى المفاوضات الفعلية مع إسرائيل والتمهيد لإقامة دولة فلسطينية. فيما أداء حماس السياسي لا يقع ضمن خطة زمنية محدّدة، بل في إطار مفتوح على تقلبات الأقدار ويخضع لاعتبار "إن شاء الله"، فإن أبو مازن شخص براغماتي وعملي، يدرك أنه ينبغي التعامل مع الحكومات في العالم ضمن اعتبارات الممكن والحالي.

لقد حدّدت وثيقة الأسرى الأرضية اللازمة لتوثيق العلاقة بين حماس وفتح على المستوى السياسي. أولاً، وافقت حماس بموجبها على أن تكون السلطة الفلسطينية الممثل الوحيد والشرعي للشعب الفلسطيني. ثانياً، اعترفت الوثيقة بالقرارات التي توصلت اليها القمم العربية في ما يتعلق بالصراع مع إسرائيل. والاهم من بين تلك القرارات، القرار الذي اتخذ في القمة العربية التي عقدت في بيروت في العام 2002. إذاً، نظرياً، عندما وافقت حماس على وثيقة الأسرى، فقد وافقت على كل قرارات الأمم المتحدة؛ لكنها فعلياً، لم توافق على أي شيء من هذا القبيل. لقد جاءت وثيقة الأسرى نتيجة عرض للقوة أظهر مخاوف حماس. فقد أرغم أبو مازن الجميع على البقاء في المكتب الرئاسي طيلة الليل، على غرار ما كان يفعل ياسر عرفات، محاولا إجبار حماس على الإقرار بأنها ليست في وضع يسمح لها بتغيير موقفها بين ليلة وضحاها. إن شخصية أبو مازن غير مألوفة في العالم العربي، فهو يلطم جبينه عندما يغضب، ويثور للتنفيس عن غيظه، وتحيط الدوائر السود بعينيه التي لا تعرف النوم، وتنمو لحية خفيفة على وجهه المفعم بالتحدي. بعد ساعات طويلة من المفاوضات غير المجدية، هدد أبو مازن بتنظيم استفتاء عام ما لم توافق حماس على وثيقة الأسرى، فأذعنت حماس، وكانت تلك المرة الاولى التي يتم فيها التوصل إلى تفاهم على هذا المستوى، بين حماس واحدى الفصائل التي تنتمي إلى منظمة التحرير الفلسطينية.

كانت تلك خطوة إلى الامام، لكنها لم تكن كافية لوضع حد للمقاطعة التي تتعرّض لها حكومة حماس وأية حكومة وحدة مقبلة. فإن اللجنة الرباعية كانت قد أوضحت بأن أي تعاون مع الفلسطينيين مرهون باعترافهم بدولة إسرائيل. فاذا تشبثت حماس بموقفها الرافض الاعتراف بإسرائيل، فإن ذلك سيعرّضها لمزيد من المواجهات السياسية مع الاسرة الدولية، ويفرض على الشعب الفلسطيني عواقب وخيمة.

بعد فوز حماس في الانتخابات، صدرت بيانات عن الجناح العسكري للجهاد الإسلامي وكتائب القدس والجناح العسكري لفتح وكتائب شهداء الاقصى تتهم الحركة بأنها فضلت السلطة السياسية على المقاومة، الأمر الذي سبب إحراجاً هائلاً لكتائب القسام ولقيادة حماس. كما أرغم ذلك حماس على القيام بمجازفات عسكرية، ومنها عملية خطف الجندي الإسرائيلي.إلا أن أية رؤية سياسية مستقبلية لم تتوفر لديها. فخلال الاشهر الستة التي أمسكت فيها حماس بالحكم، لم تحصل أية تغييرات هامة في قطاع الخدمات أو بالنسبة للرواتب أو على صعيد الاصلاحات. فقد بدأت حماس تكرر أخطاء فتح بتعيينها المزيد من الموظفين، الذين لا أمل لهم بتقاضي رواتبهم، نظراً إلى العقوبات الدولية المفروضة على "المنظمة الإرهابية". وقبل عملية خطف الجندي الإسرائيلي، كان استطلاع للرأي قد أشار إلى أن شعبيتها تضاءلت ووصلت إلى 35%. لكن، في استطلاع لاحق أجري بعد عملية الخطف، انقلبت الآراء في الاتجاه المعاكس، إذ حصل تغيير كبير في مزاج الشعب الفلسطيني، الذي تعاطف مع مسألة الأسرى وأغضبته وحشية الهجمات الإسرائيلية على غزّة، فاستعادت حماس ما خسرته من شعبية.

بعد الانتخابات، اعلنت حماس نيتها تشكيل حكومة وحدة وطنية تضم كل الاطياف السياسية، فاتحة الباب لانضمام كل الفصائل. كما أكدت عزمها على إدخال تغييرات جذرية لمحاربة الفساد وتحقيق الإصلاح الإداري، ووعدت بالتعاون بالكامل مع الرئيس أبو مازن حول المسائل الأساسية، ولا سيما العلاقة مع منظمة التحرير الفلسطينية. إن بيان حماس الانتخابي الرسمي رسم بوضوح استرتيجيتها، وقد نص على تحرير كل الأراضي الفلسطينية المحتلة وإقامة دولة عاصمتها القدس،

وفقاً لحدود العام 1967. في العلن، كانت حماس تتحاشى التحدث عن تدمير إسرائيل، وعلى الورق، بدأ يظهر وكأنها ليست بعيدة جداً عن برنامج منظمة التحرير الفلسطينية، التي تقترح حلّ الدولتين لبلوغ السلام. لكن في الواقع، كانت تنازلات حماس العلنية مجرد غطاء خارجي. ففي حين كانت راضية عن تنفيذ إسرائيل انسحاباتها الاحادية الجانب، إلا أنها لم تكن لتتنازل ابداً عن هدفها باقامة دولة فلسطينية تشمل كامل أرض فلسطين. فقد أكد لي احد كبار مسؤولي حماس قائلاً: "لن تجد احداً في حماس يعترف بحق إسرائيل في الوجود. إن وجدت هكذا شخص، فاعرف أنه كاذب".

إن أول تنازل تمثل بالموافقة على وقف لإطلاق النار، لكن أعضاء حماس لن يفكروا أبداً بتسوية نهائية، بما أنهم يؤمنون بضرورة ترك المجال مفتوحاً أمام الأجيال المقبلة كي تدافع عن الاهداف الكبرى. كما يعتبرون أن أرض فلسطين غير قابلة للتجزئة وغير خاضعة للتفاوض. مع ذلك، في ما يتعلق بشؤون الفلسطينيين اليومية، لم تكن حماس تتردد في التقرب من إسرائيل فإن كان ذلك سيعود بالفائدة على الشعب. بحسب الدكتور محمود الزهار، إن الحركة الإسلامية لا تعترض على قيام التقنيين الفلسطينيين بالتنسيق مع نظرائهم الإسرائيليين لحلّ المسائل اليومية، في حين أن المشكلات الكبرى يجب أن تعالج بواسطة طرف ثالث. لكن خصوم حماس، أمثال فتح، يعترضون على هذا الطرح ويعتبرونه حلاً غير عملي لأنه لا يمكن للشعب الفلسطيني أن ينتظر طرفاً ثالثاً للتوسط في أمور طارئة، طبية مثلا، كأن يحتاج مريض لعبور الحدود من أجل الذهاب إلى المستشفيات في مصر او القدس. كذلك، يعتمد الفلسطينيون في غزّة على مرور البضائع عبر معبر كارني بين إسرائيل وغزّة. فهذا هو طريق التموين اليومي الأساسي لنقل المواد الغذائية وغيرها من السلع التالفة، إضافة إلى الوقود والمواد الطبية. ولكن، في الواقع، إن إقفال غزّة وقطع التمويل الدولي يؤذيان فتح أكثر مما يؤذيان حماس. إذ أن حماس تعتمد على مصادرها الخاصة للتمويل، بينما مؤسسات فتح والسلطة الفلسطينية بقيادة فتح تعتمد على الواهبين الدوليين.

بعدما رفضت الفصائل البرلمانية السياسية الاخرى عرض حماس تأليف حكومة تحالف، لم تجد حماس خياراً سوى تأليف حكومتها الخاصة. فرفض الحركة المستمر الاعتراف بالسلطة الفلسطينية على أنها الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني وقف عقبة أساسية أمام تحركها السياسي. في اليوم التالي، مارس أعضاء الحكومة المشكلة حديثاً واجباهم بعد أدائهم اليمين الدستورية أمام الرئيس في غزّة، وقام زملاؤهم المقيمون في الضفة الغربية بالمثل عبر تقنية التحاور بواسطة الفيديو.

تواجه حماس تحديات كثيرة، لا سيما إذا فشلت حكومتها في توفير الحدّ الأدنى من الوظائف لأتباعها. فالمؤيدون المخلصون الذين ساندوا الحركة في الايام الصعبة يتوقعون أن يكافأوا بوظائف في الجيش أو في الإدارة المدنية. وهذا سيعيق بشدّة عمل الحكومة المقيّدة مادياً، العاجزة عن دفع رواتب موظفيها المدنيين وطاقمها العسكري.

معاناة السلطة الفلسطينية تزداد حدّة يوماً بعد يوم بفعل الوضع المالي المتأزم، إذ قطعت دول عدّة مساعداتها لها، رداً على وصول "منظمة إرهابية" إلى السلطة. لم تأخذ حماس هذا الخطر على محمل الجد، ورفضت أن تصدق بأن الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي سيديران ظهريهما بالكامل، ويجازفان باستفحال عواقب الضائقة المادية والاقتصادية وتأثيرها سلباً على الوضع الامني. فعلى أرض الواقع، توجد دولة أمنية شاملة وقائمة بذاتها في الضفة الغربية، بفعل وجود كمية غير مضبوطة من الاسلحة بحوزة الميليشيات التابعة لكل الفصائل السياسية. وعلى الرغم من أن حماس أعلنت نيتها في معالجة الوضع، إلا أنها فشلت كلياً في تحقيق ذلك: لقد عادت النزاعات القديمة بين حماس ومنظمة التحرير الفلسطينية، والتي سبّبتها الاحقاد العائلية أو الشخصية، إلى البروز، ما زاد الوضع تعقيداً. وقد بلغت ذروتها لدى قيام حماس باغتيال بعض أفراد جهاز الامن الوقائي. رغم ما يتمتع به من سلطات دستورية، فإن أبو مازن عاجز عن معالجة المشكلة الامنية. فقد أصرت حماس على الاحتفاظ بميليشياها المسلحة ما لم يتم تشكيل جيش وطني يضم كل الميليشيات، وهو أمر من الصعب تحقيقه نظراً للمقاطعة الدولية للسلطة. وأبرز هموم الحركة، الحفاظ على الامن والنظام من دون أن تعمد وزارة الداخلية إلى تقويض

قـدرات حماس العسكرية، لأن المنظمات الامنية تعج بموالين لفتح، علماً أن شبكة الانتماءات السياسية القائمة في المجتمع تعرقل حسن عمل الشرطة. بالتالي، فإن ما يهم حماس هو التحكم بالفوضى التي تجتاح الأراضي الفلسطينية، إلا أن الشرطة لا تـتولى وحدها ضبط الوضع الأمني. فمجلس الامن القومي وأجهزة الاستخبارات الفلسطينية المختلفة يؤدون أيضاً دوراً موازياً على هذا الصعيد. على الرغم من أن الـرئيس أبـو مـازن اعطى موافقته لوضع مجلس الامن القومي تحت سلطة وزير الداخلـية كمـا طلبت حماس، إلا أن الأمر واجه رفض كبار المسؤولين والقادة التنفـيذيين في فـتح. فقد أصرّوا على ضرورة احتفاظ الرئيس بسيطرته الشخصية على نظام الامن القومي، وعلى تطبيق الاجراءات عينها على أجهزة الاستخبارات، وعلـى حـراس المقرّات كما على "القوة 17" التي أسسها عرفات في بيروت في السبعينيات وأوكلت إليها مهام الحرس الرئاسي والقوة الأمنية.

مـن غـير المحـتمل أن يسمح جمهور ناخبي حماس بأي انحراف عن المبادئ الـسياسية والدينية التي طالما رفعتها الحركة وناصرتها. ولكن ينبغي على حماس أن تدرك، أنه بإصرارها على هذا الموقف الصارم، فهي تجازف بخسارة قسم كبير من الـدعم الذي حازت عليه، ما لم تؤكد علناً وبشكل جازم، بأنها توافق على كل قـرارات الأمم المتحدة وغيرها من الاتفاقات التي وقعتها السلطة الفلسطينية ودولة إسـرائيل. كما أنها تواجه سلسلة تحدّيات إضافية تشكلها الحاجات العامة في كل القطاعـات، سـواء الـصحي أو التعليمي أو التجاري، كما في قطاعي المرافئ والخـدمات العامة. والمسألة الاكثر إلحاحاً هي مسألة رواتب الموظفين التي تكلف الخـزينة نحو 175 مليون دولار أميركي كل شهر، يوفر معظمها مبلغ قدره حوالى 50 ملـيون دولار أميركـي تجمعه إسرائيل شهرياً كضريبة استيراد لصالح السلطة الفلـسطينية، ويحـوّل بشكل تلقائي إلى حسابها. لدى وصول حماس إلى السلطة، توقفت إسرائيل عن دفع هذه الضريبة التي تمت الموافقة عليها بموجب اتفاق اوسلو، ما أعاق سير عمل السلطة الفلسطينية.

وما يزيد من حدّة القيود المالية التي ترزح السلطة تحت وطأتها، حظر قنوات التجارة الحرة مع إسرائيل والخارج، وحصر مرور السلع والبضائع عبر معبر كارني

التجاري بين غزّة وإسرائيل. ولا يقتصر الضغط الإسرائيلي على الحركة التجارية، بل يتعداها ليشمل شؤون الفلسطينيين الحياتية إذ تقيّد الدولة العبرية مثلا حركة المواد الصحية والطبية منها وإليها. حتى أن حركة المرور بين غزّة والضفة الغربية التي قد تبدو شأناً بسيطاً للوهلة الأولى، فقد باتت أشبه بدرب جلجلة. كل هذه الظروف تزيد من جحيم الحياة اليومية وتخلف لدى أعضاء الحكومة الإسلامية الجديدة شعوراً عميقاً بالمرارة، وحتى بالعجز. إلى اليوم، لم تستنبط حكومة حماس استراتيجية مناسبة لمعالجة هذا الكمّ الهائل من المشكلات. حتى أن الحلول الجزئية التي لجأت إلى اعتمادها لا تعالج الوضع الامني، كما أن الآلام الاجتماعية التي لحقت بالناس لم تعالج بعد، بل هي تتفاقم كالقروح النازفة.

ينتمي معظم أعضاء السلطة الفلسطينية إلى فتح، ولا مصدر عيش لهم سوى رواتبهم. إن طردوا من وظائفهم بسبب عدم توفر المال لدفع تلك الرواتب، فإن هذا قد يؤدي إلى نشوب حرب أهلية. لقد أعلنت حركة حماس ونوّابها في البرلمان أنهم لن يصرفوا العناصر الامنية أياً تكن الفصائل التي ينتمون اليها. كما أكدت علناً عزمها على استئصال كل أشكال الفساد، غير أن غالبية عناصر الأجهزة الامنية تنتمي إلى فتح، لذا، فقد أدركت حماس منذ بداية توليها للسلطة، صعوبة اتخاذ أية اجراءات إدارية تأديبية والتحكم بالمنظمات الامنية.

تلتقي إسرائيل وحماس على تأجيل مسائل الحل النهائي، والسعي إلى حل انتقالي طويل الأمد مثل وقف إطلاق النار. ويمثل الحل الموقت ضرورة مصيرية بالنسبة لحماس التي تحتاج بشكل ملح إلى الوقت والحيّز الكافيين للامساك بزمام السلطة ولإقناع الشعب الفلسطيني بجدارتها.

ينبغي على حماس أن تتوقع مواجهة خليط من المعضلات المالية والاقتصادية والامنية والسياسية. ولا شك أن هذه الصعوبات ستكون مشابهة لتلك التي اعترضت حكومة فتح الاخيرة، إن لم تكن اسوأ. وفرص التغلب عليها ستكون ضئيلة ما لم تنجح حماس في إقناع الفصائل المسلحة كافة بهدنة فعلية عبر فتح قنوات اتصال حيوية وجديدة مع الاسرة الدولية إضافة إلى إحراز تقدم سياسي جديّ مع الاتحاد الأوروبي.

على الرغم من نوايا حماس في الإبقاء على جناحها العسكري كهيئة مستقلة، منفصلة عن السلطة الفلسطينية، لكن يبدو أنها بدّلت رأيها، إذ انها ضمت بعضاً من مؤيديها ومناصريها إلى صفوف جناحيها العسكري والسياسي. كما أنها استفادت من حيازتها على الغالبية البرلمانية، لتتحدى سلطة الرئيس محمود عباس، وتنشئ، رغم اعتراضه، قوة تنفيذية هي عبارة عن ميليشيا مؤلفة من 3500 عنصراً من مؤيديها ومن مناصري الفصائل الموالية لها، يشكلون جزءاً من القوات العسكرية، ويتلقون راتباً من السلطة الفلسطينية، ويعملون برعاية وزارة الداخلية. قبل أبو مازن على مضض بهذه القوة الجديدة لتفادي الصدامات العسكرية بين مؤيدي حماس وفتح. لكنه لم يسمح لحماس بأن تفعل كل ما يحلو لها. فقد زاد عدد قوته المؤلفة من عناصر فتح، وسلمها مسؤولية الإشراف على المعابر الحساسة مع إسرائيل ومصر.

لقد أغضب سعيد صيام، وزير الداخلية الفلسطيني في حكومة حركة حماس الأولى، أبو مازن والاجهزة الامنية عندما أعلن إنه لن يعتقل احداً من المقاومة، على الرغم من أن حماس قد وافقت على الهدنة. فقد أثار هذا الطرح تساؤلات كثيرة لدى المسؤولين الامنيين، ولعل أبرزها: "هل نعتقل الفلسطينيين الذين يطلقون الصواريخ على إسرائيل أم لا؟" فعمد الكثيرون إلى ملازمة منازلهم بانتظار أن تتضح الأوامر.

التقيت أبو ياسر، رئيس جهاز الامن الوقائي في رفح، وسألته: "ما التغيير الذي لحق بالأوامر التي تصدرونها بعد وصول حماس إلى الحكومة؟"

أجابني: "كما ترى، أنا أحتسي كوباً من الشاي ولا أرتدي بزتي. ليست لدينا أوامر". بعد أسابيع، أطلقت حماس النار على أبو ياسر في غزّة، فأصيب في ساقه.

لا مجال للاستخفاف بالعداوات التي تكرّسها هذه المواجهات المميتة وبتداعياتها السلبية في المستقبل. لكن يبدو أن حماس قد بدأت تفهم طبيعة المتطلبات والمعايير الضرورية للحكم، وبناءً عليه، فقد بدّلت لهجة خطابها. لقد أصبحت لهجتها أكثر اعتدالاً، إذ بدأت تدرك مدى سهولة أن يكون المرء في المعارضة، غير

مستقل بالمسؤوليات، وقادر على توجيه الانتقادات إلى أبو مازن، ومن قبله، إلى عرفات والسلطة الفلسطينية. منذ أن اصبحت حماس في الحكومة وهي تتحرك في حقول الالغام التي ينبغي على كل حكومة فلسطينية تخطيها. حتى أنها استبدلت مسألة الانتفاضة التي كانت دائمة الحضور في خطابها السياسي، بقضية حقوق الفلسطينيين. وما يؤكد اعتماد حماس سياسة جديدة تتمثل بتجميد العمليات العسكرية رغم إصرارها المعلن على استمرار الصراع والمواجهة، التزام جناحها العسكري الصمت منذ الانتخابات.

ردود الفعل على أول عملية استشهادية وقعت في تل ابيب بعد فترة قصيرة على فوز حماس بالانتخابات جاءت متفاوتة. ففي حين أدان الرئيس محمود عباس الهجوم على الفور، واصفاً إياه بالعمل الجبان ضد المدنيين الإسرائيليين، تريّثت قيادة حماس في غزّة في التعليق، ثم أعلنت أن الهجوم الذي نفذته حركة الجهاد الإسلامي جاء "نتيجة الاعمال الإسرائيلية الوحشية ضد شعبنا". وأثار خالد مشعل في دمشق غضب مؤيّدي فتح عندما انتقد تصريح عباس خلال تجمّع في مخيم اليرموك، أكبر المخيمات الفلسطينية في الشتات. فاضطر إلى الاعتذار من عباس، تفادياً لحرب أهلية بين فتح وحماس.

يقدر عدد مقاتلي القسام في غزّة بنحو ثمانية عشر ألف مقاتل مزوّدين برشاشات ومسدسات وقاذفات صواريخ محلية الصنع. يتلقى الجناح العسكري الأوامر من القيادة السياسية في الخارج من خلال مكتب مشعل في دمشق. بعد ستة أشهر على فوزها في الانتخابات، كانت الحركة تدرس موضوع إنشاء جيش وطني غير مرتبط بأي حزب سياسي. لكن الفكرة استبعدت لأسباب عملية. أولاً، وبحسب الاتفاقيات الموقعة مع إسرائيل، لا يحقّ للسلطة الفلسطينية بأكثر من ستة وسبعين ألف عنصر عسكري موزّعين على الشرطة ومختلف الأجهزة الامنية، وهو أمر حائز على موافقة السلطة الفلسطينية.

تحظى حماس بتعاطف عدد من الفصائل الأصغر حجماً. فعندما أسر الجندي الإسرائيلي على سبيل المثال، كان عدد من الخلايا المؤيدة لحماس متورطاً في العملية. كما خرجت شخصيات منتمية إلى الجناح العسكري لحماس إلى العلن،

مع إبقائها على تحركاتها سريّة. في مقدمة هؤلاء الأشخاص هو محمد الضيف، تبعه احمد الجعبري. كل واحد منهما نجا من محاولات اغتيال على يد إسرائيل. الضيف والجعبري وغيرهما من كبار مسؤولي القسام، كانا يشأركان في اجتماع في 12 تموز/يوليو من العام 2006 في منزل عوض سلمي، أحد أفراد المكتب السياسي في حماس في غزّة. وقد قتل سلمي وزوجته وسبعة من اولاده عندما استهدفت طائرة "إف-16" المنزل بثلاثة صواريخ يحمل كل منها قنبلة زنة ربع طن. كانت إسرائيل تسعى جاهدة للتخلص من الضيف والجعبري كونهما المسؤولين الأساسيين عن تطوير ترسانة القسام التي باتت ضخمة. أصيب الضيف بجروح في تلك المحاولة الخامسة لقتله. قبل أن يصبح خبير متفجرات، عمل الضيف في مجال التمثيل، وكان يستخدم الاسم المسرحي المستعار ابو خالد. بفضل روح الدعابة الذي يتمتع بها، حاز على دور مميز، هو دور المجازف في مسرحية "المهرج". إحدى المجموعات العسكرية التابعة له حملت تسمية "العائدون"، وهو الاسم الذي اعتمدته أول فرقة مسرحية إسلامية في خان يونس.

لقد تم تطوير صواريخ القسام فاصبحت قادرة على استهداف المستوطنات الإسرائيلية. وبحسب الجعبري والضيف الذي كان له ظهور تلفزيوني نادر قبل أسابيع على محاولة قتلهما، كانت مجرد مسألة وقت قبل أن يتمكن الجناح العسكري لحماس في الضفة الغربية من جمع ترسانة مماثلة. هذا الكلام يعني شيئاً واحداً بالنسبة إلى الإسرائيليين الذين اختبروا الصواريخ الإيرانية البعيدة المدى ألتي يطلقها حزب الله: حماس لا تحتاج إلى مثل هذه الصواريخ البعيدة المدى. كل ما تحتاج إليه هو صواريخ يصل مداها إلى بضعة كيلومترات فقط، قادرة على تهديد أمن المدن الإسرائيلية الأساسية، وبينها تل ابيب.

من الخطوات التي اتخذتها حماس بعد انتصارها الانتخابي، تشريع قوتها العسكرية ولو بشكل جزئي. فبما أن المنظمات الامنية التابعة لفتح تنضوي تحت راية جهاز الامن الوقائي والمديرية العامة للاستخبارات، قررت حماس أن تنشئ منظمتها الامنية الخاصة، لتكون موالية للحكومة، وأطلقت عليها إسم فرقة التدخل. كان الجناح العسكري لحماس، كتائب القسام، منفصلاً تماماً عن فرقة

التدخل، لكنه كان يؤمن لها الدعم عند الحاجة. دامت المفاوضات قرابة الثلاثة أشهر، حصلت خلالها مواجهات عدة بين هذه القوة التي كان يرأسها سعيد صيام، وزير الداخلية الأسبق، والقوى الموالية لمحمود عباس. اغتيل الكثير من ناشطي فتح أو قتلوا رمياً بالرصاص على يد ناشطي القسام، وكلما أثار عباس المسألة مع اسماعيل هنية، كان رئيس الحكومة الفلسطينية يبدو متفاجئاً ويطلب من قيادة فتح الصبر حتى يتحكم بالأمور.

على الرغم من أن قيادة حماس مهدت الطريق لنجاحها في الانتخابات، إلا أن الكثيرين لم يتوقعوا الفوز الساحق الذي أتاح لها إلى تشكيل حكومة الأكثرية. لقد كان أفرادها يفتقرون إلى الخبرة السياسية والإدارية والتقنية. هذا الأمر عقد الامور منذ البداية، وتركهم أمام أحد خيارين، أحلاهما مرّ.

منذ اليوم الاول لتوليها السلطة، رفضت حماس القبول بمنظمة التحرير الفلسطينية على أنها الممثل الوحيد للشعب الفلسطيني. كان قد اتخذ قرار في بداية العام 1991، قضى بوجوب تلقي الجناح العسكري التعليمات دائماً من المكتب السياسي في الخارج، لكن القيادة في غزّة بقيت على نفوذها حتى حصول هذا التطور الاخير. لقد فرضت إسرائيل قيوداً على تحرك قادة حماس لدرجة أن الحكومة لم تعد قادرة على الاجتماع. فأصبحت اجتماعاتها تتم بواسطة تقنية التحاور بالفيديو بين غزّة ورام الله. كما لم يتوفر لأعضاء هذه الحكومة سبيلا للسفر سوى عبر معبر رفح على الحدود المصرية في اتجاه القاهرة، ومن ثم إلى باقي أنحاء العالم.

على الرغم من فوزها في الانتخابات وقدرتها على تأليف حكومتها الخاصة، لا تزال حماس تحتاج إلى نحو أربع سنوات، كفترة انتقالية، قبل أن تتمكن من السيطرة على كافة أوجه السلطة، علماً أنها لا تزال خارج مظلة منظمة التحرير الفلسطينية، الهيئة الاهم في السلطة. لهذا، دعت حماس فتح والفصائل الاخرى في المنظمة للانضمام إلى الحكومة، ليس من أجل تحقيق الوحدة والاستقرار كما أشار قادة الحركة، بل لأن حماس عاجزة في الواقع عن تولي الحكم بمفردها.

ثمة إشارات كثيرة على أن منظمة التحرير الفلسطينية سترحب في نهاية المطاف بالمشاركة في السلطة مع حماس، وذلك من أجل إنقاذ السلطة وتكريس الوحدة الوطنية. يعتبر قادة حماس في الضفة الغربية وغزّة أكثر واقعية، فهم يعرفون العدو وسبق لهم أن دخلوا السجن كما اختبروا شتى أنواع المخاطر. إن شعبية حماس بين الفلسطينيين رهن بنجاح أو فشل العملية السياسية. وسيجدّد الفلسطينيون دعمهم للسلطة الفلسطينية حالما يحصل تقدم في مفاوضات السلام الآخذة في المراوحة مع إسرائيل، وبمجرد تلقيهم وعداً بتحسين الوضع الاقتصادي يضع حدّاً لعذاباتهم.

لكن حماس ومنظمة التحرير الفلسطينية ليستا بمنأى عن التأثيرات الاقليمية الضاغطة وحتى المتناقضة. فالأردن يشعر بالتوتر من حكومة حماس، رغم علاقتها الجيدة مع حركة الإخوان المسلمين. ففي السبعينيات، تلقت المملكة مساعدة كبيرة من الإخوان المسلمين عندما حاول الفلسطينيون اليساريون الاطاحة بنظامها، في ما وصف بمواجهات أيلول الاسود. كما أن للأردن مصالح ديموغرافية وأمنية واقتصادية في الضفة الغربية، ما يجعل من الأساسي بالنسبة إليها ضمان استقرار هذه المنطقة من خلال قيام انسجام كامل بين منظمة التحرير الفلسطينية وحماس، والافضل، تشكيل حكومة إسلامية مشتركة ذات، توجهات عملية وواقعية، تترأسها منظمة التحرير الفلسطينية.

ولمصر أيضاً مصالحها في المنطقة، كونها إحدى القوى الإقليمية الرئيسية. فلطالما حث الرئيس مبارك وحكومته حماس ومنظمة التحريرعلى التحالف من أجل إنقاذ بلادهما، إذ أن في الأمر مصلحة شخصية من جهة، وسعي لتظهير القدرة على إدارة الأزمات من جهة أخرى. إن مصر لا تريد كياناً فقيراً وغير مستقرّ على حدودها. ومن غير المحتمل أن يحظى اسماعيل هنية بالمعاملة الممتازة التي وفرتها القاهرة لعرفات، ولاحقاً لأبو مازن ووزرائه، فهو لم يعد ينعم بالطوافة التي كانت موضوعة في تصرف سلفه، للانتقال من غزّة إلى رام الله. ومثال على ذاك التغيير في المعاملة، فقد نظم اجتماع في غزّة خلال الاسبوع الثاني من آب/أغسطس من العام 2006، لمناقشة مصير الجندي الإسرائيلي المخطوف، حضره هنية ووزير خارجيته،

الدكتور محمود الزهار. في عهد عرفات، كان يشارك في مثل هذا الاجتماع وزراء الحكومة المصرية، إلا أن هذه المرة، حضر إلى غزّة مسؤولان عاديان من جهاز الاستخبارات كممثلين عن الحكومة المصرية. إن لهذا الجفاء الدبلوماسي سابقة. فبعد وقت قصير على وصول حماس إلى السلطة، ذهب وزير خارجيتها في مهمة خارجية بدأت وانتهت في العاصمة المصرية، وشملت باكستان والصين وسوريا وعدداً من الدول العربية الأخرى. لدى وصوله إلى القاهرة، كان الزهار يتوقع لقاء نظيره، لكن المسؤولين في وزارة الخارجية، أبلغوه بكثير من المراوغة، بأن جدول أعمال الوزير أبو الغيط حافل لدرجة لا تتيح له فرصة لقائه. لكن، في الحقيقة، لم تكن الحكومة المصرية مستعدة للتعامل مع حماس من خلال القنوات الدبلوماسية العادية، بل من خلال الوزير المكلف شؤون الامن ورئيس الاستخبارات عمر سليمان.

عندما شارفت جولته على نهايتها، أقفل الزهار عائداً إلى القاهرة للقاء وزير الخارجية المصري بعدما أعيد تحديد موعد جديد لاجتماع الرجلين. عادة، يتم استقبال وزراء الخارجية الزائرين في وزارة الخارجية، لكن الزهار أخذ إلى مكتب أسامه الباز، المستشار السياسي للرئيس مبارك، الرجل القصير القامة المحب للانكليز، والذي احتل، طوال عقود من الزمن، مكانة الحكيم في كواليس الحكم. أبلغ أبو الغيط وزير خارجية حماس بأن مصر لطالما دعمت إقامة دولة فلسطينية مستقلة يتمتع مواطنوها بحرية التحرك والتعبير. فمنذ العام 1978، اختارت مصر طريق التفاوض والسلام على أنها السبيل الوحيد للاستقرار في المنطقة. حث أبو الغيط الزهار على بذل ما بوسعه من أجل المحافظة على الدعم الدولي للقضية الفلسطينية، ودعاه إلى التمتع بالحكمة لخلق جو مؤات للتفاوض. كما نصح وزير الخارجية الفلسطيني بالاصغاء بانتباه إلى عمر سليمان: "أعرف ما تمثله حركة حماس، لكن يجب أن تكونوا لبقين. إن أوروبا مستعدة للتعامل مع حكومتكم، شرط أن تتجاوبوا مع مطالبها". فجاءه ردّ الزهار: "نحن على استعداد لدرس المبادرة العربية لأن الامة العربية هي مظلتنا التي تحمينا وترشدنا. فلسطين بأسرها ملك لنا، لكننا اتفقنا مع الفصائل الفلسطينية الاخرى على القبول بدولة فلسطينية مستقلة ضمن حدود العام 1967"[7].

السبب وراء الارتباك الدبلوماسي لمصر كان مزدوجاً. أولاً، إنها كانت منزعجة من العلاقة التي تتمتع بها حماس مع معارضيها، أي الإخوان المسلمين، الذين يشكلون شوكة في خاصرة الحكومة المصرية منذ سنوات عدة. إذ أن بروز حكومة إسلامية ترأسها حماس في فلسطين المجاورة أمر تنظر إليه الحكومة المصرية بارتياب. فدمج الدين بالنظام باعتماد قوانين الشريعة يتعارض مع البنية العلمانية للحكومة المصرية. لقد عملت مصر بجهد لاحتواء حماس، لكن عبثاً حاولت، وهي الآن تطلب من منظمة التحرير الفلسطينية أن تبذل ما بوسعها لاقناع الحركة بعدم تبني نظام سياسي ديني قد يؤدي إلى تأجيج الوضع المتأزم في المنطقة. على عكس مصر وإلى حدّ ما الأردن، اضطرت إسرائيل لتحمل العبء الاكبر بما أنها سمحت بخروج الوضع على حدودها عن نطاق السيطرة. إن أصابع الاتهام تشير إلى رؤساء الوزراء الإسرائيليين السابقين لأنهم لم يتخذوا تدابير وقائية للقضاء على حماس في مهدها. بدلاً من ذلك، فقد سمحت تل أبيب لحماس بأن تتحول إلى ذاك الخصم القوي المناهض لحركة فتح، فسحقت منافستها السياسية وحصلت على الغالبية الكبرى في المجلس التشريعي الفلسطيني. سيكون على إسرائيل أن تتحمل، لبعض الوقت وحتى حصول انتخابات جديدة، نتيجة هذه الهفوة وعدم التبصر. إن السياسيين الإسرائيليين المعتدلين وحتى القادة العسكريين المتشددين يتهمون الإدارة الإسرائيلية المدنية التي كانت مسؤولة عن إدارة الشؤون المدنية الفلسطينية، بما يصفونه بـ "سياسة التسامح" التي أفسحت المجال أمام حماس لكي تكسب هذه المكانة المتقدمة.

سيتأثر تعامل إسرائيل مع حماس بشدّة بمدى إدراكها لقوّة حزب الله. فمضاعفات عملية أسر الجنديين الإسرائيليين على يد حزب الله في تموز/يوليو 2006 أثارت موجة من الفوضى على الحدود اللبنانية-الإسرائيلية، إذ للمرة الاولى في تاريخ إسرائيل، تصل صواريخ حزب الله إلى عمق المدن الكبرى في شمال إسرائيل، ما أدى إلى هجرة أكثر من مليون شخص اضطروا لمغادرة المدن والقرى والمستوطنات أو للتحصن في الملاجىء. أكثر من مئة إسرائيلي وألف لبناني قضوا نحبهم في الصراع الذي استمر ستة أسابيع، وانتهى بالتوصل إلى وقف لـ

"الأعمـــال العدائية" وافق عليه الطرفان، باستقدام قوة تابعة للامم المتحدة شكلت عـــازلا بين الجانبين المتنافرين من الحدود بناءً على القرار 1701. وعلى غرار ذلك، ينبغـــي إقامـــة منطقة محايدة مماثلة من أجل تأمين أمن واستقرار الحدود السورية-الإســـرائيلية. لقد استنفدت إسرائيل كل الوسائل المتاحة و لم يبق أمامها إلا خيار واحد، ألا وهو التوصل إلى تسوية مع جيرانها بدعم من الأسرة الدولية.

شـــلومو بن عامي، الذي تولى منصب وزير الخارجية الإسرائيلي في حكومة ايهود باراك، وصف حرب إسرائيل مع حزب الله وحماس بأنها حرب على جبهتين - لبنان وغزّة - قضت على البرنامج الذي كانت حكومة أولمرت وحزب كاديما قد وضعاه لأجل الضفة الغربية؛ بهذا كان يعني انسحاباً من جانب واحد في غضون ثلاثـــة ثلاثـــة أشهر بعد تشكيل الحكومة. حاول بن عامي أن يبرهن بأن انسحاباً كاملاً من الضفة الغربية سيشكل عملية أكثر تعقيداً من غزّة، إذ أنها تشمل تفكيك المـــستوطنات وإخـــلاء أكثر من 80 الف مستوطن، فيما انسحاب آرييل شارون الاحادي الجانب من غزّة استلزم إخلاء ثمانية آلاف مستوطن فقط. إن غزّة تشكل كـــياناً أقل تعقيداً وحدودها مع إسرائيل لم تكن أبداً موضع جدال، ورغم ذلك، فقد شعرت إسرائيل بأنها مرغمة على اجتياح غزّة بعد أقل من عام على انسحابها منها، وذلك في محاولة لانقاذ جنديها المخطوف. وسأل بن عامي: "ما هي الفرص الطـــويلة الأمد لمثل هذه العملية في الضفة الغربية؟ إن العملية العسكرية التي كانت غايـــتها استرجاع العريف شاليط والتي دعيت عملية "مطر الصيف"، ألقت الضوء على الفشل المحتمل لمثل هذه الاستراتيجية، وينبغي أن تكون إسرائيل أول من يدرك ذلك". واحداً من الدروس التي تعلمتها إسرائيل هو أن صواريخ القسام التي تطلق مـــن الحـــدود الجديدة في الضفة الغربية تبلغ المدن الإسرائيلية. وفي المستقبل، من الممكـــن أن تصبح هذه الصواريخ قادرة على بلوغ مطار بن غوريون. وبحسب بن عامي:

"إذا كـــان أولمـــرت يريد أن ينقذ خطته الاحادية الجانب، ينبغي أن تصبح إحدى الفصائل الفلسطينية شريكة له، وأنا اقترح ان يكون هذا الشريك الحكومة الفلـــسطينية بقـــيادة اسماعيل هنية. هذا الأمر سيوفر فرصة للتوصل إلى اتفاق مع

حماس أجدى من مجرد تبادل الجندي المخطوف، في وقت لا تعترض نسبة 45% من الإسرائيليين على المفاوضات المباشرة مع حماس"[8].

مـــن الممكـــن إحـــياء خريطة الطريق التي تقضي بإقامة دولة فلسطينية، إن أصبحت حماس أكثر واقعية في إدارتها للحكم. فمن وجهة نظر بن عامي، إذا قبلت حمـــاس بمثل هذا العرض، فإنها ستثبت أنها موحدة وأنها تتمتع برؤية مستقبلية وأنها قادرة على القبول باتفاقات وقف إطلاق النار. إن توقيع اتفاق مع حماس سيكون من مصلحة إسرائيل، بما أنه يخلق استقراراً في الضفة الغربية ويضع حدّاً لعزلة حماس على الساحتين الدولية والاقليمية. كما أن هذا الحل سيسمح لحماس بالتراجع عن رفـــضها الايديولوجـــي الاعتـــراف بإسرائيل، من دون أن تتخلى عن مناهضتها للاحـــتلال. كمـــا يشير بن عامي وسواه إلى أن تعامل إسرائيل مع حماس يمرّ عبر علاقة تقيمها مع سوريا، وإلى حدّ ما مع حزب الله. ويرى كثيرون في إسرائيل أن البدء بمثل هذه المحادثات أمر ضروري طالما أن أميركا لا تزال تتمتع ببعض السلطة في المنطقة، فتسهم في وضع شروط تكون مقبولة من إسرائيل. في الوقت الحاضر، إن مـــصداقية أميركا تتلاشى بسرعة، فيما لا تبدو أنها على عجلة من أمرها للقيام بمساع ديبلوماسية.

دينـــيس روس، الـــذي طلب منه أن يقدم النصح بهذا الخصوص إلى الإدارة الأميركية خلال نـــزاع العام 2006 في لبنان شرح الوضع قائلا: "لم أرهـم يلتزمون بالنـــصيحة بشكل يعكس جديتهم. ما أسمعه منهم هو أنهم سيكونون أكثر فعالية. سأصـــدق ذلك عندما أرى أن لديهم فعلاً تعاملاً مستمراً وعلى مستوى رفيع مع الإســـرائيليين. عـــندما يعمـــل شخص على مسألة ما بشكل علني وواضح طوال الوقت، هذا تعبير عن التزامه السياسي. كيفية عملهم على قضية لبنان يوحي بأنهم لا يـــريدون لفـــت الانتـــباه إلى ما يفعلونه. خلال نـــزاع العام 1996 بين لبنان وإســـرائيل، أرسلني الرئيس في اليوم نفسه في جولة مكوكية إلى المنطقة، ثم حضر وزير الخارجية وارن كريستوفر بعد يومين. كريستوفر قام برحلات مكوكية لمدة 8 أيـــام ونصف اليوم، من أجل التوصل إلى وقف لاطلاق النار. وقد وافق الطرفان علـــى الأمر. أين ترون الإدارة الأميركية الآن؟ دايفيد ويلش ذهب إلى لبنان لكنه

تـــصرف بطريقة لا تلفت الانتباه، في حين أن كوندي (كوندوليزا رايس) غادرت المنطقة. كوندي ذهبت إلى هناك ثم غادرت الساحة!"[9]

قـــبل وصـــول وزيـــرة الخارجية الأميركية إلى المنطقة في أوج عملية خطف شـــاليط، قام مساعد وزيرة الخارجية لشؤون الشرق الأدنى دايفيد ويلش بتمهيد الطـــريق من خلال عقده لقاء مع الرئيس الفلسطيني محمود عباس في مكتبه بالضفة الغـــربية في رام الله، وطلـــب مـــن عباس أن ينقل رسالة إلى حماس بوجوب عدم التورط بأية تطورات بين حزب الله وإسرائيل. ويلش شدّد على أهمية إبقاء مسألة حـــزب الله منفـــصلة عن حماس، وكرّر موقف حكومته القائل بأنها لن تتعامل مع حكـــومة بقـــيادة حماس ما لم تعترف هذه الاخيرة بإسرائيل وتوافق على شروط الأســـرة الدولـــية. ويلـــش سأل عباس: "كيف يمكن لحكومة تشكلت حديثاً أن تتجاهل الاتفاقات التي وقعتها الحكومة السابقة وتتوقع أن نتعامل معها؟" الدكتورة رايس رأت بأم العين العداء الذي تسببت به السياسة الخارجية الأميركية في الشرق الاوســـط عندما اضطر موكبها لتجاوز حشد غاضب من المتظاهرين الفلسطينيين الـــذين كانـــوا يلوحون باللافتات ويطلقون الشعارات المعادية لأميركا قبل بلوغ موكـــبها مقرّ الرئيس الفلسطيني المحصّن في رام الله. وهي كررت ما سبق أن قاله ويلـــش لعباس في وقت سابق: كانت تريد رؤية حكومة من التكنوقراط من دون حمـــاس. وأضـــافت أنه في حال وجود أي من أفراد حماس في مثل هذه الحكومة، سيكون عليهم أن يوافقوا علناً على الالتزام بشروط اللجنة الرباعية.

رفعـــت مجمـــوعة من الفلسطينيين، من أكاديميين وممثلين عن المجتمع المدني الفلسطيني، عريضة إلى وزيرة الخارجية الأميركية يقترحون فيها ضرورة وجود قوة دولـــية فاعلة في "الشرق الأوسط الجديد"، وفقاً لتعبيرها الخاص. ويجب ألا يكون هـــذا الوجود مقتصراً على الحدود اللبنانية-الإسرائيلية، بل أن يتعداه إلى الأراضي الفلـــسطينية المحتلة منذ 1967 ويمتدّ إلى الحدود الإسرائيلية-السورية، بهدف توفير الأمـــن للجميع، كخطوة أساسية نحو المفاوضات في شأن الوضع النهائي ,تطبيق قـــرارات مجلـــس الامن الدولي. وختموا بالقول بأن مثل هذه القوات ستضع حداً للاشتباكات المتواصلة بين الاطراف المتنازعة، وستؤكد للجماعات المنادية بالسلام

وجـــود اندفاع حقيقي باتجاه تطبيق المبادىء المتعلقة بالشرق الاوسط المنطقة، أي تحديـــداً، مبدأ "الارض مقابل السلام"، وقراري الأمم المتحدة 242 و338، ورؤية الرئيس بوش للسلام في المنطقة[10].

قـــبل عامين على طرح فكرة "الشرق الأوسط الجديد" على العالم، كشفت الإدارة الأميركـــية، وكأنهـــا ممثل فاشل لم يحفظ نصه جيداً، النقاب عن اقتراحاتها المـــتعلقة بـــ "مبادرة الشرق الأوسط الكبير". تبنت الدول الصناعية، أي مجموعة الثماني، هذه الاقتراحات في قمة "سي آيلاند" الصيفية في جورجيا[11]. لقد اختار الـــرئيس بـــوش موقـــع القمة، وهو مجموعة من الجزر الخاصة قبالة ساحل جنوبي جورجيا الواقع على شمال الاطلسي، نظراً لجماله الطبيعي وللضيافة الجنوبية الذائعة الـــصيت. في حين تم استقبال الصحافيين على الشاطئ، وضع قادة مجموعة الثماني تحـــت الحمايـــة المـــشددة للاستخبارات الأميركية في منتجع "سي آيلاند" المتميز بـــشواطئه الخاصـــة الـــبالغ طولها خمسة أميال. خلال الايام الثلاثة التي استغرقتها المحادثات، كان ممثلو الدول يتنقلون بهدوء في أنحاء الجزيرة، في سيارات كهربائية لا تـــسبب انبعاثات حرارية، وتحمل كل واحدة منهاعلماً مختلفاً وفقاً لجنسية القادة الذين يستخدمونها.

كانـــت لي عدة أحاديث مع أيليوت أبرامز، مهندس مبادرة الشرق الاوسط الكـــبير، الذي رافق الرئيس بوش إلى القمة التي استغرقت ثلاثة ايام. ابرامز، وهو خـــريج جامعـــة هارفرد في اختصاص المحاماة، موصوف بأنه من المحافظين الجدد و"ريغـــيني" حـــديث (نـــسبة إلى الرئيس الأميركي الأسبق رونالد ريغن)، تجسد طـــروحاته مزيجاً لجانبي البرنامج المحافظ الحديث، المتشدد والمتساهل[12]. إنه نائب مستـــشار الامن القومي ومساعد الرئيس بوش الخاص وبمثابة اليد اليمنى للدكتورة رايس في الملف الإسرائيلي. وفقاً لمضمون مبادرته، فإن الشرق الاوسط الكبير يمتد مـــن المغـــرب إلى باكستان ويشكل أحد مركبات استراتيجية الرئيس بوش "لنشر الحـــرية"، الهادفة إلى تكريس انتشار الحقوق السياسية والمشاركة السياسية في العالم المـــسلم في مواجهة التطرف الإسلامي[13]. قبل يوم على بداية القمة، كان أبرامز مـــلء الـــثقة بالتـــرحيب الذي ستلقاه رؤيته، وقد شرح لي بكل حماس كيف أن

مبادرته ستحدث ثورة في كافة أنحاء الشرق الاوسط. قلت له إن المكوّن الأساسي لنجاح هذه المبادرة مفقود، وهو حل للنـــزاع العربي -الإسرائيلي، وأن الكلام عن شرق أوسط كبير من دون إيجاد حل دائم لهذا الصراع مصيره الفشل. لكن كلامي لم يلـــق أي صدى لديه. سواء من باب الجهل أو السذاجة، بدا أيليوت وكأنه لا يعتـــبر أن هذا الصراع ذي أهمية بالنسبة إلى العرب في المنطقة. لم تحظ رؤيته بأي تعليق صادر من العالم العربي، بما أن القادة العرب والشعوب العربية عموماً، شعروا بـــأن هـــذا التصميم الجديد الحامل تسمية "شرق أوسط كبير" لا يخدم إلا المصالح الإســـرائيلية في المـــنطقة من دون أن يقدم للفلسطينيين حلاً عادلاً لنـــزاعهم مع الدولة العبرية. في ما استرجعت أبرز أحداث ذلك اليوم في ذهني وأنا عالق في زحمة الـــسيارات المـــستهلكة للوقود، ساعة الذروة، خطر لي بأن رؤية أبرامز تهدف إلى خلـــق عـــالم اصـــطناعي كالـــذي رأيته يعج بالسيارات الكهربائية غير المسببة للانبعاثات، على جزيرة "سي آيلاند".

في وقـــت لاحق من القمة، تبنى الرئيس بوش موقفاً آخر. خلال اجتماع مع الـــرئيس الفرنـــسي جاك شيراك، حصل بوش على موجز دقيق عن منطقة الشرق الاوســـط. بحـــسب المحـــضر الرسمي لذلك اللقاء، الذي زوّدني به الدبلوماسيون الفرنسيون في اليوم التالي، كان موجزاً دقيقاً أعطاه الرئيس الأوروبي الذي بدأ يرمم الجسور مع البيت الابيض بعد خلافهما بشأن القرار الأميركي باحتلال العراق. إثر الاجـــتماع الخـــاص بـــين بوش وشيراك، وبعد موجز مماثل قدّمه رئيس الوزراء الـــبريطاني طـــوني بلـــير، تم تـــبني بيان آخر يدعو إلى حلّ النـــزاع الفلسطيني-الإسرائيلي. كان ذلك ينسجم مع حلّ إقامة دولتين الذي اقترحته اللجنة الرباعية. الـــتفاهم الـــوديّ بين شيراك وبوش دفع بالرئيس الفرنسي إلى الثناء على... مذاق الطعـــام في الجنوب الأميركي، قائلاً: "الطعام هنا في أميركا كان حتماً بلذة الطعام الفرنسي، واطلب من الرئيس أن ينقل شكري إلى الطاهي الذي تولى إعداد الطعام خلال القمة". هذا الكلام الصادر عن رئيس دولة تفتخر بما تزخر به من تقاليد في فـــن الطهو كان ثناءً بالفعل. بالكاد كان بوش يخفي اعتزازه عندما أعلن لسكان سافانا وسي آيلاند: "لقد أعجب الرئيس الفرنسي بطعامكم".

بيان سي آيلاند الذي أيّده قادة مجموعة الثماني في جورجيا لم يأت أبداً بثماره، ولم يـأت حـتى بوصفات جديدة... للحلّ. وبقي عباس معزولاً وعالقاً، من دون أن يلوح في الأفق أي تصوّر للسلام. بالتالي، طالعه انتصار حماس في كانون الثاني/يناير من العـام 2006. على الرغم من تطمينات الدعم الشفهية التي أتته من الولايات المتحدة وإسرائيل، فإن رفاق سلاح حماس في لبنان - حزب الله - قد تمتعوا بما يكفي من ثقة لكي يتسببوا باندلاع حرب مع إسرائيل، انتشرت تردّداها في كل أنحاء العالم.

بعـد وقت قصير على إعلان وقف اطلاق النار بين حزب الله وإسرائيل[14]، وصـف بـوش المنطقة بأنها تقف أمام لحظة مفصلية في التاريخ. قال إن الصراع الاخـير يعكـس تـصميم المتطـرفين على منع قيام المجتمعات الحديثة في الشرق الاوسـط، وإن ادارتـه وجهـت رسالة واضحة إلى الذين يعترضون على انتشار الديمقـراطية في المنطقة. وفي إشارة واضحة إلى حماس، أضاف بوش بكل إصرار: "اميركـا ستواصل معركتها ضد القاعدة. يجب أن توقف إيران دعمها للإرهاب. وعلى قادة هذه المجموعات المسلحة أن يتخذوا قراراً. إذا ارادوا المشاركة في الحياة الـسياسية في بلادهم، يجب أن يتخلوا عن سلاحهم. لا يمكن للقادة المنتخبين أن يضعوا قدماً في مخيم الديمقراطية وقدماً آخر في مخيم الإرهاب"[15].

لقـد عكـس هـذا التصريح رفض أميركا التعامل مع خصوصيات الشرق الاوسـط واندفاعها لتبسيط الواقع في منطقة معقدة، وذلك من خلال جمعها بين مجموعتين تتمتعان، في بعض النواحي، بفلسفات متشابهة لكن ذات جذور مختلفة، بمـوجب توصيف واحد: "إرهابية". ناهيك عن ذلك، لا بدّ من الإشارة إلى أنه لا تـوجد في واشنطن، شخصيات تتمتع بما يلزم من نفوذ، كمارتن إنديك، مستشار الـرئيس كلينـتون لـشؤون الشرق الاوسط في مجلس الامن القومي، الذي كان مسؤولاً عن حفل توقيع اتفاق أوسلو في العام 1993، والذي ساهم في إتمام معاهدة الـسلام بـين إسرائيل والأردن. برأي إنديك، "اذا كانت حماس مستعدة لتعديل مـوقفها والتخفيف من حدّته، قد تتمكن من التعاون مع محمود عباس، وسيكون الـتعاون معهـم ممكناً. لكن ليس من أمل كبير بحصول ذلك. من الصعب جداً معرفة ماذا سيحصل بعد ان تنقشع الغيوم مع حزب الله"[16].

لقد اعتبر إنديك أن الكيانين اللذين يمثلان حماس، الكيان الذي يضمّ المتواجدون داخل الأراضي الفلسطينية المحتلة في غزّة، والكيان الذي يجمع من في الخارج، بأنهما في الاجمال يملكان الاهداف النهائية نفسها، وأنهما يتشأركان الأيديولوجية نفسها. لكن كما في أي حركة سياسية، ثمة بعض الفوارق. وموقفك يكون رهناً بالمكان الذي تتواجد فيه. بالتالي فإن أولئك الموجودين في غزّة لديهم موقف مختلف عن الموجودين في دمشق. في أعقاب أزمة لبنان، بدأت تتطور فكرة محاولة فصل الذين في غزّة عن الذين في دمشق". إنديك، الذي هو بمثابة أسطورة بين الدبلوماسيين الأميركيين، بدا واثقاً من نظريته، بأنه "ليس من مصلحة حماس أن تسمح لحزب الله وإيران بسرقة قضيتها"، فيما مصلحتها تكمن بمساندة عباس وتشكيل جبهة مشتركة معه. وختم إنديك كلامه بالقول: "إن حصل ذلك، فإن واشنطن ستعتبره تطوراً مثيراً للاهتمام".

ما يثير قلق، ليس إنديك وروس فقط، بل الكثير من القادة العرب والأوروبيين هو أنه، في أيامه الاخيرة في البيت الابيض، ليس من المحتمل أن يلتزم الرئيس بوش معالجة السبب الاصلي للوضع المتأزم في الشرق الأوسط وهو الدولة الفلسطينية. بالنسبة إلى بوش ووزيرة خارجيته، إن السبب الاصلي هو حزب الله وإيران. وحدهم القادة مثل شيراك وبلير كانا قادران على إقناع بوش بأن يتفوّه بشيء إيجابي بخصوص القضية الفلسطينية في أعقاب أزمة لبنان. لكن دافع بوش إلى العمل على تحريك العملية السلمية باتجاه إقامة دولة فلسطينية هو أمر غير محتمل في الايام الاخيرة لإدارته. يبقى أن نرى إذا كان هنية وعباس سيشكلان جبهة موحدة يمكن لإسرائيل التعامل معها. إن طموح أولمرت هو إخراج إسرائيل من الضفة الغربية، وهو يعتقد خطأً بأنه أمر أصبح تنفيذه أسهل بعد الحرب مع لبنان. لكن إقناع الإسرائيليين بضرورة سحب القوات الإسرائيلية من الضفة الغربية بعد المعركة المفجعة ضد حزب الله في لبنان، مرتبط بمدى شعور إسرائيل بأن لديها شريك فلسطيني قادر ومسؤول.

ويتوقع إنديك: "إن كان انسحاباً أحادي الجانب، كما كانت الحال في غزّة، فإن أحداً لن يدعمه، لأنه يعني أن الصواريخ ستسقط على تل أبيب من الضفة

الغـــربية. لذا، بعد درس لبنان، التصرف الأحادي الجانب ليس فكرة واقعية. حتى داخـــل حكـــومة أولمرت، صدر تحذير من أنه لا يمكن الانسحاب ورمي المفتاح. يجـــب أن يكـــون لدينا شريك من الجانب الآخر لتولي الأمر بعد الانسحاب من الضفة الغربية".

إنديك لم يؤمن بأن وثيقة الأسرى ستؤمن مخرجاً من الورطة. "لا الأميركيين ولا الإسرائيليين اقتنعوا بأن الوثيقة التي وقعها هنية ستحدث أي فرق. الحل يكون بتشكيل حكومة طوارىء لا تضمّ أي عضو من فتح أو حماس، كسبيل لخلق نوع من القاعدة المحايدة يمكن على أساسها أن يقوم النظام مجدداً".

علـــى المستوى الدولي، ستسعى حماس طبعاً لاستمالة الاتحاد الأوروبي تجنباً لاســـتحواذ الـــولايات المتحدة وحدها على مصير المنطقة. وتنظرحماس إلى روسيا وغيرهـــا مـــن الدول الأوروبية على أنها من الاصدقاء المقرّبين، فيما تناضل للفوز بقبول المجتمع الدولي ولتبرئة اسمها الذي أصبح مرادفاً للإرهاب. وتعتبر الحركة بأنها ستـــستفيد مـــن تعزيز الروابط مع الدول العربية ولا سيما مع الدول المجاورة، أي الأردن وســـوريا ومـــصر التي تحظى بعلاقة جيدة مع الغرب. هذا الأمر سيساهم بتعزيـــز شـــرعيتها أكثر فأكثر. إيران ايضاً تشكل عنصراً حيوياً برأي حماس على المـــستويين التمويلي والايديولوجي. ودول الخليج العربي، وبخاصة قطر التي تتقبل الإخوان المسلمين، وتقدم لها ايضاً جرعة من الدعم المعنوي والسياسي. بالتالي، فإن نجـــاح حماس في المناورة على مستوى مختلف هذه العلاقات ستحدده قدرة قيادتها على اعتماد الاعتدال موقفاً ونهجاً، بغية تحقيق اهدافها الصعبة المنال.

الخاتمة

كان افراييم سنيه رئيس الإدارة المدنية في الضفة الغربية ما بين العامين 1985 و1987 في ظل حكومة حزب العمل برئاسة إسحق رابين، حين بدأت حركة حماس تخرج إلى الوجود. بحسب سنيه[1]، كان دوره في ذلك الوقت يتمثل "بتشجيع الفلسطينيين المعتدلين في الضفة الغربية وغزّة على البروز في وجه المتشددين. فقد أعطيت الحرية للذين قد أصفهم بأهم عناصر فتح ذات التوجهات الواقعية". في هذه الخانة، وضع سنيه أشخاصاً مثل حلمي حنون، المعروف بـ "أبو يوسف"، رئيس بلدية طولكرم، والاكاديمي الفلسطيني سري نسيبه، وحنا سنيورة، رئيس تحرير صحيفة "الفجر"، والمحامي جميل الطريفي، وفيصل الحسيني نجل القائد الفلسطيني الشهيد عبد القادر الحسيني الذي أصبح وزيراً مسؤولاً عن شؤون القدس في السلطة الفلسطينية. جميعهم كانوا يعتبرون من المعتدلين في فتح، وأصبحوا لاحقاً شخصيات سياسية بارزة في منظمة التحرير الفلسطينية.

سنيه، الذي كان يعتبر نفسه الأقرب إلى الراحل رابين، لم يشر إلى صدور أي إنذار عندما ورد ذكر حماس. في ذلك الوقت، قال: "لم تكن تعتبر حركة خطيرة. كانت قوة صاعدة. لم تكن بارزة ولا هامة سياسياً، ولم تكن تعتبر منظمة عسكرية ذات شأن". عندما انتخب في الكنيست في العام 1992 ممثلاً عن حزب العمل، عمل سنيه كأحد أفراد لجنة الدفاع والشؤون الخارجية. إنه يعتقد أن المشكلة في الشرق الاوسط "ليست بين إسرائيل والفلسطينيين، بل بين المعتدلين والمتعصبين. وهو يود أن يرى قيام تعاون بين المعتدلين في أسرع وقت ممكن، من أجل تطبيق اتفاق دائم يمهد لاقامة الدولتين، ومن أجل بناء شرق أوسط جديد على أسس الحداثة والتقدم والتطور الاقتصادي. لكنه حذر، أنه عند القيام بذلك، "يجب أن نحتوي المتشددين الذين يرغبون بتحويل كل الشرق الاوسط إلى العاصمة الصومالية

موغاديشو. لا اعرف إن كان (أولمرت) مستعداً لذلك، لكن يجب أن يكون كذلك. فالخيار مروّع، والتسويات والاعتدال هما الحل الوحيد".

كان سنيه متأكداً بأن "حماس لن تتغير. لا أتوهم ذلك. لكن عاجلاً أم آجلاً، أود أن أرى غالبية الشعب الفلسطيني ممثلة في الحكومة. الأمر ليس من شأني لكنني مهتم بذلك. أعتقد أن السبيل الوحيد لهزم حماس التي هي بمثل خطورة، أو تقريباً بمثل خطورة حزب الله، هو باعطاء الأمل بمستقبل سياسي للشعب الفلسطيني من خلال تطبيق وتحقيق رؤيته بدولة فلسطينية مستقلة. من دون هذا الاحتمال، لن يكون من الممكن هزم حماس لأن حماس تبني موقعها على أساس اليأس والفقر".

كثيرون في المؤسسة الإسرائيلية لا يشاطرون سنيه رأيه. ألسياسي وعضو الكنيست إسرائيل حسون شارك في الكثير من مفاوضات السلام، بما فيها مفاوضات "واي ريفر" وطابا ومفاوضات "كامب ديفيد" التي تولاها إيهود باراك. لقد كانت لنائب المدير السابق للشاباك، وكالة الاستخبارات الإسرائيلية، وجهة نظر مختلفة تماماً عن رأي افراييم سنيه. فقد تمثل موقف الإدارة المدنية في غزّة إزاء الحركة الإسلامية التي غذت حماس في بداية الثمانينيات بـ "التغاضي". بقي الأمر على هذه الحال حتى العام 1983، عندما اعتقل الشيخ ياسين بتهمة حيازة الاسلحة.

باللغة العربية الفصيحة، أخبرني حسون، الذي ولد في دمشق قبل أن يهاجر إلى إسرائيل، بأن حماس أصبحت تخضع لمراقبة إسرائيلية مشدّدة في العام 1992 تقريباً. في ذلك الوقت، كانت الشاباك وغيرها من أجهزة الاستخبارات تحذر الحكومة الإسرائيلية والإدارة المدنية بوجوب معاملة الحركة على أنها منظمة إرهابية. وتابع حسون قائلا إنه بعد التوقيع على اتفاق أوسلو في العام 1993، "نصحنا الحكومة بالضغط على السلطة الفلسطينية من أجل اتخاذ التدابير اللازمة بحق حماس، لكن لم يكتف عرفات بعدم التعاون معنا، بل حتى أنه سمح للجناح العسكري لحماس بالانتقام لمقتل قائده يحيى عياش. فقط عندما تمّ انتخاب نتنياهو، أطلق عرفات حملة اعتقال جماعية بحق أعضاء حماس. فالقي القبض على 2400 فرداً منهم ووضعوا في السجون الإسرائيلية".

ألمح حسون إلى أن الشعور العام السائد في أوساط الاستخبارات، يقضي بأن لا تقيم الحكومة الإسرائيلية أي اتصال أو مفاوضات مع حماس، إلا إذا غيّرت الحركة شرعتها وتخلت عن تهديداتها بتدمير إسرائيل. كما يعتقد بأن هناك أيضاً قناعة راسخة داخل إسرائيل، بأن فوز حماس في انتخابات العام 2006 هو مجرد انتصار موقت، مضيفاً أن الفلسطينيين بشكل عام "ليسوا ناشطين ويفضلون العيش بهدوء. لا نعرف ما الذي سيكشفه لنا المستقبل. حماس ستأخذ في الاعتبار ما أسفرت عنه حرب إسرائيل على لبنان ضد حزب الله من نتائج، وأي خطوات قد تتخذها إسرائيل في المستقبل في شأن سوريا وإيران"[2].

النظرة إلى حماس على أنها قوة لدودة خرجت من العدم ليست سائدة في إسرائيل فقط. فقد كان دينيس روس أول من أخبرني عن مخاوف أميركا من الحركة الجديدة الناشئة في الأراضي الفلسطينية والتي، كما قال، "تسببت بأطلاق صفارة الانذار" للمرة الأولى عندما تمّ اختطاف نحشون واكسمان، العريف الإسرائيلي-الأميركي البالغ من العمر 19عاماً، في العام 1994. جال روس على عواصم المنطقة لتنبيه القادة العرب والإسرائيليين من "الخطر الآتي"، كما وصف حماس. ونقل الرسالة نفسها إلى كل القادة، من الرئيس مبارك في مصر إلى الرئيس السوري الراحل حافظ الاسد، إلى عرفات ورابين. كان لا بد من أن تحافظ خطته للسلام على مسارها المحدّد.عندما زار دمشق في بداية التسعينيات، لم يكن قد برز في صفوف حماس أي شخص فاعل بشكل جدي. وأبلغني روس أن الرئيس الراحل حافظ الاسد قال له: "سأوفر لهم (أي لحماس) الملجأ لأنني ادين بذلك للفلسطينيين، لكنني أسيطر عليهم جيداً". في العام 1996، لم نتمكن حتى من إقناع السوريين بإدانة العمليات الانتحارية، في وقت كانت تعقد فيه اتفاقات "واي ريفر". حاولت أن اقول للسيد فاروق الشرع، وزير الخارجية السوري في ذلك الوقت، بأنه في النهاية، سيحرّف هؤلاء القوم ما تقوله، لذا لا بد من إخراجهم. لكن دمشق لم تشأ أن تخرجهم"[3].

في أواخر العام 1995، إثر اغتيال رئيس الوزراء الإسرائيلي اسحق رابين، وسلسلة العمليات الانتحارية التي أتت بنتنياهو إلى السلطة، تذكر روس ما قاله له

محمد دحلان الذي كان رئيساً لجهاز الامن الوقائي ولفتح آنذاك. لقد ذهب دحلان، بداعي قلقه من حماس، إلى عرفات، وقال له: "دعني أوجه ضربة لحماس لأنها تعزز قوتها كثيراً". وطالبه بتعليمات مكتوبة، لكن الزعيم الفلسطيني رفض إعطاءه إياها مكتوبة، مكتفياً بالقول: "نعم، يمكنك أن تفعل هذا لكنني لن أطلب منك ذلك كتابةً".

في مراجعة سريعة للأحداث، يمكن ملاحظة ما طرأ من تغيير على مستوى استراتيجية حماس، إذ تبدلت من السعي إلى تعزيز المقاومة الإسلامية إلى الرغبة في إنزال منظمة التحرير الفلسطينية من عليائها في العام 1993، عندما أعلنت حماس رفضها لاتفاقات أوسلو وبدأت حملة "عمليات الاستشهاد" في المنطقة بهدف إعاقة أي اتفاق بين الطرفين الفلسطيني والإسرائيلي. الفترة ما بين العامين 1994 و2002 شهدت بلوغ عمليات حماس الانتحارية ذروتها، ما حال دون أية إمكانية للمصالحة مع إسرائيل.أدت هذه العمليات إلى فرض إسرائيل حصارها المهين على الرئيس ياسر عرفات داخل مقرّه في رام الله، وإلى تدمير مدروس للبنية التحتية في الأراضي الفلسطينية، بما في ذلك المطار الدولي الذي كان قد بني حديثاً.

على الرغم من انتخاب محمود عباس بشكل ديمقراطي بناء على برنامجه للسلام مع إسرائيل، وتجريد الانتفاضة من صفتها العسكرية، فإن إسرائيل، وبدعم أميركي، لم تكتف بعزله فقط، بل قمعت أيضاً جهوده، وتجاهلت آراءه واقتراحاته من أجل السلام، وتركته عاجزاً عن حلّ مشكلات شعبه.

بعدما أصبحت السلطة الفلسطينية ضعيفة سياسياً واقتصادياً واجتماعياً، صارت الطريق سالكة أمام حماس لكي تظهر قدراتها. كانت الحركة ناشطة في الاعمال الخيرية في الضفة الغربية وغزّة، وحققت شعبية كبيرة وقوة معنوية في المنطقة. و لم تكتف بتحدي المجلس التشريعي، بل ذهبت إلى حدّ التجرؤ على طلب حصة في السلطة، زاعمة أن الحركة ضحت بالكثير من الدماء في الصراع ضد العدو.

حماس ليست عصابة. حماس جزء من مجتمع إسلامي، وقد ارتكبت الولايات المتحدة خطأً جسيماً باعتبارها "منظمة إرهابية" لا يمكن التفاوض معها. إن الحركة

لن تتخلى عن بعدها الإسلامي كونه من الثوابت. هذا لا يعني بأن حكومتها تمثل المستقبل المنشود، بل أن مجرد مهاجمة وعزل الحركة كما حصل ويحصل، يزيدها شعبية.

إن الفلسطينيين عاشوا في فبراير/شباط من العام 2007 وهماً بأن "اتفاق مكة"، الذي وقعه حينها الرئيس الفلسطيني محمود عباس ورئيس الوزراء اسماعيل هنية، برعاية الملك عبدالله بن عبد العزيز، سيوقف الفوضى الدموية والاشتباكات، التي كانت ما تنفك تهدأ على وقع اتفاق هش لوقف إطلاق النار، حتى تعود لتندلع مجدداً.

توقيع الاتفاق، الذي أسمي بـ "إعلان مكة" جاء، بعد نحو عام من الحظر الدولي المفروض على حكومة حماس الأولى، التي شكلت بعد فوزها في الانتخابات التشريعية مطلع العام 2006، وبعد يومين من الاجتماعات الماراثونية بين قيادات فتح وحماس، التي انتهت بتسليم الرئيس عباس إلى هنية كتاب تكليفه بتشكيل حكومة وحدة وطنية. كانت أهم نقاطه التأكيد على تحريم الدم الفلسطيني وأهمية الوحدة الوطنية كأساس للتصدي للاحتلال، والمضي قدماً في إجراءات تطوير وإصلاح منظمة التحرير الفلسطينية.

وتضمن الاتفاق نقطة أعتبرت تحولا مهماً في مسيرة حركة حماس السياسية، إذ وافقت الحركة على احترام الاتفاقيات الإسرائيلية – الفلسطينية الموقعة، وتفويض محمود عباس بمواصلة المفاوضات مع إسرائيل، وفق خارطة الطريق، من دون إلزام الحكومة بالاعتراف بإسرائيل أو الاعلان عن نبذ العنف، وفق ما طالبت به لجنة الوساطة الرباعية للسلام في الشرق الأوسط.

لكن اتفاق مكة لم يصمد طويلاً، بعدما وجد الصقور في حركة حماس في رفض العواصم الغربية فتحاً للأبواب أمامهم حجة للانقلاب على تعهدات حركتهم. كما اتخذ هؤلاء من تزايد عدم الثقة وتكرار المواجهات المسلحة بين أنصارهم وأنصار حركة فتح، واتهامهم للرئيس عباس بالاستعانة بالولايات المتحدة لتسليح قواته من أجل الانقضاض عليها، ذريعة لشن هجومها على مقار الأجهزة الأمنية الموالية لعباس في قطاع غزة. فلم يوفروا منزل الرئيس الراحل ياسر

عــرفات، الــذي اقتحموه. وشاهد الفلسطينيون بحرقة صورته ملقاة على الأرض وأحد عناصر القوة التنفيذية يجلس على كرسي مكتبه.

الــرئيس عباس ردّ على فعل حماس بإعلان عدم شرعية الحكومة التي تقودها، معتبراً إياها حكومة مُقالة، وشكّل في المقابل، حكومة طوارئ برئاسة سلام فياض، الذي يحظى بثقة الولايات المتحدة الأميركية بشكل خاص، والغرب بشكل عام.

وقد جاءت خطوة حماس، التي وصفتها حركة فتح وقياداتها بـــ "الانقلابية"، بعـــد سلـــسلة من الصدامات والاشتباكات بين أنصار فتح والحركة الإسلامية في غـــزة، مـــا أدى إلى ســـقوط عشرات القتلى والجرحى، وتخللها عمليات خطف وتصفية جسدية لعناصر وقيادات من الطرفين.

واســتغلت إسرائيل الواقع الجديد في قطاع غزة، وعمدت إلى التضييق أكثر اقتصادياً ومعيشياً على الفلسطينيين، فأغلقت المعابر كافة، وألحقت الحكومة الأمنية المصغرة برئاسة ايهودا أولمرت في سبتمبر/أيلول 2007 ذلك، باعلان القطاع "كياناً معادياً".

في المقابـــل، لا تزال فتح تتمتع بالنفوذ في المجتمع الفلسطيني، إذ أن جذورها ضاربة في تاريخ الفلسطينيين الحديث. وقد تعرضت صورها السياسية لضربة عندما أظهـــرت أنهـــا عاجزة عن حماية زعيمها المحاصر ياسر عرفات. كما تلقت ضربة أخـــرى عندما فشلت في الدعوة إلى تحقيق مفتوح وجدي في ظروف وفاته. أمل فتح الوحيد يتمثل بفشل حماس في إنجاز أي تقدم خلال توليها السلطة، ما سيعطي فـــتح الفرصة لاسترجاع قاعدتها السياسية القوية. إن فتح مصابة بالهوان والضعف برئاسة محمود عباس، إلا أنها لا تزال تتمتع بقاعدة قوية قد تساعدها على استرجاع غالبية الدعم لسياساتها في المستقبل، اذا قامت باصلاح بنيتها.

في هـــذه الاثـــناء، ضعفت أيضاً السلطة الفلسطينية في ظل حكم أبو مازن، وذلك لفشل الإسرائيليين والأميركيين في مساعدته على تطبيق الاصلاحات اللازمة وتحسين الوضع الامني المروّع ورفع مستوى عيش المواطنين الفلسطينيين. فضلاً عن ذلـــك، لم تمنح السلطة الفرصة لكي تتصرف كمفاوض شريك في تحديد أحكام الحـــل النهائـــي. على عكس سلفه عرفات، فقد انتخب عباس من الشعب بدعم

أميركـــي-إســـرائيلي غير محدود ولو بالكلام. وتوفر له الزخم اللازم ليتوصل إلى اتفـــاق مـــع إســـرائيل، إذ رحب به كل من الرئيس بوش وأرييل شارون خلال اجـــتماعهما في قمة الأردن في البحر الميت في حزيران/يونيو من العام 2003. لكن إســـرائيل لم تقـــدم شـــيئاً مقابل تنازلات أبو مازن، بدلاً من ذلك، فقد ماطلت الحكومة الإسرائيلية في شأن التفاصيل، فزال الزخم الذي حظي به عباس، وبالتالي، مـــا قام به من تنازلات لم يسفر عن أية نتيجة، وعادت دورة العنف القاتلة. غيّر شـــارون نهجـــه، معتمداً الحلول الأحادية الجانب، على أساس أن الفلسطينيين لا يشكلون شريكاً حقيقياً. وأخيراً، عمد إلى سحب جيش الاحتلال الإسرائيلي من غزّة، وفكك المستوطنات اليهودية. إن حزب شارون السياسي الجديد، كاديما، لا زال مـــستمراً في هـــذا النهج، لكن، بعد خروج شارون من الصورة، لم يلتزم من خلفـــه (أولمرت) على رأس كاديما، ببرنامج عمله رغم الكلام الجميل الذي كان يطلقه في وصف عباس.

الدولـــتان اللـــتان تسعيان إلى عدم لفت الانتباه ولكن اللتين تتمتعان بالنفوذ الابـــرز في الازمة الحالية هما إيران وسوريا. أي منهما لم تعترف بإسرائيل وكلاهما عبّـــرتا علناً عن دعمهما لحماس، لكنهما تلعبان دوراً أقوى في الكواليس. مشعل، الـــزعيم الحقيقـــي لحماس، يقيم في سوريا، وأية أعمال يقوم بها ستتأثر بسياسات بشار الاسد وحكومته. حتى أن مستقبل اسماعيل هنية، رئيس الحكومة الفلسطينية، أو خليفته، سيتقرر على الأرجح في سوريا بدلاً من غزّة.

لا تستطيع حماس أن تعيد عقارب الساعة إلى الوراء، إلى الزمن السابق الذي كانـــت تساند فيها الصراع العسكري وتشجع العمليات الانتحارية. وفيما يجلس مـــشعل في شقته في أحد أحياء دمشق، بحراسة عملاء متخفيين من الاستخبارات الـــسورية، الـــذين يبذلون جهدهم للاندماج مع السكان المحليين، سيحاول ذهنياً التوفـــيق بـــين أهدافـــه وأهداف حماس وبين أهداف حلفائه وأعدائه في الشرق الاوســـط. إن قبول حماس بحكومة تحالف سيعطيها مجالاً لإعادة تقييم ما يحصل في المـــنطقة. ومن الواضح أنه حتى الآن، ورغم اطلاق الأميركيين مبادرة جديدةلحل الصراع الفلسطيني الإسرائيلي، من الصعب رؤية محمود عباس يتوصل إلى تفاهم مع

خالـــد مـــشعل، فالخيار الافضل بالنسبة إليه في الوقت الحاضر هو التقيّد بالموقف السوري المتحالف مع إيران. في المقابل، ثمة مخططات في الكواليس يضعها المعتدلون العـــرب مـــن أجـــل إعادة سوريا إلى الحظيرة العربيه من خلال إغرائها بالحوافز الاقتـــصادية وضـــمان الاستقرار مقابل كسر تحالفها مع إيران.و اذا نجحت تلك المخططات، فإن مشعل قد يعيد النظر في خياراته.

لقـــد نجـــح التحالف السوري-الإيراني في تحدي واشنطن في ملعب لبنان في صـــيف العام 2006. إن قوة هذه الشراكة ستتعرض حتماً للاختبار في المواجهات المـــستقبلية. وخـــلال الحرب القصيرة بين إسرائيل وحزب الله، لعبت حماس دوراً أساسياً في حث العالم السنّي العربي على دعم حزب الله الشيعي، الأمر الذي عمّق الـــتحالف بين سوريا وحماس وإيران وحزب الله. حتماً لا يزال هناك فرصة جيدة بألا يهيمن هذا التحالف على الحياة السياسية الفلسطينية، لكن إذا أرادت إسرائيل أن تضع حداً لصراعها مع الفلسطينيين، الأمر الذي قد يخرج إيران وسوريا مما هو في الاســـاس صـــراع بـــين شعبين، سيكون الثمن الانسحاب من الضفة الغربية والتوصل إلى اتفاق بشأن القدس.

أمـــا الواقـــع على الارض فيقضي بأن حماس لن تذوب وتختفي من المشهد السائد راهناً، ولن تنجح أية عملية عسكرية في استئصالها. إن الفكرة التي تقول بأن الجـــيش الإســـرائيلي قد يدمر حماس بالدبابات وبالقذائف تعيد إلى الذهن تعليقاً أميركـــياً غـــير مقـــنع صدر خلال حرب فيتنام: "لقد دمرنا تلك القرية من أجل انقاذها". هذه الاستراتيجية لم تنجح في فيتنام، ولن تنجح مع حماس. حماس ليست قـــوة ثوار آتية من كوكب آخر. إنها الشقيق والجار أو الشخص الذي يعطي الابن المـــال لإكمـــال دراسته. طالما أنها تمثل الشعب الفلسطيني في صندوق الاقتراع، ســـيكون على الغرب وعلى أية سلطة فلسطينية مستقبلية أن يتقبلاها لما هي عليه: نمرٌ لن يغيّر ألوانه. وسيتوجب عليهما التفاوض معها.

ملاحظات

النصر المنسق

1. 29 كانون الثاني/يناير 2006.
2. "نيويورك تايمز"، 30 كانون الثاني/يناير 2006.
3. نفس المرجع أعلاه.
4. أرقام مصدرها حنا ناصر، رئيس اللجنة المركزية للانتخابات، وتمثل 77% من الناخبين السجلين.
5. يديعوت أحرونوت، 30 كانون الثاني/يناير 2006.
6. المركـــز الفلسطيني للسياسة والابحاث مؤسسة مستقلة لا تبغي الربح المادي، ومركز للتحليل السياسي والبحث الأكاديمي.
7. أرقام مصدرها اللجنة المركزية للانتخابات، فلسطين.
8. "واشنطن بوست"، 27 كانون الثاني/يناير 2006.
9. نتانـــياهو وكـــوهين وأكيرمان متحدثين لبرنامج "نيوزهاور مع جيم ليهرر"، 2 شباط/فبراير 2006.

... ولدت حماس

1. أرقام تتعلق بلاجئي 1948 وفقاً لمنظمة الأونروا.
2. أحمد بن يوسف، حركة المقاومة الإسلامية.
3. برنارد لويس، "الإسلام والغرب".
4. الحـــرب ضـــد دولة إسرائيل الحديثة العهد (1948-1949) المعروفة بالحرب العـــربية-الإســـرائيلية الأولى، الـــتي هاجمت خلالها القوات العربية المشتركة إســـرائيل، فهُـــزمت، فـــيما واصلت إسرائيل ضمّها لــ 75% مما كان أرضاً فلسطينية في ظل حكم الانتداب البريطاني.

5. إنقـــلاب غـــير دموي وقع في 23 تموز/يوليو 1952، تمت على إثره الإطاحة بالملك الفاسد فاروق الأول الذي أجبر على التنحي عن العرش لصالح ابنه.
6. تم توقيف ياسين لحيازته أسلحة عام 1984.
7. مقابلة مع المؤلف، كانون الثاني/يناير 2005.
8. لمـــزيد مـــن التفاصيل، مراجعة كتاب زائيف شيف وإيهود يعاري "إنتفاضة" (سايمون وشاستر، 1989).
9. منشورات الجهاد الإسلامي. وفقاً للجهاد الإسلامي، فإن الطعن جاء ردّاً على قرار الجيش الإسرائيلي إبعاد أعضاء من الجهاد الإسلامي قبل ثلاثة أسابيع من انطلاق الانتفاضة.
10. حادثـــة مقطورة حصلت في مخيم جباليا للاجئين في 8 كانون الأول/ديسمبر 1987.
11. مقابلـــة مع المؤلف في 21 تشرين الثاني/نوفمبر 1992 عبر الهاتف من لندن إلى منـــزله في غزّة.
12. الـــشورى هـــي الطريقة التي كانت قائمة منذ ما قبل الإسلام لاختيار زعماء العـــشائر العربية ولاتخاذ القرارات الهامة. وتمثل دور مجلس الشورى في حماس بالتحقق من أن جميع قرارات حماس توافق مصادر التشريع الإسلامي، وتأخذ بالاعتبار المصالح العامة، ووحدة المجتمع.
13. القرآن الكريم، السورة 17، الآية 1.

والد الحركة

1. "إسلام أون لاين"، 7 نيسان/أبريل 2004.
2. نفس المرجع أعلاه.
3. القناة الولى، التلفزيون الإسرائيلي، 3 نيسان/أبريل 2004.
4. "إسلام أون لاين"، 7 نيسان/أبريل 2004.

كتائب عزّ الدين القسام

1. السلفية هي حركة تسعى للعودة إلى ما يعتبره أتباعها أنقى أشكال الإسلام – كما مارسه النبي محمد والجيلان اللذان أعقباه.

2. حسني جرّار، الشيخ عزّ الدين القسام: قائد حركة وشهيد القضية (بيت الضياء للنشر، 1989).
3. "إنهـا مـنطقة غـير محدّدة بوضوح تمتد حتى أعلى منطقة الفرات، وتقطنها غالبـية من الأرمن والسوريين". (من "الحروب الصليبية"، موسوعة بريتانيكا (2006).
4. مراجعة: أسلحة المشاة، 1999-2000، منشورات جاين.
5. 22 حزيران/يونيو 1992.
6. شيروت ها- بيتاشون ها- كلالي (شاباك) المعروف ايضاً بالشين بيت، جهاز الاستخبارات الإسرائيلية المضادة وجهاز الأمن الداخلي.
7. القدس العربي، 9 آب/أغسطس 1992.

المهندس

1. "توسـع التوطين: آرييل ومجمع آرييل"، "السلام الآن"، أيار/مايو 2005، نقلا عن المكتب المركزي الإسرائيلي للاحصاءات.
2. نقلا عن "إسلام أون لاين".
3. التعـبير العـربي لـ "مسجد ابراهيم في الخليل". هكذا يشير الفلسطينيون إلى المجزرة التي نفذها الدكتور باروخ غولدشتاين في 25 شباط/فبراير 1994، والتي أعقبتها فترة الحداد التقليدية والمتمثلة بأربعين يوماً.
4. مقابلة مع أسرار عياش، www.albareek.com، 14 شباط/فبراير 2005.

جامع السلاح

1. مقابلة مع عدنان الغول، "إسلام توداي"، 27 تشرين الأول/أكتوبر 2004، قبل بضعة ايام من اغتياله.
2. نفس المرجع أعلاه.
3. جيش الدفاع الإسرائيلي - نماذج 1، 2، 3، لصاروخ قسام.
4. مقابلة مع صلاح شحادة، قائد كتائب القسام، أيار/مايو 2002، "إسلام أون لاين"، 29 أيار/مايو 2002. اغتيل شحادة بعد شهرين.

الجواسيس

1. مقابلة مع شيمون بيريس، سي.إن.إن.، 24 تموز/يوليو 2002.
2. رويترز، 23 تموز/يوليو 2002.
3. وردت أسماء القتلى في بيان صحافي صادر عن الهلال الأحمر الفلسطيني، 23 تموز/يوليو 2002.
4. الناطق باسم البيت الأبيض آري فلايشر.
5. أجرى المؤلف المقابلة في السجن، 8 تشرين الثاني/نوفمبر 2002.
6. 8 تشرين الثاني/نوفمبر2002، مدينة غزّة.
7. يقع عيد الأضحي في عاشر أيام الحج إلى مكة، والحج إلى مكة هو من ركائز الإسلام الخمسة التي يتوق كل مسلم مؤمن إلى تأديتها في حياته.
8. مراجعة مجلة "الوسط"، 20 تموز/يوليو 1992.
9. في 13 تشرين الأول/أكتوبر 1984.
10. خلال شهر رمضان المبارك، الإفطار هو معاودة الأكل أي وقف الصوم عند مغيب الشمس.

الشهداء

1. في 27 كانون الثاني/يناير 2002.
2. في 14 كانون الثاني/يناير 2004.
3. شريط مصوّر بثه موقع حماس الإلكتروني، كانون الثاني/يناير 2004.
4. 23 تشرين الأول/أكتوبر 2003.
5. مقابلة مع المؤلف، رفح، شباط/فبراير 2005.
6. دنم واحد هو تقريباً ربع آكر أو ألف متر مربع.
7. أرقام منشورة على موقع الأونروا، www.un.org/unrwa.
8. القرآن، سورة 8:17، الأنفال.
9. أرقام صادرة عن الأونروا وفقاً لتقويم عامليها الاجتماعيين، تقرير"هيومن رايتس واتش": رفح 2004.

سياسات الشيخ

1. مقابلـــة صـــحافية اجـــراها المؤلف مع الشيخ احمد ياسين في مجلة "الوسط"، 18 كانون الثاني/يناير 1999.
2. السورة 5، الآية 20.
3. السورة 5، الآية 24.
4. نسخة عن نص كتبه الشيخ ياسين عن لقائه بطالب الصانع، نشر في "الوسط"، 1 تشرين الثاني/نوفمبر 1993.
5. وقف في الإسلام، يتمثل بوهب مبنى أو قطعة ارض لاهداف دينية أو خيرية.
6. عـــند اطـــلاق سراحه في العام 1998، قام الشيخ ياسين بجولة على عدد من الدول العربية شملت ايضاً جنوب افريقيا وطهران.
7. تم توقيع مذكرة واي ريفر في ميريلاند في الولايات المتحدة الأميركية من قبل رئـــيس الـــوزراء الإســـرائيلي نتانـــياهو والـــرئيس عرفات في 23 تشرين الأول/أكتوبـــر 1998، في حفـــل حضره ايضاً العاهل الأردني الملك حسين. نـــصت هـــذه المذكـــرة علـــى إعادة إحياء مسيرة السلام بين الفلسطينيين والإسرائيليين إثر تداعي اتفاقيات أوسلو وغزّة – أريحا.
8. 2 تشرين الثاني/نوفمبر 1998.
9. نسخة عن الرسالة حصل عليها المؤلف.
10. مقتطفات من رسائل الشيخ ياسين، "الوسط"، 1 تشرين الثاني/نوفمبر 1993.
11. بيان صادر عن حماس إطلع عليه المؤلف.
12. 21 آب/أغسطس 2003.
13. مقابلة مع المؤلف لمجلة "الوسط"، 18 كانون الثاني/يناير 1999.
14. مقابلة مع المؤلف، 27 تموز/يوليو 1998.
15. وقعـــت إسرائيل العديد من التعهدات التي قضت بانسحابها من الضفة الغربية والتي تراجعت عن تنفيذها.
16. مقابلة صدرت في "الحياة"، 4 كانون الأول/ديسمبر 2003.
17. 25 – 27 أيلول/سبتمبر 1997.

18. الحـــج، وهـــو الركن الخامس من أركان الإسلام، يتمثل بالتوجه إلى مكة في المملكـــة العـــربية السعودية. إنها مراسم سنوية تتم ما بين اليوم الثامن واليوم العاشر من الشهر الثاني عشر في الروزنامة الإسلامية القمرية.
19. تؤدى صلاة الفجر ما بين بزوغ الفجر وشروق الشمس.
20. وزارة الخارجية الإسرائيلية، الاحد 14 آذار/مارس 2004.
21. وكالة رويترز، 22 آذار/مارس 2004.
22. أطلقت هذه الحادثة الانتفاضة الاولى في 7 كانون الأول/ديسمبر 1987.
23. وكالة الصحافة الفرنسية.

علاقات حماس الدولية

1. مـــن اصل 16 مخيماً للاجئين الفلسطينيين في لبنان، تم تدمير 3 خلال الحرب الاهلـــية فـــيما أقفل مخيم رابع ونقل اللاجئون إلى مخيم آخر. تحصي منظمة "الأونروا" اليوم 12 مخيماً.
2. 2 آب/أغسطس 1990.
3. أقفل مكتب حماس في اليوم الذي تلا صدور هذا البيان، في 30 آب/أغسطس 1999.
4. تخضع قطر لحكم آل ثاني منذ أن غادر العثمانيون المنطقة في العام 1915، وهي الدولة الوحيدة عدا المملكة العربية السعودية التي يلتزم شعبها النهج الإسلامي الوهابي.
5. فرّ شاه إيران من البلاد في 16 كانون الثاني/يناير 1979. وعاد آية الله الخميني يوم الخميس 1 شباط/فبراير 1979.
6. 5 أيار/مايو 1974.
7. 17 آذار/مارس 1974.
8. دامت الحرب الاهلية في لبنان من 1975 حتى 1990.
9. التقريـــر المتعلق بالتنافس الاستراتيجي الإيراني-الإسرائيلي في الشرق الاوسط: "تحت غطاء الايديولوجيا"، 9 حزيران/يونيو 2006.

10. مــن "ياســر عرفات والجمهورية الإسلامية الإيرانية"، Iranian Voice.org، 2 أيار/مايو 2002.

11. الصورة من UPI نشرت في "نيوزويك"، 5 آذار/مارس 1979.

12. نقلا عن The New Republic Online.

13. التقريــر المتعلق بالتنافس الاستراتيجي الإيراني-الإسرائيلي في الشرق الاوسط: "تحت غطاء الايديولوجيا"، 9 حزيران/يونيو 2006.

14. أفشين مولاني وكريم سادجادبور، "برقية طهران: التغيير"، The New Republic Online، 10 تشرين الثاني/نوفمبر 2003.

15. نفس المرجع أعلاه.

16. نقلا عن الحكم الذي اصدرته محكمة طهران الإسلامية الثورية، القضية رقم 60 //1/2745TA، 22 آب/أغسطس 1972.

17. خدمة صحافة إيران الحرة، باريس، 24 أيلول/سبتمبر 1998.

18. أنــشئ الحرس الثوري الإيراني الذي اعتبرته الحكومة البريطانية في شباط/فبراير 1998، "قــوة عــسكرية"، في أعقاب ثورة 1979، وأوكلت اليه بدايةً مهمة ضــبط الامن الداخلي. كان يعتبر قوة منفصلة عن القوات العسكرية العادية ويــشمل قــوات برية وجوية وبحرية وقوة القدس للعمليات الخاصة والباسيج أي الجــيش الشعبي. راجع: "الكيان الإيراني: قوات الحرس الثوري الإيراني"، Iran Watch، 10 نيسان/أبريل 2004.

19. إن المؤتمــر الــذي يــضم 56 دولة إسلامية يهدف إلى تعزيز اواصر التضامن الإسلامي من خلال تنسيق الجهود الاجتماعية والاقتصادية والعلمية والثقافية. تحت شعار تفعيل نضال المسلمين، يتعهد المؤتمر إلغاء التمييز والفصل العنصريين لا سيما في ما يتعلق بمنظمة التحرير الفلسطينية.

20. مقابلة عبر الهاتف مع المؤلف، 1 كانون الأول/ديسمبر 1994.

مقابلة عبر الهاتف مع المؤلف، 5 كانون الأول/ديسمبر 1994.

21. رحلة ابراهيم غوشه إلى طهران، تشرين الأول/أكتوبر 1992.

23. مقابلة مع المؤلف، 5 كانون الأول/ديسمبر 1994.

24. أبو موسى، أبو صالح وقادري كلها "ألقاب حربية"ز
25. تحالف معارض لمسيرة السلام كما حددتها اتفاقيات أوسلو.
26. العلويـــون هـــم فئة من الشيعة تمثل 15% من الشعب وهي الاقلية الحاكمة في ســـوريا. أرقـــام مصدرها معهد واشنطن لسياسة الشرق الادنى، آذار/مارس 2005.
27. أوليفيـــيه كاري وجيرار ميشو، "الاخوان المسلمون: مصر وسوريا، 1928 - 1982"، باريس، منشوات غاليمار، 1983.
28. في "الحياة"، 4 آب/أغسطس 2006.
29. ملـــف "ديبكا" Debka File نسب هذه التسمية إلى اسحق رابين، 27 أيلول/ سبتمبر 2004.
30. القناة الثانية، إسرائيل، 26 أيلول/سبتمبر 2004.
31. الجزيرة، 27 أيلول/سبتمبر 2004.
32. بيان حماس، 27 أيلول/سبتمبر 2004.
33. في "الحياة"، 26 أيلول/سبتمبر 2004.
34. 31 آب/أغسطس 2004.
35. 25 حزيران/يونيو 2006.
36. راجع "جيزوزالم بوست"، 28 حزيران/يونيو 2006.
37. إذاعة الجيش الإسرائيلي، 28 حزيران/يونيو 2006.
38. جـــان شاوول، "اخفاق منظمة التحرير الفلسطينية السياسي وأصول حماس"، الجز الثاني، الموقع الإلكتروني World Socialist، 6 تموز/يوليو 2002.
39. البيان الصحافي الصادر عن وزارة العدل الأميركية، 20 آب/أغسطس 2004.
40. راجع "هآرتز"، 25 آذار/مارس 2005.
41. مكتب الشؤون العامة الأميركي، 21 آب/أغسطس 2003.
42. 22 كانون الأول/ديسمبر 2005.
43. 9 كانون الثاني/يناير 2006.
44. 2 تموز/يوليو 2006.

45. البيان الصحافي الصادر عن البيت الابيض، 4 كانون الأول/ديسمبر 2001.
46. موقع الجزيرة الإلكتروني، 12 نيسان/أبريل 2002.
47. "نيو يورك بوست"، 13 شباط/فبراير 2002.
48. تلفزيون سكاي، 17 تموز/يوليو 2002.
49. راجع هآرتز"، 3 تموز/يوليو 2003.
50. وزارة الخارجية الأميركية، الخميس 24 تموز/يوليو 2003.
51. شون ماك كورماك، الناطق باسم وزارة الخارجية الأميركية.
52. "نيو يورك تايمز"، 14 شباط/فبراير 2006.
53. "واشنطن بوست"، 30 نيسان/أبريل 2006.
54. مقابلة مع ابو مرزوق، "الوسط"، 19 أيار/مايو 1997.
55. راجع "الوسط"، 19 أيار/مايو 1997.
56. نقلا عن وكالة "اسوشياتد برس".
57. بيان صادر عن البيت الابيض، 24 حزيران/يونيو 2002.
58. مؤتمر صحافي في البيت الابيض، 26 كانون الثاني/يناير 2006.
59. مقابلة مع دنيس روس، أخبار "بي بي سي"، 26 كانون الثاني/يناير 2006.
60. مارتن إنديك، مقابلة عبر الهاتف مع المؤلف آب/أغسطس 2004.
61. مارك بيري وأليستير كروك (مديرا "منتدى الصراعات") "كيف نخسر الحرب على الإرهاب، الجزء الثاني: تسليم النصر للمتطرفين"، نقله Asia Times Online، نيسان/أبريل 2006.
62. مركز الاستخبارات والمعلومات عن الإرهاب، 29 تشرين الثاني/نوفمبر 2004.
63. جيفري غولدبيرغ، "استرتيجية الاستشهاد"، "نيو يوركر" 9 تموز/يوليو 2001.
64. المرجع نفسه اعلاه.
65. لائحة الاسلحة من "هآرتز"، 8 أيار/مايو 2001.
66. وزارة الخارجية الإسرائيلية، "إيران وإسرائيل كداعمين استراتيجيين للإرهاب الفلسطيني"، 30 أيلول/سبتمبر 2002.
67. في "الحياة" (لندن)، 10 أيار/مايو 2001.

68. أحـــد بنود اتفاق غزّة- اريحا في 4 أيار/مايو 1994 ينص تحت عنوان "الامن الخارجـــي" أن "إسرائيل تواصل فرض السيطرة الامنية والاشراف على دخول الأشـــخاص والآليات والاسلحة عند كل نقاط العبور. تفرض إسرائيل المراقبة والاشراف على البحر كما على المجال الجويّ".

69. في "هآرتز"، 17 تموز/يوليو 2001.

الارتباط بالقاعدة

1. ارقـــام صـــادرة عن وزارة الصحة كما نقلتها "الاهرام الاسبوعية"، 4 – 10 أيار/مايو 2006.
2. المسيحيون الاقباط في مصر يتبعون الروزنامة المسيحية الارثوذكسية.
3. إيمانويل ماركس، "البدو والمدن: تطور فكرة" (2003).
4. راجع "الاهرام الاسبوعية"، 1 – 7 أيلول/سبتمبر 2005.
5. راجع "الاهرام الاسبوعية"، 4 – 10 أيار/مايو، نقلا عن بيان صادر عن وزارة الداخلية.
6. ماركس، "البدو والمدن".
7. بيان صحافي، وزارة الداخلية المصرية، 30 نيسان/أبريل 2006.
8. بـــيان صحافي صادر عن القوات المتعددة الجنسيات والمراقبين الدوليين، روما، 27 نيسان/أبريل 2006.
9. راجع "الحياة"، 1 أيار/مايو 2006.
10. راجع "الشرق الاوسط"، 7 أيار/مايو 2006.
11. وفقاً للاسوشياتد برس، 9 أيار/مايو 2006.
12. دول القرن الافريقي تشمل السودان وكينيا والصومال وإثيوبيا.
13. .بموجب الاتفاق، وافقت إسرائيل على إعادة سيناء إلى مصر، الأمر الذي انجز في العام 1982.
14. راجع الـــ "صانداي تايمز"، 17 تموز م يوليو 2005.
15. في الـــ "غارديان"، 22 أيار/مايو 2004.
16. وكالة الصحافة الفرنسية/أسوشياتد برس/رويترز.

17. مقابلة مع محمد جمعة، منظمة مراقبة حقوق الانسان "هيومن رايتيس ووتش"، 13 تموز/يوليو 2004.

18. ماري كولفن، "صانداي تايمز"، 17 تموز/يوليو 2005.

19. راجع "صانداي تايمز"، 17 تموز/يوليو 2005.

20. ليس اسمه الحقيقي.

21. في شهر نيسان/أبريل 1982، عندما انسحبت إسرائيل من سيناء، رفضت مصر ان تسيطر على غزّة فيما اصرّت إسرائيل على إنشاء منطقة عازلة بين مصر وغزّة المحتلة.

22. وفقاً لـ Middle East Quarterly، صيف 2004.

23. ارقام صادرة عن المركز الفلسطيني لحقوق الانسان في أيلول/سبتمبر 2000 - 2004، نقلتها "الاهرام الاسبوعية"، 30 أيلول/سبتمبر - 6 تشرين الأول/ اكتوبر 2004.

24. آرييل شارون، بيان صحافي، 5 كانون الأول/ديسمبر 2002.

25. في "يديعوت احرونوت".

26. وكالة رويترز، 9 كانون الأول/ديسمبر 2002.

27. مجلة Executive Intelligence Review، 20 كانون الأول/ديسمبر 2002.

28. تعرضت المدمرة الأميركية "كول" لهجوم في 12 تشرين الأول/أكتوبر 2000، في مرفأ عدن، في شبه الجزيرة العربية، نفذه مهاجمون استقلوا قارباً صغيراً محملاً بالمتفجرات، في عملية استشهادية اسفرت عن مقتل 17 أميركياً وإصابة أكثر من 36 آخرين بجروح بليغة.

29. الدراسات المذكورة تضمنتها وثيقة صادرة عن جهاز الامن الوقائي الفلسطيني عام 2002، استناداً لمعلومات أدلى بها موقوفون فلسطينيون واطلع عليها المؤلف.

30. اخبار "بي بي سي"، 5 كانون الأول/ديسمبر 2002.

31. وثيقة سرية حصل عليها المؤلف من جهاز الامن الوقائي الفلسطيني، 2002.

32. لمـــزيد من الاطلاع، راجع كتاب أيان بلاك وبني موريس، "حروب إسرائيل السرية: تاريخ اجهزة الاستخبارات الإسرائيلية".
33. راجـــع "الـــصحيفة الدولـــية للاســـتخبارات والاســـتخبارات المـــضادة" International Journal of Intelligence and Counterintelligence، المجلد رقم 8، العدد 3 (1995).
34. راجع Washington Report on Middle East Affairs، تشرين الأول/أكتوبر – تـــشرين الـــثاني/نوفمـــبر 1999، نقلا عن عميل سابق في الموساد فيكتور استروفسكي في كتابه، "الجاب الآخر لخيبة الامل".
35. نقلا عن "أسوشياتد برس" واخبار "بي بي سي"، آذار/مارس 2006.
36. معهد واشنطن، "خرق القاعدة لغزّة"، 16 كانون الأول/ديسمبر 2005.
37. الجزيرة، 4 آذار/مارس 2006.
38. أخبار "بي بي سي العالم"، الاحد 5 آذار/مارس 2006.
39. بيان صحافي أدلى به سامي ابو زهري، 4 آذار/مارس 2006.
40. الاستخبارات العامة الفلسطينية، آذار/مارس 2006.
41. في اشارة إلى سوريا الجغرافية التي تشمل سوريا ولبنان وفلسطين وبعض مناطق الأردن.
42. 28 نيسان/أبريل 2006
43. راجـــع ستيفان أولف في Terrorism Focus، المجلد 1، العدد 5، تشرين الأول/ أكتوبر 2004.
44. متوفر على موقع التوحيد والجهاد الإلكتروني www.tawhed.ws/r?=2971.
45. الـــسلفية تمـــثل حركة تسعى للعودة إلى ما يعتبره المنتمون اليها أنقى اشكال الإسلام أي الإسلام كما مارسه النبي محمد والجيلان اللذان أتيا من بعده.
46. زكي شهاب، "داخل المقاومة في العراق".
47. قـــتل ابـــو مـــصعب الـــزرقاوي في 7 حزيران/يونيو 2006 في غارة جوية أميركية.
48. دولة إسلامية تحكمها الشريعة وتشمل كل البلاد المسلمة.

مستقبل حماس

1. 29 حزيران/يونيو 2006.
2. 26 حزيران/يونيو 2006.
3. في "الحياة"، 3 آب/أغسطس 2006.
4. وفقاً للاذاعة الإسرائيلية، 5 تموز/يوليو 2006.
5. أيضاً يوم الاحد 2 تموز/يوليو 2006.
6. مقابلة عبر الهاتف مع المؤلف، 6 آب/أغسطس 2006.
7. موجز عن جولة وزير الخارجية الزهار على عشر دول عربية، نيسان/أبريل – أيار/مايو 2006.
8. شلومو بن عامي في مقابلة مع "لو موند"، 12 آب/أغسطس 2006.
9. مقابلة مع المؤلف، 8 – 12 آب/أغسطس 2006.
10. مكتب ادارة القدس، 23 تموز/يوليو 2006.
11. 8 – 10 حزيران/يونيو 2004. الغاية من قمة الثمانية هي إتاحة الفرصة امام قادة الدول الصناعية الكبرى ليجتمعوا ويناقشوا القضايا التي يواجهها العالم في إطار غير رسمي.
12. سيرة إيليوت ابرامز كما صدرت على موقع International Relations Center Right
13. "الاقتـــراح الأميركـــي الجديد لمبادرة الشرق الاوسط الكبير: تقييم"، مذكرة الشرق الاوسط الصادرة عن مركز سابان، 10 أيار/مايو 2004.
14. 14 آب/أغسطس 2006.
15. نص صادر عن البيت الابيض، 14 آب/أغسطس 2004.
16. مقابلة عبر الهاتف مع المؤلف، 18 تموز/يوليو 2006.

الخاتمة

1. مقابلة عبر الهاتف مع المؤلف، 18 آب/أغسطس 2006.
2. مقابلة عبر الهاتف مع المؤلف، 18 آب/أغسطس 2006.
3. مقابلة عبر الهاتف مع المؤلف، 8 آب/أغسطس 2006.



الشيخ أحمد ياسين أثناء مقابلة مع الكاتب

أمام كنيسة المهد في مدينة بيت لحم



المؤلف مع اسماعيل هنية في منزله بعد ساعة قليلة من فوز حماس
في انتخابات العام 2006



المؤلف مع اسماعيل هنية في منزله بعد ساعة قليلة من فوز حماس
في انتخابات العام 2006 التشريعية

مع د. محمود الزّهّار أحد أبرز قيادات حماس في قطاع غزة

مؤسس حماس أثناء إحدى مقابلاته مع الكاتب

مؤسس حماس أثناء إحدى مقابلاته مع الكاتب

المؤلف أثناء تغطية نشاط جماهيري في مدينة خان يونس

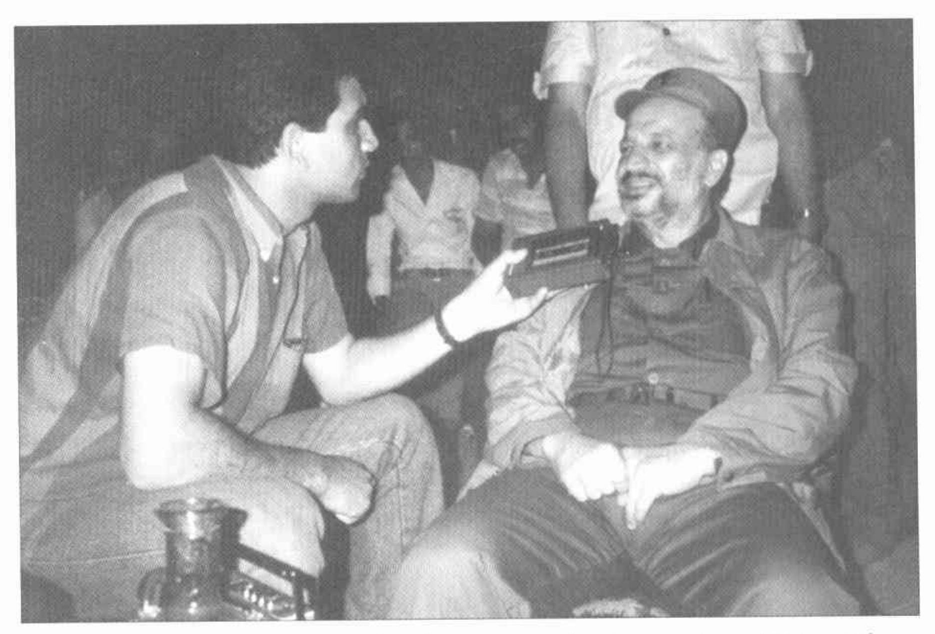
الكاتب أثناء تغطيته لمواجهات في رفح وتبدو في الخلف جرافة إسرائيلية تهدم منزلا لأسرة فلسطينية على الحدود الفلسطينية المصرية الأسرائيلية

رئيس وزراء حكومة حماس المقال السيد اسماعيل هنية يتحدث لـــ "زكي شهاب"

زكي شهاب في قارب صيد في بحر غزة

عند معبر أيرتز:شاهد على معاناة العمال الفلسطينيين في إسرائيل

زكي شهاب على تلة تشرف على المسجد الأقصى في القدس المحتلة



أثناء مقابلة مع الزعيم الفلسطيني ياسر عرفات أثناء حصار بيروت عام 1982

ما هي حقيقة حماس؟ لقد بات هذا السؤال الأكثر إلحاحاً في منطقة الشرق الأوسط منذ الانتصار المذهل الذي حققته حركة حماس في الانتخابات التشريعية التي جرت في العام 2006. كيف تعمل فعلياً أجهزتها؟ إلى أي مدى هي حقاً «إسلامية» الطابع والهوية؟ من هي تلك الشخصيات المتخفية وراء البذات والكوفيات المرقطة؟

مستنداً إلى معلومات فريدة من نوعها استقاها من مصادره الخاصة، يعرض الصحافي الفلسطيني الأصل زكي شهاب، في هذا الكتاب الجريء للغاية، لظروف نمو حماس وتطورها وتغاضي إسرائيل عن تأسيسها، لأنها كانت تسعى إلى إضعاف حركة فتح. ويرفع شهاب النقاب عن مدى اختراق أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية لصفوف الحركة، وحتى على أعلى مستويات قياداتها. كما أنه، ومن خلال إجرائه مقابلات مع شخصيات مهمة رئيسية، مثل الشيخ أحمد ياسين والدكتور عبد العزيز الرنتيسي وآخرين يلقي الضوء على طبيعة حركة حماس من الداخل، ويكشف للمرة الأولى، كيفية اختيار «الشهداء» وتحضيرهم لتنفيذ عملياتهم. يخوض شهاب أيضاً في حيثيات علاقة الحركة مع تنظيمات أخرى مثل حزب الله والقاعدة، كاشفاً بذلك ارتباطات مثيرة للدهشة. يسلك شهاب مسارات الأنفاق في غزة، ويحتسي الشاي مع أفراد عائلات القادة العسكريين، ويعيد إحياء علاقات قديمة مع أشخاص عرفهم في لبنان، فيجمع فصول حقيقة لم يسبق لأحد أن عرف تفاصيلها: حماس من الداخل.

تُرجم كتاب «حماس من الداخل» إلى لغات عدة وتولت نشره عالمياً دار «آي بي توريس» في لندن ودار «نيشن بوكس» في نيويورك.

«إن هذا الكتاب هو المحصلة الأكثر شمولاً على الاطلاق... والأفضل وأسهل ما يمكن قراءته».

– **جون سنو**، القناة الرابعة في التلفزيون البريطاني

«إن فهم طبيعة حماس أمر أساسي لفهم قضية الشرق الأوسط. زكي شهاب هو أحد أفضل معلقينا وأكثرهم اطلاعاً على القضايا العربية. إن هذا الكتاب ضروري للقارئ المتخصص كما للقارئ العادي. إننا نشدّد على ضرورة قراءته».

– **جون سيمبسون**، محرر الشؤون الدولية، بي. بي. سي

«كتاب زاخر بالإضاءات والتفاصيل. يرشد القارئ إلى التقلبات التي جعلت حركة حماس تخرج من رحم المجتمع الفلسطيني لتحتل موقعاً محورياً على الساحة السياسية في منطقة الشرق الأوسط. يتمتع شهاب بقدرة مميزة لكشف النقاب عن هذه القصة بكل أبعادها وأعماقها. وهو يحذر: لا يمكن إلغاء حركة حماس ما لم يتم وضع حدّ نهائي للاحتلال. وما لم يتحقق هذا الأمر، فسيبقى مهيمناً شبح حركات أخرى أكثر تطرفاً وعنفاً».

– **الدكتورة. روز ماري هوليس**، مديرة الأبحاث في المعهد الملكي للعلاقات الدولية

«زكي شهاب، الصحافي الفلسطيني المرموق للغاية، الذي ولد في مخيم للاجئين، يتمتع بكل المقومات التي تخوّله كتابة هذه الرواية. فهو ينجح، من خلال مقابلات صحافية أجراها مع قادة حماس ومصادر فلسطينية أخرى، برسم صورة دقيقة وحيّة لحركة حماس واستشهادييها، ولعلاقة إيران بحرب حماس ضد حركة فتح. من خلال قراءة هذا الكتاب، يتبيّن للقارئ أن شهاب تمكن من الاطلاع على بعض من أدق الملفات العائدة لمنظمة التحرير الفلسطينية».

– **ديفيد اغناتيوس**، واشنطن بوست



زكي شهاب من أحد أهم الصحافيين العرب. واكب أحداث منطقة الشرق الأوسط طوال 30 عاماً، وأمّن تغطيتها لجانب وسائل إعلام عربية مثل «الحوادث»، و«المجلة»، و«الكفاح العربي»، و«الشرق الأوسط» و«الحياة»، وغربية مثل «الغارديان» و«سي إن إن» و«قناة الأخبار الرابعة»، و«بي بي سي»، و«نيو ستيتسمن»، و«واشنطن بوست». يشغل حالياً منصب مدير مكتب صحيفة «الحياة» والفضائية العربية «إل بي سي» في العاصمة البريطانية. ومن مؤلفاته أيضاً: «داخل المقاومة في العراق».

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com
ص. ب. 5574-13 شوران 2050-1102 بيروت – لبنان
هاتف 785107/8 (1-961+) فاكس 786230 (1-961+)
البريد الإلكتروني asp@asp.com.lb



